بدائع التفسير

الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية

جمعه ووثق نصوصه وخرج أحاديثه

يسري السيد محمد

المجلد الثاني

دار ابن الجوزي

الطبعة الأولى

ربيع الثاني ١٤١٤هـ
١٩٩٣م



دار ابن الجوزي

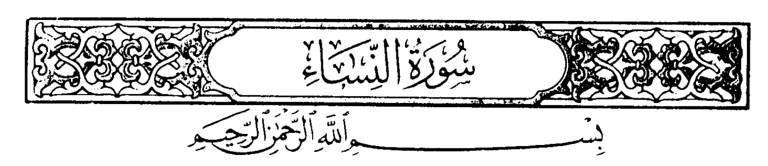
للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية
الدمام : شارع ابن خلدون - ت : ٨٤٢٨١٤٦
ص.ب ٢٩٨٢، - الرمز البريدي : ٣١٤٦١ - فاكس : ٨٤١٢١٠٠
الاحساء : الهفوف - شارع الجامعة - ت، ٥٨٢٣١٢٢
الرياض - ت : ٤٣٥١٠٠٢
جدة - ت : ٦٥١٦٥٤٩

بدائع التفسير

الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية



سُورَةُ النِّسَاءِ



﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ [النساء : ٣] .

قال الشافعي[1] : « أن لا تكثر عيالكم . فدل على أن قلة العيال أولى » .

قيل : قد قال الشافعي ذلك ، وخالف جمهور المفسرين من السلف والخلف ، وقالوا : معنى الآية : ذلك أدنى أن لا تجوروا ولا تميلوا . فإنه يقال : عال الرجل يعول عولا إذا مال وجار . ومنه : عول الفرائض . لأن سهامها زادت . ويقال : عال يعيل عيلة إذا احتاج . قال تعالى : (وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله) [التوبة : ٢٨] .

وقال الشاعر[2] :

وما يدري الفَقِيرُ مَتى غناهُ ۞ وَمَا يَدْرِي الغَنيُّ مَتى يَعيلُ

أي متى يحتاج ويفتقر . وأما كثرة العيال فليس من هذا ، ولا من هذا ، ولكنه من أفعل . يقال : أعال الرجل يعيل ، إذا كثر عياله . مثل ألبن وأتمر إذا صار ذا لبن وتمر . هذا قول أهل اللغة . قال الواحدي في بسيطه[3] : ومعنى

(١) انظر توجيه هذا القول عن الشافعي رحمه الله تعالى في فتح القدير للشوكاني (٤٢١/١) ، والزمخشري (٢٤٥/١) .

(٢) قائله هو « أحيحة بن الجلاح » انظر هامش (٢،١) من تفسير الطبري (٥٤٩/٧) تحقيق آل شاكر .

(٣) الإمام العلامة ، الأستاذ علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي ، الشافعي ، صاحب التفسير ، وإمام علماء التأويل ، صنّف التفاسير الثلاثة « البسيط » و « الوسيط » و « الوجيز » ... وغيرها من الكتب

تعولوا : تميلوا وتجوروا ، عن جميع أهل التفسير واللغة . وروي ذلك مرفوعا . روت عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم[١] « أن لا تعولوا » قال: « لا تجوروا » وروي « أن لا تميلوا » قال: وهذا قول ابن عباس والحسن وقتادة والربيع والسدي وابن مالك وعكرمة والفراء والزجاج وابن قتيبة وابن الأنباري.

قلت : ويدل على تعين هذا المعنى من الآية ، وإن كان ماذكره الشافعي لغة حكاه الفراء عن الكسائي – قال : ومن الصحابة من يقول : عال يعول إذا كثر عياله . قال الكسائي : وهي لغة فصيحة سمعتها من العرب ، لكن يتعين الأول لوجوه :

أحدها : أنه المعروف في اللغة الذي لا يكاد يعرف سواه ، ولا يعرف : عال يعول، إذا كثر عياله : إلا في حكاية الكسائي ، وسائر أهل اللغة على خلافه.

الثاني : أن هذا مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولو كان من الغرائب ، فإنه يصلح للترجيح .

الثالث : أنه مروي عن عائشة وابن عباس ، ولم يعلم لهما مخالف من المفسرين وقد قال الحاكم أبو عبد الله : تفسير الصحابة عندنا في حكم المرفوع .

الرابع : أن الأدلة التي ذكرناها على استحباب تزوج الولود وإخبار النبي[٢] صلى الله عليه وسلم أنه يكاثر بأمته الأمم يوم القيامة يرد هذا التفسير .

= النافعة .
سير أعلام النبلاء (٣٣٩/١٨) .

(١) رواه ابن حبان (١٣٤/٦) .
وقال الحافظ ابن حجر: «رواه ابن حبان، وإبراهيم الحربي، والطبري، وابن أبي حاتم، وغيرهم... عن عائشة ، قال ابن أبي حاتم : والصواب موقوف » .
انظر الكافي الشاف في تخريج الكشاف (٣٨) رقم (٣١٧) وتفسير ابن كثير (٤٧٦/١) ، والدر المنثور (٤٣٠/٢) .

(٢) عن معقل بن يسار قال : « جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إني أصبت امرأة ذات جمال وحسب وأنها لا تلد أفأتزوجها ؟ قال : لا ، ثم أتاه الثانية فنهاه ، ثم أتاه الثالثة فقال : « تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم » . =

الخامس : أن سياق الآية إنما هو في نقلهم مما يخافون من الظلم والجور فيه إلى غيره . فإنه قال في أولها : (وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) فدلهم سبحانه على ما يتخلصون به من ظلم اليتامى ، وهو نكاح ما طاب لهم من النساء البوالغ ، وأباح لهم منهن أربعا ، ثم دلهم على ما يتخلصون به من الجور والظلم في عدم التسوية بينهن . فقال : ﴿ **فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم** ﴾ ثم أخبر سبحانه أن الواحدة وملك اليمين أدنى إلى عدم الميل والجور. وهذا صريح في المقصود.

السادس : أنه لا يلتئم قوله : ﴿ **فإن خفتم أن لا تعدلوا** ﴾ في الأربع فانكحوا واحدة أو تسروا بما شئتم بملك اليمين . فإن ذلك أقرب إلى أن تكثر عيالكم ، بل هذا أجنبي من الأول . فتأمله .

السابع : أنه من الممتنع أن يقال لهم : إن خفتم ألا تعدلوا بين الأربع فلكم أن تتسروا بمائة سرية أو أكثر ، فإنه أدنى ألا تكثر عيالكم .

الثامن : أن قوله : ﴿ **ذلك أدنى ألا تعولوا** ﴾ تعليل لكل واحد من الحكمين المتقدمين وهما نقلهم من نكاح اليتامى إلى نكاح النساء البوالغ ، ومن نكاح الأربع إلى نكاح الواحدة أو ملك اليمين ، ولا يليق تعليل ذلك بقلة العيال .

التاسع : أنه سبحانه قال : ﴿ **فإن خفتم ألا تعدلوا** ﴾ ولم يقل وإن خفتم أن تفتقروا أو تحتاجوا ، ولو كان المراد قلة العيال لكان الأنسب أن يقول ذلك .

العاشر : أنه تعالى إذا ذكر حكماً منهياً عنه وعلل النهي أو أباح شيئاً وعلل عدمه بعلة ، فلابد أن تكون العلة مضادة لضد الحكم المعلل ، وقد علل سبحانه وتعالى إباحة نكاح غير اليتامى والاقتصار على الواحدة أو ملك اليمين ؛

= رواه أبو داود (٤٧/٦) في النكاح ، باب : النهي عن تزويج من لم يلد من النساء .
والنسائي (٦٥/٦،٦٦) في النكاح ، باب : كراهية تزويج العقيم .
وابن حبان (٣٠٢) موارد رقم (١٢٢٨) في النكاح ، باب : ما جاء في التزوج واستحبابه .

بأنه أقرب إلى عدم الجور ، ومعلوم أن كثرة العيال لا تضاد عدم الحكم المعلل فلا يحسن التعليل به[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ [النساء : ٣] .

قد ذكر أئمة التفسير في المناسبة وجوهاً :

أحدها : ماروي عن عائشة[2] رضي الله عنها قالت : هذا في اليتيمة تكون عند وصيها فيعجبه حسنها ومالها فيمنعها عن الأزواج ليتزوجها بمهر دون مهر مثلها ويحوز مالها ، فأعلم الله المؤمنين أن من خشي منهم أن يقع في مثل ذلك مع اليتامى فلينكح ما طاب له من النساء من غير اليتامى . وقيل : المعنى : فإن كنتم من التقوى على حد تخشون أن تلوا مال اليتيم خشية عدم الإقساط فانكحوا ما طاب لكم من النساء يعني اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً ؛ فإن من كان بهذه المثابة من خوف الله والتقوى لا يخشى عليه من الجور والميل وعدم العدل بين نسائه بدليل ما عقبه به من قوله : ﴿ **فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة** ﴾ وقد ذكر أئمة التفسير في الجمع غير ذلك اقتصرنا على هذا خشية التطويل[3] .

قول الله تعالى في آية الفرائض : ﴿ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ﴾ [النساء : ١٢] .

فإنه سبحانه وتعالى إنما قدم على الميراث وصية من لم يضار الورثة ، فإذا كانت الوصية وصية ضرار كانت حراماً ، وكان للورثة إبطالها ، وحرم على

---

(١) تحفة الودود (١٩-٢١) .

(٢) رواه البخاري في مواضع منها : (٨٧/٨) في التفسير : من سورة النساء : باب : (وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى) .

ومسلم (٨٧٠/٥) في التفسير .

وانظر الطبري (٥٣١/٧) طبعة المعارف .

(٣) الفوائد المشوق ١٧٥ .

الموصى له أخذ ذلك بدون رضا الورثة ، وأكد سبحانه وتعالى ذلك بقوله : ﴿ **تلك حدود الله فلا تعتدوها** ﴾ .

وتأمل كيف ذكر سبحانه وتعالى الضرار في هذه الآية دون التي قبلها؛ لأن الأولى تضمنت ميراث العمودين، والثانية تضمنت ميراث الأطراف من الزوجين، والإخوة.

والعادة أن الميت قد يضار زوجته وإخوته ، ولا يكاد يضار والديه وولده .

والضرار نوعان : جنف ، وإثم فإنه قد يقصد الضرار ، وهو الإثم ، وقد يضار من غير قصد ، وهو الجنف ، فمن أوصى بزيادة على الثلث فهو مضار ، قصد أو لم يقصد ، فللوارث رد هذه الوصية ، وإن أوصى بالثلث فما دونه ، ولم يعلم أنه قصد الضرار وجب إمضاؤها فإن علم الموصى له أن الموصي إنما أوصى ضراراً ؛ لم يحل له الأخذ ولو اعترف الموصي إنه إنما أوصى ضراراً ، لم تجز إعانته على إمضاء هذه الوصية .

وقد جوز الله سبحانه وتعالى إبطال وصية الجنف والإثم ، وأن يُصلح الوصي أو غيره بين الورثة والموصى له فقال تعالى : (فمن خاف من موص جنفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه) [البقرة : ١٨١] وكذلك إذا ظهر للحاكم أو الوصيّ الجنف أو الإثم في الوقف ومصرفه ، أو بعض شروطه فأبطل ذلك ، كان مصلحاً لا مفسداً . وليس له أن يعين الواقف على إمضائه الجنف والإثم ، ولا يصحح هذا الشرط ، ولا يحكم به فإن الشارع قد رده ، وأبطله فليس له أن يصحح ما رده الشارع وحرمه ، فإن ذلك مضادة له ومناقضة[١] .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ [النساء : ١٧] .

قال أبو العالية : سألت أصحاب محمد عن قوله : (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) فقالوا[٢]: كل من عصى الله

(١) إغاثة اللهفان (٣٧٧/١، ٣٧٨) .
(٢) تفسير الطبري (٢٩٨/٤) .

فهو جاهل . ومن تاب قبل الموت فقد تاب من قريب . وقال قتادة : أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن كل ما عُصي الله به فهو جهالة عمداً كان أو لم يكن ، وكل من عصى الله فهو جاهل .

وقال مجاهد : من شيخ أو شاب فهو بجهالة . وقال : من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع عن خطيئته . وقال هو وعطاء : الجهالة : العمد .

وقال مجاهد : من عمل سوءاً خطأً أو عمداً فهو جاهل حتى ينزع منه ذكر هذه الآثار « ابن أبي حاتم » ثم قال : وروي عن قتادة وعمرو بن مرة والثوري نحو ذلك خطأً أو عمداً . وروي عن مجاهد والضحاك : ليس من جهالته أن لا يعلم حلالاً ولا حراماً ولكن من جهالته حين دخل فيه .

وقال عكرمة : الدماء كلها جهالة ومما يبين ذلك قوله : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وكل من خشيه فأطاعه بفعل أوامره وترك نواهيه فهو عالم[1]...

وقال : و « الجهالة » هاهنا : جهالة العمل ، وإن كان عالماً بالتحريم . أما التوبة من قريب فجمهور المفسرين : على أنها التوبة قبل المعاينة . قال عكرمة : قبل الموت .

وقال الضحاك : قبل معاينة ملك الموت .

وقال السدي والكلبي : أن يتوب في صحته قبل مرض موته .

وفي المسند[2] وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» ففي نسخة دراج – أبي الهيثم –

---

(١) شفاء العليل (١٧١،١٧٢) .

(٢) رواه الإمام أحمد بسند صحيح برقم (٦١٦٠) طبعة المعارف .
والترمذي وحسنه (٥١١/٥) في الدعوات باب : فضل التوبة والاستغفار .
وابن حبان (٢٤٤٩) الموارد .
وابن ماجه برقم (٤٢٥٣) .
والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢٥٧/٢) .

عن أبي سعيد مرفوعا[١] : « إن الشيطان قال: وعزتك يارب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم » . فقال الرب عز وجل : « وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لا أزال أغفر لهم ما استغفروني » .

فهذا شأن التائب من قريب . وأما إذا وقع في السياق فقال : إني تبت الآن لم تقبل توبته . ذلك لأنها توبة اضطرار لا اختيار ، فهي كالتوبة بعد طلوع الشمس من مغربها ، ويوم القيامة ، وعند معاينة بأس الله[٢] .

قال تعالى : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ [النساء : ١٩] .

وقد استشكل بعض المفسرين معنى وراثتهم النساء المنهي عنها ، حتى قال : المعنى : لا يحل لكم أن ترثوا نكاحهن ، لترثوا أموالهن كرهاً .

قال : وفي المراد بميراثهن وجهان :

أحدهما : ما يصل إلى الأزواج من أموالهن بالموت دون الحياة على ما يقتضيه الظاهر من لفظ الميراث .

الثاني : الوصول إلى أموالهن في الحياة وبعدها ، وقد يسمى ما وصل في الحياة ميراثاً كما قال تعالى : (الذين يرثون الفردوس) [المؤمنون : ١١] وهذا تكلف وخروج عن مقتضى الآية . بل الذين مُنعوا من أن يجعلوا حق الزوجية حقاً موروثاً ينتقل إلى الوارث كسائر حقوقه ، وهذه كانت شبهتهم ، أن حق الزوجية انتقل إليهم من مورثهم ، فأبطل الله ذلك وحكم بأن الزوجية لا تنتقل بالميراث إلى الوارث ، بل إذا مات الزوج كانت الزوجة أحق بنفسها ، ولم يرث بضعها أحد ، وليس البضع كالمال ، فينتقل بالميراث .

---

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٢٩/٣) .
وأبو يعلى (٤٥٨/٢) .
والحاكم : (٢٦١/٤) وصححه ووافقه الذهبي .
وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (١٠٤) .

(٢) مدارج السالكين (٢٨٣/١-٢٨٤) .

واستنبط بعضهم من الآية أنه لا يحل للرجل أن يمسك امرأته ولا أرب له فيها ، طمعاً أن تموت فيرث مالها ، وفيه نظر . والله أعلم[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

وهذا دليل على أنه إذا عضلها لتفتدي نفسها منه ، وهو ظالم لها بذلك ، لم يحل له أخذ ما بذلته له ولا يملكه هو[٢] .

وقال رحمه الله تعالى :

فحرم سبحانه وتعالى أن يأخذ منها شيئًا مما آتاها ، إذا كان قد توسل إليه بالعضل[٣] .

قوله تعالى : **﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف ﴾** [النساء : ٢٢] . **فهذا من الاستثناء السابق ، زمان المستثنى فيه زمان المستثنى منه فهو غير داخل فيه فمن لم يشترط الدخول فلا يقدر شيئاً ومن قال لابد من دخوله قدر دخوله في مضمون الجملة الطلبية بالنهي ؛ لأن مضمون قوله** تعالى : **﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم ﴾ الإثم والمؤاخذة أي أن الناكح ما نكح أبوه آثم مؤاخذ إلا ما قد سلف قبل النهي وإقامة الحجة فإنه لا تتعلق به المؤاخذة وأحسن من هذا عندي أن يقال : لما نهى سبحانه عن نكاح منكوحات الآباء ؛ أفاد ذلك أن وطئهن بعد التحريم لا يكون نكاحاً البتة بل لا يكون إلا سفاحاً فلا يترتب عليه أحكام النكاح من ثبوت الفراش ولحوق النسب بل الولد فيه يكون ولد زنية وليس هذا حكم ما سلف قبل التحريم فإن الفراش كان ثابتاً فيه والنسب لاحق فأفاد الاستثناء فائدة جليلة عظيمة وهي أن ولد من نكح ما نكح أبوه قبل التحريم ثابت النسب وليس ولد زنا ، والله أعلم[٤] .**

---

(١) تهذيب سنن أبي داود (٣/٣٥،٣٦) .
(٢) إغاثة اللهفان (١/٣٧٨) .
(٣) إغاثة اللهفان (١/٣٧٨) .
(٤) بدائع الفوائد (٣ / ٦٨ - ٦٩) .

قوله تعالى : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾
[النساء : ٢٤].

وهذا من أشكل مواضع الاستثناء لأن مملوكته إذا كانت محصنة إحصان التزويج فهي حرام عليه . والإحصان هاهنا إحصان التزويج بلا ريب إذ لا يصح أن يراد به إحصان العفة ولا إحصان الحرية ولا إحصان الإسلام فهو إحصان التزويج قطعاً فكيف يستثنى من المحرمات به لمملوكه ؟ فقال كثير من الناس : الاستثناء هاهنا منقطع ، والمعنى : لكن ما ملكت أيمانكم فهن لكم حلال ورد هذا بأنه استثناء من موجب والانقطاع إنما يقع حيث يقع التفريغ . ورد هذا الرد بأن الانقطاع يقع في الموجب وغيره . قال تعالى : (فبشرهم بعذاب أليم إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وقالت طائفة : الاستثناء على بابه متصل وما ملكت أيمانكم مستثنى من المزوجات ثم اختلفوا فقالت طائفة من الصحابة منهم ابن عباس وغيره من التابعين أنه إذا زوج أمته ثم باعها كان بيعها طلاقاً وتحل للسيد لأنها ملك يمينه واحتج لهم بالآية . ورد هذا المذهب بأمور : أحدها : أنه لو كان صحيحاً لكان وطؤها حلالاً لسيدها إذا زوجها لأنها ملك يمينه فكما اجتمع ملك سيدها لها وحلها للزوج فكذلك يجتمع ملك مشتريها لها وحلها للزوج وتناول اللفظ لهما واحد . الثاني : أن المشتري خليفة البائع فانتقل إليه بعقد الشراء ما كان يملكه بائعها وهو كان يملك رقبتها مسلوبة منفعة البضع مادامت مزوجة وينتقل إلى المشتري ما كان يملكه فملكها المشتري مسلوبة منفعة البضع فإذا فارقها زوجها رجع إليه البضع كما كان يرجع إلى بائعها كذلك فهذا محض الفقه والقياس . الثالث : أنه قد ثبت في الصحيحين[1] أن عائشة رضي الله عنها اشترت بريرة وكانت مزوجة فعتقتها وخيرها النبي صلى الله عليه وسلم ، ولو بطل النكاح بالشراء لم يخيرها وهذا مما أخذ الأئمة الأربعة وغيرهم فيه برواية ابن عباس وتركوا رأيه فإنه راوي الحديث وهو ممن يقول : بيع الأمة طلاقها .

---

(١) رواه البخاري في مواضع منها : (٥/٢٢٢) في المكاتب ، باب : ما يجوز من شروط المكاتب . ومسلم (٣/٧٣٣) في العتق ، باب : بيان أن الولاء لمن أعتق .

وقالت طائفة أخرى : الآية مختصة بالسبايا . قال أبو سعيد الخدري : نزلت في سبايا أوطاس قالوا : فأباح الله تعالى للمسلمين وطء ما ملكوه من السبي وإن كن محصنات ثم اختلف هؤلاء متى يباح وطء المسبية ، فقال الشافعي وأبو الخطاب وغيرهما : يباح وطؤها إذا تم استبراؤها سواء كان زوجها موجوداً أو مفقوداً واحتجوا بثلاث حجج : إحداها : أن الله سبحانه أباح وطء المسبيات بملك اليمين مستثنياً لهن من المحصنات . الثانية : ما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] يوم حنين بعث جيشاً إلى أوطاس فلقي عدواً فقاتلوهم فظهروا عليهم وأصابوا لهم سبايا فكأن ناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم تحرجوا من غشيانهن من أجل أزواجهن من المشركين فأنزل الله عز وجل فى ذلك : ﴿ **والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم** ﴾ أي فهن لكم حلال إذا انقضت عدتهن . وفي الترمذي[٢] عن أبي سعيد : أصبنا سبايا يوم أوطاس لهن أزواج في قومهن فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت : ﴿ **والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم** ﴾ وهذا صريح في إباحتهن وإن كن ذوات أزواج وفي الترمذي ومسند أحمد من حديث العرباض بن سارية « أن النبي صلى الله عليه وسلم[٣] حرم وطء السبايا حتى يضعن ما في بطونهن » فهذا التحريم إلى غاية

---

(١) رواه مسلم (٦٣٦/٣،٦٣٧) في الرضاع باب : جواز وطء المسبية بعد الاستبراء .
وانظر التفصيل في تخريج هذا الحديث لعلامة العصر الشيخ أحمد شاكر – رحمه الله – في حاشيته على الطبري (١٥٣/٨–١٥٥) .

(٢) رواه الترمذي (٢١٨/٥–٢١٩) في التفسير ، باب : من سورة النساء .
وانظر التعليق السابق .

(٣) رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (١٢٧/٤) .
رواه الترمذي (١١٢/٤،١١٣) في السير ، باب : ما جاء في كراهية وطء الحبالى من السبايا وقال : حديث غريب ، والعمل عليه عند أهل العلم .
ووقع في الأصل (بدائع الفوائد) المنقول عنه تفسير هذه الآية « عياض بن سارية » وهو تصحيف . والصواب « العرباض بن سارية » رضي الله عنه .

وهي وضع الحمل فلابد أن يحصل الحل بعد الغاية ولو كان وجود أزواجهن مانعاً من الوطء لكان له غايتان : إحداهما : عدم الزوج ، والثاني : وضع الحمل وهو خلاصة ظاهر الحديث . قالوا ولأن ملك الكافر الحربي البضع لم يبق له حرمة ولا عصمة إذ قد ملك المسلمون عليه ما كان يملكه فملكوا رقبة زوجته فكيف يقال ببقاء العصمة في ملك البضع لا سيما والمسلمون يستحقون ملك رقبته وأولاده وسائر أملاكه فما بال ملك البضع وحده باقياً على العصمة فهذا لا نص ولا قياس ولا معنى قالوا : فقد أذن النبي صلى الله عليه وسلم في وطء السبايا بعد انقضاء عدتهن مطلقاً ولو كان بقاء الزوج مانعاً لم يأذن في وطئهن إلا بعد العلم بموته ، وهذا المذهب كما تراه قوة وصحة . وقال أصحابنا القاضي وغيره : إنما يباح وطؤها . قالوا : لأنها إذا سبيت وحدها فبقاء الزوج مجهول والمجهول كالمعدوم فنزلت منزلة من لا زوج لها فحل وطؤها ولا كذلك إذا كان زوجها معها ثم أوردوا على أنفسهم سؤالاً وهو إذا سبيت وحدها وعلم بقاء زوجها في دار الحرب وهذا سؤال لا محيد لهم عنه ولا ينجيهم منه إلا قولهم بالحل وإن علم بقاء الزوج استناداً إلى زوال عصمة النكاح بالسبي فإنهم إذا أجابوا بالتزام التحريم خالفوا النصوص خلافاً بيناً وإن أجابوا بالحل مع تحقيق بقاء الزوج نقضوا أصلهم حيث أسندوا الحل إلى كون المسبية خالية من الزوج تنزيلاً للمجهول منزلة المعدوم ، فقول أبي الخطاب أفقه وأصح وعليه تنزل الآية والأحاديث ويظهر به أن الاستثناء متصل ، وأن الله تعالى أباح من المحصنات من سباها المسلمون (فإن قيل) فعلى ما قررتموه يزول الإحصان بالسبي فلا تدخل في المحصنات فيجيء الانقطاع في بالاستثناء (قيل) لما كانت محصنة قبل السبي صح شمول الاسم لها فأخرجت الاستثناء (فإن قيل) فما تقولون في الأمة المزوجة إذا بيعت فإنها محصنة قد ملكت نفسها فهل هي مخصوصة من هذا العموم أو غير داخلة فيه (قيل) هاهنا مسلكان للناس أحدهما أنها خصت من العموم بالأدلة على أن البيع لا يفسخ النكاح وإن الفرج لا يكون حلالاً لشخصين في وقت واحد (والمسلك الثاني) أنها لم تدخل في المستثنى منه لأن السيد إذا زوجها فقد أخرج منفعة البضع عن ملكه فإذا باعها فقد انتقل إلى المشتري ما كان للبائع فملكها

المشتري مسلوبة منفعة البضع فلم تدخل هذه المنفعة في ملكه بعقد البيع فلم تتناولها الآية وهذا المسلك ألطف وأدق من الأول . والله أعلم[١] .

قال تعالى : ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٢٨] .

قال طاوس ومقاتل وغيرهما[٢] : لا يصبر عن النساء .

وقال الحسن : هو خلق من ماء مهين .

وقال الزجاج : ضعف عزمه على قهر الهوى .

والصواب أن ضعفه يعم هذا كله ، وضعفه أعظم من هذا وأكثر : فإنه ضعيف البنية ، ضعيف القوة ، ضعيف الإرادة ، ضعيف العلم ، ضعيف الصبر ، والآفات إليه مع هذا الضعف أسرع من السيل في صيب الحدور ، فبالاضطرار لابد له من حافظ معين يقويه ويعينه وينصره ويساعده ، فإن تخلى عنه هذا المساعد المعين فالهلاك أقرب إليه من نفسه .

وخلقه على هذه الصفة هو من الأمور التي يحمد عليها الرب سبحانه ويثنى عليه بها ، وهو موجب حكمته وعزته ، فكل ما يحدث من هذه الخلقة عن صفات كماله من غناه وعلمه وعزته وحكمته ورحمته ، وبالنسبة إلى العبد تنقسم إلى خير وشر وحسن وقبيح ، كما تكون بالنسبة إليه طاعة ومعصية وبراً وفجوراً ، بل أخص من ذلك ، مثل كونها صلاة وصياماً وحجاً وزناً وسرقة وأكلاً وشرباً ، إذ ذاك موجب حاجته وظلمه وجهله وفقره وضعفه ، وموجب أمر الله له ونهيه ، ولله سبحانه الحكمة البالغة والنعمة السابغة والحمد المطلق على جميع ما خلق وأمر به ، وعلى ما لم يخلقه مما لو شاء لخلقه . وعلى توفيقه الموجب لطاعته وعلى خذلانه الموقع في معصيته ، وهو سبحانه سبقت رحمته غضبه ، وكتب على نفسه الرحمة ، وأحسن كل شيء خلقه ، وأتقن كل ما صنع[٣] .

---

(١) بدائع الفوائد (٣/٧٣-٧٦) .

(٢) تفسير الطبري (٨/٢١٥،٢١٦) ط المعارف .

(٣) طريق الهجرتين (١٠١) وروضة المحبين (٢٠١) .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ [النساء : ٢٩] .

فهذا استثناء منقطع تضمن نفي الأكل بالباطل وإباحة الأكل بالتجارة الحق ومن قدر دخوله في الأول ، قدر مستثنى منه عاماً ، أي : لا تأكلوا أموالكم بينكم بسبب من الأسباب إلا أن تكون تجارة أو يقدر بالباطل ولا بغيره إلا بالتجارة ولا يخفى التكلف على هذا التقدير بل هو فاسد إذ المراد بالنهي الأكل بالباطل وحده وقرىء برفع التجارة ونصبها فالرفع على التمام والنصب على أنها خبر كان الناقصة وفي اسمها على هذا وجهان .

أحدهما : التقدير إلا أن يكون سبب الأكل أو المعاملة تجارة .

والثاني : إلا أن تكون أموال الناس تجارة[1] .

تأمل قوله تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ [النساء : ٣١] .

كيف نجد نحن بألطف دلالة ، وأدقها وأحسنها أنه من اجتنب الشرك جميعه كفرت عنه كبائره ، وأن نسبة الكبائر إلى الشرك كنسبة الصغائر إلى الكبائر ، فإذا وقعت الصغائر باجتناب الكبائر ؛ فالكبائر تقع باجتناب الشرك .

وتجد الحديث الصحيح كأنه مشتق من هذا المعنى وهو قوله[2] صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى : « ابن آدم إنك لو لقيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لقيتك بقرابها مغفرة » .

(١) بدائع الفوائد (٣/٧٣) .
(٢) رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٥/١٤٧) .
رواه مسلم (٥/٥٤٢) في الذكر والدعاء ، باب : فضل الذكر والدعاء .
ورواه الترمذي (٥/٥١٢) في الدعوات ، باب : فضل التوبة والاستغفار .
وابن ماجه برقم (٣٨٢١) في الأدب ، باب : فضل العمل .
والدارمي (٢/٢٣٠) في الرقاق ، باب : إذا تقرب العبد إلى الله .
رواه الحاكم (٤/٢٤٠) . وصححه ووافقه الذهبي .
كلهم عن أبي ذر رضي الله عنه عدا الترمذي فرواه عن أنس رضي الله عنه .

وقوله[1] : « إن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه » بل محو التوحيد – الذي هو توحيد – الكبائر أعظم من محو اجتناب الكبائر للصغائر »[2] .

وقد حكم الله تعالى بين الزوجين يقع الشقاق بينهما بقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ [النساء : ٣٥] .

وقد اختلف السلف والخلف في الحكمين : هل هما حاكمان ، أو وكيلان ؟ على قولين :

أحدهما : أنهما وكيلان ، وهو قول أبي حنيفة ، والشافعي في قول ، وأحمد في رواية .

والثاني : أنهما حاكمان ، وهذا قول أهل المدينة ، ومالك ، وأحمد في الرواية الأخرى ، والشافعي في القول الآخر ، وهذا هو الصحيح .

والعجب كل العجب ممن يقول : هما وكيلان لا حاكمان ، والله تعالى قد نصبهما حكمين ، وجعل نصبهما إلى غير الزوجين ، ولو كانا وكيلين ، لقال : فليبعث وكيلا من أهله ، ولتبعث وكيلا من أهلها .

وأيضا فلو كانا وكيلين ، ولم يختصا بأن يكونا من الأهل . وأيضا فإنه جعل الحكم إليهما فقال : ﴿ **إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما** ﴾ ، والوكيلان لا إرادة لهما ، إنما يتصرفان بإرادة موكليهما .

وأيضا فالحكم من له ولاية الحكم والإلزام ، وليس للوكيل شيء من ذلك.

وأيضا : فإن الحكم أبلغ حاكم ، لأنه صفة مشبهة باسم الفاعل دالة على الثبوت ، وخلاف بين أهل العربية ذلك ، فإذا كان اسم الحاكم لا يصدق على

---

(١) رواه البخاري في مواضع منها (٢٤٦/١١) في الرقاق باب : العمل الذي يبتغى به وجه الله . ومسلم (٢٠٤/١-٢٠٦) في الإيمان ، باب : دعوة عتبان للنبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) إعلام الموقعين (٢٩٠/١، ٢٩١) .

الوكيل المحض ، فكيف بما هو أبلغ منه .

وأيضاً فإنه سبحانه خاطب بذلك غير الزوجين ، وكيف يصح أن يوكل عن الرجل والمرأة غيرهما ، وهذا يحوِجُ إلى تقدير الآية هكذا ﴿ **وإن خفتم شقاق بينهما** ﴾ فمروهما أن يوكلا وكيلين : وكيلاً من أهله ووكيلاً من أهلها ، ومعلوم بعد لفظ الآية ومعناها عن هذا التقدير ، وأنها لا تدل عليه بوجه ، بل هي دالة على خلافه ، وهذا بحمد الله واضح .

وبعث عثمانُ بن عفان[(١)] عبد الله بن عباس ومعاوية حكمين بين عقيل ابن أبي طالب وامرأته فاطمة بن عتبة بن ربيعة ، فقيل لهما : إن رأيتما أن تفرقا فرقتما .

وصح عن علي بن أبي طالب أن قال للحكمين بين الزوجين[(٢)] : عليكما إن رأيتما أن تفرقا ، فرقتما ، وإن رأيتما أن تجمعا ، جمعتما .

فهذا عثمان ، وعلي ، وابن عباس ، ومعاوية جعلوا الحكم إلى الحكمين ، ولا يعرف لهم من الصحابة مخالف ، وإنما يعرف الخلاف بين التابعين فمن بعدهم .

وإذا قلنا إنهما وكيلان ، فهل يُجبر الزوجان على توكيل الزوج في الفرقة بعوض وغيره ، وتوكيل الزوجة في بذل العِوَض . أو لا يجبران ؟ على روايتين ، فإن قلنا : يجبران ، فلم يوكلا ، جعل الحاكم ذلك إلى الحكمين بغير رضى الزوجين ، وإن قلنا : إنهما حكمان ، لم يحتج إلى رضى الزوجين .

وعلى هذا النزاع ينبني ما لو غاب الزوجان أو أحدهما ، فإن قيل : إنهما

---

(١) رواه عبد الرزاق في المصنف (٦/٥١٢) برقم (١١٨٨٥) .
والطبري (٨/٣٢٧،٣٢٨) . ط المعارف .

(٢) رواه عبد الرزاق (٦/٥١٢) برقم (١١٨٨٣) .
والطبري (٨/٣٢١) ط المعارف .
والشافعي في الأم (٥/١٧٧) .
والبيهقي في السنن (٧/٣٠٥،٣٠٦) .

وكيلان لم ينقطع نظر الحكمين ، وإن قيل حكمان انقطع نظرهما لعدم الحكم على الغائب ، وقيل : يبقى نظرهما على القولين لأنهما يتطرفان لحظهما ، فهما كالناظرين ، وإن جُنَّ الزوجان انقطع نظر الحكمين ، إن قيل : إنهما وكيلان ، لأنهما فرع الموكلين ، ولم ينقطع . إن قيل : إنهما حكمان ، لأن الحاكم يلي على المجنون . وقيل ينقطع أيضاً لأنهما منصوبان عنهما فكأنهما وكيلان ، ولا ريب أنهما حكمان فيهما شائبة الوكالة ، ووكيلان منصوبان للحكم ، فمن العلماء من رجح جانب الحكم ، ومنهم من رجح جانب الوكالة ، ومنهم من اعتبر الأمرين[1] .

قال الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء : ٤٣] .

فجعل الغاية التي يزول بها حكم السكر أن يعلم ما يقول ، فمتى لم يعلم ما يقول فهو في السكر ، وإذا علم ما يقول خرج عن حكمه ، وهذا هو حد السكران عند جمهور أهل العلم . قيل للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى : بماذا يعلم أنه سكران ، فقال : إذا لم يعرف ثوبه من ثوب غيره ، ونعله من نعل غيره .

ويذكر عن الشافعي رحمه الله تعالى أنه قال : إذا اختلط كلامه المنظوم ، وأفشى سره المكتوم .

وقال محمد بن داود الأصفهاني[2] : إذا عزبت عنه الهموم ، وباح بسره المكتوم[3]

---

(١) زاد المعاد (٥/١٨٩-١٩٢) .

(٢) محمد بن داود بن علي الظاهري : العلامة البارع ذو الفنون ، صاحب المذهب .
سير أعلام النبلاء (١٣/١٠٩) .
تاريخ بغداد (٥/٢٥٩) .
وفيات الأعيان (٤/٢٥٩) .

(٣) روضة المحبين (١٥١) ومدارج السالكين (٣/٣٠٦) .

فلم يرتب على كلام السكران حكماً ، حتى يكون عالماً بما يقول ، ولذلك أمر النبي – صلى الله عليه وسلم[1] – رجلاً يشكك المقر بالزنا ، ليعلم هل هو عالم بما يقول ، أم غير عالم بما يقول ولم يؤاخذ حمزة بقوله في حال سكره هل أنتم إلا عبيد لأبي[2] ، ولم يكفِّر من قرأ في حال سكره في الصلاة أعبد ما تعبدون ، ونحن نعبد ما تعبدون[3][4] .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : ٤٨] .

فأخبر سبحانه أنه لا يغفر الشرك ، وأخبر أنه يغفر ما دونه ، ولو كان هذا في حق التائب لم يفرق بين الشرك وغيره[5] .

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء : ٥٩] .

وقد أجمع الناس على أن الرد إلى الله إلى كتابه ، والرد إلى الرسول هو

---

(١) روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه : لما أتى ماعز بن مالك النبي صلى الله عليه وسلم قال له : لعلك قبلت أو غمزت أو نظرت ؟ قال : لا يارسول الله ، .... الحديث .
(١٣٨/١٢) في الحدود ، باب : هل يقول الإمام للمقر : لعلك لمست أو غمزت .
وانظر صحيح مسلم (٢٧٥/٤) في الحدود ، باب : حد الزنا .
والترمذي (٢٨/٤) في الحدود ، باب : ما جاء في درء الحد ... .

(٢) رواه البخاري (٣٦٧/٧) في المغازي ، باب (١٢) .
ومسلم (٦٥٨/٥) في الأشربة ، باب : بيان تحريم الخمر .

(٣) رواه أبو داود (١٠٤/١٠) في الأشربة ، باب تحريم الخمر .
والترمذي (٢٢٢/٥) في تفسير القرآن باب : من سورة النساء .
الطبري (٣٧٦/٨) . ط : المعارف .
ومسند عبد بن حميد برقم (٨٢) .
والحاكم (٣٠٧/٢) وصححه ووافقه الذهبي .

(٤) إعلام الموقعين (١٤٢/٣) .

(٥) الجواب الكافي (الداء والدواء) (٢٥) .

الرد إليه في حياته ، وإلى سنته بعد مماته ، فأمر سبحانه عباده المؤمنين أن يردوا ما تنازعوا فيه إليه وإلى رسوله ، وخاطبهم أولاً بلفظ الإيمان ثم جعل آخراً الإيمان شرطاً في هذا الرد ، فالإيمان يوجب عليهم هذا الرد ، وينتفي عند انتفائه ، فمن لم يرد ما تنازع فيه هو وغيره إلى الله ورسوله لم يكن مؤمناً .

وتأمل قوله : ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول** ﴾ كيف أعاد الفعل وهو طاعة الرسول ليدل أنه يطاع استقلالاً ، وإن أمر بما ليس في القرآن الأمر به ، ونهى عما ليس في القرآن النهي عنه ، فإنه أوتي الكتاب ومثله معه ، ولم يعد الفعل في طاعة أولي الأمر بل جعلها ضمناً وتبعاً لطاعة الرسول ، فإنهم إنما يطاعون تبعاً لطاعة الرسول إذا أمروا بما أمر به ،ونهوا عما نهى عنه ، ولا تجب طاعتهم في كل ما يأمرون به وينهون عنه .

ثم قال : ﴿ **فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول** ﴾ ولم يقل وإلى الرسول إعلاماً بأن ما رد إلى الله فقد رد إلى رسوله ، وما رد إلى رسوله فقد رد إليه سبحانه ، وأن ما حكم به فقد حكم به رسوله ؟ وما حكم به رسوله فهو حكمه سبحانه .

وقال : ﴿ **فإن تنازعتم في شيء** ﴾ وهذا يعم دقيق ما تنازع فيه المسلمون وجليله ، ولا يخص شيئاً دون شيء ، فمن ظن أن هذا في شرائع الإسلام دون حقائق الإيمان ، وفي أعمال الجوارح دون أعمال القلوب وأذواقها ومواجيدها ، أو في فروع الدين دون أصوله ، وباب الأسماء والصفات والتوحيد فقد خرج عن موجب الآية علماً وعملاً وإيماناً بل كما أن رسالته عامة إلى كل مكلف في كل وقت فهي عامة في كل حكم من أحكام الدين أصوله وفروعه حقائقه وشرائعه ، فمن أخرج حكماً من أحكام الدين عن عموم رسالته ، فهو كمن أخرج محكوماً عليه من المكلفين عن عموم رسالته ، فهذا في البطلان كهذا[1] .

(١) الكلام على مسألة السماع (٩٧،٩٨) .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء : ٥٩] .

فأمر تعالى بطاعته وطاعة رسوله ، وأعاد الفعل إعلاماً بأن طاعة الرسول تجب استقلالاً من غير عرض ما أمر به على الكتاب بل إذا وجبت طاعته مطلقاً سواء كان ما أمر به في الكتاب أو لم يكن فيه فإنه أوتي الكتاب ومثله معه ولم يأمر بطاعة أولي الأمر استقلالاً بل حذف الفعل ، وجعل طاعتهم في ضمن طاعة الرسول إيذاناً بأنهم إنما يطاعون تبعاً لطاعة الرسول فمن أمر منهم بطاعة الرسول وجبت طاعته ، ومن أمر بخلاف ما جاء به الرسول فلا سمع له ولا طاعة ، كما صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال[(١)] : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » وقال[(٢)] : « إنما الطاعة في المعروف » وقال في ولاة الأمور : « من أمركم منهم بمعصية الله ، فلا سمع له ولا طاعة »[(٣)]

« وقد أخبر صلى الله عليه وسلم عن الذين أرادوا دخول النار لما أمرهم أميرهم بدخولها أنهم لو دخلوها لما خرجوا منها »[(٤)] مع أنهم كانوا يدخلونها طاعة لأميرهم ، وظناً أن ذلك واجب عليهم ، ولكن لما قصروا في الاجتهاد

---

(١) رواه البغوي في شرح السنة وسنده ضعيف (٤٤/١٠) .
ولكن يشهد له ما رواه الإمام أحمد (٦٦/٥) .
وأبو داود الطيالسي ص (١١٤) برقم (٨٥٦) .
والحاكم (٤٤٣/٣) وصححه ووافقه الذهبي كلهم بلفظ « لا طاعة في معصية الله » من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه .
(٢) رواه البخاري في مواضع منها (١٣/ ١٣٠) في الأحكام ، باب : السمع والطاعة للإمام ، مالم تكن معصية .
ومسلم (٥٠٥/٤) في الإمارة ، باب : وجوب طاعة الأمراء في غير معصية .
(٣) رواه البخاري (١٣٠/١٣) في الأحكام باب السمع والطاعة للإمام مالم تكن معصية .
– ومسلم (٥٠٤/٤) في الإمارة ، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية .
(٤) انظر هامش (٢) في هذه الصفحة .

وبادروا إلى طاعة من أمر بمعصية الله ، وحملوا عموم الأمر بالطاعة بما لم يرده الآمر صلى الله عليه وسلم وما قد علم من دينه إرادة خلافه ، فقصروا في الاجتهاد وأقدموا على تعذيب أنفسهم وإهلاكها من غير تثبت وتبين هل ذلك طاعة لله ورسوله أم لا ؟ فما الظن بمن أطاع غيره في صريح مخالفة ما بعث الله به رسوله ؟ ثم أمر تعالى برد ما تنازع فيه المؤمنون إلى الله ورسوله إن كانوا مؤمنين ، وأخبرهم أن ذلك خير لهم في العاجل وأحسن تأويلاً في العاقبة[1] .

وقال : وأجمع المسلمون على أن الرد إلى الله سبحانه هو الرد إلى كتابه والرد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم هو الرد إليه في حضوره وحياته ، وإلى سنته في غيبته وبعد مماته .

وقال : قولكم[2] إن الله سبحانه أمر بطاعة أولي الأمر ، وهم العلماء وطاعتهم : تقليدهم فيما يفتون فيه .

فجوابه : أن أولي الأمر قيل : هم الأمراء ، وقيل : هم العلماء ، وهما روايتان عن الإمام أحمد .

والتحقيق أن الآية تتناول الطائفتين ، وطاعتهم من طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، لكن خفي على المقلدين أنهم إنما يطاعون في طاعة إذا أمروا بما أمر الله به ورسوله ، فكان العلماء مبلغين لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، والأمراء منفذين له ، فحينئذ تجب طاعتهم تبعاً لطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فأين في الآية تقديم آراء الرجال على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإيثار التقليد عليها ؟ (ثم) إن هذه الآية من أكبر الحجج عليهم وأعظمها إبطالاً للتقليد ، وذلك من وجوه :

أحدها : الأمر بطاعة الله التي هي امتثال أمره واجتناب نهيه .

الثاني : طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ولا يكون العبد مطيعاً لله

---

(١) إعلام الموقعين (٨٣،٨٢/١) .

(٢) أي أصحاب التقليد .

ورسوله صلى الله عليه وسلم ، حتى يكون عالماً بما أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن أقر على نفسه بأنه ليس من أهل العلم بأوامر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وإنما هو مقلد فيها لأهل العلم لم يمكنه تحقيق طاعة الله ورسوله البتة .

الثالث : أن أولي الأمر نهوا عن تقليدهم ، كما صح عن معاذ بن جبل ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وغيرهم من الصحابة وذكرناه نصاً عن الأئمة الأربعة وغيرهم .

وحينئذ فطاعتهم في تلك إن كانت واجبة أبطلت التقليد ، وإن لم تكن واجبة بطل الاستدلال .

الرابع : أنه سبحانه قال في الآية نفسها ﴿ **فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ وهذا صريح في إبطال التقليد والمنع من رد المتنازع فيه إلى رأي أو مذهب أو تقليد . فإن قيل : فما هي طاعتهم المختصة بهم ، إذ لو كانوا إنما يطاعون فيما يخبرون به عن الله ورسوله كانت الطاعة لله ورسوله لا لهم . قيل وهذا هو الحق ، وطاعتهم إنما هي تبعاً لا استقلالاً . ولهذا قرنها بطاعة الرسول ولم يُعد العامل ، وأفرد طاعة الرسول . وأعاد العامل لئلا يتوهم أنه إنما يطاع تبعاً ، كما يطاع أولو الأمر تبعاً ، وليس كذلك ، بل طاعته واجبة استقلالاً سواء كان ما أمر به ونهى عنه في القرآن أو لم يكن[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

وقول الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين ءامنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا** ﴾ [النساء : ٥٩] .

أمر سبحانه بطاعته وطاعة رسوله .

وافتتح الآية بالنداء باسم الإيمان المشعر ، بأن المطلوب منهم من موجبات الاسم الذي نودوا به وخوطبوا به ، كما يقال : يا من أنعم الله عليه وأغناه من

(١) إعلام الموقعين (٢/٢٣٧ ، ٢٣٨) .

فضله ، أحسن كما أحسن الله إليك : ويا أيها العالم علم الناس ما ينفعهم ، ويا أيها الحاكم احكم بالحق، ونظائره .

ولهذا كثيراً ما يقع الخطاب في القرآن بالشرائع كقوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُم الصيامُ) [البقرة : ١٨٣] .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ) [الجمعة : ٩] .

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ) [المائدة : ١] .

ففي هذا إشارة إلى أنكم إن كنتم مؤمنين فالإيمان يقتضي منكم كذا وكذا ، فإنه من موجبات الإيمان وتمامه .

ثم قال تعالى : ﴿ **أَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُم** ﴾ [النساء : ٥٩] .

فقرن بين طاعة الله والرسول وطاعة أولي الأمر ، وسلط عليهما عاملا واحداً . وقد كان ربما يسبق إلى الوهم أن الأمر يقتضي عكس هذا ، فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله . ولكن الواقع هنا في الآية المناسب .

وتحته سر لطيف وهو دلالته على أن ما يأمر به رسوله يجب طاعته فيه ، وإن لم يكن مأموراً به بعينه في القرآن طاعة الرسول مفردة ومقرونة .

فلا يتوهم متوهم أن ما يأمر به الرسول إن لم يكن في القرآن ، وإلا فلا تجب طاعته فيه .

كما قال النبي ﷺ : « يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانٌ مُتَكِيءٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الأَمْرُ مِنْ أَمْرِي فَيَقُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَاب الله تَعَالَى مَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ شَيْءٍ اتَّبَعنَاهُ أَلا وَإِنِي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمثلَهُ مَعَهُ »[1] .

(١) رواه أبو داود (صحيح أبي داود للألباني) (٨٧٠/٣) برقم (٣٨٤٨) في السنة ، باب : لزوم السنة .
والترمذي (صحيح الترمذي) (٣٣٩/٢) في العلم ، باب : ما نهى عنه أن يقال عند حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : حديث غريب .
=

أما أولو الأمر فلا تجب طاعة أحدهم إلا إذا اندرجت تحت طاعة الرسول ؛ لا طاعة مفردة مستقلة ، كما صح عن النبي ﷺ أنه قال : « عَلَى الْمرءِ السَّمْعُ والطَّاعَةُ فِيما أَحَبَّ وَكَرِهَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيةِ الله تعالى . فَإِذَا أُمِرَ بِمْعصِيَةِ الله تَعَالَى فَلا سَمْعَ وَلاَ طَاعَةَ »(١) .

فتأمل كيف اقتضت إعادة هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ **فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ** ﴾ ولم يقل : ﴿ **وَإِلَى الرَّسُولِ** ﴾؟ فإن الرد إلى القرآن رد إلى الله والرسول ؟ فما حكم به الله تعالى هو بعينه حكم رسوله ، وما يحكم به الرسول ﷺ هو بعينه حكم الله .

فإذا رددتم إلى الله ما تنازعتم فيه يعني كتابه فقد رددتموه إلى رسوله . وكذلك إذا رددتموه إلى رسوله ، فقد رددتموه إلى الله ، وهذا من أسرار القرآن .

وقد اختلفت الرواية عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى في أولي الأمر ، وعنه فيهم رحمة الله تعالى روايتان :

إحداهما : أنهم العلماء .

والثانية : أنهم الأمراء .

والقولان : ثابتان عن الصحابة في تفسير الآية ، والصحيح أنها متناولة للصنفين جميعاً ، فإن العلماء والأمراء ولاة الأمر الذي بعث الله به رسوله ، فإن العلماء ولاته حفظاً وبياناً وذباً عنه ورداً على من ألحد فيه وزاغ عنه .

وقد وكلهم الله بذلك فقال تعالى : (فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاَءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ) [الأنعام : ٨٩] فيالها من وكالة أوجبت طاعتهم والانتهاء إلى أمرهم وكون الناس تبعاً لهم .

= وابن ماجه في المقدمة برقم (١٢) (صحيح ابن ماجه) . كلهم من حديث « المقدام بن معد يكرب » رضي الله عنه ورواه غيرهم .

(١) رواه البخاري في مواضع منها (١٣/١٣٠) باب : السمع والطاعة للإمام ، ما لم تكن معصية . ومسلم (٤/٥٠٤) في الإمارة ، باب : وجوب طاعة الأمراء في غير معصية .

والأمراء ولاته قياماً وعناية وجهاداً وإلزاماً للناس به ، وأخذهم على يد من خرج عنه .

وهذان الصنفان هما الناس وسائر النوع الإنساني تبع لهما ورعية .

ثم قال تعالى : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [النساء : ٥٩] .

وهذا دليل قاطع على أنه يجب رد موارد النزاع في كل ما تنازع فيه الناس من الدين كله إلى الله ورسوله لا إلى أحد غير الله ورسوله ، فمن أحال الرد على غيرهما فقد ضاد أمر الله ومن دعا عند النزاع إلى حكم غير الله ورسوله فقد دعا بدعوى الجاهلية ، فلا يدخل العبد في الإيمان حتى يرد كل ما تنازع فيه المتنازعون إلى الله ورسوله .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [النساء : ٥٩] وهذا مما ذكرنا آنفاً أنه شرط ينتفي المشروط بانتفائه ، فدل على أن من حَكَّمَ غير الله ورسوله في موارد مقتضى النزاع كان خارجاً من مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر ، وحسبك بهذه الآية العاصمة القاصمة بياناً وشفاء ، فإنها قاصمة لظهور المخالفين لها ، عاصمة للمتمسكين بها الممتثلين ما أمرت به .

قال الله تعالى : (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وإنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ) [الأنفال : ٤٢] .

وقد اتفق السلف والخلف على أن الرد إلى الله هو الرد إلى كتابه ، والرد إلى الرسول هو الرد إليه في حياته ، والرد إلى سنته بعد وفاته .

ثم قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ وأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النساء : ٥٩] أي هذا الذي أمرتكم به من طاعتي وطاعة رسولي وأوليـاء الأمر ، ورد ما تنازعتم فيه إليَّ وإلى رسولي خير لكم في معاشكم ومعادكم ، وهو سعادتكم في الدارين ، فهو خير لكم وأحسن عاقبة .

فدل هذا على أن طاعة الله ورسوله وتحكيم الله ورسوله ، هو سبب السعادة عاجلاً وآجلاً . ومن تدبر العالم والشرور الواقعة فيه علم أن كل شر في العالم سببه مخالفة الرسول والخروج عن طاعته ، وكل خير في العالم فإنه بسبب طاعة الرسول .

وكذلك شرور الآخرة وآلامها وعذابها إنما هو من موجبات مخالفة الرسول ومقتضياتها ، فعاد شر الدنيا والآخرة إلى مخالفة الرسول وما يترتب عليه ، فلو أن الناس أطاعوا الرسول حق طاعته لم يكن في الأرض شر قط ، وهذا كما أنه معلوم في الشرور العامة والمصائب الواقعة في الأرض ، فكذلك هو في الشر والألم والغم الذي يصيب العبد في نفسه ، فإنما هو بسبب مخالفة الرسول ، ولأن طاعته هي الحصن الذي من دخله كان من الآمنين ، والكهف الذي من لجأ إليه كان من الناجين .

فعلم أن شرور الدنيا والآخرة إنما هو الجهل بما جاء به الرسول ﷺ والخروج عنه .

وهذا برهان قاطع على أنه لا نجاة للعبد ولا سعادة إلا بالاجتهاد في معرفة ما جاء به الرسول ﷺ علماً والقيام به عملا .

كمال السعادة :

وكمال هذه السعادة بأمرين آخرين :

أحدهما : دعوة الخلق إليه .

والثاني : صبره واجتهاده على تلك الدعوة .

فانحصر الكمال الإنساني على هذه المراتب الأربعة :

أحدها : العلم بما جاء به الرسول ﷺ .

والثانية : العمل به .

والثالثة : نشره في الناس ودعوتهم إليه .

والرابعة : صبره وجهاده في أدائه وتنفيذه .

ومن تطلعت همته إلى معرفة ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم ، وأراد اتباعهم فهذه طريقتهم حقاً :

فَإِنْ شِئْتَ وَصْلَ الْقَوْمِ فَاسْلُكْ سَبِيلَهُمْ فَقَدْ وَضَحَتْ لِلسَّالِكِينَ عَيَاناً

قال سبحانه : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء : ٦٥]

فأقسم سبحانه بنفسه أنا لا نؤمن حتى نحكم رسوله في جميع ما شجر بيننا ، وتتسع صدورنا بحكمه ، فلا يبقى منها حرج ، ونسلم لحكمه تسليماً فلا نعارض بعقل ولا رأي ولا هوى ولا غيره ، فقد أقسم الرب سبحانه بنفسه على نفي الإيمان عن هؤلاء الذين يقدمون العقل على ما جاء به الرسول وقد شهدوا هم على أنفسهم بأنهم غير مؤمنين بمعناه وإن آمنوا بلفظه[1] .

وقال : وقد أقسم الله سبحانه بنفسه المقدسة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم ، ولا يكفي ذلك في حصول الإيمان حتى يزول الحرج من نفوسهم بما حكم به في ذلك أيضاً حتى يحصل منهم الرضا والتسليم فقال تعالى : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك** ... ﴾ الآية .

فأكد ذلك بضروب من التأكيد :

أحدها : تصدير الجملة المقسم عليها بحرف النفي المتضمن لتأكيد النفي المقسم عليه ، وهو ذلك كتصدير الجملة المثبته بإن .

الثاني : القسم بنفسه سبحانه .

الثالث : أنه أتى بالمقسم عليه بصيغة الفعل الدالة على الحدوث ، أي لا يقع منهم إيمان ما حتى يحكموك .

(١) الصواعق المرسلة (٣/٨٢٨) .

الرابع : أنه أتى في الغاية بحتى دون إلا ، المشعرة بأنه لا يوجد الإيمان إلا بعد حصول التحكيم ، لأن ما بعد حتى يدخل فيها قبلها .

الخامس : أنه أتى المحكم فيه بصيغة الموصول الدالة على العموم ، وهو قوله : ﴿ **فيما شجر بينهم** ﴾ أي في جميع ما تنازعوا فيه من الدقيقة والجليلة .

السادس : أنه ضم إلى ذلك انتفاء الحرج ، وهو الضيق من حكمه .

السابع : أنه أتى به نكرة في سياق النفي ، أي لا يجدون نوعاً من أنواع الحرج البتة .

الثامن : أنه أتى بذكر ما قضى به بصيغة العموم ، فإنها إما مصدرية أي من قضائك ، أو موصولة ، أي من الذي قضيته ، وهذا يتناول كل فرد من أفراد قضائه .

التاسع : أنه لم يكتف منهم بذلك حتى يضيفوا إليه التسليم ، وهو قدر زائد على التحكيم وانتفاء الحرج ، فما كل من حكم انتفى عنه الحرج ، ولا كل من انتفى عنه الحرج يكون مسلماً منقاداً ، فإن التسليم يتضمن الرضا بحكمه والانقياد له .

العاشر : أنه أكد فعل التسليم بالمصدر المؤكد ، ونحن نناشد هؤلاء الجهمية بالله الذي لا إله إلا هو هل يجدون في أنفسهم هذا التسليم والانقياد والتحكيم للنصوص ؟ وهل هم مع الرسول وما جاء به بهذه المنزلة ؟ فوالله إن قلوبهم وألسنتهم وكتبهم تشهد عليهم بضد ذلك ، كما يشهد به عليهم المؤمنون والملائكة وأولو العلم والله سبحانه ، وكفى بالله شهيداً[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

أقسم سبحانه بنفسه المقدسة قسماً مؤكداً بالنفي قبله على عدم إيمان الخلق حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم من الأصول والفروع وأحكام الشرع

---

(١) الصواعق المرسلة (٤/١٥٢٠،١٥٢١) .

وأحكام المعاد وسائر الصفات وغيرها ، ولم يثبت لهم الإيمان بمجرد هذا التحكيم حتى ينتفي عنهم الحرج وهو ضيق الصدر وتنشرح صدورهم لحكمه كل الانشراح وتنفسح له كل الانفساح وتقبله كل القبول ولم يثبت لهم الإيمان بذلك أيضاً حتى ينضاف إليه مقابلة حكمه بالرضى والتسليم وعدم المنازعة وانتفاء المعارضة والاعتراض . فهنا قد يحكم الرجل غيره وعنده حرج من حكمه ، ولا يلزم من انتفاء الحرج الرضا والتسليم والانقياد إذ قد يحكمه وينتفي الحرج عنه في تحكيمه ولكن لا ينقاد قلبه ولا يرضى كل الرضى بحكمه . والتسليم أخص من انتفاء الحرج حصوله بمجرد انتفائه . إذ قد ينتفى الحرج ويبقى القلب فارغاً منه ومن الرضى به والتسليم له ، فتأمله . وعند هذا يعلم أن الرب تبارك وتعالى أقسم على انتفاء إيمان أكثر الخلق . وعند الامتحان تعلم هل هذه الأمور الثلاثة موجودة في قلب أكثر من يدعي الإسلام أم لا ؟

والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

قول الله تعالى : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما** ﴾ [النساء : ٦٥] .

فأقسم سبحانه بأجلّ مقسم به – وهو نفسه عز وجل – على أن لا يثبت لهم الإيمان ، ولا يكونون من أهله ، حتى يحكموا رسول الله ﷺ في جميع موارد النزاع في جميع أبواب الدين .

فإن لفظة « ما » من صيغ العموم ، فإنها موصلة تقتضي نفي الإيمان أو يوجد تحكيمه في جميع ما شجر بينهم .

ولم يقتصر على هذا حتى ضم إليه انشراح صدورهم بحكمه ، حيث لا يجدون في أنفسهم حرجاً – وهو الضيق والحصر – من حكمه ، بل يقبلوا حكمه بالانشراح : ويقابلوه بالتسليم لا أنهم يأخذونه على إغماض ، ويشربونه على

(١) التبيان في أقسام القرآن (٤٣٠، ٤٣١) .

قذى ، فإن هذا منافٍ للإيمان ، بل لابد أن يكون أخذه بقبول ورضا وانشراح صدر .

ومتى أراد العبد أن يعلم هذا فلينظر في حاله ، ويطالعه في قلبه عند ورود حكمه على خلاف هواه وغرضه ، أو على خلاف ما قلد فيه أسلافه من المسائل الكبار وما دونها (بَلِ الإنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ) [القيامة : ١٤،١٥] .

فسبحان الله كم من حزازة في نفوس كثير من الناس من كثير من النصوص وبودهم أن لو لم ترد ؟ وكم من حرارة في أكبادهم منها ؟ وكم من شجى في حلوقهم منها ومن موردها ؟ ستبدو لهم تلك السرائر بالذي يسوء ، ويخزي يوم تُبلى السرائر .

ثم لم يقتصر سبحانه على ذلك حتى ضم إليه قوله تعالى : ﴿ **وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً** ﴾ [النساء : ٦٥] ، فذكر الفعل مؤكداً بمصدره القائم مقام ذكره مرتين ، وهو الخضوع له والانقياد لما حكم به طوعاً ورضا ، وتسليما لا قهراً ومصابرة ، كما يسلم المقهور لمن قهره كرهاً ، بل تسليم عبد مطيع لمولاه وسيده الذي هو أحب شيء إليه ، يعلم أن سعادته وفلاحه في تسليمه إليه ، ويعلم بأنه أولى به من نفسه ، وأبرُّ به منها وأرحم به منها وأنصح له منها وأعلم بمصالحه منها وأقدر على تخليصها .

فمتى علم العبد هذا من رسول الله ﷺ استسلم له ، وسلم إليه وانقادت له كل علة في قلبه ، ورأى أن لا سعادة له إلا بهذا التسليم والانقياد .

وليس هذا مما يحصل معناه بالعبارة ، بل هو أمر انشق القلب واستقر في سويدائه لا تفي العبارة بمعناه ولا مطمع في حصوله بالدعوى والأماني .

وَكُلٌّ يَدَّعِي وَصْلاً للَيْلَى وَلَيْلَى لا تُقِرُّ لَهُمْ بِذَاكَ

وفرق بين علم الحب وحال الحب . فكثيراً ما يشتبه على العبد علم الشيء بحاله ووجوده ، وفرق بين المريض والعارف بالصحة والاعتدال ، وهو مثخن

بالمرض ، وبين الصحيح السليم ، وإن لم يحسن وصف الصحة والعبارة عنها . وكذلك فرق بين وصف الخوف والعلم به وبين حاله ووجوده .

وتأمل تأكيده سبحانه لهذا المعنى المذكور في الآية بوجوه عديدة من التأكيد :

أولها : تصديرها بتضمن المقسم عليه للنفي وهو قوله : (لا يؤمنون) وهذا منهج معروف في كلام العرب ، إذا أقسموا على شيء منفي صدَّروا جملة القسم بأداة نفي مثل هذه الآية .

ومثل ما في قول الصديق لعمر رضي الله عنه : « لاهَا الله إذاً لا يَعْمَدُ إلى أَسَدٍ من أُسْدِ الله يقاتل عن الله ورسوله فيعطيك سَلَبَه»[1] .

وقول الشاعر :

فَلا وَأَبِيكِ أبنت الْعَامِـرِيِّ   لا يَدَّعِي الْقَوْمُ أَنِّي أَفِـرُّ

وقال الآخر :

فَلا وَالله لا يُلْفَى لِمَا بِـي   وَلا لِمَا بِهِـمْ أَبَداً دَوَاءُ

وهذا في كلامهم أكثر من أن يذكر .

---

(١) هذا جزء من حديث أبي قتادة رضي الله عنه رواه البخاري في مواضع منها (٦٣٢،٦٣١/٧) برقم (٤٣٢٢) من كتاب المغازي ، باب : قول الله تعالى « ويوم حنين ... » الآية (التوبة : ٢٥) . ومسلم (٣٥٠/٤) في الجهاد والسير ، باب : استحقاق القاتل سلب القتيل .

تنبيه : لم يقل الصديق ذلك لعمر رضي الله عنهما كما ذكر ابن القيم ، ومنشأ هذا الوهم أن في رواية الإمام أحمد (١٩٠/٣) أن عمر أيضاً خاطب النبي صلى الله عليه وسلم بذلك .

قال ذلك الحافظ في الفتح وزاد « لكن الراجح أن الذي قال ذلك أبو بكر كما رواه قتادة وهو صاحب القصة فهو أتقن لما وقع فيها من غيره . ويحتمل الجمع بأن يكون عمر أيضاً قال ذلك تقوية لقول أبي بكر . والله أعلم » اهـ .

فتح الباري (٦٣٦/٧) .

ومعنى « لا ها الله إذاً » أي : لا والله حينئذ ...

وتأمل جمل القسم التي في القرآن المصدرة بحرف النفي كيف تجد المقسم عليه منفياً متضمناً للنفي ؟ ولا يحرم هذا قوله تعالى : (فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّه لَقُرآنٌ كَرِيمٌ) [الواقعة : ٧٥-٧٧] .

فإنه لما كان المقصود بهذا القسم نفي ما قاله الكفار في القرآن : من أنه شعر ، أو كهانة ، أو أساطير الأولين ، صدر القول بأداة النفي . ثم أثبت له ما قالوه ، فتضمنت الآية أن ليس الأمر كما يزعمون ، ولكنه قرآن كريم .

ولهذا صرح بالأمرين : النفي والإثبات في مثل قوله تعالى : (فلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * اَلَجوارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالْصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي العَرْشِ مَكِين * مُّطاعٍ ثَمَّ أَمِين * وَما صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ) [التكوير : ١٥-٢٥] .

وكذلك قوله : (لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ – إلى قوله – بَنَانَهُ) [القيامة : ١-٤] .

والمقصود : أن افتتاح هذا القسم بأداة النفي يقتضي تقوية المقسم عليه ، وتأكيده وشدة انتفائه .

وثانيها : تأكيده بنفس القسم .

وثالثها : تأكيده بالمقسم به وهو إقسامه بنفسه لا بشيء من مخلوقاته ، وهو سبحانه يقسم بنفسه تارة وبمخلوقاته تارة .

ورابعها : تأكيده بانتفاء الحرج ، وهو وجود التسليم .

وخامسها : تأكيد الفعل بالمصدر ، وما هذا التأكيد إلا لشدة الحاجة إلى هذا الأمر العظيم ، وإنه مما يعتنى به ويقرر في نفوس العباد بما هو أبلغ من أنواع التقرير .

قال تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء : ٦٩].

فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة النبوة ، وهؤلاء هم الربانيون ، وهم الراسخون في العلم ، وهم الوسائط بين الرسول وأمته ، فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه ، وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تعالى وهم على ذلك[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

فأخبر أن مرافقة المنعم عليهم لا تحصل إلا لمن أطاعه وأطاع رسوله ، وأن ذلك هو الفضل منه سبحانه ، وهو عليم أين يجعله وعند مَن يضعه ويخص به[٢].

وقال رحمه الله تعالى :

فذكر مراتب السعداء وهي أربعة وبدأ بأعلاهم مرتبة ثم الذين يلونهم إلى آخر المراتب وهؤلاء هم أهل الجنة الذين هم أهلها جعلنا الله منهم بمنه وكرمه[٣].

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء : ٧٧] .

جمعت بين التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة والحض على فعل الخير والزجر عن فعل الشر إذ قوله : ﴿ **ولا تظلمون فتيلاً** ﴾ يتضمن حثهم على كسب الخير وزجرهم عن كسب الشر[٤] .

---

(١) طريق الهجرتين (٣٢٨) .
(٢) الكلام على مسألة السماع (٩٨) .
(٣) مفتاح دار السعادة (٨٥) .
(٤) بدائع الفوائد (٨/٤) .

قال تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٧٨] .

ولو فقهوا أو فهموا لما تطيروا بما جئت به ؛ لأنه ليس فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ما يقتضي الطيرة فإن كله خير محض لا شر فيه وصلاح لا فساد فيه وحكمة لا عبث فيها ، ورحمة لا جور فيها فلو كان هؤلاء القوم من أهل الفهم والعقول السليمة لم يتطيروا من هذه فإن الطيرة إنما تكون بالشر لا بالخير المحض والمصلحة والحكمة والرحمة ، وليس فيما أتيتهم به لو فهموا ما يوجب تطيرهم بل طائرهم معهم بسبب كفرهم وشركهم وبغيهم وهو عند الله كسائر حظوظهم (وأنصابئهم) التي يتناولونها منه بأعمالهم وكسبهم . ويحتمل أن يكون المعنى طائركم معكم أي راجع عليكم فالطير الذي حصل لكم إنما يعود عليكم وهذا من باب القصاص في الكلام مثل قوله في الحديث « أخذنا فألك من فيك »[١] ونظيره قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم »[٢][٣] .

فصــل

قال القدري : قال الله سبحانه :[٤] (ماأصابك من حسنة فمن الله وماأصابك من سيئة فمن نفسك) [النساء : ٧٩] وعند الجبري ان الكل فعل الله وليس من

---

(١) رواه أبو داود (١٠/٤١٤) في الطب .
باب : في الطيرة .
وفي سنده رجل مجهول .
ونقل صاحب عون المعبود عن السيوطي قوله : ورواه أبو نعيم .

(٢) رواه البخاري (١١/٤٤) في الاستئذان ، باب : كيف الرد على أهل الذمة بالسلام .
ومسلم (٧/٥) في السلام ، باب : النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام .

(٣) مفتاح دار السعادة (٥٧٩) .

(٤) فصل في معنى قوله تعالى : ﴿ ماأصابك من حسنة فمن الله ... ﴾ الآية (النساء : ٧٩) ومناظرة بين أتباع السنة والمبتدعين .

العبد شيء ، قال الجبري في الكلام استفهام مقدر تقديره أفمن نفسك فهو إنكار لا إثبات وقرأها بعضهم : (فمن نفسك) بفتح الميم ورفع نفسك أي من أنت حتى تفعلها قال : ولابد من تأويل الآية وإلا ناقض قوله في الآية التي قبلها (وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله) فأخبر أن الحسنات والسيئات جميعا من عنده لامن عند العبد . قال السني : أخطأتما جميعا في فهم الآية أقبح الخطأ ومنشأ غلطكما أن الحسنات والسيئات في الآية المراد بها الطاعات والمعاصي التي هي فعل العبد الاختياري وهذا وهم محض في الآية وإنما المراد بها النعم والمصائب .

ولفظ الحسنات والسيئات في كتاب الله يراد به هذا تارة وهذا تارة فقوله تعالى: (إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها) [آل عمران :١٢٠]. وقوله: (إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل) [التوبة :٥٠] وقوله: (وبلوناهم بالحسنات والسيئات) [الأعراف :١٦٨] وقوله: (وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور) [الشورى :٤٨] وقوله: (فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه) [الأعراف :١٣١] وقوله: (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) [النساء :٧٩] المراد في هذا كله النعم والمصائب أما قوله: (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها) [الأنعام :١٦٠] وقوله: (إن الحسنات يذهبن السيئات) [هود :١١٤] وقوله : (فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) [الفرقان : ٧٠] والمراد به في هذا كله الأعمال المأمور بها والمنهي عنها وهو سبحانه إنما قال : (ما أصابك) ولم يقل : ما أصبت وما كسبت فما يفعله العبد يقال فيه : ما أصبت وكسبت وعملت، كقوله: (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن) [طه : ١١٢] وكقوله : (من يعمل سوءًا يجز به) [النساء : ١٢٣] (ومن يكسب خطيئة أو إثما)[1] [النساء : ١١٢] وقول المذنب التائب: يارسول الله أصبت ذنبا فأقم عليَّ كتاب الله ولا يقال في هذا : أصابك ذنب وأصابتك سيئة ، وما يفعل به بغير اختياره يقال فيه : أصابك كقوله : (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت

(١) وردت الآيتان بالأصل كأنهما آية واحدة .

أيديكم) [الشورى : ٣٠] وقوله : (وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل) [التوبة : ٥٠] وقوله : (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها) [آل عمران : ٣٠] فجمع الله في الآية بين ما أصابوا بفعلهم وكسبهم وما أصابهم مما ليس فعلا لهم وقوله : (ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده) [التوبة : ٥٢] وقوله : (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة) [الرعد : ٣١] وقوله : (فأصابتكم مصيبة الموت) [المائدة : ١٠٦] فقوله : (ما أصابك من حسنة) هو من هذا القسم الذي يصيبه العبد لا باختياره ، وهذا إجماع من السلف في تفسير هذه الآية . قال أبو العالية[١] وإن تصبكم حسنة هذا في السراء وإن تصبهم سيئة هذا في الضراء ، قال السدي : الحسنة الخصب تنتج مواشيهم وأنعامهم ويحسن حالهم فتلد نساؤهم الغلمان قالوا : هذا من عند الله وإن تصبهم سيئة قال : الضر في أموالهم تشاءموا بمحمد وقالوا : هذه من عنده قالوا : بتركنا ديننا واتباعنا محمداً أصابنا ما أصابنا ؛ فأنزل الله سبحانه ردا عليهم : (قل كل من عند الله) الحسنة والسيئة . وقال الوالبى[٢] عن ابن عباس : ما أصابك من حسنة فمن الله قال : ما فتح الله عليك يوم بدر . وقال أيضا : هو الغنيمة والفتح ، والسيئة ما أصابه يوم أحد شج في وجهه وكسرت رباعيته وقال : أما الحسنة فأنعم الله بها عليك وأما السيئة فابتلاك بها . وقال أيضا : ما أصابك من نكبة فبذنبك وأنا قدرت ذلك عليك . ذكر ذلك كله ابن أبي حاتم ، وفي تفسير أبي صالح عن ابن عباس : إن تصبك حسنة الخصب وإن تصبك سيئة الجدب

---

١) انظر تفسير الطبري (٥٥٨/٨) ط المعارف .
والدر المنثور (٥٩٧،٥٩٦/٢) .

(٢) هو الإمام الحافظ المقرىء المفسر الشهيد ، أبو محمد سعيد بن جبير ، أحد الأعلام الزهاد العباد ، رحمه الله ، وعلى قاتله من الله ما يستحقه من اللعنات وعلى سائر الظالمين .
سير أعلام النبلاء (٣٢١/٤) .
طبقات ابن سعد (٢٥٦/٦) .
الحلية (٢٧٢/٤) .
تذكرة الحفاظ (٧١/١) .
وفيات الأعيان . (٣٧١/٢-٣٧٤) .

والبلاء . وقال ابن قتيبة في هذه الآية : الحسنة : النعمة ، والسيئة : البلية فإن قيل : فقد حكى أبو الفرج بن الجوزي عن أبي العالية أنه فسر الحسنة والسيئة في هذه الآية بالطاعة والمعصية وهو من أعلم التابعين فالجواب أنه لم يذكر بذلك إسنادا ولا نعلم صحته عن أبي العالية ، وقد ذكر ابن أبي حاتم بإسناده عن أبي العالية ماتقدم حكايته أن ذلك في السراء والضراء وهذا هو المعروف عن أبي العالية ولم يذكر ابن أبي حاتم عنه غيره وهو الذي حكاه ابن قتيبة عنه ، وقد يقال : إن المعنيين جميعا مرادان باعتبار أن ما يوفقه الله من الطاعات فهو نعمة في حقه أصابته من الله كما قال: (وما بكم من نعمة فمن الله) [النحل : ٥٣] فهذا يدخل فيه نعم الدين والدنيا وما يقع منه من المعصية فهو مصيبة من الله وإن كان سببها منه والذي يوضح ذلك أن الله سبحانه إذا جعل السيئة هي الجزاء على المعصية من نفس العبد بقوله : (وما أصابك من سيئة فمن نفسك) فالعمل الذي أوجب الجزاء أولى أن يكون من نفسه فلا منافاة بين أن تكون سيئة العمل من نفسه وسيئة الجزاء من نفسه ولاينافي ذلك أن يكون الجميع من الله قضاء وقدرا ولكن هو من الله عدل وحكمة ومصلحة وحسن ومن العبد سيئة وقبيح . وقد روي عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «(وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وأنا قدرتها عليك»[١] وهذه القراءة زيادة بيان وإلا فقد دل قوله قبل ذلك : (قل كل من عند الله) على القضاء السابق والقدر النافذ ، والمعاصي قد تكون بعضها عقوبة بعض فيكون لله على المعصية عقوبتان : عقوبة بمعصية تتولد منها وتكون الأولى سببا فيها ، وعقوبة بمؤلم يكون جزاؤها كما في الحديث المتفق على صحته[٢] عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا »

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢ / ٥٩٧) .

(٢) رواه البخاري (٥٢٣/١٠) في الأدب ، باب : قول الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ... ﴾ . ومسلم (٤٦٧/٥) في البر ، باب : تحريم النميمة .

وقد ذكر الله سبحانه في غير موضع من كتابه أن الحسنة الثانية قد تكون من ثواب الحسنة الأولى وأن المعصية قد تكون عقوبة للمعصية الأولى فالأول كقوله تعالى : (ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما ولهديناهم صراطا مستقيما) وقال تعالى : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) [العنكبوت : ٦٩] وقال : (يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) [المائدة : ١٦] وأما قوله : (والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم) [محمد :٤،٥] فيحتمل أن لا يكون من هذا وتكون الهداية في الآخرة إلى طريق الجنة فإنه رتب هذا الجزاء على قتلهم ويحتمل أن يكون منه ويكون قوله : (سيهديهم ويصلح بالهم) إخبارا منه سبحانه عما يفعله بهؤلاء الذين قتلوا في سبيله قبل أن قتلوا وأتى به بصيغة المستقبل إعلاما منه بأنه يجدد له كل وقت نوعا من أنواع الهداية وإصلاح البال شيئاً بعد شيء فإن قلت فكيف يكون ذلك المستقبل خبرا عن الذين قتلوا ؟ قلت : الخبر قوله (فلن يضل أعمالهم) أي أنه لا يبطلها عليهم ولا يترهم إياها هذا بعد أن قتلوا ، ثم أخبر سبحانه خبرا مستأنفا عنهم أنه سيهديهم ويصلح بالهم لما علم أنهم سيقتلون في سبيله وأنهم بذلوا أنفسهم له فلهم جزاآن : جزاء في الدنيا بالهداية على الجهاد ، وجزاء في الآخرة بدخول الجنة فيرد السامع كله جملة إلى وقتها لظهور المعنى وعدم التباسه وهو في القرآن كثير . والله أعلم .

وقال تعالى : (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء) [يوسف : ٢٤] وقال : (ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين) [يوسف : ٢٢] وقال : (يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا * يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم) [الأحزاب : ٧٠،٧١] وقال : (وإن تطيعوه تهتدوا) [النور : ٥٤] وقال : (ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن) [الأنعام : ١٥٤] فضمن التمام معنى الإنعام فعداه بـ «على» أي إنعاما منا على الذي أحسن وهذا جزاء على الطاعات بالطاعات وأما الجزاء بالمعاصي على المعاصي فكقوله : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) [الصف : ٥] وقوله : (ولا تكونوا

كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) [الحشر : ١٩] وقوله : (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون) [الأنعام : ١١٠] وقوله : (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ماكسبوا) [آل عمران : ١٥٥] وقوله : (وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون) [البقرة :٨٨] وقوله : (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين) [التوبة : ٢٥] وهو كثير في القرآن وعلى هذا فيكون النوعان من السيئات أعني المصائب والمعايب من نفس الإنسان وكلاهما بقدر الله فشر النفس هو الذي أوجب هذا وهذا وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول[١] في خطبته المعروفة : « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا » فشر النفس نوعان : صفة وعمل والعمل ينشأ عن الصفة ، والصفة تتأكد وتقوى بالعمل فكل منهما يمد الآخر وسيئات الأعمال نوعان قد فسرهما الحديث : أحدهما : مساويها وقبائحها فتكون الإضافة فيه من النوع إلى جنسه وهي إضافة بمعنى من أي السيئات من أعمالنا والثاني : أنها ما يسوء العامل مما يعود عليه من عقوبة عمله فيكون من إضافة المسبب إلى سببه وتكون الإضافة على معنى اللام وقد يرجح الأول بأنه يكون قد استعاذ من الصفة والعمل الناشيء عنها وذلك يتضمن الاستعاذة من الجزاء السيء المترتب على ذلك فتضمنت الاستعاذة ثلاثة أمور : الاستعاذة من العذاب ، ومن سببه الذي هو العمل ومن سبب العمل الذي هو الصفة وقد يرجح الثاني : أن شر النفس يعم النوعين كما تقدم فسيئات الأعمال ما يسوء من جزائها ونبه بقوله : « سيئات أعمالنا » على أن الذي يسوء من الجزاء إنما هو بسبب الأعمال الإرادية لا من الصفات التي ليست من أعمالنا ولما كانت تلك الصفة شرا استعاذ منها وأدخلها

---

(١) رواه أبو داود (١٥٣/٦) في النكاح ، باب : في خطبة النكاح .
والترمذي (٤١٣/٣) في النكاح ، باب : ما جاء في خطبة النكاح .
والنسائي (١٠٥/٣) في الجمعة ، باب كيفية الخطبة .
وصححه وبين طرقه الشيخ العلامة ناصر الدين الألباني في رسالة مستقلة .

في شر النفس وقال الصديق رضي الله تعالى عنه للنبي صلى الله عليه وسلم[1] : علمني دعاء أدعو به في صلاتي قال : « قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه وأن اقترف على نفسي سوءا أو أجره إلى مسلم قله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك » . ولما كان الشر له مصدر يبتدي منه وغاية ينتهي إليها وكان مصدرها : إما من نفس الإنسان وإما من الشيطان ، وغايته أن يعود على صاحبه أو على أخيه المسلم تضمن الدعاء هذه المراتب الأربعة بأوجز لفظ وأوضحه وأبينه .

فصل

قال السني : فليس لك أيها القدري أن تحتج بالآية التي نحن فيها لمذهبك لوجوه : أحدها : أنك تقول : فعل العبد حسنة كان أو سيئة هو منه لا من الله بل الله سبحانه قد أعطى كل واحد من الاستطاعة ما يفعل به الحسنات والسيئات ولكن هذا أحدث من عند نفسه إرادة فعل بها الحسنات ، وهذا أحدث إرادة فعل بها السيئات وليست واحدة من الإرادتين من إحداث الرب سبحانه البتة ولا أوجبتها مشيئته والآية قد فرقت بين الحسنة والسيئة وأنتم لا تفرقون بينهما فإن الله عندكم لم يشأ هذا ولا هذا : قال القدري : إضافة السيئة إلى نفس العبد لكونه هو الذي أحدثها وأوجدها وأضاف الحسنة إليه سبحانه لكونه هو الذي أمر بها وشرعها . قال السني : الله سبحانه أضاف إلى العبد ما أصابه من سيئة وأضاف إلى نفسه ما أصاب العبد من حسنة ، ومعلوم أن الذي أصاب العبد هو الذي قام به والأمر لم يقم بالعبد وإنما قام به المأمور وهو الذي أصابه فالذي

---

(١) صحيح رواه الترمذي (٤٣٦،٤٣٥/٥) في الدعوات باب (١٤) .
وأبو داود (٤٠٦/١٣) في الأدب ، باب : ما يقول إذا أصبح .
ورواه غيرهما .

أصابه لا تصح إضافته إلى الرب عندكم والمضاف إلى الرب لم يقم بالعبد فعلم أن الذي أصابه من هذا وهذا أمر قائم به فلو كان المراد به الأفعال الاختيارية من الطاعات والمعاصي لاستوت الإضافة ولم يصح الفرق وإن افترقا في كون أحدهما مأمورا به والآخر منهيا عنه على أن النهي أيضا من الله كما أن الأمر منه فلو كانت الإضافة لأجل الأمر لاستوى المأمور والمنهي في الإضافة ؛ لأن هذا مطلوب إيجاده وهذا مطلوب إعدامه .

قال القدري : أنا أجوز تعلق الطاعة والمعصية بمشيئة الرب سبحانه وإحداثه على وجه الجزاء لا على سبيل الابتداء وذلك أن الله سبحانه يعاقب عبده بما شاء ويثيبه فكما يعاقبه بخلق الجزاء الذي يسوءه ، وخلق الثواب الذي يسره ولذلك يحسن أن يعاقبه بخلق المعصية وخلق الطاعة فإن هذا يكون عدلا منه وأما أن يخلق فيه الكفر والمعصية ابتداء بلا سبب فمعاذ الله من ذلك .

قال السني : هذا توسط حسن جدا لا يأباه العقل ولا الشرع ولكن من ابتدأ الأول وليس هو عندك مقدورا لله ولا واقعا بمشيئته فقد أثبت في ملكه مالا يقدر عليه وأدخلت فيه ما لايشاء ونقضت أصلك كله فإنك أصلت أن فعل العبد الاختياري قدرة العبد عليه واختياره له ومشيئته تمنع قدرة الرب عليه ومشيئته له وهذا الأصل لا فرق فيه بين الابتدائي والجزائي .

قال القدري : فالقرآن قد فرق بين النوعين وجعل الكفر والفسوق الثاني جزاء على الأول فعلم أن الأول من العبد قطعا وإلا لم يستقم جعل أحدهما عقوبة على الآخر وقد صرح بذلك في قوله : (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية) [المائدة : ١٣] فأضاف نقض الميثاق إليهم وتقسية القلوب إليه فالأول سبب منهم ، والثاني جزاء منه سبحانه قال تعالى : (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون) [الأنعام : ١١٠] فأضاف عدم الإيمان أولا إليهم إذ هو السبب وتقليب القلوب وتركهم في طغيانهم هو الجزاء ومثله قوله : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) [الصف : ٥] والآيات التي سمعتموها آنفا إنما تدل على هذا .

قال السني : نعم هذا حق لكن ليس فيه إخراج السبب عن كونه مقدورا للرب سبحانه واقعا بمشيئته ولوشاء لحال بين العبد وبينه ووفقه لضده فهي البقية التي بقيت عليك من القدر كما أن إنكار إثبات الأسباب واقتضائها لمسبباتها وترتبها عليها هي البقية التي بقيت على الجبري في المسئلة أيضا وكلاكما مصيب من وجه مخطيء من وجه ولو تخلص كل منكما من البقية التي بقيت عليه لوجدتما روح الوفاق واصطلحتما على الحق وبالله التوفيق .

قال القدري : فما تقول أنت أيها السني في العقل الأول إذا لم يكن جزاء فما وجهه وأنت ممن يقول بالحكمة والتعليل وتنزه الرب سبحانه عن الظلم الذي هو ظلم لا ما يقوله الجبري أنه الجمع بين النقيضين .

قال السني : لا يلزمني في هذا المقام بيان ذلك فإني لم أنتصب له إنما انتصبت لإبطال احتجاجك بالآية لمذهبك الباطل وقد وفيت به ، ولله في ذلك حكم وغايات محمودة لا تبلغها عقول العقلاء ومباحث الأذكياء فالله سبحانه إنما يضع فضله وتوفيقه وإمداده في المحل الذي يصلح له وما لا يصلح له من المحال يدعه غفلا فارغا من الهدى والتوفيق فيجري مع طبعه الذي خلق عليه ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون .

قال القدري : فإذا كان الله سبحانه قد أحدث فيهم تلك الإرادة والمشيئة المستلزمة لوجود الفعل كان ذلك إيجادا منه سبحانه لذلك فيهم كما أوجد الهدى والإيمان في أهله قال السني : هذا معترك النزال وتفرق طرق العالم والله سبحانه أعطى العبد مشيئة وقدرة وإرادة تصلح لهذا ولهذا ثم أمد أهل الفضل بأمور وجودية زائدة على ذلك المشترك أوجب له الهداية والإيمان وأمسك ذلك الإمداد عمن علم أنه لا يصلح له ولا يليق به فانصرفت قوى إرادته ومشيئته إلى ضده اختيارا منه ومحبة لا كرها واضطرارا .

قال القدري : فهل كان يمكنه إرادة ما لم يعن عليه ولم يوفق له بإمداد زائد على خلق الإرادة .

قال السني : إن أردت بالإمكان أنه يمكنه فعله لو أراده فنعم هو ممكن بهذا الاعتبار مقدور له وإن أردت به أنه ممكن وقوعه بدون مشيئة الرب وإذنه فليس يمكن فإنه ماشاء الله كان ووجب وجوده وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده.

قال القدري : فقد سلمت حينئذ أنه غير ممكن للعبد إذا لم يشأ الله منه أن يفعله فصار غير مقدور للعبد فقد عوقب على ترك ما لا يقدر على فعله .

قال السني : عدم إرادة الله سبحانه للعبد ومشيئته أن يفعل لا يوجب كون الفعل غير مقدور له فإنه سبحانه لا يريد من نفسه أن يعينه عليه مع كونه أقدره عليه ولا يلزم من إقداره عليه وقوعه حتى توجد منه إعانة أخرى فانتفاء تلك الإعانة لا يخرج الفعل عن كونه مقدورا للعبد فإنه قد يكون قادرا على الفعل لكن يتركه كسلا وتهاونا وإيثاراً لفعل ضده فلا يصرف الله عنه ترك الواقع ولا يوجب عدم صرفه كونه عاجزا عن الفعل فإن الله سبحانه يعلم أنه قادر عليه بالقدرة التي أقدره بها ويعلم أنه لا يريده مع كونه قادرا عليه فهو سبحانه مريد له ومنه الفعل ولا يريد من نفسه إعانته وتوفيقه وقطع هذه الإعانة والتوفيق لا يخرج الفعل عن كونه مقدورا له وإن جعلته غير مراد ، وسر المسئلة الفرق بين تعلق الإرادة بفعل العبد وتعلقها بفعله هو سبحانه بعده فمن لم يحط معرفة بهذا الفرق لم يكشف له حجاب المسئلة .

قال الجبري : إما أن تقول إن الله علم أن العبد لا يفعل أو لم يعلم ذلك والثاني محال وإذا كان قد علم أنه لا يفعله صار الفعل ممتنعا قطعا إذ لو فعله لانقلب العلم القديم جهلا .

قال السني : هذه حجة باطلة من وجوه : **أحدها** : أن هذا بعينه يقال فيما علم الله أنه لا يفعله وهو مقدور له فإنه لا ينفع البتة مع كونه مقدورا له فما كان جوابك عن ذلك فهو جوابنا لك . **وثانيها** : أن الله سبحانه يعلم الأمور على ماهي عليه فهو يعلم أنه لا يفعله لعدم إرادته له لا لعدم قدرته عليه ، **وثالثها** : أن العلم كاشف لا موجب وإنما الموجب مشيئة الرب ، والعلم يكشف حقائق المعلومات .

عدنا إلى الكلام على الآية التي احتج بها القدري وبيان أنه لا حجة فيها من ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه قال : ما أصابك ، ولم يقل : ماأصبت .

الثاني : أن المراد بالحسنة والسيئة النعمة والمصيبة .

الثالث : أنه قال : (قل كل من عند الله) فالإنسان هو فاعل السيئات ويستحق عليها العقاب والله هو المنعم عليه بالحسنات عملا وجزاء والعادل فيه بالسيئات قضاء وجزاء ولو كان العمل الصالح من نفس العبد كما كان السيء من نفسه لكان الأمران كلاهما من نفسه والله سبحانه قد فرق بين النوعين وفي الحديث الصحيح الإلهي [1] : « ياعبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

فصـــل

قال الجبري : أول الآية محكم وهو قوله : (كل من عند الله) وآخرها متشابه وهو قوله : (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) .

قال القدري : آخرها محكم وأولها متشابه .

قال السني : أخطأتما جميعا بل كلاهما محكم مبين وإنما أتيتما من قلة الفهم في القرآن وتدبره فليس بين اللفظين تناقض لا في المعنى ولا فى العبارة فإنه سبحانه وتعالى ذكر عن هؤلاء الناكلين عن الجهاد أنهم إن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا لرسوله صلى الله عليه وسلم هذه من عندك أي بسبب ما أمرتنا به من دينك وتركنا ما كنا عليه أصابتنا هذه السيئات لأنك

---

(١) رواه مسلم (٤٣٩/٥) في البر ، باب : تحريم الظلم .
والترمذي (٥٦٦/٤) في صفة القيامة والرقائق والورع ، باب : (٤٨) .

أمرتنا بما أوجبها فالسيئات هاهنا هي المصائب والأعمال التي ظنوا أنها سبب المصائب هي التي أمروا بها وقولهم في السيئة التي تصيبهم هذه من عندك تتناول مصائب الجهاد التي حصلت لهم من الهزيمة والجراح وقتل من قتل منهم وتتناول مصائب الرزق على وجه التطير والتشاؤم أي أصابنا هذا بسبب دينك كما قال تعالى عن قوم فرعون : (فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه) [الأعراف : ١٣١] أي إذا جاءهم ما يسرون به ويتنعمون به من النعم قالوا نحن أهل ذلك ومستحقوه وإن أصابهم ما يسوءهم قالوا هذا بسبب ما جاء به موسى وقال أهل القرية للمرسلين : (إنا تطيرنا بكم) [يس : ١٨] وقال قوم صالح له عليه الصلاة والسلام : (اطيرنا بك وبمن معك) [النمل : ٤٧] وكانوا يقولون لما ينالهم من سبب الحرب : هذا منك لانك أمرتنا بالأعمال الموجبة له وللمصائب الحاصلة من غير جهة العدو وهذا أيضا منك أي بسبب مفارقتنا لديننا ودين آبائنا والدخول في طاعتك وهذه حال كل من جعل طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم سببا لشر أصابه من السماء أو من الأرض وهؤلاء كثير في الناس وهم الأقلون عند الله تعالى قدرا الأرذلون عنده ومعلوم أنهم لم يقولوا هذه من عندك بمعنى أحدثتها ومن فهم هذا تبين له أن قوله تعالى: (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) لا يناقض قوله تعالى : (قل كل من عند الله) بل هذا تحقيق له فإنه سبحانه بين أن النعم والمصائب كلها من عنده فهو الخالق لها المقدر لها المبتلي خلقه بها فهي من عنده ليس بعضها من عنده وبعضها خلقا لغيره فكيف يضاف بعضها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وبعضها إلى الله تعالى ومعلوم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يحدثها فلم يبق إلا ظنهم أنه سبب لحصولها إما في الجملة كحال أهل التطير وإما في الواقعة المعينة كحال اللائمين له في الجهاد فأبطل الله سبحانه ذلك الوهم الكاذب والظن الباطل وبين أن ما جاء به لا يوجب الشر البتة بل الخير كله فيما جاء صلى الله عليه وسلم به والشر بسبب أعمالهم وذنوبهم كما قال الرسل عليهم السلام لأهل القرية : (طائركم معكم) [يس :١٩] ولا يناقض هذا قول صالح عليه السلام لقومه: (طائركم عند الله) [النمل:٤٧] وقوله تعالى عن قوم فرعون: (وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن

معه ألا إنما طائرهم عند الله) [الأعراف : ١٣١] بل هاتان النسبتان نظير هاتين النسبتين في هذه الآية وهي نسبة السيئة إلى نفس العبد ونسبة الحسنة والسيئة إلى أنهما من عند الله عز وجل فتأمل اتفاق القرآن وتصديق بعضه بعضا. فحيث جعل الطائر معهم والسيئة من نفس العبد فهو على جهة السبب والموجب، أي الشر والشؤم الذي أصابكم هو منكم ومعكم فإن أسبابه قائمة بكم كما تقول : شرك منك وشؤمك فيك يراد به العمل وطائرك معك . وحيث جعل ذلك كله من عنده فهو لانه الخالق له المجازي به عدلا وحكمة فالطائر يراد به العمل وجزاؤه فالمضاف إلى العبد العمل والمضاف إلى الرب الجزاء فطائركم معكم طائر العمل وطائركم عند الله الجزاء فما جاءت به الرسل ليس سببا لشيء من المصائب ولا تكون طاعة الله ورسوله سببا لمصيبة قط بل طاعة الله ورسوله لا توجب إلا خيرا في الدنيا والآخرة ولكن قد يصيب المؤمنين بالله ورسوله مصائب بسبب ذنوبهم وتقصيرهم في طاعة الله ورسوله كما لحقهم يوم أحد ويوم حنين ، وكذلك ما امتحنوا به من الضراء وأذى الكفار لهم ليس هو بسبب نفس إيمانهم ولا هو موجبه وإنما امتحنوا به ليخلص ما فيهم من الشر فامتحنوا بذلك كما يمتحن الذهب بالنار ليخلص من غشه والنفوس فيها ما هو من مقتضى طبعها فالامتحان يمحص المؤمن من ذلك الذي هو من موجبات طبعه كما قال تعالى : (وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) [آل عمران : ١٤١] وقال : (وليبتلي الله ما في صدوركم) [آل عمران: ١٥٤] فطاعة الله ورسوله لا تجلب إلا خيرا ومعصيته لا تجلب إلا شرا.

ولهذا قال سبحانه : (فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا) فإنهم لو فقهوا الحديث لعلموا أنه ليس في الحديث الذي أنزله الله على رسوله ما يوجب شرا البتة ولعلموا أنه سبب كل خير ولو فقهوا لعلموا أن العقول والفطر تشهد بأن مصالح المعاش والمعاد متعلقة بما جاء به الرسول فلو فقهوا القرآن علموا أنه أمرهم بكل خير ونهاهم عن كل شر وهذا مما يبين أن ما أمر الله به يعلم حسنه بالعقل وأنه كله مصلحة ورحمة ومنفعة وإحسان بخلاف ما يقوله كثير من أهل الكلام الباطل أنه سبحانه يأمر العباد بما لا مصلحة لهم فيه بل يأمرهم بما فيه مضرة لهم وقول هؤلاء تصديق وتقرير لقول المتطيرين بالرسل .

فصل

ومما يوضح الأمر في ذلك أنه سبحانه لما قال : (ماأصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) عقب ذلك بقوله : (وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا) وذلك يتضمن أشياء : منها : تنبيه أمته على أن رسوله الذي شهد له بالرسالة إذا أصابه ما يكره فمن نفسه فما الظن بغيره ومنها:أن حجة الله قد قامت عليهم بإرساله، فإذا أصابهم سبحانه بما يسوءهم لم يكن ظالما لهم في ذلك،لأنه قد أرسل رسوله إليهم يعلمهم بما فيه مصالحهم وما يجلبها لهم وما فيه مضرتهم وما يجلبها لهم فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ومنها : أنه سبحانه قد شهد له بالرسالة بما أظهره على يديه من الآيات الدالة على صدقه وأنه رسوله حقا فلا يضره جحد هؤلاء الجاهلين الظالمين المتطيرين به لرسالته وهو مَن شهد له رب السموات والأرض . ومنها : أنهم أرادوا أن يجعلوا سيئاتهم وعقوباتها حجة على إبطال رسالته فشهد له بالرسالة وأخبر أن شهادته كافية فكان في ضمن ذلك إبطال قولهم إن المصائب من عند الرسول صلى الله عليه وسلم وإثبات أنها من عند أنفسهم بطريق الأولى . ومنها : إبطال قول الجهمية المجبرة ومن وافقهم في قولهم إن الله قد يعذب العباد بلا ذنب ، ومنها : إبطال قول القدرية الذين يقولون إن أسباب الحسنات والسيئات ليست من الله بل هي من العبد ، ومنها : ذم من لم يتدبر القرآن ، ولم يفقه وأن إعراضه عن تدبره وفقهه يوجب له من الضلال والشقاء بحسب إعراضه ، ومنها : إثبات الأسباب وإبطال قول من ينفيها ولا يرى لها ارتباطا بمسبباتها ومنها أن الخير كله من الله والشر كله من النفس فإن الشر هو الذنوب وعقوبتها والذنوب من النفس وعقوباتها مترتبة عليها والله هو الذي قدر ذلك وقضاه وكل من عنده قضاء وقدرا وإن كانت نفس العبد سببه بخلاف الخير والحسنات فإن سببها مجرد فضل الله ومنه وتوفيقه كما تقدم تقريره ، ومنها : أنه

سبحانه لما رد قولهم إن الحسنة من الله والسيئة من رسوله وأبطله بقوله : (قل كل من عند الله) رفع وهم من توهم أن نفسه لا تأثير لها في السيئة ولا هي منها أصلا بقوله : (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وخاطبه بهذا تنبيها لغيره كما تقدم ، ومنها : أنه قال في الرد عليهم : (قل كل من عند الله) ولم يقل من الله لما جمع بين الحسنات والسيئات ، والحسنة مضافة إلى الله من كل وجه والسيئة إنما تضاف إليه قضاء وقدرا وخلقا وأنه خالقها كما هو خالق الحسنة فلهذا قال : (قل كل من عند الله) وهو سبحانه إنما خلقها لحكمة فلا تضاف إليه من جهة كونها سيئة بل من جهة ما تضمنته من الحكمة والعدل والحمد وتضاف إلى النفس كونها سيئة ولما ذكر الحسنة مفردة عن السيئة قال : (ماأصابك من حسنة فمن الله) ولم يقل من عند الله فالخير منه وأنه موجب أسمائه وصفاته والشر الذي هو بالنسبة إلى العبد شر من عنده سبحانه فإنه مخلوق له عدلا منه وحكمة ثم قال : (وما أصابك من سيئة فمن نفسك) ولم يقل من عندك لأن النفس طبيعتها ومقتضاها ذلك فهو من نفسها والجميع من عند الله فالسيئة من نفس الإنسان بلا ريب ، والحسنة من الله بلا ريب وكلاهما من عنده سبحانه قضاء وقدرا وخلقا ففرق بين مامن الله وبين مامن عنده ، والشر لا يضاف إلى الله إرادة ولا محبة ولا فعلا ولا وصفا ولا اسما فإنه لا يريد إلا الخير ولا يحب إلا الخير ولا يفعل شرا ولا يوصف به ولا يسمى باسمه ، وسنذكر في باب دخول الشر في القضاء الإلهي وجه نسبته إلى قضائه وقدره إن شاء الله .

فصل

وقد اختلف في كاف الخطاب في قوله : (ماأصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) [النساء : ٧٩] هل هي لرسول الله أو هي لكل واحد من الآدميين .

فقال ابن عباس في رواية الوالبي عنه : الحسنة ما فتح الله عليه يوم بدر من الغنيمة والفتح ، والسيئة ماأصابه يوم أحد أن شج في وجهه وكسرت رباعيته.

وقالت طائفة : بل المراد جنس ابن آدم كقوله : (ياأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم) [الانفطار : ٦] روى سعيد عن قتادة : (ما أصابك من سيئة فمن نفسك) قال : عقوبة يا ابن آدم بذنبك،ورجحت طائفة القول الأول .

واحتجوا بقوله : (وأرسلناك للناس رسولا) قالوا : وأيضا فإنه لم يتقدم ذكر الإنسان ولا خطابه وإنما تقدم ذكر الطائفة قالوا ما حكاه الله عنهم فلو كانوا هم المرادين لقال : ماأصابهم أو ما أصابكم على طريق الالتفات . قالوا : وهذا من باب السبب لأنه إذا كان سيد ولد آدم وهكذا حكمه فكيف بغيره . ورجحت طائفة القول الآخر .

واحتجت بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم معصوم لا يصدر عنه ما يوجب أن تصيبه به سيئة . قالوا : والخطاب وإن كان له في الصورة فالمراد به الأمة كقوله : (ياأيها النبي إذا طلقتم النساء) [الطلاق : ١] قالوا : ولما كان أول الآية خطابا له أجرى الخطاب جميعه على وجه واحد فأفرده في الثاني والمراد به الجميع والمعنى : وما أصابكم من سيئة فمن أنفسكم ، فالأول له والثاني لأمته ، ولهذا لما أفرد أصابت السيئة قال : (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) [الشورى : ٣٠] وقال : (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم) [آل عمران : ٦٩] وقال : (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) [التوبة : ٢٥،٢٦] فأخبر أن الهزيمة بذنوبهم وإعجابهم وأن النصر بما أنزله على رسوله وأيده به إذ لم يكن منه من سبب الهزيمة ما كان منه وجمعت طائفة ثالثة بين القولين وقالوا : صورة الخطاب له صلى الله عليه وسلم والمراد : العموم كقوله : (ياأيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين) [الأحزاب:١] ثم قال: (واتبع ما يوحى إليك من ربك) [الأحزاب:٢] ثم قال: (وتوكل على الله) [الأحزاب:٣] وكقوله: (ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن

أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين) [الزمر : ٦٥،٦٦] وقوله : (فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسئل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك) [يونس : ٩٤] قالوا : وهذا الخطاب نوعان : نوع يختص لفظه به لكن يتناول غيره بطريق الأولى ، كقوله : (ياأيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك) [التحريم : ١] ثم قال : (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) [التحريم :٢] ونوع يكون الخطاب له وللأمة فأفرده بالخطاب لكونه هو المواجه بالوحي وهو الأصل فيه والمبلغ للأمة والسفير بينهم وبين الله وهذا معنى قول كثير من المفسرين:الخطاب له والمراد غيره ولم يريدوا بذلك أنه لم يخاطب بذلك أصلا و لم يرد به البتة بل المراد أنه لما كان إمام الخلائق ومقدمهم ومتبوعهم أفرد بالخطاب وتبعته الأمة في حكمه كما يقول السلطان لمقدم العساكر : اخرج غدا وانزل بمكان كذا واحمل على العدو وقت كذا ، قالوا : فقوله : (ماأصابك من حسنة فمن الله وماأصابك من سيئة فمن نفسك) خطاب له ، وجميع الأمة داخلون في ذلك بطريق الأولى بخلاف قوله : (وأرسلناك للناس رسولا) فإن هذا له خاصة قالوا : وهذه الشرطية لا تستلزم الوقوع بل تربط الجزاء بالشرط وأما وقوع الشرط والجزاء فلا يدل عليه فهو مقدر في حقه محقق في حق غيره . والله أعلم .

قال القدري : إذا كانت الطاعات والمعاصي مقدرة ، والنعم والمصائب مقدرة فلم فرق سبحانه بين الحسنات التي هي النعم والسيئات التي هي المصائب فجعل هذه منه سبحانه وهذه من نفس الإنسان والجميع مقدر .

قال السني : بينهما فروق :

الفرق الأول : أن نعم الله وإحسانه إلى عباده يقع بلا كسب منهم أصلا بل الرب سبحانه ينعم عليهم بالعافية والرزق والنصر وإرسال الرسل وإنزال الكتب وأسباب الهداية فيفعل ذلك من لم يكن منه سبب يقتضيه وينشىء للجنة خلقا يسكنهم إياها بغير سبب منهم ويدخل أطفال المؤمنين ومجانينهم الجنة بلا عمل وأما العقاب فلا يعاقب أحدا إلا بعمله .

الفرق الثاني : أن عمل الحسنات من إحسان الله ومنه وتفضله عليه بالهداية والإيمان كما قال أهل الجنة : (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) [الأعراف : ٤٣] فخلق الرب سبحانه لهم الحياة والسمع والبصر والعقول والأفئدة وإرسال الرسل وتبليغهم البلاغ الذي اهتدوا به وإلهامهم الإيمان وتحبيبه إليهم وتزيينه في قلوبهم وتكريه ضده إليهم كل ذلك من نعمه كما قال تعالى : (ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم) [الحجرات : ٧،٨] فجميع ما يتقلب فيه العالم من خير الدنيا والآخرة هو نعمة محضة بلا سبب سابق يوجب ذلك لهم ومن غير حول وقوة منهم إلا به وهو خالقهم وخالق أعمالهم الصالحة وخالق جزائها، وهذا كله منه سبحانه بخلاف الشر فإنه لا يكون إلا بذنوب العبد وذنبه من نفسه ، وإذا تدبر العبد هذا علم إن ماهو فيه من الحسنات من فضل الله فشكر ربه على ذلك فزاده من فضله عملا صالحا ونعما يفيضها عليه وإذا علم أن الشر لا يحصل له إلا من نفسه وبذنوبه استغفر ربه وتاب ؛ فزال عنه سبب الشر فيكون دائما شاكرا مستغفرا فلا يزال الخير يتضاعف له والشر يندفع عنه كما كان النبي صلى الله عليه وسلم[1] يقول في خطبته: «الحمد لله» فيشكر الله ثم يقول: « نستعينه ونستغفره» نستعينه على طاعته ونستغفره من معصيته ونحمده على فضله وإحسانه ثم قال: «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا» لما استغفره من الذنوب الماضية استعاذ به من الذنوب التي لم تقع بعد ثم قال: « ومن سيئات أعمالنا» فهذه استعاذة من عقوبتها كما تقدم ثم قال: « من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له » فهذه شهادة للرب بأنه المتصرف في خلقه بمشيئته وقدرته وحكمته وعلمه وأنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، فإذا هدى عبدا لم يضله أحد،وإذا أضله لم يهده أحد،وفي ذلك إثبات ربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته وقضائه وقدره الذي هو عقد نظام التوحيد وأساسه وكل هذا مقدمة بين يدي قوله: «وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله»

---

(١) تقدّم تخريجه ص٤٤ .

فإن الشهادتين إنما تتحققان بحمد الله واستعانته واستغفاره واللجأ إليه والإيمان بأقداره ، والمقصود أنه سبحانه فرق بين الحسنات والسيئات بعد أن جمع بينهما في قوله : (كل من عند الله) فجمع بينهما الجمع الذي لا يتم الإيمان إلا به وهو اجتماعهما في قضائه وقدره ومشيئته وخلقه، ثم فرق بينهما الفرق الذي ينتفعون به وهو أن هذا الخير والحسنة نعمة منه فاشكروه عليه يزدكم من فضله ونعمه وهذا الشر والسيئة بذنوبكم فاستغفروه يرفعه عنكم وأصله من شرور أنفسكم فاستعيذوا به يخلصكم منها، ولا يتم ذلك إلا بالإيمان بالله وحده وهو الذي يهدي ويضل وهو الإيمان بالقدر، فادخلوا عليه من بابه فإن أزمة الأمور بيده فإذا فعلتم ذلك صدق منكم شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . فهذه الخطبة العظيمة عقد نظام الإسلام والإيمان فلو اقتصر لهم على الجمع دون الفرق أعرض العاصي والمذنب عن ذم نفسه والتوبة من ذنوبه والاستعاذة من شرها وقام في قلبه شاهد الاحتجاج على ربه بالقدر ، وتلك حجة داحضة تبع الأشقياء فيها إبليس وهي لا تزيد صاحبها إلا شقاء وعذابا كما زادت إبليس طردا وبعدا عن ربه ، وكما زادت المشركين ضلالا وشقاء حين قالوا : (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا) [الأنعام: ١٤٨] وكما تزيد الذي يقول يوم القيامة (لو أن الله هداني لكنت من المتقين) [الزمر:٥٧] حسرة وعذابا ولو اقتصر لهم على الفرق دون الجمع لغابوا به في التوحيد والإيمان بالقدر واللجأ إلى الله في الهداية والتوفيق والاستعاذة به من شر النفس وسيئات العمل والافتقار التام إلى إعانته وفضله وكان في الجمع والفرق بيان حق العبودية ، وسيأتي تمام هذا الكلام على هذا الموضع العظيم القدر إن شاء الله بإثبات اجتماع القدر والشرع وافتراقهما .

الفرق الثالث : أن الحسنة يضاعفها الله سبحانه وينميها ويكتبها للعبد بأدنى سعي ويثيب على الهم بها والسيئة لا يؤاخذ على الهم بها ولا يضاعفها ويبطلها بالتوبة والحسنة الماحية والمصائب المكفرة فكانت الحسنة أولى بالإضافة إليه تعالى والسيئة أولى بالإضافة إلى النفس .

الفرق الرابع : أن الحسنة التي هي الطاعة والنعمة يحبها ويرضاها فهو

سبحانه يحب أن يطاع ويحب أن ينعم ويحسن ويجود، وإن قدر المعصية وأراد المنع فالطاعة أحب إليه والبذل والعطاء آثر عنده فكان إضافة نوعي الحسنة له وإضافة نوعي السيئة إلى النفس أولى ولهذا تأدب العارفون من عباده بهذا الأدب فأضافوا إليه النعم والخيرات وأضافوا الشرور إلى محلها كما قال إمام الحنفاء : (الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين) [الشعراء :٧٨-٨٠] فأضاف المرض إلى نفسه والشفاء إلى ربه .

وقال الخضر: (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها) [الكهف:٧٩] ثم قال: (وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما)[الكهف:٨٢].

وقال مؤمنو الجن : (وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا) [الجن : ١٠] .

الفرق الخامس : أن الحسنة مضافة إليه لأنه أحسن بها من كل وجه وبكل اعتبار كما تقدم فما من وجه من وجوهها إلا وهو يقتضي الإضافة إليه ، وأما السيئة فهو سبحانه إنما قدرها وقضاها لحكمته وهي باعتبار تلك الحكمة من إحسانه فإن الرب سبحانه لا يفعل سوءاً قط كما لا يوصف به ولا يسمى باسمه بل فعله كله حسن وخير وحكمة كما قال تعالى: (بيدك الخير) [آل عمران: ٢٦] وقال أعرف الخلق به: «والشر ليس إليك»[1] فهو لا يخلق شرا محضا من كل وجه بل كل ما خلقه ففي خلقه مصلحة وحكمة وإن كان في بعضه شر جزئي إضافي وأما الشر الكلي المطلق من كل وجه فهو تعالى منزه عنه وليس إليه .

الفرق السادس : أن ما يحصل للإنسان من الحسنات التي يعملها فهي أمور وجودية متعلقة بمشيئة الرب وقدره ورحمته وحكمته وليست أمورا عدمية تضاف إلى غير الله بل هي كلها أمور وجودية وكل موجود حادث والله محدثه وخالقه وذلك أن الحسنات إما فعل مأمور أو ترك محظور والترك أمر وجودي

(١) مر برقم (١) من سورة الفاتحة (١٢٧/١) .

فترك الإنسان لما نهي عنه ومعرفته بأنه ذنب قبيح وبأنه سبب العذاب فبغضه له وكراهته له ومنع نفسه إذا هويته وطلبته منه أمور وجودية كما أن معرفته بالحسنات كالعدل والصدق حسنة وفعله لها أمر وجودي والإنسان إنما يثاب على ترك السيئات إذا تركها على وجه الكراهة لها والامتناع عنها وكف النفس عنها قال تعالى : (ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان) [الحجرات : ٧] وقال تعالى : (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى) [النازعات : ٤٠] وقال : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) [العنكبوت : ٤٥] .

وفي الصحيحين[١] عنه صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار » وقد جعل صلى الله عليه وسلم البغض في الله من أوثق عرى الإيمان وهو أصل الترك وجعل المنع لله من كمال الإيمان وهو أصل الترك فقال[٢] : « من أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله » وقال: «من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان»[٣]

(١) رواه البخاري في مواضع منها (١/٧٧) في الإيمان باب : حلاوة الإيمان .
ومسلم (١/٢١٧) في الإيمان ، باب : بيان خصال من اتصف بهن ... إلخ .

(٢) رواه أبو داود الطيالسي بلفظ : « أتدري أي عرى الإسلام أوثق ؟ » برقم (٣٧٨) .
وابن أبي شيبة في الإيمان برقم (١١٠) بلفظ : « أوثق عرى الإسلام ... » .
والطبراني في الكبير (١١/٢١٥) برقم (١١٥٣٧) .
بلفظ : « أي عرى الإيمان أوثق .. » .
وأحمد في المسند (٤/٢٨٦) .
والحديث حسنه الألباني كما في السلسلة الصحيحة برقم (١٧٢٨) .

(٣) رواه الإمام أحمد (٣/٤٣٨) .
وأبو داود (١٣/٤٣٨) في السنة ، باب : الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه .
والترمذي (٤/٥٧٨) في صفة القيامة ، باب : (٦٠) .
والحاكم (٢/١٦٤) وصححه وقال على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .

وجعل[1] إنكار المنكر بالقلب من مراتب الإيمان وهو بغضه وكراهته المستلزم لتركه فلم يكن الترك من الإيمان إلا بهذه الكراهة والبغض والامتناع والمنع لله ، وكذلك براءة الخليل وقومه من المشركين ومعبودهم ليست تركا محضا بل تركا صادرا عن بغض ومعاداة وكراهة هي أمور وجودية هي عبودية للقلب يترتب عليها خلو الجوارح من العمل كما أن التصديق والإرادة والمحبة للطاعة من عبودية القلب يترتب عليها آثارها في الجوارح وهذا الحب والبغض تحقيق شهادة « أن لا إله إلا الله » وهو إثبات تأله القلب لله ومحبته ونفي تألهه لغيره وكراهته فلا يكفي أن يعبد الله ويحبه ويتوكل عليه وينيب إليه ويخافه ويرجوه حتى يترك عبادة غيره والتوكل عليه والإنابة إليه وخوفه ورجاه ويبغض ذلك وهذه كلها أمور وجودية وهي الحسنات التي يثيب الله عليها وأما مجرد عدم السيئات من غير أن يعرف أنها سيئة ولا يكرهها بقلبه ويكف نفسه عنها بل يكون تركها لعدم خطورها بقلبه ولا يثاب على هذا الترك فهذا تكون السيئات في حقه بمنزلتها في حق الطفل والنائم لكن قد يثاب على اعتقاد تحريمها وإن لم يكن له إليها داعية البتة فالترك ثلاثة أقسام : قسم يثاب عليه ، وقسم يعاقب عليه ، وقسم لا يثاب ولا يعاقب :

فالأول : ترك العالم بتحريمها الكاف نفسه عنها لله مع قدرته عليها .

والثاني : كترك من يتركها لغير الله لا لله فهذا يعاقب على تركه لغير الله كما يعاقب على فعله لغير الله فإن ذلك الترك والامتناع فعل من أفعال القلب فإذا عبد به غير الله استحق العقوبة .

والثالث : كترك من لم يخطر على قلبه علم ولا محبة ولا كراهة بل بمنزلة ترك النائم والطفل .

فإن قيل : كيف يعاقب على ترك المعصية حياء من الخلق وإبقاء على جاهه بينهم وخوفا منهم أن يتسلطوا عليه والله سبحانه لا يذم على ذلك ولا يمنع منه .

(١) رواه مسلم (١/٢٢٤-٢٢٦) في الإيمان ، باب : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
والترمذي (٤/٤٠٧،٤٠٨) في الفتن ، باب : ما جاء في تغيير المنكر باليد .
والنسائي (٨/١١١) في الإيمان باب تفاضل أهل الإيمان .
وهو « من رأى منكم منكرًا فليغيره ... » الحديث .

قيل : لا ريب أنه لا يعاقب على ذلك وإنما يعاقب على تقربه إلى الناس بالترك ومراآتهم به وأنه تركها خوفا من الله ومراقبة وهو في الباطن بخلاف ذلك فالفرق بين ترك يتقرب به إليهم ومراآتهم به وترك يكون مصدره الحياء منهم وخوف أذاهم له وسقوطه من أعينهم فهذا لا يعاقب عليه بل قد يثاب عليه إذا كان له فيه غرض يحبه الله من حفظ مقام الدعوة إلى الله وقبولهم منه ونحو ذلك وقد تنازع الناس في الترك هل هو أمر وجودي أم عدمي والأكثرون على أنه وجودي .

وقال أبو هاشم[1] وأتباعه : هو عدمي وإن المأمور يعاقب على مجرد عدم الفعل لا على ترك يقوم بقلبه وهؤلاء رتبوا الذم والعقاب على العدم المحض والأكثرون يقولون : إنما يثاب من ترك المحظور على ترك وجودي يقوم بنفسه ويعاقب تارك المأمور على ترك وجودي يقوم بنفسه وهو امتناعه وكفه نفسه عن فعل ما أمر به إذا تبين هذا فالحسنات التي يثاب عليها كلها وجودية فهو سبحانه الذي حبب الإيمان والطاعة إلى العبد وزينه في قلبه، وكره إليه أضدادها وأما السيئات فمنشأها من الجهل والظلم، فإن العبد لا يفعل القبيح إلا لعدم علمه بكونه قبيحا أو لهواه وشهوته مع علمه بقبحه فالأول جهل والثاني ظلم ولا يترك حسنة إلا لجهله بكونها حسنة أو لرغبته في ضدها لموافقته هواه وغرضه ، وفي الحقيقة فالسيئات كلها ترجع إلى الجهل وإلا فلو كان علمه تاما برجحان ضررها لم يفعلها فإن هذا خاصة الفعل فإنه إذا علم أن إلقاءه بنفسه من مكان عال يضره لم يقدم عليه وكذلك لبثه تحت حائط مائل وإلقاؤه نفسه في ماء يغرق فيه وأكله طعاما

---

(١) أبو هاشم : عبد السلام بن أبي علي محمد الجُبّائي ، المعتزلي ، من كبار الأذكياء .
ولد في سنة سبع وأربعين ومائتين .
وتوفي يوم الأربعاء من شعبان سنة إحدى وعشرين وثلثمائة ببغداد .
والجُبّائي : بضم الجيم وتشديد الباء الموحدة ، نسبة إلى قرية من قرى البصرة .
سير أعلام النبلاء (١٥/٦٣) .
وفيات الأعيان (٣/١٨٣) .
الأنساب للسمعاني (٢/١٧) .
وتاريخ بغداد (١١/٥٥،٥٦) .

مسموما لا يفعله لعلمه التام بمضرته الراجحة بل هذه فطرة فطر الله عليها الحيوان بهيمه وناطقه ومن لم يعلم أن ذلك يضره كالطفل والمجنون والسكران الذي انتهى سكره فقد يفعله وأما من أقدم على ما يضره مع علمه بما فيه من الضرر، فلابد أن يقوم بقلبه أن منفعته له راجحة ولابد من رجحان المنفعة عنده إما في الظن وإما في المظنون، ولو جزم راكب البحر بأنه يغرق ويذهب ماله لم يركب أبدا، بل لابد من رجحان الانتفاع في ظنه وإن أخطأ في ذلك، وكذلك الذنوب والمعاصي فلو جزم السارق بأنه يؤخذ ويقطع لم يقدم على السرقة، بل يظن أنه يسلم ويظفر بالمال، وكذلك القاتل، والشارب، والزاني، فلو جزم طالب الذنب بأنه يحصل له الضرر الراجح لم يفعله بل إما أن لا يكون جازما بتحريمه أو لا يجزم بعقوبته بل يرجو العفو والمغفرة وأن يتوب ويأتي بحسنات تمحو أثره وقد يغفل عن هذا كله بقوة وإرادة الشهوة واستيلاء سلطانها على قلبه بحيث تغيبه عن مطالعة مضرة الذنب والغفلة من أضداد العلم كالغفلة والشهوة أصل الشر كله قال تعالى : (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) [الكهف : ٢٨] وينبغي أن يعلم أن الهوى وحده لا يستقل بفساد السيئات إلا مع الجهل وإلا فصاحب الهوى لو جزم بأن ارتكاب هواه يضره ولابد ضررا راجحا لانصرفت نفسه عن طاعته له بالطبع فإن الله سبحانه جعل في النفس حبا لما ينفعها وبغضا لما يضرها، فلا تفعل مع حضور عقلها ما تجزم بأنه يضرها ضررا راجحا، ولهذا يوصف تارك ذلك بالعقل والحجى واللب فالبلاء مركب من تزيين الشيطان، وجهل النفس، فإنه يزين لها السيئات ويريها أنها في صور المنافع واللذات والطيبات ويغفلها عن مطالعتها لمضرتها، فتولد من بين هذا التزيين وهذا الإغفال والإنساء لها إرادة وشهوة، ثم يمدها بأنواع التزيين فلا يزال يقوى حتى يصير عزما جازما يقترن به الفعل، كما زين للأبوين الأكل من الشجرة وأغفلهما من مطالعة مضرة المعصية فالتزيين هو سبب إيثار الخير والشر كما قال تعالى : (وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) وقال: (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا) [فاطر :٨]. وقال في تزيين الخير: (ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم) [الحجرات:٧]. وقال في تزيين النوعين : (كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم

فينبئهم بما كانوا يعملون) [الأنعام:١٠٨] وتزيين الخير والهدى بواسطة الملائكة والمؤمنين وتزيين الشر والضلال بواسطة الشياطين من الجن والإنس كما قال تعالى: (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم) [الأنعام:١٣٧]وحقيقة الأمر أن التزيين إنما يغتر به الجاهل لأنه يلبس له الباطل والضار المؤذي صورة الحق والنافع الملائم . فأصل البلاء كله من الجهل وعدم العلم ولهذا قال الصحابة : كل من عصى الله فهو جاهل وقال تعالى : (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) [النساء : ١٧] وقال : (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم) [الأنعام : ٥٤] قال أبو العالية : سألت أصحاب محمد عن قوله : (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) فقالوا : كل من عصى الله فهو جاهل،ومن تاب قبل الموت فقد تاب من قريب . وقال قتادة : أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن كل ما عصي الله به فهو جهالة عمدا كان أو لم يكن، وكل من عصى الله فهو جاهل. وقال مجاهد : من شيخ أو شاب فهو بجهالة، وقال : من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع عن خطيئته ، وقال هو وعطاء : الجهالة العمد ، وقال مجاهد : من عمل سوءاً خطأً أو عمدا فهو جاهل حتى ينزع منه . ذكر هذه الآثار ابن أبي حاتم ثم قال : وروي عن قتادة وعمرو بن مرة والثوري نحو ذلك خطأً أو عمدا ، وروي عن مجاهد والضحاك : ليس من جهالته أن لا يعلم حلالا ولا حراما ، ولكن من جهالته حين دخل فيه .

وقال عكرمة : الدماء كلها جهالة[1] .

---

(١) شفاء العليل (١٥٩-١٧٢) .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء : ٧٩] .

التقدير يقولون – ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك – دليل ذلك أنه رد عليهم بقوله : (قل كل من عند الله فمالهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا) ومثله في القرآن العظيم كثير[(١)] .

قوله تعالى : ﴿ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء : ٨٤] .

فلما أمره بالقتال أخبره أنه لا يكلف بغيره ، بل إنما كلف نفسه ، ثم تبع ذلك بقوله : (وحرض المؤمنين) لئلا يتوهم سامع له ، وإن لم يكلف بهم ، فإنه يهملهم ويتركهم[(٢)] .

قال الله تعالى : ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ﴾ [النساء : ٨٥] .

وكل من أعان غيره على أمر بقوله أو فعله فقد صار شفيعاً له .

والشفاعة للمشفوع له ، هذا أصلها ، فإن الشافع يشفع صاحب الحاجة فيصير له شفعاً في قضائها لعجزه عن الاستقلال بها ، فدخل في حكم هذه الآية كل متعاونين على خير أو شر بقول أو عمل ونظيرها قوله تعالى : (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) [المائدة : ٢] .

وفي صحيح البخاري[(٣)] : أن بريرة لما عتقت اختارت نفسها فكان زوجها يمشي خلفها ودموعه تسيل على لحيته ، فقال لها النبي صلى الله عليه

(١) الفوائد المشوق (٢٠٠) .
(٢) الصواعق المرسلة (١/٣٩٠-٣٩١) .
(٣) البخاري (٩/٣١٩) في الطلاق ، باب : شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم في زوج بريرة .

وسلم : « لو راجعتيه فإنه أبو ولدك » فقالت : أتأمرني ؟ قال : « لا إنما أنا شافع » قالت : فلا حاجة لي فيه .

فهذه شفاعة من سيد الشفعاء لمحب إلى محبوبه ، وهي من أفضل الشفاعات وأعظمها أجراً عند الله ، فإنها تتضمن اجتماع محبوبين على ما يحبه الله ورسوله ، ولهذا كان أحب ما لإبليس وجنوده التفريق بين هذين المحبوبين .

وتأمل قوله تعالى في الشفاعة الحسنة : (يكن له نصيب منها) وفي السيئة : (يكن لها كفل منها) . فإن لفظ « الكفل » يشعر بالحمل والثقل ، ولفظ « النصيب » يشعر بالحظ الذي ينصب طالبه في تحصيله ، وإن كان كل منهما يستعمل في الأمرين عند الانفراد ، ولكن لما قرن بينهما حسن اختصاص حظ الخير بالنصيب وحظ الشر بالكفل[1] .

قال الله تعالى عن الإركاس : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ٨٨] .

قال الفراء : « أركسهم » ردهم إلى الكفر ، وقال أبو عبيدة : يقال : أركست الشيء وركسته – لغتان – إذا رددته .

والركس : قلب الشيء على رأسه ، أو رَدُّ أوله على آخره . والارتكاس : الارتداد .

قال أمية[2] :

فَأُرْكِسُوا في حَمِيمِ النَّارِ إنَّهُمُ كَانُوا عُصَاةً وَقَالُوا الإفكَ والزُّورا

ومن هذا يقال للروث : الركس ، لأنه رد إلى حال النجاسة ، ولهذا المعنى سمي رجيعاً والركس والنكس ، والمركوس والمنكوس : بمعنى واحد .

(١) روضة المحبين (٣٤٥،٣٤٦) .

٢) أمية بن أبي الصلت ، وانظر تفسير الطبري وتعليق الشيخ الأستاذ / محمود شاكر حفظه الله تعالى ، على هذا البيت (٧/٩) . المعارف .

قال الزجاج : أركسهم : نكسهم وردهم . والمعنى : أنه ردهم إلى حكم الكفار من الذل والصغار .

وأخبر سبحانه عن حكمه وقضائه فيهم وعدله ، وأن إركاسه لهم كان بسبب كسبهم وأعمالهم ، كما قال : (بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) [المطففين : ١٤] فهذا توحيده وهذا عدله لا ما يقوله القدرية والمعطلة من أن التوحيد : إنكار الصفات والعدل والتكذيب بالقدر[1] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ٩٥-٩٦] .

نفى سبحانه التسوية بين المؤمنين القاعدين عن الجهاد وبين المجاهدين ، ثم أخبر سبحانه عن تفضيل المجاهدين على القاعدين درجة ، ثم أخبر أنه فضلهم عليهم درجات .

وقد أشكل فهم هذه الآية على طائفة من الناس ، من جهة أن القاعدين الذين فُضِّلَ عليهم المجاهدون بدرجات ، إن كانوا هم القاعدين الذين فُضِّلَ عليهم أولو الضرر فيكون المجاهدون أفضل من القاعدين مطلقًا . وعلى هذا فما وجه استثناء أولي الضرر من القاعدين ، وهم لا يستوون والمجاهدون أصلا ؟ فيكون حكم المستثنى والمستثنى منه واحدًا .

فهذا وجه الإشكال .

ونحن نذكر ما يزيل الإشكال بحمد الله . فنقول :

اختلف القراء في إعراب « غير » فقرىء رفعاً ونصباً وهما في السبعة ، وقرىء بالجر في غير السبعة . وهي قراءة أبي حيوة[2] .

(١) شفاء العليل (١٠١) .
(٢) انظر كتاب الشيعة لابن مجاهد (٢٣٧) .

فأما قراءة النصب فعلى الاستثناء ، لأن « غير » يعرب في الاستثناء إعراب الاسم الواقع بعد « إلا » وهو النصب . هذا هو الصحيح .

وقالت طائفة : إعرابها نصب على الحال ، أي لا يستوي القاعدون غير مضرورين ، أي لا يستوون في حال صحتهم هم والمجاهدون . والاستثناء أصح ، فإن « غير » لا تكاد تقع حالاً في كلامهم إلا مضافة إلى نكرة ، كقوله تعالى : (فمن اضطر غير باغ) وقوله عز وجل : (أُحِلَّتْ لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غَيْرَ مُحِلِّي الصيد) وقوله صلى الله عليه وسلم : « مرحباً بالوفد غير خزايا ولا ندامى »[1] .

فإن أضيفت إلى معرفة كانت تابعة لما قبلها . كقوله تعالى : (صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم) [الفاتحة : ٧] ولو قلت : مرحبًا بالوفد غير الخزايا ولا الندامى لجررت « غير » هذا هو المعروف من كلامهم .

والكلام في عدم تعريف « غير » بالإضافة ، وحسن وقوعها إذ ذاك حالا له مقام آخر .

وأما بالرفع : فعلى النعت للقاعدين . هذا هو الصحيح .

وقال أبو إسحاق وغيره : هو خبر مبتدأ محذوف تقديره : الذين هم غير أولي الضرر .

والذي حمله على هذا : ظنه أن « غير » لا يقبل التعريف بالإضافة . فلا تجزي صفة للمعرفة . وليس مع من ادعى ذلك حجة يعتمد عليها ، سوى أن « غير » توغلت في الإبهام . فلا تتعرف بما يضاف إليه .

وجواب هذا : أنها إذا دخلت بين متقابلين لم يكن فيها إبهام لتعيينها ما تضاف إليه .

وأما قراءة الجر : ففيها وجهان أيضاً .

أحدهما : – وهو الصحيح – أنه نعت للمؤمنين .

(١) رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما (١٥٧/١) في الإيمان باب : أداء الخمس من الإيمان .

والثاني : – وهو قول المبرد – أنه بدل منه . بناء على أنه نكرة . فلا ينعت به المعرفة .

وعلى الأقوال كلها : فهو مفهم معنى الاستثناء ، وأن نفي التسوية غير مسلط على ما أضيف إليه « غير » .

وقوله : (وفضل الله المجاهدين على القاعدين درجة) هو مبين لمعنى نفي المساواة .

قالوا : والمعنى : فضل الله المجاهدين على القاعدين من أولي الضرر درجة واحدة لامتيازهم عنهم بالجهاد بنفسهم ومالهم . ثم أخبر سبحانه أن الفريقين كليهما موعود بالحسنى ، فقال : (وكلا وعد الله الحسنى) أيْ المجاهد والقاعد المضرور لاشتراكهم في الإيمان .

قالوا : وفي هذا دليل على تفضيل الغني المنفق على الفقير ؛ لأن الله أخبر أن المجاهد بماله ونفسه أفضل من القاعد ، وقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس . وأما الفقير فنفى عنه الحرج بقوله : (ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه) [التوبة : ٩٢] .

فأين مقام من حكم له بالتفضيل إلى مقام من نفي عنه الحرج ؟

قالوا : فهذا حكم القاعد من أولي الضرر والمجاهد .

وأما القاعد من غير أولي الضرر : فقال تعالى : (وفضل المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيما) .

وقوله : (درجات) قيل : هو نصب على البدل من قوله : (أجراً عظيما) وقيل : تأكيد له ، وإن كان بغير لفظه . لأنه هو هو في المعنى .

قال قتادة : الإسلام درجة ، والهجرة في الإسلام درجة ، والجهاد في الهجرة درجة ، والقتل في الجهاد درجة .

وقال ابن زيد : الدرجات التي فضل الله بها المجاهد على القاعد سبع : وهي التي ذكرها الله في براءة ، إذ يقول تعالى : (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ

ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يَطَئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين) [التوبة : ١٢٠] فهذه خمس .

ثم قال : (ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم) [التوبة : ١٢١] فهاتان اثنتان

وقيل : الدرجات سبعون درجة مابين الدرجتين حُضْر الفرس الجواد المضمر سبعين سنة .

والصحيح : أن الدرجات هي المذكورة في حديث أبي هريرة الذي رواه البخاري[1] في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من آمن بالله ورسوله ، وأقام الصلاة ، وصام رمضان ، فإن حقاً على الله أن يدخله الجنة ، هاجر في سبيله أو جلس في أرضه التي ولد فيها . قالوا : يارسول الله ، أفلا نخبر الناس بذلك ؟ قال : إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله . كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة » قالوا : وجعل سبحانه وتعالى التفضيل الأول بدرجة فقط ، وجعل هاهنا بدرجات ، ومغفرة ورحمة . وهذا يدل على أنه يفضل على غير أولي الضرر .

فهذا تقرير هذا القول وإيضاحه .

ولكن بقي أن يقال : إذا كان المجاهدون أفضل من القاعدين مطلقاً لزم أن لا يستوي مجاهد وقاعد مطلقا ، فلا يبقى في تقييد القاعدين بكونهم من غير أولي الضرر فائدة . فإنه لا يستوي المجاهدون والقاعدون من أولي الضرر أيضاً .

وأيضاً فإن القاعدين المذكورين في الآية الذين وقع التفضيل عليهم هم غير أولي الضرر ، لا القاعدون الذين هم أولو الضرر . فإنهم لم يذكر حكمهم

---

(١) رواه البخاري في مواضع منها : (٦/١٤) .
في الجهاد ، باب : درجات المجاهدين في سبيل الله .

في الآية ، بل استثناهم ، وبين أن التفضيل على غيرهم . فاللام في القاعدين للعهد . والمعهود : هم غير أولي الضرر ، لا المضرورون .

وأيضاً فالقاعد من المجاهدين لضرورة تمنعه من الجهاد له مثل أجر المجاهد ، كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال[١] : « إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمل صحيحاً مقيما » وقال صلى الله عليه وسلم[٢] : « إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا وهم معكم . قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال : وهم بالمدينة ، حبسهم العذر » .

وعلى هذا فالصواب أن يقال : الآية دلت على أن القاعدين من غير أولي الضرر عن الجهاد لا يستوون هم والمجاهدون ، وسكت عن حكمهم بطريق منطوقها ولا يدل مفهومها على مساواتهم للمجاهدين ، بل هذا النوع منقسم إلى معذورين من أهل الجهاد ، غلبه عذره ، وأقعده عنه ، ونيته جازمة لم يتخلف عنها مقدورها وإنما أقعده العجز .

فهذا الذي تقتضيه أدلة الشرع أن له مثل أجر المجاهد . وهذا القسم لا يتناوله الحكم بنفي التسوية .

وهذا لأن قاعدة الشريعة أن العزم التام إذا اقترن به ما يمكن من الفعل أو مقدمات الفعل نزل صاحبه في الثواب والعقاب منزلة الفاعل التام ، كما دل عليه قوله صلى الله عليه وسلم[٣] : « **إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار** » **قالوا : هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال : « إنه كان حريصاً على قتل صاحبه »** .

---

(١) رواه البخاري (١٥٨/٦) في الجهاد ، باب : يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل ... ورواه غيره .

(٢) رواه البخاري (٥٥/٦) في الجهاد والسير ، باب : من حبسه العذر عن الغزو .
ومسلم (٥٧٤/٤) في الإمارة باب : ثواب من حبسه عن الغزو مرض .

(٣) رواه البخاري في مواضع منها : (٣٥/١) في الإيمان ، باب : إذا التقى المسلمان بسيفيهما .
وأيضاً (١٠٦/١٣) في الفتن ، باب : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا .. ﴾ .
ومسلم (٧٣٧،٧٣٦/٥) في الفتن .

وفي الترمذي ومسند الإمام أحمد من حديث أبي كبشة الأنماري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال[١] : « إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالاً وعلماً ، فهو يتقي في ماله ربه ويصل به رحمه ، ويعلم لله فيه حقاً ، فهذا بأحسن المنازل ، وعبد رزقه الله علماً و لم يرزقه مالا ، فهو يقول : لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته ، وهما في الأجر سواء ، وعبد رزقه الله مالا و لم يرزقه علماً ، فهو لا يتقي في ماله ربه ، ولا يصل به رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقاً ، فهذا بأسوأ المنازل عند الله ، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علماً فهو يقول : لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان ، فهو بنيته ، وهما في الوزر سواء » فأخبر صلى الله عليه وسلم أن وزر الفاعل والناوي الذي ليس مقدوره إلا بقوله دون فعله سواء ، لأنه أتى بالنية ومقدوره التام ، وكذلك أجر الفاعل والناوي الذي اقترن قوله بنيته ، وكذلك المقتول الذي اقترن قوله بنيته ، وكذلك المقتول الذي سل السيف وأراد به قتل أخيه المسلم فقتل ، نزل منزلة القاتل لنيته التامة التي اقترن بها مقدورها من السعي والحركة ، ومثل هذا قوله صلى الله عليه وسلم[٢] : « من دل على خير فله مثل أجر فاعله » فإنه بدلالته ونيته نزل منزلة الفاعل ، ومثله[٣] : « من دعا إلى هدى فله مثل أجور من اتبعه ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الوزر مثل آثام من اتبعه » لأجل نيته واقتران مقدورها بها من الدعوة ، ومثله[٤] : « إذا جاء المصلي إلى المسجد ليصلي جماعة فأدركهم وقد صلوا فصلى

(١) رواه الإمام أحمد (٢٣٠/٤ ، ٢٣١) .
والترمذي (٤٨٧/٤) في الزهد ، باب : ما جاء : مثل الدنيا مثل أربعة نفر .
وابن ماجة رقم (٤٢٢٨) في الزهد ، باب النية . والحديث صححه الترمذي .
(٢) رواه مسلم (٥٥٧/٤) في الإمارة ، باب : فضل إعانة الغازي ...
والترمذي (٤٠/٥) في العلم ، باب ما جاء : الدال على الخير ...
وأبو داود (٣٧/١٤، ٣٨) في الأدب ، باب : في الدال على الخير .
(٣) رواه مسلم (٥٣٢/٥) في العلم ، باب : من سن سنة حسنة أو سيئة .
والترمذي (٤٢/٥) في العلم ، باب : ما جاء فيمن دعا إلى هدى ...
أبو داود (٣٦٢/١٢) في السنة ، باب : لزوم السنة .
(٤) رواه أبو داود (٢٧٢/٢) في الصلاة ، باب : من خرج يريد الصلاة ...
والنسائي (١١١/٢) في الصلاة ، باب : حد إدراك الجماعة .

وحده كتب له مثل أجر صلاة الجماعة بنيته وسعيه » . كما قد جاء مصرحاً به في حديث مروي ، ومثل [١] هذا من كان له ورد يصليه من الليل فنام وفي نيته أن يقوم إليه فغلبت عينه نوم كتب له أجر ورده ، وكان نومه عليه صدقة ، ومثله المريض والمسافر إذا كان له عمل يعمله فشغل عنه بالمرض والسفر كتب له مثل عمله وهو صحيح مقيم[٢] . ومثله : « من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله سبحانه وتعالى منازل الشهداء ولو مات على فراشه » ونظائر ذلك كثيرة[٣] .

والقسم الثاني معذور ليس من نيته الجهاد ولا هو عازم عليه عزماً تاماً ، فهذا لا يستوي هو والمجاهد في سبيل الله ، بل قد فضل الله المجاهدين عليه وإن كان معذوراً لأنه لا نية له تلحقه بالفاعل التام كنية أصحاب القسم الأول .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث عثمان بن مظعون[٤] : « إن الله قد أوقع له أجره على قدر نيته » فلما كان القسم المعذور فيه التفصيل لم يجز أن يساوى بالمجاهد مطلقاً ، ولا ينفي عنه المساواة مطلقاً ، ودلالة المفهوم لا عموم لها ، فإن العموم إنما هو من أحكام الصيغ العامة وعوارض الألفاظ ، والدليل الموجب للقول بالمفهوم لا يدل على أن له عموماً يجب اعتباره ، فإن أدلة المفهوم ترجع إلى شيئين :أحدهما : التخصيص ، والآخر : التعليل .

= والحاكم ، وصححه ووافقه الذهبي (٢٠٨/١) .

(١) انظر جامع الأصول ٤٧٧/٢ .

(٢) رواه البخاري (١٥٨/٦) في الجهاد والسير ، باب : يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل .
وأبو داود (٣٥٤/٨) في الجنائز ، باب : إذا كان الرجل يعمل عملاً صالحاً ...

(٣) رواه مسلم (٥٧٣/٤) في الإمارة ، باب : استحباب طلب الشهادة .
وأبو داود (٣٨٣/٤) في الصلاة ، باب : في الاستغفار .
والترمذي (١٥٧/٣) في فضائل الجهاد ، باب : ما جاء فيمن سأل الشهادة .
والنسائي (٣٧،٣٦/٦) في الجهاد ، باب : مسألة الشهادة .

(٤) رواه مالك في الموطأ (٢٣٤،٢٣٣/١) في الجنائز ، باب : النهي عن البكاء على الميت .
والإمام أحمد رضي الله عنه (٤٤٦/٥) .
والنسائي (١٤،١٣/٤) في الجنائز ، باب : النهي عن البكاء على الميت .

فأما التخصيص : فهو أن تخصيص الحكم بالمذكور يقتضي نفي الحكم عما عداه وإلا بطلت فائدة التخصيص ، وهذا لا يقتضي العموم وسلب حكم المنطوق عن جميع صور المفهوم ؛ لأن فائدة التخصيص قد تحصل بانقسام صور المفهوم إلى ما يسلب الحكم عن بعضها ويثبت لبعضها ثبوت تفصيل فيه ، فيثبت له حكم المنطوق على وجه دون وجه إما بشرط لا تجب مراعاته في المنطوق وإما في وقت دون وقت ، بخلاف حكم المنطوق فإنه ثابت أبداً . ونحو ذلك من فوائد التخصيص ، وإذا كانت فائدة التخصيص حاصلة بالتفصيل والانقسام فدعوى لزوم العموم من التخصيص دعوى باطلة فإثباته يجرد التحكم .

وأما التعليل فإنهم قالوا : ترتيب الحكم على هذا الوصف المناسب له يقتضي نفي الحكم عما عداه وإلا لم يكن الوصف المذكور علة . وهذا أيضاً لا يستلزم عموم النفي عن كل ما عداه ، وإنما غايته اقتضاؤه نفي الحكم المرتب على ذلك الوصف عن الصور المنفي عنها الوصف ، وأما نفي الحكم جملة فلا يجوز ثبوته بوصف آخر ، وعلة أخرى فإن الحكم الواحد بالنوع يجوز تعليله بعلل مختلفة ، وفي الواحد بالعين كلام ليس هذا موضعه . ومثال هذا ما نحن فيه لأن قوله تعالى : (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون) لا يدل على مساواة المضرورين المجاهدين مطلقاً من حيث الضرورة بل إن ثبتت المساواة فإنها معللة بوصف آخر وهي النية الجازمة والعزم التام ، والضرر المانع من الجهاد في ذلك الحال لا يكون مانعاً من المساواة في الأجر والله أعلم[1] .

قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ٩٨] .

أراد بالحيلة التحيل على التخلص من بين الكفار ، وهذه حيلة محمودة يثاب عليها ، وكذلك الحيلة على هزيمة الكفار ، كما فعل نعيم بن مسعود يوم الخندق ، أو على تخليص ماله منهم كما فعل الحجاج بن علاط بامرأته[2] وكذلك الحيلة

---

(١) طريق الهجرتين (٣٣٣-٣٣٦) .

(٢) رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (١٣٨/٣) .

على قتل رأس من رؤوس أعداء الله كما فعل الذين قتلوا ابن أبي الحقيق اليهودي[(١)] ، وكعب بن الأشرف[(٢)] ، وأبا رافع[(٣)] وغيرهم ، فكل هذه حيل محمودة محبوبة لله ومرضية له[(٤)] .

قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ [النساء : ١٠٠] .

سمى المهاجر الذي يهاجر إلى عبادة الله مراغماً يراغم به عدو الله وعدوه ، والله يحب من وليه مراغمة عدوه ، وإغاظته .

كما قال تعالى : (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين) [التوبة : ١٢٠] .

= وعبد الرزاق في المصنف (٥/٤٦٦) .
وأبو يعلى (٦/١٩٧) .
والطبراني في المعجم الكبير (٣/٢٢٠) .
وابن هشام في السيرة (٣/٢٩٣) .
والبزار (٢/٣٤٠) .
والحديث صححه الهيثمي كما في مجمع الزوائد (٦/١٥٤) .
وانظر الإصابة لابن حجر (٢/٢١٤) .

(١) هو سلام بن أبي الحقيق ، أبو رافع ، وهو ممن حزب الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم .
الطبقات لابن سعد (٢/٩١) .
وابن هشام في السيرة (٣/٢١٨-٢٢٠) .

(٢) هو كعب بن الأشرف ، اليهودي ، الذي آذى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « من لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله .... » الحديث .
رواه البخاري (٧/٣٩٠،٣٩١) في المغازي ، باب قتل كعب بن الأشرف .
ومسلم (٤/٤٤٤) في الجهاد ، باب : قتل كعب بن الأشرف .
والطبقات لابن سعد (٢/٣٢) .
والسيرة لابن هشام (٣/١٢) .

(٣) أبو رافع ، هو ابن أبي الحقيق ، انظر هامش رقم (١) في هذه الصفحة .

(٤) إعلام الموقعين (٣/٣٠٨) .

فمغايظة الكفار غاية محمودة للرب مطلوبة له . فموافقته فيها من كمال العبودية ، وشرع النبي صلى الله عليه وسلم للمصلي إذا سها في صلاته سجدتين ، وقال[١] : « إن كانت صلاته تامة كانتا ترغمان أنف الشيطان » وفي رواية : « ترغيما للشيطان » ، وسماها : « المرغمتين » .

فمن تعبد الله بمراغمة عدوه فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر وعلى قدر محبة العبد لربه ، وموالاته ومعاداته لعدوه ، يكون نصيبه من هذه المراغمة .

ولأجل هذه المراغمة حمد التبختر بين الصفين ، والخيلاء والتبختر عند صدقة السر ، حيث لا يراه إلا الله ، لما في ذلك من إرغام العدو . وبذل محبوبه من نفسه وماله لله عز وجل .

وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس ، ومن ذاق طعمه ولذته بكى على أيامه الأولى .

وبالله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وصاحب هذا المقام إذا نظر إلى الشيطان ، ولاحظه في الذنب ، راغمه بالتوبة النصوح ، فأحدثت له هذه المراغمة عبودية أخرى[٢] .

قال تعالى : ﴿ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ ﴾ [النساء : ١٠٢] أي فإذا صلوا فليكونوا من ورائكم[٣] .

قال الله تعالى : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ [النساء : ١٠٨] .

فقد أخبر أنه لا يرضى بما يبيتون من القول ، المتضمن البهت ، ورمي

---

(١) صحيح مسلم (٢٠٨/٢) في المساجد ، باب : السهو في الصلاة والسجود له .
وأبو داود (٣٣٠/٣، ٣٣١) في الصلاة ، باب : إذا شك في الأثنين والثلاث ...
وابن ماجه (٣٨٢/١) في إقامة الصلاة ، باب : ما جاء في من شك في صلاته ...
ورواه غيرهم .

(٢) مدارج السالكين (٢٢٦/١، ٢٢٧) .

(٣) الفوائد المشوق (٢٢) .

البريء ، وشهادة الزور ، وبراءة الجاني ، فإن الآية نزلت في قصة[1] هذا شأنها ، مع أن ذلك كله بمشيئته . إذ أجمع المسلمون على أن ماشاء الله كان وما لم يشأ فلا يكون . ولم يخالف في ذلك إلا القدرية المجوسية ، الذين يقولون : يشاء ما لا يكون ، ويكون ما لا يشاء .

وتأويل من تأول الآية على أنه لا يرضاه ديناً ، مع محبته لوقوعه : مما ينبغي أن يصان كلام الله عنه . إذ المعنى عندهم : أنه محبوب له ، ولكن لا يثاب فاعله عليه ، فهو محبوب لمشيئته ، غير مثاب عليه شرعاً .

ومذهب سلف الأمة وأئمتها : أنه مسخوط للرب ، مكروه له قدراً وشرعاً مع أنه وجد بمشيئته ، وقضائه . فإنه يخلق ما يحب وما يكره[1] .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ [النساء : ١١٣] .

وقال تعالى : (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) [البقرة : ٢٦٩] .

وقال عن المسيح عليه السلام : (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل) [آل عمران : ٤٨] .

الحكمة في كتاب الله نوعان : مفردة ، ومقترنة بالكتاب ، فالمفردة فسرت بالنبوة ، وفسرت بعلم القرآن .

قال ابن عباس : هي علم القرآن ناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره ، وحلاله وحرامه ، وأمثاله . وقال الضحاك : هي القرآن والفهم فيه .

قال مجاهد : هي القرآن ، والعلم والفقه ، وفي رواية أخرى عنه : هي الإصابة في القول والعمل .

---

(١) مدارج السالكين (٢٥٣/١) .

وقال النخعي : هي معاني الأشياء وفهمها .

وقال الحسن : الورع في دين الله ، كأنه فسرها بثمرتها ومقتضاها وأما الحكمة المقرونة بالكتاب فهي السنة ، كذلك قال الشافعي ، وغيره من الأئمة . وقيل : هي القضاء بالوحي ، وتفسيرها بالسنة أعم وأشهر .

وأحسن ما قيل في الحكمة قول مجاهد ومالك : إنها معرفة الحق والعمل به ، والإصابة في القول والعمل .

وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن والفقه في شرائع الإسلام وحقائق الإيمان . « والحكمة » حكمتان : علمية وعملية . فالعلمية : الاطلاع على بواطن الأشياء ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها خلقًا وأمرًا ، قدرًا وشرعًا . والعملية كما قال صاحب المنازل « هي وضع الشيء في موضعه » قال : « وهي على ثلاث درجات : الدرجة الأولى : أن تعطي كل شيء حقه ولا تعديه حده ولا تعجله عن وقته ولا تؤخره عنه » .

لما كانت الأشياء لها مراتب وحقوق تقتضيها شرعًا وقدرًا،ولها حدود ونهايات تصل إليها ولا تتعداها ، ولها أوقات لا تتقدم عنها ولاتتأخر، كانت الحكمة مراعاة هذه الجهات الثلاثة بأن تعطي كل مرتبة حقها الذي أحقه الله لها بشرعه وقدره ، ولا تتعدى بها حدها ،فتكون متعديًا مخالفًا للحكمة ، ولا تطلب تعجيلها عن وقتها،فتخالف الحكمة، ولاتؤخرها عنه فتفوتها .

وهذا حكم عام لجميع الأسباب مع مسبباتها شرعًا وقدرًا . فإضاعتها تعطيل للحكمة بمنزلة إضاعة البذر وسقي الأرض . وتعدي الحق : كسقيها فوق حاجتها بحيث يغرق البذر والزرع ويفسد.وتعجيلها عن وقتها : كحصاده قبل إدراكه وكماله . وكذلك ترك الغذاء والشراب واللباس : إخلال بالحكمة. وتعدي الحد المحتاج إليه : خروج عنها أيضًا.وتعجيل ذلك قبل وقته : إخلال بها . وتأخيره عن وقته : إخلال بها . فالحكمه إذًا : فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي . والله تعالى أورث الحكمة آدم وبنيه . فالرجل الكامل : من

له إرث كامل من أبيه ، ونصف الرجل كالمرأة له نصف ميراث ، والتفاوت في ذلك لا يحصيه إلا الله تعالى .

وأكمل الخلق في هذا: الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وأكملهم أولو العزم.

وأكملهم محمد صلى الله عليه وسلم،ولهذا امتن الله سبحانه وتعالى عليه وعلى أمته بما آتاهم من الحكمة كما قال تعالى : (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم) [النساء : ١١٣] وقال تعالى : (كما أرسلنا فيكم رسولًا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) [البقرة : ١٥١] . فكل نظام الوجود مرتبط بهذه الصفة، وكل خلل في الوجود وفي العبد فسببه : الإخلال بها ، فأكمل الناس : أوفرهم منها نصيبًا ، وأنقصهم وأبعدهم عن الكمال : أقلهم منهم ميراثًا،ولها ثلاثة أركان : العلم ، والحلم ، والأناة . وآفاتها وأضدادها : الجهل ، والطيش ، والعجلة . فلا حكمة لجاهل ولا طائش ولاعجول ، والله أعلم[1].

قال تعالى : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا * لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ إلى قوله إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء : ١١٧-١٢٠] .

قال الضحاك : « مفروضا أي معلوما » .

وقال الزجاج : « أي نصيباً افترضته على نفسي » .

قال الفراء : « يعني ما جعل له عليه السبيل من الناس ، فهو كالمفروض » .

قلت : حقيقة الفرض هو التقدير . والمعنى أن من اتبع الشيطان وأطاعه فهو من نصيبه المفروض وحظه المقسوم ، فكل من أطاع عدو الله فهو من مفروضه ، فالناس قسمان : نصيب الشيطان ومفروضه ، وأولياء الله وحزبه وخاصته .

وقوله : (ولأضلنهم) يعني عن الحق (ولأمنينهم) قال ابن عباس :

---

(1) مدارج السالكين (٤٧٨/٢ - ٤٨٠) .

« يريد تعويق التوبة وتأخيرها » .

وقال الكلبي : « أمَنِّيهم أنه لا جنة ، ولا نار ولا بعث » .

وقال الزجاج : « أجمع لهم مع الإضلال أن أوهمهم أنهم ينالون مع ذلك حظهم من الآخرة » .

وقيل : لأمنينهم ركوب الأهواء الداعية إلى العصيان والبدع .

وقيل : أمنيهم طول البقاء في نعيم الدنيا ، فأطيل لهم الأمل ليؤثروا على الآخرة .

وقوله : ﴿ ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ﴾ .

البتك : القطع وهو في هذا الموضع : قطع آذان البحيرة عن جميع المفسرين ، ومن ههنا كره جمهور أهل العلم تثقيب أذني الطفل للحلق ، ورخص بعضهم في ذلك للأنثى دون الذكر ، لحاجتها إلى الحلية ، واحتجوا بحديث أم زرع ، وفيه « أناس من حلي أذني »

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « كنت لك كأبي زرع لأم زرع » ونص أحمد رحمه الله على جواز ذلك في حق البنت وكراهته في حق الصبي .

وقوله : ﴿ ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ﴾ قال ابن عباس : « يريد دين الله » وهو قول إبراهيم ، ومجاهد ، والحسن ، والضحاك ، وقتادة ، والسدي ، وسعيد ابن المسيب ، وسعيد بن جبير .

ومعنى ذلك : هو أن الله تعالى فطر عباده على الفطرة المستقيمة ، وهي ملة الإسلام ، كما قال تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون منيبين إليه واتقوه ﴾ [الروم : ٣٠-٣١] .

ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، فهل تحسون

فيها من جدعاء ، حتى تكونوا أنتم تجدعونها » ثم قرأ أبو هريرة : (فطرت الله التي فطر الناس عليها) الآية . متفق عليه [١] .

فجمع عليه الصلاة والسلام بين الأمرين : تغير الفطرة بالتهويد والتنصير ، وتغير الخلقة بالجدع ، وهما الأمران اللذان أخبر إبليس أنه لابد أن يغيرهما فطرة الله بالكفر ، وهو تغير الخلقة التي خلقوا عليها ، وغير الصورة بالجدع والبتك ، فغير الفطرة إلى الشرك ، والخلقة إلى البتك والجدع ، فهذا تغيير فطرة الروح وهذا تغيير خلقة الصورة .

ثم قال : (يعدهم ويمنيهم) فوعده : ما يصل إلى قلب الإنسان ، نحو : سيطول عمرك ، وتنال من الدنيا لذتك ، وستعلو على أقرانك ، وتظفر بأعدائك، والدنيا دول وستكون لك كما كانت لغيرك ، ويطوِّل أمله ، ويعده بالحسنى على شركه ومعاصيه ، ويمنيه الأماني الكاذبة على اختلاف وجوهها ، والفرق بين وعده وتمنيته أنه يعد الباطل ، ويمني المحال ، والنفس المهينة التي لا قَدْر لها تغتذي بوعده وتمنيته ، كما قال القائل :

منى إن تكن حقاً تكن أحسن المنى
وإلا فقد عشنا بها زمناً رغداً

فالنفس المبطلة الخسيسة تلتذ بالأماني الباطلة والوعود الكاذبة ، وتفرح بها ، كما يفرح بها النساء والصبيان ويتحركون لها ، فالأقوال الباطلة مصدرها وعد الشيطان وتمنيته ، فإن الشيطان يمني أصحابها الظفر بالحق وإدراكه ويعدهم الوصول إليه من غير طريقه ، فكل مبطل فله نصيب من قوله : (يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً) [٢] .

---

(١) رواه البخاري (٢٩٠،٢٦٠/٣) في الجنائز ، باب : إذا أسلم الصبي فمات.
وباب : ما قيل في أولاد المشركين .
ومسلم (٥١٢/٥) في القدر ، باب : كل مولود يولد على الفطرة .
(٢) إغاثة اللهفان (١٠٥/١-١٠٧) .

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٢٥] .

فاحتج سبحانه على حسن دين الإسلام وأنه لا شيء أحسن منه بأنه يتضمن إسلام الوجه لله وهو إخلاص القصد والتوجه ، والعمل له سبحانه . والعبد مع ذلك محسن آت بكل حسن لا مرتكب للقبح الذي يكرهه الله بل هو مخلص لربه محسن في عبادته ، بما يحبه ويرضاه وهو مع ذلك متبع لملة إبراهيم في محبته لله وحده وإخلاص الدين له وبذل النفس والمال في مرضاته ومحبته وهذا احتجاج منه على أن دين الإسلام أحسن الأديان بما تضمنه مما تستحسنه العقول وتشهد به الفطر وأنه قد بلغ الغاية القصوى في درجات الحسن والكمال وهذا استدلال بغير الأمر المجرد ، بل هو دليل على أن ما كان كذلك فحقيق بأن يأمر به عباده ولا يرضى منهم سواه[1] .

قول الله تعالى : ﴿ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء : ١٣٥] .

وقد اشتملت هذه الآية على أسرار عظيمة يجب التنبيه على بعضها لشدة الحاجة إليها .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ ـ إلى قوله ـ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء : ١٣٥] .

فأمر سبحانه بالقيام بالقسط وهو العدل في هذه الآية ، وهذا أمر بالقيام به في حق كل أحد عدواً كان أو وليّاً وأحق ما قام له العبد بقصد الأقوال والآراء والمذاهب ، إذ هي متعلقة بأمر الله وخبره .

فالقيام فيها بالهوى والمعصية مضاد لأمر الله ، مُنافٍ لما بعث به رسوله .

والقيام فيها بالقسط وظيفة خلفاء الرسول في أمته وأمنائه بين أتباعه ، ولا

(١) مفتاح دار السعادة (٣٣٧) .

يستحق اسم الأمانة إلا من قام فيها بالعدل المحض نصيحة لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولعباده .

وأولئك هم الوارثون حقاً .

لا من يجعل أصحابه ونحلته ومذهبه معياراً على الحق وميزاناً له ، يعادي من خالفه ويوالي من وافقه بمجرد موافقته ومخالفته ، فأين هذا من القيام بالقسط الذي فرضه الله على كل أحد ؟ وهو في هذا الباب أعظم فرضاً ، وأكبر وجوباً ؟ .

ثم قال : ﴿ **شُهَدَاءَ لله** ﴾ الشاهد هو المخبر ، فإن أخبر بحق فهو شاهد عدل مقبول ، وإن أخبر بباطل فهو شاهد زور .

وأمر تعالى أن يكون شهيداً له مع القيام بالقسط وهذا يتضمن أن تكون الشهادة بالقسط ، وأن تكون لله لا لغيره .

وقال في الآية الأخرى : ﴿ **كُونُوا قَوَّامِينَ لله شُهَدَاءَ بِالقِسْطِ** ﴾ [المائدة : ٨] فتضمنت الآيتان أموراً أربعة :

أحدها : القيام بالقسط .

الثاني : أن يكون لله .

الثالث : الشهادة بالقسط .

الرابع : أن تكون لله .

واختصت آية النساء بالقسط والشهادة لله وآية المائدة بالقيام لله والشهادة بالقسط لسر عجيب من أسرار القرآن ، ليس هذا موضع ذكره .

ثم قال تعالى : ﴿ **وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ** ﴾ [النساء : ١٣٥] ، فأمر سبحانه أن يقام بالقسط ويشهد على كل أحد ولو كان أحب الناس إلى العبد فيقوم بالقسط على نفسه ووالديه اللذين هما أصله ، وأقاربه الذين هم أخص به ، والصديق من سائر الناس ، فإن كان ما في العبد من محبة

لنفسه ولوالديه وأقاربه يمنعه من القيام عليهم بالحق ، ولا سيما إذا كان الحق لمن يبغضه ويعاديه قبلهم ، فإنه لا يقوم به في هذا الحال إلا من كان الله ورسوله أحب إليه من كل ما سواهما .

وهذا يمتحن به العبد إيمانه فيعرف منزلة الإيمان من قلبه ومحله منه ، وعكس هذا عدل العبد في أعدائه ومن يجفوه ، فإنه لا ينبغي أن يحمله بغضه لهم أن يحيف عليهم ، كما لا ينبغي أن يحمله حبه لنفسه ووالديه وأقاربه على أن يترك القيام عليهم بالقسط ، فلا يدخله ذلك البغض في باطل ولا يقصر به هذا الحب عن الحق .

كما قال بعض السلف : « العَادلُ هو الَّذي إذا غضب لم يُدْخِلْهُ غَضَبُه في بَاطِلٍ ، وَإذا رَضِيَ لَم يُخْرِجْهُ رِضَاهُ عَن الْحَقِ » .

اشتملت الآيتان على هذين الحكمين : وهما القيام بالقسط والشهادة به على الأولياء والأعداء .

ثم قال تعالى : ﴿ **إن يَكُنْ غَنِياً أَوْ فَقِيراً فَالله أَوْلَى بِهِمَا** ﴾ [النساء : ١٣٥] منكم ، هو ربهما ومولاهما وهما عبيده ، كما أنكم عبيده فلا تحابوا غنياً لغناه ، ولا فقيراً لفقره ، فإن الله أولى بهما منكم .

وقد يقال فيه معنى آخر أحسن من هذا ، وهو أنهم ربما خافوا من القيام بالقسط وأداء الشهادة على الغني والفقير .

أما الغني فخوفاً على ماله ، وأما الفقير فلإعدامه وأنه لا شيء له ؛ فتتساهل النفوس في القيام عليه بالحق . فقيل لهم والله أولى بالغني والفقير منكم ، أعلم بهذا وأرحم بهذا ، فلا تتركوا أداء الحق والشهادة على غني ولا فقير .

ثم قال تعالى : ﴿ **فَلَا تتبعوا الهَوَى أن تَعْدِلُوا** ﴾ .

نهاهم عن اتباع الهوى الحامل على ترك العدل .

وقوله تعالى : ﴿ **أن تَعْدِلُوا** ﴾ منصوب الموضع لأنه مفعول لأجله ،

وتقديره عند البصريين كراهية أن تعدلوا ، أو حذر أن تعدلوا ، فيكون اتباعكم للهوى كراهية العدل أو فراراً منه . وعلى قول الكوفيين التقدير أن لا تعدلوا ، وقول البصريين أحسن وأظهر .

ثم قال تعالى : ﴿ **وَإِن تَلْوُوا أو تُعرضوا فَإن الله كان بما تعملون خبيراً** ﴾ [النساء : ١٣٥] .

ذكر سبحانه السببين الموجبين لكتمان الحق ، محذراً منهما ومتوعداً عليهما .

أحدهما : اللّي .

والآخر : الإعراض .

فإن الحق إذا ظهرت حجته ولم يجد من يروم دفعها طريقاً إلى دفعها ، أعرض عنها وأمسك عن ذكرها فكان شيطاناً أخرس ، وتارة يلويها ويحرفها .

اللّي مثال الفتل وهو التحريف .

وهو نوعان : لي في اللفظ ، ولي في المعنى .

- فاللّي في اللفظ أن يلفظ بها على وجه لا يستلزم الحق ، إما بزيادة لفظة أو نقصانها أو إبدالها بغيرها .

- ولي في كيفية أدائها وإيهام السامع لفظا وإرادة غيره ، كما كان اليهود يلوون ألسنتهم بالسلام على النبي ﷺ ، فهذا أحد نوعي اللي .

- والنوع الثاني منه : لي المعنى وهو تحريفه وتأويل اللفظ على خلاف مراد المتكلم ، وبجهالة ما لم يرده أو يسقط منه لبعض المراد به ، ونحو هذا من لي المعاني ، فقال تعالى : ﴿ **وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ الله كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خبيراً** ﴾ [النساء : ١٣٥] .

ولما كان الشاهد مطالباً بأداء الشهادة على وجهها فلا يكتمها ولا يغيرها كان الإعراض نظير الكتمان.

واللّي نظير تغييرها وتبديلها .

فتأمل ما تحت هذه الآية من كنوز العلم .

والمقصود: أن الواجب الذي لايتم الإيمان، بل لايحصل مسمى الإيمان إلا به. مقابلة النصوص بالتلقي والقبول والإظهار لها ودعوة الخلق إليها، ولاتقابل بالاعتراض تارة وباللي أخرى.

قال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء :١٤١].

قيل : بالحجة والبرهان ، فإن حجتهم داحضة عند ربهم ، وقيل : هذا في الآخرة وأما في الدنيا فقد يتسلطون عليهم بالضرر لهم ، والأذى ، وقيل : لا يجعل لهم عليهم سبيلاً مستقرة ، بل وإن نصروا عليهم في وقت فإن الدائرة تكون عليهم ، ويستقر النصر لأتباع الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقيل : بل الآية على ظاهرها وعمومها ، ولا إشكال فيها بحمد الله ، فإن الله سبحانه ضمن أن لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً فحيث كانت لهم سبيل ما عليهم فهم الذين جعلوها بتسببهم ترك بعض ما أقروا به أو ارتكاب بعض ما نهوا عنه فهم جعلوا لهم السبيل عليهم بخروجهم عن طاعة الله ورسوله في ما أوجب تسلط عدوهم عليهم في هذه الثغرة التي أدخلوها كما أخلى الصحابة يوم أحد الثغرة التي أمرهم[١] رسول الله صلى الله عليه وسلم بلزومها وحفظها فوجد العدو منها طريقا إليهم فدخلوا منها[٢] .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله سبحانه : ﴿ **ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً** ﴾ [النساء : ١٤١] .

فالآية على عمومها وظاهرها ، وإنما المؤمنون يصدر منهم من المعصية والمخالفة التي تضاد الإيمان ما يصير به للكافرين عليهم سبيل بحسب تلك المخالفة ، فهم الذين تسببوا إلى جعل السبيل عليهم ، كما تسببوا إليه يوم أحد بمعصية الرسول

---

(١) رواه البخاري في مواضع منها (٤٠٥/٧) في المغازي ، باب : غزوة أحد .
وأبو داود (٣٢٣/٧) في الجهاد ، باب : في الكمناء .

(٢) الصواعق المرسلة (١٣٩٣/٤، ١٣٩٤) .

ومخالفته ، والله سبحانه لم يجعل للشيطان على العبد سلطاناً ، حتى جعل له العبد سبيلاً إليه بطاعته والشرك به ، فجعل الله حينئذ له عليه تسلطاً وقهراً ، فمن وجد خيراً فليحمد الله تعالى ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

وبهذا يزول الإشكال الذي يورده كثير من الناس على قوله تعالى : ﴿ **ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً** ﴾ ، ويجيب عنه كثير منهم بأنه لن يجعل لهم عليهم سبيلاً في الآخرة ، ويجيب آخرون بأنه لن يجعل لهم عليهم سبيلاً في الحجة .

والتحقيق : أنها مثل هذه الآيات ، وأن انتفاء السبيل عن أهل الإيمان الكامل ، فإذا ضعف الإيمان صار لعدوهم عليهم من السبيل بحسب ما نقص من إيمانهم ، فهم جعلوا لهم عليهم السبيل بما تركوا من طاعة الله تعالى .

فالمؤمن عزيز غالب مؤيد منصور ، مكفيٌّ ، مدفوع عنه بالذات أين كان ، ولو اجتمع عليه من بأقطارها ، إذا قام بحقيقة الإيمان وواجباته ، ظاهراً وباطناً .

وقد قال تعالى للمؤمنين : (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) [آل عمران : ١٣٩] .

وقال تعالى : (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم) [محمد : ٣٥] .

فهذا الضمان إنما هو بإيمانهم وأعمالهم ، التي هي جند من جنود الله ، يحفظهم بها ، ولا يفردها عنهم ويقتطعها عنهم ، فيبطلها عليهم ، كما يتر الكافرين والمنافقين أعمالهم ، إذ كانت لغيره ، ولم تكن موافقة لأمره[2] .

وتأمل قوله سبحانه : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٤٧] .

(١) إغاثة اللهفان (١٠١/١) .

(٢) إغاثة اللهفان (١٨٣،١٨٢/٢) .

كيف تجد ضمن هذا الخطاب أن شكره تعالى يأبى تعذيب عباده بغير جرم كما يأبى إضاعة سعيهم باطلاً ، فالشكور لا يضيع أجر محسن ، ولا يعذب غير مسيء .

وفي هذا رد لقول من زعم أنه سبحانه يكلفه مالا يطيقه ، ثم يعذبه على ما لا يدخل تحت قدرته ، تعالى الله عن هذا الظن الكاذب والحسبان الباطل علواً كبيراً ، فشكره سبحانه اقتضى أن لا يعذب المؤمن الشكور ، ولا يضيع عمله ، وذلك من لوازم هذه الصفة ، فهو منزه عن خلاف ذلك كما ينزه عن سائر العيوب والنقائص التي تنافي كماله وغناه وحمده[1] .

قال تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ [النساء : ١٥٥] .

أخبر سبحانه أن كفرهم بالحق بعد ما علموه كان سبباً لطبع الله على قلوبهم ﴿ **بل طبع الله عليها بكفرهم** ﴾ حتى صارت غلفاً ، والغلف : جمع أغلف وهو القلب الذي قد غشيه غلاف كالسيف الذي في غلافه ، وكل شيء في غلافه فهو أغلف وجمعه : غلف ، يقال : سيف أغلف وفرس غلفاء ورجل أغلف إذا لم يختتن ، والمعنى : قلوبنا عليها غشاوة وغطاء فلا تفقه ما تقول يامحمد - صلى الله عليه وسلم - ولم تع شيئاً .

(و) من قال إن المعنى أنها غلف للعلم والحكمة أي أوعية لها فلا يحتاج إلى قولك ولا نقبله استغناء بما عندهم لوجوه :

أحدها : أن « غلف » جمع أغلف كقلف وأقلف وحمر وأحمر وجرد وأجرد وغلب وأغلب ونظائره .

والأغلف من القلوب : هو الداخل في الغلاف هذا هو المعروف من اللغة .

---

(١) عدة الصابرين (٢٨٢) .

الثاني : أن ليس من الاستعمال السائغ المشهور أن يقال : قلب فلان غلاف لكذا ، وهذا لا يكاد يوجد في شيء من نثر كلامهم ولا نظمه ولا نظير له في القرآن فيحمل عليه ولا هو من التشبيه البديع المستحسن فلا يجوز حمل الآية عليه .

الثالث : أن نظير قول هؤلاء قول الآخرين من الكفار : (قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه) والأكنة كالأوعية والأغطية التي تغطي المتاع ومنه الكنانة لغلاف السهام.

الرابع : أن سياق الآية لا يحسن مع هذا المعنى الذي ذكروه ولا يحسن مقابلته بقوله : (بل طبع الله عليها بكفرهم) وإنما يحسن مع هذا المعنى أن يسلب عنهم العلم والحكمة التي ادعوها كما قيل لهم لما ادعوا ذلك (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) وأما هنا فلما ادعوا أن قلوبهم في أغطية وأغشية لا تفقه قوله وقلوبهم بأن عرفهم أن كفرهم ونقضهم ميثاقهم وقتلهم الأنبياء كان سبباً لأن طبع على قلوبهم[1] .

قال تعالى : ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٥٦-١٥٨]

وقد اختلف في معنى قوله : (ولكن شبه لهم) فقيل : المعنى : ولكن شبه للذين صلبوه بأن ألقي شبهه على غيره فصلبوا الشبه ، وقيل : المعنى : ولكن شبه للنصارى أي حصلت لهم الشبهة في أمره وليس لهم علم بأنه ما قتل وما صلب ، ولكن لما قال أعداؤه إنهم قتلوه وصلبوه واتفق رفعه من الأرض وقعت الشبهة في أمره ، وصدقهم النصارى في صلبه لتتم الشفاعة عليهم ، وكيف ما كان فالمسيح صلوات الله وسلامه عليه لم يُقتل و لم يصلب يقيناً لا شك فيه[2] .

---

(١) مفتاح دار السعادة (١٠٨) .

(٢) هداية الحيارى (٢٥٢،٢٥٣) .

قال الله تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ الآية [النساء : ١٦٠] .

فأي شيء أصرح من هذا حيث أخبر سبحانه أنه حرمه عليهم مع كونه طيباً في نفسه فلولا أن طيبه أمر ثابت له بدون الأمر لم يكن ليجمع الطيب والتحريم.

وقد أخبر تعالى أنه حرم عليهم طيبات كانت حلالا عقوبة لهم فهذا تحريم عقوبة بخلاف التحريم على هذه الأمة فإنه تحريم صيانة وحماية[1] .

قوله تعالى : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٤] .

الآية صريحة في أن المراد بها تكليم أخص من الإيحاء فإنه ذكر أنه أوحى إلى نوح والنبيين من بعده ، وهذا الوحي هو التكليم العام المشترك ، ثم خص موسى باسم خاص وفعل خاص وهو كلم تكليما ، ورفع توهم إرادة التكليم العام عن الفعل بتأكيده بالمصدر وهذا يدل على اختصاص موسى بهذا التكليم ولو كان المراد تكليماً ما لكان مساوياً لما تقدم من الوحي أو دونه وهو باطل . وأيضاً فإن التأكيد في مثل هذا السياق صريح في التعظيم وتثبيت حقيقة الكلام والتكليم فعلاً ومصدراً ووصفه بما يشعر بالتقليل مضاد للسياق فتأمله .

وأيضاً فإن الله سبحانه قال لموسى : (إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي) [الأعراف : ١٤٤] فلو كان التكليم الذي حصل له تكليما ما كان مشاركاً لسائر الأنبياء فيه فلم يكن لتخصيصه بانكلام معنى .

وأيضا فإن وصف المصدر ههنا مؤذن بقلته وإن نوعاً من أنواع التكليم حصل له وهذا محال ههنا فإن الإلهام تكليم ما ولهذا سماه الله تعالى وحياً ، والوحي تكليم ما فقال : (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) [القصص : ٧] (وإذ أوحيت إلى الحواريين)[المائدة : ١١١] ونظائره .

---

(١) مفتاح دار السعادة (٣٣٧) .

وقال عبادة بن الصامت : رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في منامه .

فكل هذه الأنواع تسمى تكليماً ما .

وقد كلم الله سبحانه موسى واصطفاه على البشر بكلامه له . وأيضاً فإن الله سبحانه حيث ذكر موسى ذكر تكليمه له باسم التكليم الخاص دون الاسم العام كقوله : (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني) [الأعراف : ١٤٣] بل ذكر تكليمه له بأخص من ذلك وهو تكليم خاص كقوله : (وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا) [مريم : ٥٢] فناداه وناجاه والنداء والنجاء أخص من التكليم لأنه تكليم خاص فالنداء تكليم من البعد يسمعه المنادي والنجاء تكليم من القرب .

وأيضاً فإن اجتمع في هذه الآية ما يمتنع معه حملها على ما ذكره وهو أنه ذكر الوحي المشترك ثم ذكر عموم الأنبياء بعد محمد ونوح ثم ذكر موسى بعينه بعد ذكر النبيين عموماً ثم ذكر خصوص تكليمه ثم أكده بالمصدر وكل من له أدنى ذوق في الألفاظ ودلالتها على معانيها يجزم بأن هذا السياق يقتضي تخصيص موسى بتكليم لم يحصل لغيره وأنه ليس تكليماً ما[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

رفع سبحانه توهم المجاز في تكليمه لكليمه بالمصدر المؤكد الذي لايشك عربي القلب واللسان أن المراد به إثبات تلك الحقيقة ، كما تقول العرب : مات موتاً ونزل نزولاً . ونظيره التأكيد بالنفس ، والعين ، وكل ، وأجمع والتأكيد بقوله : « حقاً » ونظائره[2] .

قال تعالى : ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾ [النساء : ١٦٦] . أي أنزله وفيه علم لا يعلمه البشر[3] .

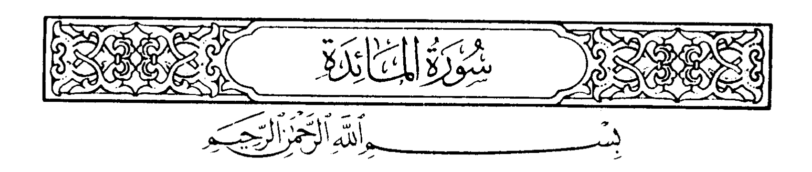
* * *

(١) بدائع الفوائد (٨٠/٢) .

(٢) الصواعق المرسلة (٣٨٩/١) .

(٣) الصواعق المرسلة (٨٧٧/٣) .

سُورَةُ المَائِدَةِ



قول الله تعالى ذكره :

﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ [المائدة : ٢] .

كل منهما إذا أفرد تضمن الآخر . فكل إثم عدوان ، إذ هو فعل ما نهى الله عنه ، أو ترك ما أمر الله به . فهو عدوان على أمره ونهيه . وكل عدوان إثم . فإنه يأثم به صاحبه ، ولكن عند اقترانهما فهما شيئان ، بحسب متعلقهما .

فالإثم ما كان محرم الجنس ، كالكذب والزنا ، وشرب الخمر ، ونحو ذلك .

والعدوان : ما كان محرم القدر والزيادة . فالعدوان تعدي ما أبيح منه إلى القدر المحرم ، كالاعتداء في أخذ الحق ممن هو عليه . إما بأن يتعدى على ماله ، أو بدنه ، أو عرضه . فإذا غصبه خشبة لم يرض عوضها إلا داره . وإذا أتلف عليه شيئاً أتلف عليه أضعافه . وإذا قال فيه كلمة قال فيه أضعافها . فهذا كله عدوان وتعد للعدل[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

فإن الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه : ﴿ **وَتعَاوَنُوا عَلَى الْبِرّ وَالتَّقْوىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَاتَّقُوا الله إِنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ [المائدة: ٢].

وقد اشتملت هذه الآية على جميع مصالح العباد في معاشهم ومعادهم ، فيما بينهم بعضهم بعضاً ، وفيما بينهم وبين ربهم ، فإن كل عبد لا ينفك عن

(١) مدارج السالكين (٣٦٨/١) .

هاتين الحالتين ، وهذين الواجبين : واجب بينه وبين الله، وواجب بينه وبين الخلق .

فأما ما بينه وبين الخلق : من المعاشرة والمعاونة والصحبة ، فالواجب عليه فيها أن يكون اجتماعه بهم ، وصحبته لهم ، تعاونا على مرضاة الله وطاعته ، التي هي غاية سعادة العبد وفلاحه ولا سعادة له إلا بها ، وهي البر والتقوى ، اللذان هما جماع الدين كله ، وإذا أفرد كل واحد من الاسمين دخل في مسمى الآخر ، إما تضمناً ، وإما لزوماً ، ودخوله فيه تضمناً أظهر ؛ لأن البر جزء مسمى التقوى ، وكذلك التقوى ، فإنه جزء مسمى البر . وكون أحدهما لا يدخل في الآخر عند الاقتران لا يدل على أنه لا يدخل فيه عند انفراد الآخر .

ونظير هذا : لفظ « الإيمان والإسلام » و « الإيمان والعمل الصالح » و « الفقير والمسكين » و « الفسوق والعصيان » و « المنكر والفاحشة » ونظائره كثيرة .

وهذه قاعدة جليلة من أحاط بها زالت عنه إشكالات كثيرة ، أشكلت على طوائف كثيرة من الناس .

ولنذكر من هذا مثالاً واحداً يستدل به على غيره ، وهو البر والتقوى .

فإن حقيقة البر : هو الكمال المطلوب من الشيء والمنافع التي فيه والخير ، كما يدل عليه اشتقاق هذه اللفظة وتصاريفها في الكلام .

ومنه « البُرُّ » بالضم لمنافعه وخيره بالإضافة إلى سائر الحبوب .

ومنه رجل بار ، وبر ، وكرام بررة ، والأبرار .

فالبر : كلمة لجميع أنواع الخير والكمال والمطلوب من العبد . وفي مقابلته الإثم . وفي حديث النواس بن سمعان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : « جِئْتَ تَسأَلُ عَنِ البِر وَالإِثْمِ »[1] .

(١) هذا اللفظ من حديث « وابصة بن معبد » رضي الله عنه .

فالإثم : كلمة جامعة للشرور والعيوب التي يذم العبد عليها .

فيدخل في مسمى البر : الإيمان وأجزاؤه الظاهرة والباطنة ، ولا ريب أن التقوى جزء هذا المعنى . وأكثر ما يعبر عن بر القلب ، وهو وجود طعم الإيمان فيه وحلاوته ، وما يلزم ذلك من طمأنينته ، وسلامته ، وانشراحه وقوته ، وفرحه بالإيمان . فإن للإيمان فرحة وحلاوة ولذة في القلب ، فمن لم يجدها فهو فاقد الإيمان أو ناقصه . وهو من القسم الذي قال الله عز وجل فيهم : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنا وَلَما يَدْخُلِ الإيمَانُ في قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٤] .

فهؤلاء – على أصح القولين – مسلمون غير منافقين وليسوا بمؤمنين إذ لم يدخل الإيمان في قلوبهم فيباشرها حقيقة .

وقد جمع الله خصال البر في قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قَبَلَ المَشرق والمغرب – إلى قوله – وَأولَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

فأخبر سبحانه أن البر هو الإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وهذه هي أصول الإيمان الخمس التي لا قوام للإيمان إلا بها .

وأنه الشرائع الظاهرة : من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنفقات الواجبة .

وأنه الأعمال القلبية التي هي حقائقه ، من الصبر والوفاء بالعهد فتناولت هذه

= أخرجه الإمام أحمد رضي الله عنه (٤ / ٢٢٧ و٢٢٨) .
وأبو يعلى (٣ / ١٦٠) .
والطبراني في الكبير (٢٢ / ١٤٧) برقم (٤٠٢ و٤٠٣) .
والدارمي (٢ / ١٦١) برقم (٢٥٣٦) .
والحديث ضعفه الهيثمي كما في المجمع (١ / ١٧٥) .
وابن رجب في جامع العلوم حديث رقم (٢٧) .
ولكن حسنه النووي في رياض الصالحين برقم (٥٩١) باب : الورع وترك الشبهات .
وأما حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه الذي أراده ابن القيم ، فرواه :
مسلم (٥ / ٤١٩) في البر والصلة ، باب تفسير البر والإثم .
والترمذي (٢ / ٢٨٤) في الزهد ، باب : ما جاء في البر والإثم .

الخصال جميع أقسام الدين ، حقائقه وشرائعه والأعمال المتعلقة بالجوارح والقلب ، وأصول الإيمان الخمس . ثم أخبر سبحانه عن هذه أنها هي خصال التقوى بعينها فقال : (أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) [البقرة : ١٧٧] .

وأما « التقوى » فحقيقتها العمل بطاعة الله إيماناً واحتساباً ، أمراً ونهياً ، فيفعل ما أمر الله به إيماناً بالأمر وتصديقاً بوعده ، ويترك ما نهى الله عنه إيماناً بالنهي وخوفاً من وعيده .

كما قال طلق بن حبيب : « إذا وقعت الفتنة فأطفئوها بالتقوى ، قالوا : وما التقوى ؟ قال : أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله ، تخاف عقاب الله » .

وهذا من أحسن ما قيل في حد التقوى .

فإن كل عمل لابد له من مبدأ وغاية ، فلا يكون العمل طاعة وقربة حتى يكون مصدره عن الإيمان ، فيكون الباعث عليه هو الإيمان المحض ، لا العادة ولا الهوى ولا طلب المحمدة والجاه وغير ذلك ، بل لابد أن يكون مبدؤه محض الإيمان ، وغايته ثواب الله وابتغاء مرضاته وهو الاحتساب .

ولهذا كثيراً ما يُقْرَنُ بين هذين الأصلين في مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ صَامَ رَمَضَان إيمانا واحتساباً » و « ومَنْ قَامَ لَيْلَة الْقَدْر إيمَاناً وَاحْتِساباً »[1] ونظائره .

فقوله : « على نور من الله » إشارة إلى الأصل الأول : وهو الإيمان الذي هو مصدر العمل والسبب الباعث عليه .

وقوله « ترجو ثوابَ الله » إشارة إلى الأصل الثاني : وهو الاحتساب ، وهو الغاية التي لأجلها توقع العمل ، ولها يقصد به .

(١) رواه البخاري (٤ / ٣٠٠) في أول فضل ليلة القدر .
ومسلم (٢ / ٤١١) في صلاة المسافرين ، الترغيب في صلاة التراويح .

ولا ريب أن هذا اسم لجميع أصول الإيمان وفروعه ، وأن البر داخل في هذا المسمى .

وأما عند اقتران أحدهما بالآخر ، كقوله تعالى ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ** ﴾ [المائدة : ٢] . فالفرق بينهما فرق بين السبب المقصود لغيره والغاية المقصودة لنفسها ، فإن البر مطلوب لذاته ؛ إذ هو كمال العبد وصلاحه الذي لا صلاح له بدونه كما تقدم .

وأما التقوى فهي الطريق الموصل إلى البر والوسيلة إليه ، ولفظها يدل على هذا . فإنها فُعْلَى ، ومن وقي يقي، وكان أصلها « وَقْوى » ، فقلبوا الواو تاء ، كما قالوا تُراث من الوراثة ، وتُجاه من الوجه ، وتُخمة من الوخمة ، ونظائرها . فلفظها دال على أنها من الوقاية ، فإن المتقي قد جعل بينه وبين النار وقاية فالوقاية من باب دفع الضرر ، فالتقوى والبر كالعافية والصحة .

وهذا باب شريف ينتفع به انتفاعاً عظيماً في فهم ألفاظ القرآن ودلالته ، ومعرفة حدود ما أنزل الله على رسوله ، فإنه هو العلم النافع .

وقد ذم الله تعالى في كتابه من ليس له علم بحدود ما أنزل الله على رسوله .

فإن عدم العلم بذلك مستلزم مفسدتين عظيمتين .

إحداهما : أن يُدخل في مسمى اللفظ ما ليس منه ، فيحكم له بحكم المراد من اللفظ ، فيساوي بين ما فرق الله بينهما .

والثانية : أن يخرج من مسمى بعض أفراده الداخلة تحته ، فيسلب عنه حكمه ، ، فيفرق بين ما جمع الله بينهما .

والذكي الفطن يتفطن لإفراد هذه القاعدة وأمثالها ، فيرى أن كثيراً من الاختلاف أو أكثره إنما ينشأ من هذا الموضع .

وتفصيل هذا لا يفي به كتاب ضخم .

ومن هذا لفظ : (الخمر) ، فإنه اسم شامل لكل مسكر ، فلا يجوز

إخراج بعض المسكرات منه وينفي عنها حكمه .

وكذلك لفظ : (المَيْسِرِ) وإخراج بعض أنواع القمار منه .
وكذلك لفظ : (النكاح) وإدخال ما ليس بنكاح في مسماه .

وكذلك لفظ : (الربا) وإخراج بعض أنواعه منه ، وإدخال ما ليس برباً فيه .

وكذلك لفظ : (الظلم والعدل) و (المعروف والمنكر) ونظائره أكثر من أن تحصى .

والمقصود أن المقصود من اجتماع الناس وتعاشرهم : هو التعاون على البر والتقوى ، فيعين كل واحد صاحبه على ذلك علماً وعملاً .

فإن العبد وحده لا يستقل بعلم ذلك ولا بالقدرة عليه ، فاقتضت حكمة الرب سبحانه أن جعل النوع الإنساني قائماً بعضه ببعضه ، معيناً بعضه لبعضه .

ثم قال تعالى : ﴿ **وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإثم والعُدْوان** ﴾ .

و (الإثم والعدوان) في جانب النهي نظير : (البر والتقوى) في جانب الأمر .

الفرق بين الإثم والعدوان :

والفرق بين الإثم والعدوان ، كالفرق ما بين محرم الجنس ومحرم القَدْرِ .

فالإثم : ما كان حراماً لجنسه .

والعدوان : ما حرم لزيادة في قدره وتعدي ما أباح الله منه .

فالزنا والخمر والسرقة ونحوها : إثم .

ونكاح الخامسة واستيفاء المجني عليه أكثر من حقه ونحوه : عدوان .

فالعدوان : هو تعدي حدود الله التي قال فيها : (تِلْكَ حُدُودُ الله فلا تَعْتَدوها ومن يَتَعد حدود الله فَأُولئِك هم الظَّالمون) [البقرة : ٢٢٩] .

وقال في موضع آخر : (تلك حدود الله فلا تقربُوها) [البقرة : ١٨٧] . فنهى عن تعديها في آية وعن قربانها في آية ، وهذا لأن حدوده سبحانه هي النهايات الفاصلة بين الحلال والحرام ، ونهاية الشيء تارة تدخل فيه فتكون منه ، وتارة لا تكون داخلة فيه فتكون لها حكم المقابلة ، فالاعتبار الأول نهي عن تعديها ، وبالاعتبار الثاني نهي عن قربانها .

فصـــل

فهذا حكم العبد فيما بينه وبين الناس : وهو أن تكون مخالطته لهم تعاوناً على البر والتقوى ، علماً وعملا .

وأما حاله فيما بينه وبين الله تعالى : فهو إيثار طاعته وتجنب معصيته ، وهو قوله تعالى : ﴿ **وَاتَّقُوا الله** ﴾ .

فأرشدت الآية إلى ذكر واجب العبد بينه وبين الخلق، وواجبه بينه وبين الحق.

ولا يتم له أداء الواجب الأول إلا بعزل نفسه من الوسط ، والقيام بذلك لمحض النصيحة والإحسان ورعاية الأمر ، ولا يتم له أداء الواجب الثاني إلا بعزل الخلق من البين ، والقيام له بالله إخلاصا ومحبة وعبودية .

فينبغي التفطن لهذه الدقيقة ، التي كل خلل يدخل على العبد في أداء هذين الأمرين الواجبين إنما هو من عدم مراعاتها علماً وعملا وهذا معنى قول الشيخ عبد القادر قدَّس الله روحه : « كن مع الحق بلا خلق ، ومع الخلق بلا نفس ، ومن لم يكن كذلك لم يزل في تخبيط، ولم يزل أمره فرطا »[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

تأمل كيف وصف الدين الذي اختاره لهم بالكمال والنعمة التي أسبغها عليهم بالتمام إيذانا في الدين بأنه لا نقص فيه ولا عيب ولا خلل ، ولا شيء خارجا

(١) الرسالة التبوكية (١٢ – ٢٣) .

عن الحكمة بوجه ، بل هو الكامل في حسنه وجلالته ووصف النعمة بالتمام إيذاناً بدوامها واتصالها ، وأنه لا يسلبهم إياها بعد إذ أعطاهموها بل يتمها لهم بالدوام في هذا الدار وفي دار القرار .

وتأمل حسن اقتران التمام بالنعمة وحسن اقتران الكمال بالدين ، وإضافة الدين إليهم ، إذ هم القائمون به المقيمون له . وأضاف النعمة إليه إذ هو وليها ومسديها والمنعم بها عليهم ، فهي نعمة حقاً ، وهم قابلوها .

وأتى في الكمال باللام المؤذنة بالاختصاص ، وأنه شيء خصوا به دون الأمم .

وفي إتمام النعمة بـ « على » المؤذنة بالاستعلاء والاشتمال والإحاطة فجاء بـ « أتممت » في مقابلة (أكملت) و « عليكم » في مقابلة « لكم » و « نعمتي » في مقابلة (دينكم) وأكد ذلك وزاده تقريراً وكمالاً وإتماما للنعمة بقوله : (ورضيت لكم الإسلام ديناً) .

وكان بعض السلف يقول : ياله من دين لو أن له رجالاً[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

النعمة نعمتان : نعمة مطلقة ونعمة مقيدة .

فالنعمة المطلقة : هي المتصلة بسعادة الأبد ، وهي نعمة الإسلام والسنة . وهي التي أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نسأله في صلواتنا أن يهدينا صراط أهلها ، ومن خصهم بها ، وجعلهم أهل الرفيق الأعلى ، حيث يقول تعالى : (ومن يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً) [النساء : ٦٩] فهؤلاء الأصناف الأربعة هم أهل هذه النعمة المطلقة ، وأصحابها أيضا هم المعنيون بقول الله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) فأضاف الدين إليهم ، إذ هم المختصون بهذا الدين القيم دون سائر الأمم .

(١) مفتاح دار السعادة (٣٢٤) .

والدين تارة يضاف إلى العبد ، وتارة يضاف إلى الرب ، فيقال : الإسلام دين الله الذي لا يقبل من أحد ديناً سواه ولهذا يقال في الدعاء : اللهم انصر دينك الذي أنزلت من السماء .

ونسب الكمال إلى الدين والتمام إلى النعمة ، مع إضافتها إليه ؛ لأنه هو وليها ومسديها إليهم . وهم محل محض النعمة قابلين لها . ولهذا يقال في الدعاء المأثور للمسلمين : « واجعلهم مثنين بها عليك ، قابليها ، وأتممها عليهم »[1] وأما الدين فلما كانوا هم القائمين به ، الفاعلين له بتوفيق ربهم نسبه إليهم ، فقال : (أكملت لكم دينكم) وكان الإكمال في جانب الدين والإتمام في جانب النعمة .

واللفظتان – وإن تقاربتا وتواخيتا – فبينهما فرق لطيف يظهر عند التأمل . فإن الكمال أخص بالصفات والمعاني ، ويطلق على الأعيان والذوات ، ولكن باعتبار صفاتها وخواصها ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران ، وآسية بنت مزاحم ، وخديجة بنت خويلد »[2] وقال عمر بن عبد العزيز : « إن للإيمان حدوداً وفرائض ، وسنناً وشرائع ، فمن استكملها فقد استكمل الإيمان » .

وأما الإتمام فيكون في الإيمان والمعاني ، ونعم الله أعيان وأوصاف ومعان .

وأما دينه فهو شرعه المتضمن لأمره ونهيه ومحابه . فكانت نسبة الكمال إلى الدين والتمام إلى النعمة أحسن ، كما كانت إضافة الدين إليهم والنعمة إليه أحسن .

والمقصود : أن هذه النعمة هي النعمة المطلقة : وهي التي اختصت بالمؤمنين . وإذا قيل : ليس لله على الكافر نعمة بهذا الاعتبار فهو صحيح .

والنعمة الثانية : النعمة المقيدة كنعمة الصحة والغنى وعافية الجسد وبسطة

---

(١) صحيح البخاري (٦/٥٤٣،٥٤٤) في أحاديث الأنبياء ، باب : قوله تعالى ﴿ إذ قالت الملائكة يامريم ... ﴾ الآية .

(٢) ومسلم (٥/٢٩٠) في فضائل الصحابة ، باب : من فضائل خديجة أم المؤمنين .

الجاه ، وكثرة الولد والزوجة الحسنة ، وأمثال هذه . فهذه النعمة مشتركة بين البر والفاجر ، والمؤمن والكافر وإذا قيل : لله على الكافر نعمة بهذا الاعتبار ، فهو حق .

فلا يصح إطلاق السلب والإيجاب إلا على وجه واحد ، وهو أن النعمة المقيدة لما كانت استدراجاً للكافر ، ومآلها إلى العذاب والشقاء ، فكأنها لم تكن نعمة ، وإنما كانت بلية ، كما سماها الله تعالى في كتابه كذلك . فقال تعالى : (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فَقَدَر عليه رزقه فيقول ربي أهانن . كلا) [الفجر : ١٥-١٧] أي ليس كل من أكرمته في الدنيا ونعمته فيها فقد أنعمت عليه ، وإنما كان ذلك ابتلاء مني له واختباراً ، ولا كل من قدرت عليه رزقه فجعلته بقدر حاجته بقدر فضله أكون قد أهنته ، بل أبتلي عبدي بالنعم كما أبتليه بالمصائب .

فإن قيل : كيف يلتئم هذا المعنى ويتفق مع قوله : (فأكرمه) فأثبت له الإكرام ، ثم أنكر عليه قوله : (ربي أكرمن) وقال : (كلا) أي ليس ذلك إكراماً مني هو ابتلاء ، فكأنه أثبت له الإكرام ونفاه .

وقيل : الإكرام المثبت غير الإكرام المنفي ، وهما من جنس النعمة المطلقة والمقيدة ، فليس هذا الإكرام المقيد بموجب لصاحبه أن يكون من أهل الإكرام المطلق .

وكذلك : أيضاً إذا قيل : إن الله أنعم على الكافر نعمة مطلقة ، ولكنه رد نعمة الله وبدّلها . فهو بمنزلة من أعطي مالاً ليعيش به فرماه في البحر ، كما قال : (ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً) [إبراهيم : ٢٨] وقال تعالى : (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) [فصلت : ١٧] فهدايته إياهم نعمة منه عليهم ، فبدلوا نعمة الله ، وآثروا عليها الضلال .

فهذا فصل النزاع في مسألة : هل لله على الكافر نعمة أم لا ؟ .

وأكثر اختلاف الناس من جهتين :

إحداهما : اشتراك الألفاظ وإجمالها والثانية من جهة الإطلاق والتفصيل[1].

وقال رحمه الله تعالى :

فقد أكمل الله لنا الدين فيما أمرنا به من فريضة وفضيلة وندب ، وكل سبب ينال به صلاح القلب والدين ، وفيما نهانا عنه من كل مكروه ومحرم ، وكل سبب يؤثر فساداً في القلب والدين[2] .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ﴾ [المائدة : ٦].

وأما تقديم غسل الوجه ثم اليد ثم مسح الرأس ثم الرجلين في الوضوء فمن يقول : إن هذا الترتيب واجب وهو الشافعي وأحمد ومن وافقهما فالآية عندهم اقتضت التقديم وجوباً لقرائن عديدة :

أحدها : أنه أدخل ممسوحاً بين مغسولين وقطع النظير عن نظيره . ولو أريد الجمع المطلق لكان المناسب أن يذكر المغسولات متسقة في النظم والممسوح بعدها فلما عدل إلى ذلك دل على وجوب ترتيبها على الوجه الذي ذكره الله .

الثاني : أن هذه الأفعال هي أجزاء فعل واحد مأمور به وهو الوضوء فدخلت الواو عاطفة لأجزائه بعضها على بعض والفعل الواحد يحصل من ارتباط أجزائه بعضها ببعض فدخلت الواو بين الأجزاء للربط فأفادت الترتيب إذ هو الربط المذكور في الآية . ولا يلزمه كونها لا تفيد الترتيب بين أفعال لا ارتباط بينهما نحو : (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) [النور : ٥٦] أن لا تفيده بين أجزاء فعل مرتبطة بعضها ببعض فتأمل هذا الموضع ولطفه وهذا أحد الأقوال الثلاثة في إفادة الواو للترتيب وأكثر الأصوليين لا يعرفونه ولا يحكونه وهو قول « ابن

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية (١-٣) .

(٢) الكلام على مسألة السماع (١١٠) .

أبي موسى » من أصحاب أحمد ولعله أرجح الأقوال .

الثالث : أن لبداءة الرب تعالى بالوجه دون سائر الأعضاء خاصة فيجب مراعاتها وأن لا تلغى وتهدر فيهدر ما اعتبره الله ويؤخر ما قدمه الله وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن ما قدمه الله فإنه ينبغي تقديمه ولا يؤخر ، بل يقدم ما قدمه الله ويؤخر ما أخره الله ، فلما طاف بين الصفا والمروة بدأ بالصفا وقال : « نبدأ بما بدأ الله به »[١].

وفي رواية النسائي : « ابدؤا بما بدأ الله به » على الأمر فتأمل بداءته بالصفا معللاً ذلك بكون الله بدأ به فلا ينبغي تأخيره . وهكذا يقول المرتبون للوضوء سواء نحن نبدأ بما بدأ الله به ولا يجوز تأخير ما قدمه الله ويتعين البداءة بما بدأ الله به وهذا هو الصواب لمواظبة المبين عن الله مراده صلى الله عليه وسلم على الوضوء المرتب فاتفق جميع من نقل عنه وضوءه كلهم عن إيقاعه مرتباً ولم ينقل عنه أحد قط أنه أخل بالترتيب مرة واحدة فلوكان الوضوء المنكوس مشروعاً لفعله ولو في عمره مرة لتبيين جوازه لأمته وهذا بحمد الله واضح[٢] .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله سبحانه في آية التيمم : ﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ [المائدة : ٦] . فألحقت الأمة أنواع الحدث الأصغر على اختلافها في نقضها بالغائط .

والآية لم تنص من أنواع الأصغر إلا عليه ، أو على اللمس أو على قول من فسره بما دون الجماع ، وألحقت الاحتلام بملامسة النساء ، وألحقت واجد ثمن الماء بواجده ، وألحقت من خاف على نفسه أو بهائمه من العطش إذا توضأ

(١) رواه مسلم (٣/٣٣٩) في الحج ، باب : حجة النبي صلى الله عليه وسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه .
وأبو داود (٥/٣٦٧) في المناسك ، باب : صفة حجة النبي صلى الله عليه وسلم .
والنسائي (٥/٢٣٩) في المناسك . باب : ذكر الصفا والمروة ورواه غيرهم .

(٢) بدائع الفوائد (١/٦٩،٧٠) .

بالعادم ، فجوزت له التيمم وهو واجد للماء ، وألحقت من خشي المرض من شدة برد الماء بالمريض في العدول عنه إلى البدل ، وإدخال هذه الأحكام وأمثالها في العمومات المعنوية التي لا يستريب من له فهم عن الله ورسوله في قصد عمومها ، وتعليق الحكم به ، وكونه متعلقاً بمصلحة العبد أولى من إدخالها في عمومات لفظية بعيدة التناول لها ليست بحرية الفهم مما ينكر تناول العمومين لها ، فمن الناس من يتنبه لهذا، ومنهم من يتنبه لهذا، ومنهم من يتفطن لتناول العمومين لها[1] .

قول الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٨] .

فإذا كان قد نهى عباده أن يحملهم بغضهم لأعدائه أن لا يعدلوا عليهم مع ظهور عداوتهم ومخالفتهم وتكذيبهم لله ورسوله فكيف يسوغ لمن يدعي الإيمان أن يحمله بغضه لطائفة منتسبة إلى الرسول تصيب وتخطىء على أن لا يعدل فيهم بل يجرد لهم العداوة وأنواع الأذى ولعله لا يدري أنهم أولى بالله ورسوله وما جاء به منه علما وعملا ودعوة إلى الله على بصيرة وصبراً من قومهم على الأذى في الله وإقامة الحجة لله ومعذرة لمن خالفهم بالجهل لا كمن نصب معالمه صادرة عن آراء الرجال فدعا إليها وعاقب عليها وعادى من خالفها بالعصبية وحمية الجاهلية . والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله[2] .

قال تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ [المائدة : ١٣]

والقسوة : الشدة والصلابة في كل شيء . يقال : حجر قاس وأرض قاسية لا تنبت شيئا .

---

(١) إعلام الموقعين (٢٦٨/١) .

(٢) بدائع الفوائد (١٦٥/٢،١٦٦) .

قال ابن عباس : قاسية عن الإيمان .

وقال الحسن : طبع عليها .

والقلوب ثلاثة : قلب قاس وهو اليابس الصلب الذي لا يقبل صورة الحق ولا تنطبع فيه . وضده القلب اللين المتماسك وهو السليم من المرض الذي يقبل صورة الحق بلينه ويحفظه بتماسكه بخلاف المريض الذي لا يحفظ ما ينطبع فيه لميعانه ورخاوته كالمائع الذي إذا طبعت فيه الشيء قبل صورته بما فيه من اللين ولكن رخاوته تمنعه من حفظها ، فخير القلوب القلب الصلب الصافي اللين فهو يرى الحق بصفائه ويقبله بلينه ويحفظه بصلابته وفي المسند وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم : « القلوب آنية الله في أرضه فأحبها إليه أصلبها وأرقها وأصفاها »[1][2].

قال الله تعالى : ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [المائدة : ١٥، ١٦] .

قيل : هي سبل تجمع في سبيل واحد وهي بمنزلة الجود والطرق في الطريق الأعظم ، فهذه هي سبل شعب الإيمان وهو شعبة ، كما يجمع ساق الشجرة أغصانها وشعبها ، وهذه السبيل هي إجابة داعي الله بتصديق خبره وطاعة أمره ، وطريق الجنة هي إجابة الداعي إليها ليس لا[3]! .

قول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ... ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ... ﴾ [المائدة : ٢٠-٢٦] .

---

(١) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (١٦٩١) : « أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (المنتقى منه) ، ... ، وإسناده قوي ، رجاله كلهم ثقات أثبات غير بقية ، وهو صدوق كثير التدليس عن الضعفاء ... وهو هنا قد صرح بالتحديث ... » .

(٢) شفاء العليل (١٠٥، ١٠٦) .

(٣) حادي الأرواح (٦٨) .

(ومن تلاعب الشيطان باليهود) : أن الله سبحانه أنجاهم من فرعون وسلطانه وظلمه ، وفرق بهم البحر ، وأراهم الآيات والعجائب ونصرهم وآواهم وأعزهم وآتاهم مالم يؤت أحداً من العالمين .

ثم أمرهم أن يدخلوا القرية التي كتب الله لهم وفي ضمن هذا بشارتهم بأنهم منصورون ، ومفتوح لهم . وأن تلك القرية لهم . فأبوا طاعته وامتثال أمره ، وقابلوا هذا الأمر والبشارة ، بقولهم : ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ [المائدة : ٢٤]

وتأمل : تلطف نبي الله تعالى موسى عليه السلام بهم ، وحسن خطابه لهم ، وتذكيرهم بنعم الله عليهم ، وبشارتهم بوعد الله لهم : بأن القرية مكتوبة لهم ، ونهيهم عن معصيته بارتدادهم على أدبارهم ، وأنهم إن عصوا أمره ، ولم يمتثلوا : انقلبو خاسرين . فجمع لهم بين الأمر والنهي ، والبشارة والنذارة ، والترغيب والترهيب ، والتذكير بالنعم السالفة ، فقابلوه أقبح المقابلة . فعارضوا أمر الله تعالى بقولهم : (ياموسى إن فيها قوماً جبارين) فلم يوقروا رسول الله وكليمه ، حتى نادوه باسمه ، ولم يقولوا : يانبي الله . وقالوا : (إن فيها قوماً جبارين) ونسوا قدرة جبار السموات والأرض الذي يذل الجبابرة لأهل طاعته وكان خوفهم من أولئك الجبارين - الذين نواصيهم بيد الله - أعظم من خوفهم من الجبار الأعلى سبحانه ، وكانوا أشد رهبة في صدورهم منه .

ثم صرحوا بالمعصية والامتناع عن الطاعة . فقالوا : (إنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها) فأكدوا معصيتهم بأنواع من التأكيد :

أحدها : تمهيد عذر العصيان بقولهم : (إن فيها قوماً جبارين) .

والثاني : تصريحهم بأنهم غير مطيعين ، وصدور الجملة بحرف تأكيد ، وهو « إنَّ » ثم حققوا النفي بأداة « لن » الدالة على نفي المستقبل . أي : لا ندخلها الآن ، ولا في المستقبل .

ثم علقوا دخولها بشرط خروج الجبارين منها فـ (قال) لهم (رجلان من

الذين يخافون أنعم الله عليهما) بطاعته والانقياد إلى أمره ، من الذين يخافون الله . هذا قول الأكثرين ، وهو الصحيح .

وقيل : من الذين يخافون من الجبارين ، أسلما واتبعا موسى عليه السلام (ادخلوا عليهم الباب) أي باب القرية ، فاهجموا عليهم ، فإنهم قد ملئوا منكم رعباً (فإذا دخلتموه فإنكم غالبون) ثم أرشداهم إلى ما يحقق النصر والغلبة لهم وهو التوكل .

فكان جواب القوم أن (قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها . فأذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) . فسبحان من عظم حلمه حيث يقابل أمره بمثل هذه المقابلة ، ويواجه رسوله بمثل هذا الخطاب ، وهو يحلم عنهم ، ولا يعاجلهم بالعقوبة ، بل وسعهم حلمه وكرمه ، وكان أقصى ما عاقبهم به : أن ردهم في برية التيه أربعين عاماً يظلل عليهم الغمام من الحر ، وينزل عليهم المن والسلوى .

وفي الصحيحين : عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال[1] : « لقد شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به ، أتى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يدعو على المشركين ، فقال : لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ولكنا نقاتل عن يمينك وشمالك ، وبين يديك ومن خلفك .

فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أشرق وجهه لذلك ، وسُرّ به فلما قابلوا نبي الله بهذه المقابلة قال : (رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين)[2] » .

---

(١) هو في صحيح البخاري (٣٣٥/٧) في المغازي ، باب : قصة غزوة بدر ...
وأخرجه في التفسير (١٢٢/٨) .

(٢) إغاثة اللهفان (٣١٤،٣١٢/٢) .

وقال : قال الأخفش في قوله تعالى : (إن فيها قوماً جبارين) قال : أراد الطول والقوة والعظم .

ذهب في هذا إلى الجبار من النخل والطويل الذي فات الأيدي . ويقال : رجل جبار إذا كان طويلاً عظيماً قوياً تشبيها بالجبار من النخل قال قتادة : كانت لهم أجسام وخلق عجيبة ليست لغيرهم .

وقيل الجبار : ههنا من جبره على الأمر إذا أكرهه عليه .

قال الأزهري وهي لغة معروفة وكثير من الحجازيين يقولونها[١] .

قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة : ٢٣] .

فجعل التوكل شرطاً في الإيمان فدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل[٢] .

قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧] .

وأحسن ما قيل في تفسير الآية : أنه إنما يتقبل الله عمل من اتقاه في ذلك العمل ، وتقواه فيه أن يكون لوجهه على موافقة أمره وهذا إنما يحصل بالعلم وإذا كان هذا منزلة العلم وموقعه علم أنه أشرف شيء وأجله وأفضله. والله أعلم[٣] .

قول الله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢] .

وقد أشكل فهم هذا على كثير من الناس ، وقال : معلوم أن إثم قاتل مائة أعظم عند الله من إثم قاتل نفس واحدة ، وإنما أتوه من ظنهم أن التشبه في مقدار الإثم والعقوبة ، واللفظ لم يدل على هذا ، ولا يلزم من تشبيه الشيء بالشيء أخذه بجميع أحكامه[٤] .

---

(١) شفاء العليل (١٢١) .

(٢) طريق الهجرتين (٢٣٧،٢٣٨) .

(٣) مفتاح دار السعادة (٩٠) .

(٤) الجواب الكافي (الداء والدواء) (٢٢١،٢٢٢) .

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ .

عقيب قوله : ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ [المائدة : ٤١]

مما يدل على أن العبد إذا اعتاد سماع الباطل وقبوله أكسبه ذلك تحريفاً للحق عن مواضعه فإنه إذا قبل الباطل أحبه ورضيه فإذا جاء الحق بخلافه رده وكذبه إن قدر على ذلك وإلا حرفه كما تصنع الجهمية بآيات الصفات وأحاديثها يردون هذه بالتأويل الذي هو تكذيب بحقائقها وهذه بكونها أخبار آحاد لا يجوز الاعتماد عليها في باب معرفة الله تعالى وأسمائه وصفاته فهؤلاء وإخوانهم من الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم فإنها لو طهرت لما أعرضت عن الحق وتعوضت بالباطل عن كلام الله تعالى ورسوله كما أن المنحرفين من أهل الإرادة لما لم تطهر قلوبهم تعوضوا بالسماع الشيطاني عن السماع القرآني الإيماني ، قال عثمان بن عفان رضي الله عنه : « لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله » فالقلب الطاهر لكمال حياته ونوره وتخلصه من الأدران والخبائث لا يشبع من القرآن، ولا يتغذى إلا بحقائقه ولا يتداوى إلا بأدويته، بخلاف القلب الذي لم يطهره الله تعالى فإنه يتغذى من الأغذية التي تناسبه بحسب ما فيه من النجاسة فإن القلب النجس كالبدن العليل المريض لا تلائمه الأغذية التي تلائم الصحيح ودلت الآية على أن طهارة القلب موقوفة على إرادة الله تعالى وأنه سبحانه لما لم يرد أن يطهر قلوب القائلين بالباطل المحرفين للحق لم يحصل لها الطهارة ولا يصح أن تفسر الإرادة ههنا بالإرادة الدينية، وهي الأمر والمحبة فإنه سبحانه قد أراد ذلك لهم أمراً ومحبة، ولم يرده منهم كوناً فأراد الطهارة لهم وأمرهم بها، ولم يرد وقوعها منهم لما له في ذلك من الحكمة التي فواتها أكره إليه من فوات الطهارة منهم، وقد أشبعنا الكلام في ذلك في كتابنا الكبير[1] في القدر ودلت الآية على أن من لم يطهر الله قلبه، فلابد أن يناله الخزي في الدنيا، والعذاب في الآخرة، بحسب نجاسة قلبه وخبثه ولهذا حرم الله سبحانه الجنة على من في قلبه نجاسة وخبث، ولا يدخلها إلا بعد طيبه وطهره، فإنها دار الطيبين ولهذا يقال لهم

(١) هو كتابه النفيس « شفاء العليل ... » وهو مطبوع ، وفي جميع طبعاته لم يخدم كما ينبغي .

(طبتم فادخلوها خالدين) [الزمر : ٧٣] . أي ادخلوها بسبب طيبكم والبشارة عند الموت لهؤلاء دون غيرهم كما قال تعالى : (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) [النحل : ٣٢] فالجنة لا يدخلها خبيث ولا من فيه شيء من الخبث فمن تطهر في الدنيا ولقي الله طاهراً من نجاساته دخلها بغير معوق ومن لم يتطهر في الدنيا فإن كانت نجاسته عينية كالكافر لم يدخلها بحال، وإن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعد ما يتطهر في النار من تلك النجاسة، ثم لا يخرج منها حتى إن أهل الإيمان إذا جازوا الصراط، حُبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيهذبون وينقون من بقايا بقيت عليهم قصرت بهم عن الجنة ولم توجب لهم دخول النار حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، والله سبحانه بحكمته جعل الدخول عليه موقوفاً على الطهارة، فلا يدخل المصلي عليه حتى يتطهر وكذلك جعل الدخول إلى جنته موقوفاً على الطيب والطهارة فلا يدخلها إلا طيب طاهر فهما طهارتان : طهارة البدن وطهارة القلب ولهذا شرع للمتوضيء أن يقول عقيب وضوئه[1]: « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين » فطهارة القلب بالتوبة وطهارة البدن بالماء فلما اجتمع له الطهران صلح للدخول على الله تعالى والوقوف بين يديه ومناجاته[2] .

قول الله تعالى ذكره: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾

[المائدة : ٤٤،٤٥،٤٧] .

فأكد هذا التأكيد وقرر هذا التقرير في موضع واحد لعظم مفسدة الحكم بغير ما أنزله ، وعموم مضرته وبلية الأمة به[3] .

---

(١) حديث صحيح مستقيم الإسناد . كذا قال محدث مصر الشيخ أحمد شاكر رحمه الله . في سنن الترمذي (٧٩/١) . فانظر تخريجه هناك مفصلًا فإنه هام ونفيس .

(٢) إغاثة اللهفان (٥٥/١،٥٦) .

(٣) إعلام الموقعين (٢٨٨/١) .

وقال رحمه الله تعالى: قال ابن عباس: ليس بكفر ينقل عن الملة. بل إذا فعله فهو به كفر، وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر. وكذلك قال طاوس وقال عطاء : هو كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق . ومنهم : من تأول الآية على ترك الحكم بما أنزل الله جاحداً له . وهو قول عكرمة وهو تأويل مرجوح ، فإن نفس جحوده كفر ، سواء حكم أو لم يحكم .

ومنهم : من تأولها على ترك الحكم بجميع ما أنزل الله . قال : ويدخل في ذلك الحكم بالتوحيد والإسلام . وهذا تأويل عبد العزيز الكناني . وهو أيضاً بعيد . إذ الوعيد على نفي الحكم بالمنزل . وهو يتناول تعطيل الحكم بجميعه وببعضه .

ومنهم : من تأولها على الحكم بمخالفة النص ، تعمداً عن غير جهل به ولا خطأ في التأويل حكاه البغوي[1] عن العلماء عموماً .

ومنهم : من تأولها على أهل الكتاب . وهو قول قتادة ، والضحاك، وغيرهما. وهو بعيد ، وهو خلاف ظاهر اللفظ . فلا يُصار إليه .

ومنهم : من جعله كفراً ينقل عن الملة .

والصحيح : أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين ، الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم . فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة ، وعدل عنه عصياناً ، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة ؛ فهذا كفر أصغر ، وإن اعتقد أنه غير واجب ، وأنه مخير فيه ، مع تيقنه حكم الله فهذا كفر أكبر . وإن جهله وأخطأه ؛ فهذا مخطيء ، له حكم المخطئين[2] .

قوله تعالى ذكره: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة : ٤٨] .

قال ابن عباس : سبيلاً وسنة .

وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير ، فالسبيل الطريق وهي المنهاج والسنة

---

(١) انظر تفسير البغوي (٢/٥٧-٥٨) .

(٢) مدارج السالكين (١/٣٣٦،٣٣٧) .

الشرعة وهي تفاصيل الطريق وحزوناته ، وكيفية المسير فيه ، وأوقات المسير ، وعلى هذا فقوله سبيلاً وسنة : يكون السبيل المنهاج ، والسنة الشرعة فالمقدم في الآية للمؤخر في التفسير وفي لفظ آخر سنة وسبيلاً فيكون المقدم للمقدم والمؤخر للتالي[(١)] .

أنه سبحانه أخبر أن كل حكم خالف حكمه الذي أنزله على رسوله فهو من أحكام الهوى ، لا من أحكام العقل ، وهو من أحكام الجاهلية ، لا من حكم الله والهدى ، فقال تعالى : (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك . فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرًا من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون) [المائدة : ٤٩ ، ٥٠] .

فأخبر سبحانه وتعالى : أنه ليس وراء ما أنزله إلا اتباع الهوى ، الذي يضل عن سبيله وليس وراء حكمه إلا حكم الجاهلية ، وكل هذه الآراء والمعقولات المخالفة لما جاء به الرسول ، هي من قضايا الهوى وأحكام الجاهلية وإن سماها أربابها بالقواطع العقلية ، والبراهين اليقينية كتسمية المشركين أوثانهم وأصنامهم آلهة ، وتسمية المنافقين السعي في الأرض بالفساد وصد القلوب عن الإيمان إصلاحاً وإحساناً وتوفيقاً[(٢)] .

قول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ [المائدة : ٥٤] فقد ذكر لهم أربع علامات :

أحدها : أنهم ﴿ **أذلة على المؤمنين** ﴾ قيل : معناه أرقاء ، رحماء مشفقين عليهم . عاطفين عليهم . فلما ضمن ﴿ **أذلة** ﴾ هذا المعنى عداه بأداة « على » قال عطاء : للمؤمنين كالولد لوالده والعبد لسيده . وعلى الكافرين كالأسد على فريسته (أشداء على الكفار رحماء بينهم) . [الفتح : ٢٩] .

(١) شفاء العليل (٨١،٨٢) .
(٢) الصواعق المرسلة (٣/١٠٤٦) .

العلامة الثالثة : الجهاد في سبيل الله بالنفس واليد ، واللسان والمال ، وذلك تحقيق دعوى المحبة .

العلامة الرابعة : أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم . وهذا علامة صحة المحبة ، فكل محب يأخذه اللوم على محبوبه ؛ فليس بمحب على الحقيقة . كما قيل :

لا كان من لسواك فيه بقية   يجد السبيل بها إليه اللوم[1]

وقال رحمه الله تعالى :

وكذلك وصف أهل المحبة في قوله : ﴿ **يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم** ﴾ فوصفهم بست صفات :

أحدها : محبتهم له .

والثانية : محبته لهم .

والثالثة : ذلهم ولينهم على أوليائه .

والرابعة : عزهم وشدتهم على أعدائه .

والخامسة : جهادهم في سبيله .

والسادسة : احتمالهم لوم الخلق لهم على ذلك ، وأنهم ليسوا بمنزلة من يحتمل الملام والعذل في محبة ما لا يحبه الله ، ولا بمنزلة من أظهر من مكروهات الرب تبارك وتعالى ، ما يلامون عليه ، ويسمون بالملامتية إظهاراً منهم لما يلامون عليه في الظاهر ، وهم منطوون في الباطن على الصدق والإخلاص ستراً لحالهم عن الناس ، فهم فعلوا ذلك لعدم احتمالهم الملام ، والأولون احتملوا الملام في مالا يحبه الله ، وأحباء الله فعلوا ما أحبه الله ، ولم تأخذهم فيه لومة لائم فالأقسام ثلاثة :

أحدها : من يصده اللوم عن محاب الله .

والثاني : مَن لا تأخذه في محبة الله لومة لائم .

والثالث : مَن يظهر ما يلام عليه إخفاء لقيامه بمحاب الله .

فالأول مفرط ، والثالث مؤمن ضعيف ، والوسط هو الوسط الخيار ، وهو

(١) مدارج السالكين (٣/٢٢) .

المؤمن القوي ، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف . وأعلى ما يحبه الله ورسوله الجهاد في سبيل الله ، واللائمون عليه كثير ، إذ أكثر النفوس تكرهه ، واللائمون عليه ثلاثة أقسام : منافق ، ومخذل مفتر للهمة ، ومرجف مضعف للقوة والقدرة[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

قال تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [المائدة : ٥٤] .

لما كان الذل منهم ذل رحمة وعطف وشفقة وإخبات عداه بأداة « على » تضميناً لمعاني هذه الأفعال . فإنه لم يرد به ذل الهوان الذي صاحبه ذليل . وإنما هو ذلك اللين والانقياد الذي صاحبه ذلول ، فالمؤمن ذلول . كما في الحديث[2] : « المؤمن كالجمل الذلول . والمنافق والفاسق ذليل » وأربعة يعشقهم الذل أشد العشق : الكذاب ، والنمام ، والبخيل ، والجبار .

وقوله : ﴿ أعزة على الكافرين ﴾ هو من عزة القوة والمنعة والغلبة . قال عطاء رضي الله عنه : للمؤمنين كالوالد لولده . وعلى الكافرين كالسبع على فريسته .

كما قال في الآية الأخرى (أشداء على الكفار رحماء بينهم) [الفتح : ٢٩] . وهذا عكس حال من قيل فيهم :

كبراً علينا ، وجبناً عن عدوكم لبئست الخلتان : الكبر ، والجبن

---

(١) الكلام على مسألة السماع (٢٨٨، ٢٨٩) .

(٢) لم أجده بهذا اللفظ ، ولكن جاء في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه وأوله : « تركتم على البيضاء ... فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما انقيد انقاد » .
رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٤/١٢٦) .
وابن ماجة (الصحيح) (١/١٤) في المقدمة باب : اتباع سنة الخلفاء الراشدين ..
والحاكم (١/٩٦) وقال الذهبي : « على شرطهما ولا أعرف له علة » .
وانظر حديث رقم (٩٣٧) من السلسلة الصحيحة والله أعلم .

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال[١] : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله أوحى إليّ : أن تواضعوا ، حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغي أحد على أحد »[٢] .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

فانظر إلى هذه البلاغة فإنه سبحانه وتعالى علم وهو أعلم أنه لو اقتصر على وصفهم بالذلة على المؤمنين وإن كانت صفة مدح إذ وصفهم بالرياضة لإخوانهم المؤمنين والانقياد لأمرهم كان المدح غير كامل فكمل مدحهم بأن وصفهم بالعزة على الكافرين فأتى بوصفهم بالامتناع منهم والغلبة لهم[٣] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [المائدة : ٦٤] .

فهذا إما أن يراد به : العداوة التي بين اليهود والنصارى ، أو يراد به العداوة التي بين فرقهم ، وإن كانوا ملة واحدة ، وهذا لا يمنع قبول شهادة بعضهم على بعض ، فإنها عداوة دينية ، فهي كالعداوة بين فرق هذه الأمة وإلباسهم شيعاً ، وإذاقة بعضهم بأس بعض[٤] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾ [المائدة : ٦٧] .

عتبة بن أبي وقاص الذي كسر رباعية النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، قال بعض العلماء[٥] بالأخبار: أنه استقرىء نسله فلا يبلغ أحد منهم الحلم

---

(١) رواه مسلم من حديث « عياض بن حمار المجاشعي » رضي الله عنه (٧١٦/٥) في الجنة ، باب : الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار .

(٢) مدارج السالكين (٣٢٧/٢، ٣٢٨) .

(٣) الفوائد المشوق (٨٩، ٩٠) .

(٤) الطرق الحكمية (١٩١) .

(٥) قائل ذلك الإمام العلامة « السهيلي » في الروض الأنف (٤٧٠/٥) .

=

إلا أبخر وأهتم ، يعرف ذلك فيهم ، وهو من شؤم الآباء على الأبناء. واختلف فيما وقع للنبي صلى الله عليه وسلم من هذا ونحوه فقيل وهو قبل نزول قوله : ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾ [المائدة : ٦٧] ، وقيل العصمة الموعود بها عصمة النفس من القتل لا عصمته من أذاهم بالكلية بل أبقى الله تعالى لرسوله ثواب ذلك الأذى ولأمته حسن التأسي به إذا أوذي أحدهم نظر إلى ما جرى عليه صلى الله عليه وسلم فتأسى وصبر وللمؤذين الأشقياء الأخذة الرابية[1] .

قول الله سبحانه: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة : ٧٥]

وقد تضمنت هذه الحجة دليلين ببطلان إلهية المسيح وأمه :

أحدهما : عن القيام بنفسيهما ، بل هي محتاجة فيما يقيمها إلى الغذاء والشراب . والمحتاج إلى غيره لا يكون إلهاً ؛ إذ من لوازم الإله أن يكون غنياً .

الثاني : أن الذي يأكل الطعام يكون منه ما يكون من الإنسان من الفضلات القذرة التي يستحي الإنسان من نفسه وغيره حال انفصالها عنه ، بل يستحي من التصريح بذكرها ، ولهذا والله أعلم كنى الله سبحانه عنها بلازمها من أكل الطعام الذي ينتقل الذهن منه إلى ما يلزمه من هذه الفضلة . فكيف يليق بالرب سبحانه أن يتخذ صاحبة وولداً من هذا الجنس .

ولو كان يليق به ذلك أو يمكن لكان الأولى به أن يكون من جنس لا يأكل ولا يشرب ولا يكون منه الفضلات المستقذرة التي يُستحيا منها ويرغب عن ذكرها .

فانظر ما تضمنه هذا المعنى العظيم الجليل الذي لا يجد سامعه مغمزاً له ،

وانظر الطبقات لابن سعد (٤٥/٢) .

= والسيرة لابن هشام (٤٢/٣) .

• الأبخر : النتن في الفم وغيره ، والهتم ، يقال : هتم فاهُ يهتمُهُ : ألقى مقدَّم أسنانه • مستفاد من القاموس المحيط .

(١) بدائع الفوائد (٢١١/٣، ٢١٢) .

ولا مطعناً فيه ، ولا تشكيكاً ولا سؤالا يورده عليه ، بل يأخذ بقلبه وسمعه[1] .

قول الله تعالى ذكره: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة : ٩٠] .

من أعظم مكايد الشيطان : ما نصبه للناس من الأنصاب والأزلام ، التي هي من عمله وقد أمر الله تعالى باجتناب ذلك ، وعلق الفلاح باجتنابه .

فالأنصاب : كل ما نصب يعبد من دون الله : من حجر ، أو شجر أو وثن ، أو قبر .

وهي جمع ، واحدها نصب ، كطنب وأطناب .

قال مجاهد وقتادة وابن جريج : كانت حول البيت أحجار كان أهل الجاهلية يذبحون عليها ويُشَرِّحُون اللحم عليها ، وكانوا يعظمون هذه الحجارة ويعبدونها . قالوا : وليست بأصنام ، إنما الصنم ما يصور وينقش .

وقال ابن عباس : هي الأصنام التي يعبدونها من دون الله تعالى .

وقال الزجاج : حجارة كانت لهم يعبدونها ، وهي الأوثان .

وقال الفراء : هي الآلهة التي كانت تعبد من أحجار وغيرها .

وأصل اللفظة : الشيء المنصوب الذي يقصده من رآه ، ومنه قوله تعالى : (يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون) [المعارج : ٤٣].

قال ابن عباس : إلى غاية ، أو علم يسرعون . وهو قول أكثر المفسرين .

وقال الحسن : يعني إلى أنصابهم ، أيهم يستلمها أولا .

قال الزجاج : هذا على قراءة من قرأ « نُصُب » بضمتين[2] ، كقوله : ﴿ وما ذبح على النصب ﴾ قال : ومعناه : أصنام لهم .

والمقصود : أن النصب كل شيء نصب من خشبة ، أو حجر ، أو علم ، والإيفاض : الإسراع .

---

(١) الصواعق المرسلة (٤٨٢/٢، ٤٨٣) .

(٢) قرأ ابن عامر وحفص عن عاصم : « إلى نُصُب » بضم النون والصاد . وقرأ الباقون : « إلى نَصْب » بفتح النون وسكون الصاد . (القراءات لابن مجاهد : ٦٥١) .

وأما الأزلام فقال ابن عباس رضي الله عنهما : هي قداح كانوا يستقسمون بها الأمور . أي : يطلبون بها علم ما قسم لهم .

وقال سعيد بن جبير : كانت لهم حصيات إذا أراد أحدهم أن يغزو ، أو يجلس ، استقسم بها .

وقال أيضاً : هي القدحان اللذان كان يستقسم بهما أهل الجاهلية في أمورهم . أحدهما عليه مكتوب : أمرني ربي ، والآخر : نهاني ربي . فإذا أرادوا أمراً ضربوا بها ، فإن خرج الذي عليه أمرني ، فعلو ما هَمُّوا به . وإن خرج الذى عليه نهاني تركوه .

وقال أبو عبيد : الاستقسام : طلب القسمة .

وقال المبرد : الاستقسام : أخذ كل واحد قَسْمَه .

وقيل : الاستقسام : إلزام أنفسهم بما تأمرهم به القداح ، كقسم اليمين .

وقال الأزهري : وأن تستقسموا بالأزلام : أي تطلبوا من جهة الأزلام ما قسم لكم من أحد الأمرين .

وقال أبو إسحاق الزجاج وغيره : الاستقسام بالأزلام حرام . ولا فرق بين ذلك وبين قول المنجم : لا تخرج من أجل نجم كذا ، وأخْرُج من أجل طلوع نجم كذا، لأن الله تعالى يقول: (وما تدري نفس ماذا تكسب غداً) [لقمان : ٣٤].

وذلك دخول في علم الله عز وجل الذي هو غيب عنا . فهو حرام كالأزلام التي ذكرها الله تعالى .

والمقصود : أن الناس قد ابتلوا بالأنصاب والأزلام ، فالأنصاب للشرك والعبادة ، والأزلام للتكهن ، وطلب علم ما استأثر الله به ، هذه للعلم ، وتلك للعمل ، ودين الله سبحانه وتعالى مضاد لهذا وهذا ، والذي جاء به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إبطالهما ، وكسر الأنصاب والأزلام .

فمن الأنصاب ما قد نصبه الشيطان للمشركين : من شجرة أو عمود أو وثن ، أو قبر ، أو خشبة ، أو عين ، ونحو ذلك .

والواجب هدم ذلك كله أو محو أثره . كما أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم علياً رضي الله عنه بهدم القبور المشرفة وتسويتها بالأرض . كما روى مسلم[1] في صحيحه عن أبي الهياج الأسدي . قال : قال لي علي رضي الله عنه : « ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ؟ أن لا أدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته . وعَمّى الصحابة بأمر عمر رضي الله عنه قبر دانيال ، وأخفوه عن الناس ولما بلغه أن الناس ينتابون الشجرة التي بايع تحتها رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أصحابه فقطعها . رواه ابن وضاح[2] في كتابه، فقال سمعت عيسى بن يونس يقول: أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، فقطعها لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها . فخاف عليهم الفتنة .

قال عيسى بن يونس هو عندنا من حديث ابن عون عن نافع : أن الناس كانوا يأتون الشجرة ، فقطعها عمر رضي الله عنه . فإذا كان هذا فعل عمر رضي الله عنه بالشجرة التي ذكرها الله تعالى في القرآن ، وبايع تحتها الصحابة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فماذا حكمه فيما عداها من هذه الأنصاب والأوثان ، التي قد عظمت الفتنة بها ، واشتدت البلية بها ؟ .

وأبلغ من ذلك : أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم هدم مسجد الضرار[3] .

---

(١) رواه مسلم (٦٣٠/٢) في الجنائز ، باب : الأمر بتسوية القبور .
والترمذي برقم (١٠٤٩) الجنائز ، باب ما جاء في تسوية القبر .
والنسائي (٨٨/٤) نفس الكتاب والباب .
وكذا أبو داود (٣٤/٩) .

(٢) انظر كتاب : « البدع والنهي عنها » ص (٤٢) لمحمد بن وضاح القرطبي .

(٣) وهو المذكور في قوله تعالى : ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً ... إلى قوله ... لا تقم فيه أبداً ... ﴾ (التوبة : ١٠٧، ١٠٨) .
وانظر سيرة ابن هشام (١٧١/٤) .
وتفسير ابن كثير (٤١٤/٢) .

ففي هذا دليل على هدم ما هو أعظم فساداً منه ، كالمساجد المبنية على القبور . فإن حكم الإسلام فيها أن تهدم كلها ، حتى تسوى بالأرض . وهي أولى بالهدم من مسجد الضرار . وكذلك القباب التي على القبور ، يجب هدمها كلها . لأنها أسست على معصية الرسول ، لأنه قد نهى عن البناء على القبور كما تقدم . فبناءٌ أسِّس على معصيته ومخالفته بناءٌ غير محترم . وهو أولى بالهدم من بناء الغاصب قطعاً .

وقد أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بهدم القبور المشرفة كما تقدم . فهدم القباب والبناء والمساجد التي بنيت عليها أولى وأحرى . لأنه لعن متخذي المساجد عليها . ونهى عن البناء عليها ، فيجب المبادرة والمساعدة إلى هدم ما لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فاعله ونهى عنه . والله عز وجل يقيم لدينه وسنّة رسوله من ينصرهما ، ويذُبُّ عنهما فهو أشد غيرة وأسرع تغيراً .

وكذلك يجب إزالة كل قنديل أو سرج على قبر ، وطَفْيُه .

فإن فاعل ذلك ملعون بلعنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، ولا يصح هذا الوقف . ولا يحل إثباته وتنفيذه[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

وقال الله تعالى : ﴿**يأيها الذين ءامنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلٰم رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون**﴾ [المائدة : ٩٠] .

فلفظ الخمر عام في كل مسكر ، فإخراج بعض الأشربة المسكرة عن شمول اسم الخمر لها تقصير به ، وهضم لعمومه ، بل الحق ما قاله صاحب الشرع :كل مسكر خمر[٢] ، وإخراج بعض أنواع الميسر عن شمول اسمها لها تقصير أيضاً به ، وهضم لمعناه ، فما الذي جعل النرد الخالي عن العوض من الميسر ، وأخرج

---

(١) إغاثة اللهفان (٢٠٧-٢١٠) .

(٢) رواه الإمام أحمد بسند صحيح في مواضع منها : (٢٩٥/٦) برقم (٤٦٤٥) طبعة المعارف . و (١٦/٢) طبعة بيروت . =

الشطرنج عنه مع أنه من أظهر أنواع الميسر ، كما قال غير واحد من السلف إنه ميسر ، وقال علي كرم الله وجهه : هو ميسر العجم[(١)] .

وحرم الله سبحانه وتعالى السكر لشيئين ذكرهما في كتابه من قوله: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة : ٩١] .

فأخبر الله سبحانه أنه يوجب المفسدة الناشئة من النفس بواسطة زوال العقل ويمنع المصلحة التي لا تتم إلا بالعقل[(٢)] .

قال تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [المائدة : ٩٢] .

فأخبر سبحانه أن الهداية في طاعة الرسول لا في غيرها ، فإنه معلق بالشرط فينتفي بانتفائه وليس هذا من باب دلالة المفهوم ، كما يغلط فيه كثير من الناس ويظن أنه محتاج في تقريره الدلالة منه لا تقرير كون المفهوم حجة . بل هذا من الأحكام التي ترتبت على شروط وعلقت فلا وجود لها بدون شروطها ، إذ ما علق على الشرط فهو عدم عند عدمه ؛ وإلا لم يكن شرطاً له .

إذا ثبت هذا فالآية نص على انتفاء الهداية عند عدم طاعته .

وفي إعادة الفعل في قوله تعالى : ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ [المائدة : ٩٢] . دون الاكتفاء بالفعل الأول ، سر لطيف وفائدة جليلة ، سنذكرها عن قريب إن شاء الله تعالى[(٣)] .

= ورواه مسلم : (٦٨٦/٤) في الأشربة ، باب : عقوبة من شرب الخمر ... .

(١) إعلام الموقعين (٢٨٢/١) .

(٢) روضة المحبين (١٥٢) .

(٣) الرسالة التبوكية (٤٥ - ٤٦) وانظر ذلك في تفسيره للآية (٥٩) النساء .

قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ * قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴾ [المائدة : ١٠١]

وقد اختلف في هذه الأشياء المسئول عنها : هل هي أحكام قدرية أو أحكام شرعية ؟ على قولين ، فقيل إنها أحكام شرعية ، عفا الله عنها ، أي : سكت على تحريمها فيكون سؤالهم عنها سبب تحريمها ، ولو لم يسألوا ؛ لكانت عفواً ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن الحج[(١)] : « أفي كل عام ؟ فقال : لو قلت نعم . لوجبت ، ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم ، واختلافهم على أنبيائهم » . ويدل على هذا التأويل حديث أبي ثعلبة المذكور : « أن أعظم المسلمين في المسلمين جرماً »[(٢)] الحديث ومنه الحديث الآخر : « إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدوداً فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان ، فلا تبحثوا عنها »[(٣)] وفسرت بسؤالهم عن أشياء من الأحكام القدرية كقول عبد الله بن حذافة : من أبي يارسول الله[(٤)]؟ وقول آخر : أين أبي يارسول الله ؟ قال : « في النار »[(٥)].

---

(١) رواه مسلم : (٤٨١/٣) في الحج ، باب : فرض الحج مرة في العمر .
والنسائي : (١١٠/٥) في الحج ، باب : وجوب الحج .
ورواه غيرهما .

(٢) رواه البخاري (٢٨٧/١٣) في الاعتصام باب : ما يكره من كثرة السؤال .
ومسلم (٢٠٦/٥) في الفضائل باب : توقيره صلى الله عليه وسلم .

(٣) رواه الدارقطني (٢٩٧/٤-٢٩٨) وفيه « نهشل الخراساني » كذاب .
وانظر (٦٩/١) من مشكاة المصابيح .

(٤) رواه البخاري (٢٧٩/١٣) في الاعتصام ، باب : ما يكره من كثرة السؤال .
ومسلم (٢٠٨/٥،٢٠٩) في الفضائل ، باب : توقيره صلى الله عليه وسلم .
وانظر الطبري (٨٠/٧-٨٢) .
وابن كثير (١١٣/٢) . في تفسير الآية نفسها .

(٥) رواه مسلم (٤٨١/١) في الإيمان ، باب : دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لأمته .
وأبو داود (٤٩٤/١٢) في السنة ، باب : في ذراري المشركين .

والتحقيق أن الآية تعم النهي عن النوعين ، وعلى هذا فقوله تعالى : ﴿ **إن تبد لكم تسؤكم** ﴾ أما في أحكام الخلق والقدر ، فإنه يسوؤهم أن يبدو لهم ما يكرهون مما يسألون عنه ، وأما في أحكام التكليف ، فإنه يسوؤهم أن يبدو لهم ما يشق عليهم تكليفه مما سألوا عنه .

وقوله تعالى : ﴿ **وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم** ﴾ .

فيه قولان :

أحدهما : أن القرآن إذا نزل بها ابتداء بغير سؤال فسألتم عن تفصيلها وعلمها ، أبدي لكم ، وبين لكم ، والمراد بحين النزول زمنه المتصل به لا الوقت المقارن للنزول ، وكأن في هذا إذناً لهم في السؤال عن تفصيل المنزل ومعرفته بعد إنزاله ، ففيه رفع لتوهم المنع من السؤال عن الأشياء مطلقاً .

والقول الثاني : أنه من باب التهديد والتحذير ، أي ما سألتم عنها في وقت نزول الوحي جاءكم ما سألتم عنه بما يسوؤكم ، والمعنى لا تتعرضوا للسؤال عما يسوؤكم بيانه ، وإن تعرضتم له في زمن الوحي أبدي لكم وقوله : ﴿ **عفا الله عنها** ﴾ أي : عن بيانها خبراً وأمراً بل طوى بيانها عنكم رحمة ومغفرة وحلماً والله غفور رحيم ، فعلى القول الأول عفا الله عن التكليف بها توسعة عليكم ، وعلى القول الثاني عفا الله عن بيانها لئلا يسوءكم بيانها .

وقوله : ﴿ **قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين** ﴾ أراد نوع تلك المسائل لا أعيانها ، أي : قد تعرض قوم من قبلكم لأمثال هذه المسائل فلما بينت لهم كفروا بها ، فاحذروا مشابهتهم ، والتعرض لما تعرضوا له ، ولم ينقطع حكم هذه الآية بل لا ينبغي للعبد أن يتعرض للسؤال عما إن بدا له ساءه ، بل يستعفي ما أمكنه ويأخذ بعفو الله ، ومن هاهنا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه [1]: ياصاحب الميزاب ، لا تخبرنا لما سأله رفيقه عن مائه أطاهر ، أم لا

(١) لم أعثر عليه بهذا اللفظ ، ولم يبين صاحب « فقه السنة » وهو ممن استشهد به – مصدره والذي في الموطأ (٢٣/١، ٢٤) أن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – خرج في ركب فيهم عمرو بن =

وكذلك لا ينبغي للعبد أن يسأل ربه أن يبدي له من أحواله وعاقبته ما طواه عنه ، وستره ، فلعله يسوؤه إن أبدي له ، فالسؤال عن جميع ذلك تعرض لما يكرهه الله ، فإنه سبحانه يكره إبداءها ، ولذلك سكت عنها . والله أعلم[1] .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴾ [المائدة : ١٠٦] .

ذكر محمد بن إسحاق[2] عن أبي النضر بن باذان – مولى أم هانىء –

= العاص – رضي الله عنه – حتى وردوا حوضاً . فقال عمرو بن العاص لصاحب الحوض : ياصاحب الحوض هل ترد حوضك السباع ، فقال عمر بن الخطاب : ياصاحب الحوض ، لا تخبرنا ، فإنا نرد على السباع وترد علينا .

ورواه الدارقطني (٣٢/١) .

وابن أبي شيبة في المصنف (١٤٢/١) .

وذكره النووي في المجموع (١٧٣/١،١٧٤) وقال: «هذا الأثر إسناده صحيح إلى يحيى بن عبد الرحمن لكنه مرسل منقطع فإن يحيى وإن كان ثقة فلم يدرك عمر بل ولد في خلافة عثمان . هـذا هو الصواب ... إلا أن هذا المرسل له شواهد تقويه ... » .

وابن قدامة صاحب المغني (٨٧/١) .

ولم يذكر صاحب كنز العمال إلا هذه الرواية (٨٠٤/٣) .

وانظر مشكاة المصابيح ح رقم (٤٨٦) ، (٥٨٢/٩) والله أعلم .

(١) إعلام الموقعين (١٠٩/١-١١١) .

(٢) أبو النضر بن باذان ، هو محمد بن السائب الكلبي وضاع .

ورواه الترمذي (٢٤١/٥) في التفسير ، حديث رقم (٣٠٥٩) .

وقال : حديث غريب وليس إسناده بصحيح ....

وانظر الطبري (١٠٠/٧)

وابن كثير (١٢٠/٢)

والدر المنثور (٢٢٠/٣) .

وانظر ترجمة (عدي بن بداء) في الإصابة (٤٠٠/٦) .

عن ابن عباس عن تميم الداري قال : برىء الناس منها غيري وغير عدي بن بداء – وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام – فأتيا الشام – وقدم زيد بن أبي مريم – مولى بني سهم – ومعه جام من فضة وهو أعظم تجارته ، فمرض فأوصى إليهما ، قال تميم : فلما مات أخذنا الجام فبعناه بألف درهم ، ثم اقتسمناه أنا وعدي بن بداء ، فلما قدمنا دفعنا ماله إلى أهله ، فسألوا عن الجام ؟ فقلنا ما دفع إلينا غير هذا ، فلما أسلمت تأثمت من ذلك ، فأتيت أهله ، فأخبرتهم الخبر ، وأديت إليهم خمسمائة درهم ، وأخبرتهم أن عند صاحبى مثلها ، فأتوا به إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فسألهم البينة فلم يجيبوا ، فأحلفهم بما يعظم به على أهل دينهم فأنزل الله عز وجل ﴿ **ياأيها الذين آمنوا شهادة بينكم** ﴾ – الآية ، فحلف عمرو بن العاص وأخو سهم ، فنزعت الخمسمائة درهم من عدي بن بداء[1].

وروى يحيى بن أبي زائدة[2] عن محمد بن القاسم عبد الملك بن سعيد ابن جبير عن أبيه عن ابن عباس قال : كان تميم الداري وعدي بن بداء يختلفان إلى مكة بالتجارة ، فخرج رجل معهم من بني سهم ، فتوفي بأرض ليس فيها مسلم فأوصى إليهما ، فدفعا تركته إلى أهله ، وحبسا جاماً من فضة مُخَوَّصاً بالذهب ، فتفقده أولياؤه ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلفهما : ماكتمنا ، ولا أضعنا ، ثم عرف الجام بمكة ، فقالوا : اشتريناه من تميم وعدي ، فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله : إن هذا لجام السهمي ، ولشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا إنا إذا لمن الظالمين فأخذ الجام ، وفيهما نزلت هذه الآية . والقول بهذه الآية هو قول جمهور السلف .

قالت عائشة رضي الله عنها : سورة المائدة آخر سورة نزلت ، فما وجدتم فيها حلالاً فحللوه ، وما وجدتم فيها حراماً فحرموه .

---

(١) رواه البخاري (٥/٤٨٠) في الوصايا ، باب : قول الله عز وجل : ﴿ ياأيها الذين آمنوا شهادة بينكم ... ﴾ الآية .
والترمذي (٥/٢٤٢) في تفسير القرآن ، باب : « ومن سورة المائدة » .
وأبو داود (١٠/١٦) في الفرائض ، باب : شهادة أهل الذمة ... .
(٢) رواه الحاكم (٢/٣١١) وصححه ووافقه الذهبي .

وصح[١] عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية : هذا لمن مات وعنده المسلمون ، فأمر الله أن يشهد في وصيته عدلين من المسلمين ، ثم قال تعالى : ﴿ **أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم في الأرض** ﴾ فهذا لمن مات وليس عنده أحد من المسلمين فأمر الله عز وجل أن يشهد رجلين من المسلمين ، فإن ارتبت بشهادتهما ، استحلفا بعد الصلاة بالله : لا نشترى بشهادتنا ثمناً . وقد تقدم أن أبا موسى حكم بذلك .

وقال سفيان الثوري : عن أبي إسحاق السبيعي عن عمرو بن شرحبيل قال : لم يُنسخ من سورة المائدة شيء .

قال وكيع : عن شعبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب ﴿ **أو آخران من غيركم** ﴾ قال : من أهل الكتاب . وفي رواية صحيحة عنه : من غير أهل ملتكم .

وصح عن شريح قال : لا تجوز شهادة المشركين على المسلمين إلا في الوصية ولا تجوز في الوصية إلا أن يكون مسافراً .

وصح عن إبراهيم النخعي : من غيركم من غير أهل ملتكم .

وصح عن سعيد بن جبير : ﴿ **أو آخران من غيركم** ﴾ قال : إذا كان في أرض الشرك ، فأوصى إلى رجلين من أهل الكتاب ، فإنهما يحلفان بعد العصر ، فإن اطلع بعد حلفهما على أنهما خانا ، حلف أولياء الميت ، أنه كذا وكذا ، واستحقوا . وصح عن الشعبي : ﴿ **أو آخران من غيركم** ﴾ قال : من اليهود والنصارى . وصح ذلك عن مجاهد قال : من غير أهل الملة . وصح عن يحيى مثله ، وصح عن ابن سيرين ذلك .

فهؤلاء أئمة المؤمنين : أبو موسى الأشعري ، وابن عباس ، وروي نحو ذلك عن علي رضي الله عنه، وذكر ذلك أبو محمد بن حزم[٢] ، وذكره أبو يعلى عن ابن مسعود ولا مخالف لهم من الصحابة .

---

(١) رواه الطبري (١٠٨/٧) .

(٢) « المحلى » لابن حزم (٤٠٥/٩، ٤٠٦) .

ومن التابعين : عمرو بن شرحبيل ، وشريح ، وعبيدة ، والنخعي ، والشعبي ، والسعيدان ، وأبو مجلز ، وابن سيرين ، ويحيى بن يعمر ، ومن تابعي التابعين : كسفيان ، ويحيى بن حمزة ، والأوزاعي .

وبعد هؤلاء : كأبي عبيد ، وأحمد بن حنبل ، وجمهور فقهاء أهل الحديث . وهو قول جميع أهل الظاهر . وخالفهم آخرون . ثم اختلفوا في تخريج الآية على ثلاثة طرق :

أحدها : أن المراد بقوله : ﴿ **من غيركم** ﴾ أي من غير قبيلتكم ، وروي ذلك عن الحسن ، وروي عن الزهري أيضا .

والثاني : أن الآية منسوخة ، وهذا مروي عن زيد بن أسلم وغيره .

والثالث : أن المراد بالشهادة فيها : إيمان الوصي بالله تعالى للورثة لا الشهادة المعروفة .

قال القائلون بها : أما دعوى النسخ فباطلة ، فإنه يتضمن أن حكمها باطل ، لا يحل العمل به ، وأنه ليس من الدين ، وهذا ليس بمقبول إلا بحجة صحيحة لا معارض لها ، ولا يمكن أحد قط أن يأتي بنص صحيح صريح متأخر عن هذه الآية مخالف لها ، لا يمكن الجمع بينه وبينها ، فإن وجد إلى ذلك سبيلا صح النسخ وإلا فما معه إلا مجرد الدعوى الباطلة ، ثم قد قالت أعلم نساء الصحابة بالقرآن : إنه لا منسوخ في المائدة ، وقاله غيرها أيضاً من السلف ، وعمل به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعده . ولو جاز قبول دعوى النسخ بلا حجة لكان كل من احتج عليه بنص يقول : هو منسوخ ، وكأن القائل لذلك لم يعلم أن كون النص منسوخاً ، أن الله سبحانه حرم العمل به ، وأبطل كونه من الدين والشرع ودون هذا مفاوز تنقطع فيها الأعناق. قالوا : وأما قول من قال : المراد بقوله : ﴿ **من غيركم** ﴾ أي من غير قبيلتكم : فلا يخفى بطلانه وفساده ، فإنه ليس في أول الآية خطاب لقبيلة دون قبيلة ، بل هو خطاب عام لجميع المؤمنين فلا يكون غير المؤمنين إلا من الكفار ، هذا مما لا شك فيه ، والذي قال من غير قبيلتكم ، زلة عالم ، غفل عن تدبر الآية .

وأما قول من قال : إن المراد بالشهادة أيمان الأوصياء للورثة فباطل من وجوه :

أحدها : أنه سبحانه قال : ﴿ **شهادة بينكم** ﴾ ولم يقل أيمان بينكم .

الثاني : أنه قال : ﴿ **اثنان** ﴾ واليمين لا تختص بالاثنين .

الثالث : أنه قال : ﴿ **ذوا عدل منكم** ﴾ واليمين لا يشترط فيها ذلك .

الرابع : أنه قال : ﴿ **أو آخران من غيركم** ﴾ واليمين لا يشترط فيها شيء من ذلك .

الخامس : أنه قيد ذلك بالضرب في الأرض ، وليس ذلك شرطاً في اليمين.

السادس : أنه قال : ﴿ **ولانكتم شهادة الله إنا إذا لمن الآثمين** ﴾ وهذا لا يقال في اليمين في هذه الأفعال ، بل هو نظير قوله : ﴿ **ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه** ﴾ .

السابع : أنه قال : ﴿ **ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها** ﴾ ولم يقل بالأيمان .

الثامن : أنه قال : ﴿ **أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم** ﴾ فجعل الأيمان قسيماً للشهادة ، وهذا صريح في أنها غيرها .

التاسع : أنه قال : ﴿ **فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما** ﴾ فذكر اليمين والشهادة ، ولو كانت اليمين على المدعى عليه لما احتاجا إلى ذلك ، ولكفاهما القسم : أنهما ما خانا .

العاشر : أن الشاهدين يحلفان بالله ﴿ **لانكتم شهادة الله** ﴾ ولو كان المراد بها اليمين ، لكان المعنى يحلفان بالله لا نكتم اليمين وهذا لا معنى له البتة ، فإن قيل اليمين لا تكتم ؛ فكيف يقال : احلف أنك لا تكتم حلفك ؟ .

الحادي عشر : أن المتعارف من « الشهادة » في القرآن والسنة : إنما هو الشهادة المعروفة ، كقوله تعالى : ﴿ **وأقيموا الشهادة لله** ﴾ [الطلاق : ٢]

وقوله : ﴿ **واستشهدوا شهيدين من رجالكم** ﴾ [البقرة : ٢٨٢] وقوله : ﴿ **وأشهدوا ذوي عدل منكم** ﴾ [الطلاق : ٢] ونظائره .

فإن قيل : قد سمى الله أيمان اللعان شهادة في قوله : (**فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله**) [النور : ٦] وقال : (**ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله**) [النور : ٨] .

قيل : إنما سمى أيمان الزوج شهادة لأنها قائمة مقام البينة ، ولذلك ترجم المرأة إذا نكلت ، وسمى أيمانها شهادة ، لأنها في مقابلة شهادة الزوج .

وأيضاً : فإن هذه اليمين خصت من بين الأيمان بلفظ : (الشهادة بالله) تأكيدا لشأنها ، وتعظيماً لخطرها .

الثاني عشر : أنه قال : ﴿ **شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت** ﴾ ومن المعلوم أنه لا يصح أن يكون أيمان بينكم إذا حضر أحدكم الموت ، فإن الموصي إنما يحتاج للشاهدين ، لا إلى اليمين .

الثالث عشر : أن حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي حكم به – وحكم الصحابة بعده – هو تفسير الآية قطعاً ، وما عداه باطل ، فيجب أن يرغب فيه[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

وقد تأول قوم الآية تأويلات باطلة :

فمنهم من قال : كلها في المسلمين وقوله : ﴿ **أو آخران من غيركم** ﴾ يعني من غير قبيلتكم . وهذا باطل . فإن الله افتتح الخطاب بـ ﴿ **ياأيها الذين آمنوا** ﴾ ثم قال : ﴿ **أو آخران من غيركم** ﴾ ومعلوم أن غير المؤمنين هم الكفار ، ولم يخاطب الله سبحانه بهذه الآية قبيلة دون قبيلة ، بل الخطاب بها على عادة خطاب القرآن لعموم المؤمنين .

وحديث ابن عباس صريح في المراد بها ، وأن الشهود من أهل الكتاب .

(١) الطرق الحكمية (١٩٣-١٩٧) .

وقال بعضهم : « الشهادة » هنا بمعنى الحضور ، لا الإخبار وهذا إخراج الكلام عن الفائدة ، وحمل له على خلاف مراده ، والسياق يبطل هذا التأويل المستنكر .

وقال بعضهم : « الشهادة » هنا بمعنى اليمين ، وظاهر السياق ، بل صريحه يشهد بأنها شهادة صريحة ، مؤكدة باليمين ، فلا يجوز تعطيل وصف الشهادة .

وقال بعضهم : الآية منسوخة ، وهذه دعوى باطلة ، فإن الفائدة من آخر القرآن نزولاً ، ولم يجيء بعدها ما ينسخها ، فلو قدر نص يعارض هذا من كل وجه لكان منسوخاً بآية المائدة .

وقال بعضهم : هذه الآية ترك العمل بها إجماعاً ، وهذه مجازفة ، وقول بلا علم ، فالخلاف فيها أشهر من أن يخفى ، وهي مذهب كثير من السلف ، وحكم بها أبو موسى وذهب إليها الإمام أحمد[1] .

وجاء في دعاء المسيح ﴿ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [المائدة : ١١٤] . فذكر الأمرين[2] ولم يجيء في القرآن سواه ولا رأيت أحداً تعرض لهذا ولا نبه عليه . وتحته سر عجيب دال على كمال معرفة المسيح بربه وتعظيمه له فإن هذا السؤال كان عقيب سؤال قومه له : ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فخوفهم بالله وأعلمهم أن هذا مما لا يليق أن يسأل عنه وأن الإيمان يرده . فلما ألحوا في الطلب وخاف المسيح أن يداخلهم الشك إن لم يجابوا إلى ما سألوا ؛ بدأ في السؤال باسم (اللهم)[3] الدال على الثناء على الله بجميع أسمائه وصفاته ، ففي ضمن ذلك تصوره بصورة المثني الحامد الذاكر لأسماء ربه المثني عليه بها . وأن المقصود من هذا الدعاء وقضاء هذه الحاجة إنما هو أن يثني على الرب بذلك ويمجده به ويذكر آلاءه ويظهر شواهد قدرته وربوبيته ويكون برهانا على صدق رسوله فيحصل بذلك من زيادة الإيمان والثناء

---

(١) تهذيب السنن (٥/٢٢٢،٢٢٣) .

(٢) أي الدعاء والثناء معاً .

(٣) راجع في معناها الآية رقم (٢٦) من سورة آل عمران .

على الله أمر يحسن معه الطلب ويكون كالعذر فيه فأتى بالاسمين اسم الله الذي يثنى عليه به واسم الرب الذي يدعى ويسأل به لما كان المقام مقام الأمرين .

فتأمل هذا السر العجيب ولا ينب عنه فهمك فإنه من الفهم الذي يؤتيه الله من يشاء في كتابه وله الحمد . وأما السلام على النبي صلى الله عليه وسلم بلفظ الخطاب فقد ذكرنا سره في الوجه الذي قبل هذا فالعهد به قريب[1] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ... ﴾ [المائدة : ١١٦] .

قال المسيح عليه السلام : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾ [المائدة : ١١٦] . ولم يقل : لم أقله . وفرق بين الجوابين في حقيقة الأدب . ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالحال وسره .

فقال : ﴿ **تعلم ما في نفسي** ﴾ ثم برأ نفسه عن علمه بغيب ربه ، وما يختص به سبحانه ، فقال : ﴿ **ولا أعلم ما في نفسك** ﴾ ثم أثنى على ربه ، ووصفه بتفرده بعلم الغيوب كلها ، فقال : ﴿ **إنك أنت علام الغيوب** ﴾ ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أمره ربه به – وهو محض التوحيد – فقال : ﴿ **ماقلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم** ﴾ [المائدة : ١١٧] ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم ، وأنه بعد وفاته لا اطلاع له عليهم ، وأن الله عز وجل وحده هو المنفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم ، فقال : ﴿ **وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم** ﴾ ثم وصفه بأن شهادته سبحانه فوق كل شهادة وأعم ، فقال : ﴿ **وأنت على كل شيء شهيد** ﴾ ثم قال : ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك** ﴾ وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام . أي شأن السيد رحمة عبيده والإحسان إليهم ، وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيداً لغيرك ، فإن عذبتهم – مع كونهم عبيدك – فلولا أنهم عبيد سوء من أنجس العبيد ، وأعتاهم على سيدهم ، وأعصاهم له لم تعذبهم ؛ لأن قربة

---

(١) بدائع الفوائد (١٩٤/٢) .

العبودية تستدعي إحسان السيد إلى عبده ورحمته ، فلماذا يعذب أرحم الراحمين ، وأجود الأجودين ، وأعظم المحسنين إحساناً عبيده ؟ لا لفرط عتوهم ، وإباؤهم عن طاعته ، وكمال استحقاقهم للعذاب .

وقد تقدم قوله : ﴿ **إنك أنت علام الغيوب** ﴾ أي هم عبادك ، وأنت أعلم بسرهم وعلانيتهم ؛ فإذا عذبتهم ؛ عذبتهم على علم منك بما تعذبهم عليه .

فهم عبادك وأنت أعلم بما جنوه واكتسبوه . فليس في هذا استعطاف لهم ، كما يظنه الجهلة ولا تفويض إلى محض المشيئة والملك المجرد عن الحكمة ، كما تظنه القدرية . وإنما هو إقرار واعتراف وثناء عليه سبحانه بحكمته وعدله ، وكمال علمه بحالهم واستحقاقهم للعذاب .

ثم قال : ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٨] ولم يقل : (الغفور الرحيم) . وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى . فإنه قال في وقت غضب الرب عليهم ، والأمر بهم إلى النار ، فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعة ، بل مقام براءة منهم .

فلو قال : (فإنك أنت الغفور الرحيم) لأشعر باستعطاف ربه على أعدائه الذين قد اشتد غضبه عليهم . فالمقام مقام موافقة للرب في غضبه على من غضب الرب عليهم فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلى ذكر العزة والحكمة ، المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم . والمعنى : إن غفرت لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم ، ليست عن عجز الانتقام منهم ، ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم . وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره لعجزه عن الانتقام منه ، ولجهله بمقدار إساءته إليه . والكمال : هو مغفرة القادر العالم . وهو العزيز الحكيم . وكان ذكر هاتين الصفتين في هذا المقام عين الأدب في الخطاب[1] .

---

(١) مدارج السالكين (٢/٣٧٨،٣٧٩) .

وقال رحمه الله تعالى :

وأما قوله : ﴿ **فإنهم عبادك** ﴾ فليس المراد به أنك قادر عليهم مالك لهم ، وأي مدح في هذا لو قلت لشخص : إن عذبت فلاناً فإنك قادر على ذلك . أي مدح يكون في ذلك بل في ضمن ذلك الإخبار بغاية العدل .

وأنه تعالى إن عذبهم فإنهم عباده أنعم عليهم بإيجادهم وخلقهم ورزقهم وإحسانه إليهم لا بوسيلة منهم ، ولا في مقابلة بذل بذلوه ؛ بل ابتدأهم بنعمه وفضله فإذا عذبهم بعد ذلك وهم عبيده ؛ لم يعذبهم إلا بجرمهم واستحقاقهم وظلمهم فإن من أنعم عليهم ابتداء بجلائل النعم كيف يعذبهم بغير استحقاق أعظم النقم .

وفيه أيضا أمر آخر ألطف من هذا وهو كونهم عباده ، يقتضي عبادته وحده ، وتعظيمه ، وإجلاله ، كما يجل العبد سيده ، ومالكه الذي لا يصل إليه نفع إلّا على يده، ولا يدفع عنه ضرًّا إلّا هو، فإذا كفروا به أقبح الكفر، وأشركوا به أعظم الشرك ، ونسبوه إلى كل نقيصة مما تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ؛ كانوا أحق عباده وأولاهم بالعذاب ، والمعنى : هم عبادك الذين أشركوا بك ، وعدلوا بك ، وجحدوا حقك فهم عباد مستحقون للعذاب .

وفيه أمر آخر أيضا لعله ألطف مما قبله وهو : إن تعذبهم فإنهم عبادك وشأن السيد المحسن المنعم أن يتعطف على عبده ويرحمه ويحنو عليه . فإن عذبت هؤلاء وهم عبيدك لا تعذبهم إلا باستحقاقهم وإجرامهم وإلا فكيف يشقى العبد بسيده وهو مطيع له متبع لمرضاته .

فتأمل هذه المعاني ووازن بينها وبين قول من يقول إن تعذبهم فأنت الملك القادر وهم المملوكون المربوبون وإنما تصرفت في ملكك من غير أن يكون قام بهم سبب العذاب[1] .

---

(١) مفتاح دار السعادة (٤٤٥،٤٤٦) .

وقال رحمه الله تعالى :

قال تعالى عن عيسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾ [المائدة : ١١٦] .

فهذا شرط دخل على ماضي اللفظ وهو ماضي المعنى قطعا لأن المسيح إما أن يكون صدر هذا الكلام منه بعد رفعه إلى السماء أو يكون حكاية ما يقوله يوم القيامة .

وعلى التقديرين : فإنما تعلق الشرط وجزاؤه بالماضي ، وغلط على الله من قال : إن هذا القول وقع منه في الدنيا قبل رفعه . والتقدير : إن أكن أقول هذا فإنك تعلمه ، وهذا تحريف للآية لأن هذا الجواب إنما صدر من بعد سؤال الله له عن ذلك . والله لم يسأله وهو بين أظهر قومه ، ولا اتخذوه وأمه إلهين إلا بعد رفعه بمئين من السنين ؛ فلا يجوز تحريف كلام الله انتصاراً لقاعدة نحوية هدم مائة أمثالها أسهل من تحريف معنى الآية .

وقال ابن السراج في أصوله : يجب تأويلها بفعلين مستقبلين تقديرهما : إن ثبت في المستقبل أني قلته في الماضي يثبت أنك علمته ، وكل شيء تقدر في الماضي كان ثبوته في المستقبل فيحسن التعليق عليه .

وهذا الجواب أيضاً ضعيف جداً ولا ينبيء عنه اللفظ وليت شعري ما يصنعون بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن كنت ألممت بذنب فاستغفري وتوبي إليه » !.

هل يقول عاقل إن الشرط هنا مستقبل ؟!

أما التأويل الأول : فممتنف هنا قطعاً .

وأما الثاني : فلا يخفى وجه التعسف فيه وأنه لم يقصد أنه ثبت في المستقبل أنك أذنبت في الماضي فتوبي ولا قصد هذا المعنى . وإنما المقصود المراد ما دل عليه الكلام : إن كان صدر منك ذنب فيما مضى فاستقبليه بالتوبة لم

يرد إلا هذا الكلام[١] .

قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾ [المائدة : ١١٧] .

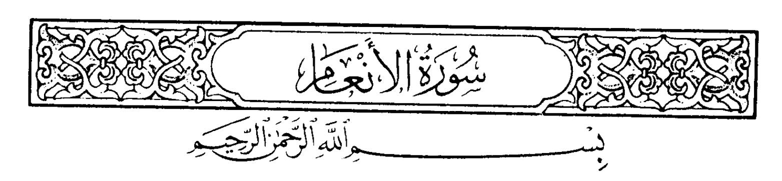
ليس المعنى أني لم أزد على ما أمرتني به أن أقوله شيئا ولكن المعنى أني لم أدع مما أمرتني به أن أقوله شيئاً ولم يذكر ما يخالفه[٢] .

* * *

(١) بدائع الفوائد (١/٤٥) .
(٢) الفوائد المشوق (١٥٤) .

سُورَةُ الأَنْعَامِ





بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١] .

فعدل المشرك من خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض فيالك من عدل تضمن أكبر الظلم وأقبحه[١] !! .

وقال رحمه الله تعالى :

وأصح القولين أن المعنى ثم الذين كفروا بربهم يعدلون فيجعلون له عدلاً يحبونه ويعبدونه كما يحبون الله ويعبدونه[٢] .

وقال رحمه الله تعالى :

وذم الله أهله[٣] بقوله : **﴿ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾** [أول الأنعام] .

أي : يقيسونه على غيره ويسوون بينه وبين غيره في الإلهية والعبودية[٤] وقال : أي : يجعلون له عدلاً في العبادة والمحبة والتعظيم[٥] .

---

(١) الداء والدواء (١٩٧) .

(٢) مفتاح دار السعادة (٤٥٧) .

(٣) يقصد أصحاب القياس الباطل .

(٤) إعلام الموقعين (١/٥٠٢) .

(٥) إغاثة اللفهان (١/٦١) .

وقال : أي : يعدلون به غيره في العبادة التي هي المحبة والتعظيم . وهذا أصح القولين .

وقيل : الباء : بمعنى « عن » والمعنى : ثم الذين كفروا عن ربهم يعدلون عن عبادته إلى عبادة غيره . وهذا ليس بقوي . إذ لا تقول العرب عدلت بكذا ، أي عدلت عنه ، وإنما جاء هذا في فعل السؤال : نحو سألت بكذا ، أي عنه كأنهم ضمنوه : اعتنيت به واهتممت ، ونحو ذلك[1] .

قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ [الأنعام : ٣] .

فإنها أتت مجموعة هنا لحكمة ظاهرة ، وهي تعلق الظرف بما في اسمه تبارك وتعالى من معنى الإلهية ، فالمعنى : وهو الإله وهو المعبود في كل واحدة من السموات ففي كل واحدة من هذا الجنس هو المألوه المعبود . فذكر الجمع هنا أبلغ وأحسن من الاقتصار على لفظ الجنس الواحد . ولما عزب هذا المعنى عن فهم بعض المتسننة ؛ فسر الآية بما لا يليق بها ، فقال : الوقف التام على السموات ، ثم يبتدي بقوله : ﴿ **وفي الأرض يعلم** ﴾ . وغلط في فهم الآية . وإن معناها ما أخبرتك به وهو قول محققي أهل التفسير[2] .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنعام : ٦] .

فذكر سبحانه إهلاك من قبلنا من القرون ، وبين أن ذلك كان لمعنى القياس ، وهو ذنوبهم . فهم الأصل ونحن الفرع ، والذنوب : العلة الجامعة ، والحكم : الهلاك ، فهذا محض قياس العلة ، وقد أكده سبحانه بضرب من

(١) مدارج السالكين (٢١/٣) .
(٢) بدائع الفوائد (١١٦/١) .

الأولى ، وهو أن من قبلنا كانوا أقوى منا فلم تدفع عنهم قوتهم وشدتهم ما حل بهم[١] .

قول الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام : ٨،٩] .

فأخبر سبحانه عن المانع الذي منع من إنزال الملك عياناً بحيث يشاهدونه ، وأن حكمته وعنايته بخلقه منعت من ذلك ، فإنه لو أنزل الملك ثم عاينوه ولم يؤمنوا لعوجلوا بالعقوبة ، ولم ينظروا ، وأيضاً فإنه جعل الرسول بشراً ؛ ليمكنهم التلقي عنه ، والرجوع إليه ، ولو جعله ملكاً ؛ فإما : أن يدعه على هيئة الملائكة أو يجعله على هيئة البشر ، والأول يمنعهم من التلقي عنه .

والثاني : لا يحصل مقصودهم ؛ إذ كانوا يقولون هو بشر لا ملك[٢] .

وقال رحمه الله تعالى :

ويقولون[٣] : القيام بالعبادة مقام التلبيس ، ويحتجون بقوله تعالى : ﴿ **وللبسنا عليهم ما يلبسون** ﴾ [الأنعام : ٩] .

وهذا من أقبح الجهل ، فإن هذا داخل في جواب « لو » التي ينتفي بها الملزوم – وهو المقدم – لانتفاء اللازم . وهو الجواب ، وهو التالي . فانتفاء جعل الرسول ملكاً – كما اقترحوه – لانتفاء التلبيس من الله عليهم . والكفار كانوا قد قالوا : لولا أنزل عليه ملك . أي : نعاينه ونراه . وإلا فالملك لم يزل يأتيه من عند الله بأمره ونهيه . فهم اقترحوا نزول ملك يعاينونه . فأخبر سبحانه عن الحكمة التي لأجلها لم يجعل رسوله إليهم من الملائكة .. ولا أنزل ملكاً يرونه . فقال : ﴿ **ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون** ﴾ أي : لوجب العذاب وفرغ من الأمر ، ثم لا يمهلون إن أقاموا على التكذيب .

(١) إعلام الموقعين (١٨١،١٨٢) .

(٢) مفتاح دار السعادة (١٩٦،١٩٧) .

(٣) يقصد الجهال من العباد والمغالين من الصوفية .

وهذا نظير قوله في سورة الحجر ﴿ **وقالوا ياأيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون . لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين** ﴾ [الحجر : ٦-٨] . والحق هاهنا العذاب .

ثم قال : ﴿ **ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً** ﴾ أي : لو أنزلنا عليهم ملكا لجعلناه في صورة آدمي ، إذ لا يستطيعون التلقي عن الملك في صورته التي هو عليها ، وحينئذ فيقع اللبس منا عليهم . لأنهم لا يدرون : أرجل هو ، أم ملك ؟ ولو جعلناه رجلاً لخلطنا عليهم ، وشبهنا عليهم الذي طلبوه بغيره .

وقوله ﴿ **ما يلبسون** ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه جزاء لهم على لبسهم على ضعفائهم .

والمعنى : أنهم شبهوا على ضعفائهم ، ولبسوا عليهم الحق بالباطل ، فشُبه عليهم ، وتلبس عليهم الملك بالرجل .

والثاني : أنا نلبس عليهم مالبسوا على أنفسهم ، وأنهم خلطوا على أنفسهم ولم يؤمنوا بالرسول منهم ، بعد معرفتهم صدقه ، وطلبوا رسولاً ملكياً يعاينونه . وهذا تلبيس منهم على أنفهسم[1] .

قول الله تعالى : ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : ١٢] .

قد أخبر سبحانه في كتابه أنه كتب على نفسه الرحمة ، وهذا إيجاب منه على نفسه فهو الموجب وهو متعلق الإيجاب الذي أوجبه فأوجب بنفسه على نفسه ، وقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم هذا المعنى بما يوضحه كل الإيضاح ، ويكشف حقيقته بقوله في الحديث الصحيح[2] : « لما قضى الله الخلق كتب بيده على نفسه في كتاب فهو عنده موضوع فوق العرش إن رحمتي تغلب غضبي » وفي لفظ « سبقت غضبي » فتأمل كيف أكد هذا الطلب والإيجاب بذكر فعل

---

(١) مدارج السالكين (١/٢٤٥،٢٤٦) .

(٢) رواه البخاري (١٣/٣٩٥) في التوحيد ، باب : قول الله تعالى : ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ . ومسلم (٥/٥٩٥) في التوبة ، باب : سعة رحمة الله تعالى وأنها تغلب غضبه .

الكتابة ، وصفة اليد ، ومحل الكتابة ، وأنه كتاب ، وذكر مستقر الكتاب ، وأنه عنده فوق العرش ، فهذا إيجاب مؤكد بأنواع من التأكيد وهو إيجاب منه على نفسه[1] .

قال تعالى : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام : ١٩] .

المراد بالآية شهادته سبحانه لرسوله بتصديقه على رسالته فإن المشركين[2] قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : من يشهد على ما تقول ؟ فأنزل الله سبحانه آيات شهادته له وشهادة ملائكته ، وشهادة علماء أهل الكتاب به ، فقال تعالى : (قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب) [الرعد : ٤٣] . أي ومن عنده علم الكتاب يشهد لي ، وشهادته مقبولة ؛ لأنها شهادة بعلم ما قال الله تعالى : (لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً) [النساء : ١٦٦] وقال تعالى : **﴿ قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم ﴾** [الأنعام : ١٩] .

فأخبر سبحانه في هذه المواضع بشهادته لرسوله ، وكفى بشهادته إثباتاً لصدقه ، وكفى به شهيدا ، فإن قيل : وما شهادته لصدقه بعد العلم بها ضرورة ؟ فدلالتها على صدقه أعظم من دلالة كل بينة وشاهد على حق . فشهادته سبحانه لرسوله أصدق شهادة ، وأعظمها ، وأدلها على ثبوت المشهود به .

فهذا وجه . ووجه آخر أنه صدقه بقوله وأقام الأدلة القاطعة على صدقه فيما يخبر به عنه . فإذا أخبر عنه أنه شهد له قولا ؛ لزم ضرورة صدقه في ذلك

---

(١) بدائع الفوائد (١٦١/٢، ١٦٢) .

(٢) روى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن النحام بن زيد ، وقردم بن كعب وبحري بن عمير ، جاءوا النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يامحمد ما تعلم مع الله إلها غيره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا إله إلا الله بذلك بعثت ، وإلى ذلك أدعو » فأنزل الله تعالى فيهم وفي قولهم ﴿ قل أي شيء أكبر شهادة ... إلى قوله ... لا يؤمنون ﴾ .
تفسير الطبري (١٦٤/٧) .
وانظر الدر المنثور (٢٥٦/٣) .

الخبر وصحت الشهادة له به قطعاً فهذا معنى الآية[١] .

وقد قال تعالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩] .

أي ومن بلغه القرآن ، فكل من بلغه القرآن وتمكن من فهمه ؛ فهو منذر به ، والأحاديث التي رويت في امتحان[٢] الأطفال ، والمعتوهين ، والهالك في الفترة ؛ إنما تدل على امتحان من لم يعقل الإسلام . فهؤلاء يدلون بحجتهم أنهم لم تبلغهم الدعوة ، ولم يعقلوا الإسلام ، ومن فهم دقائق الصناعات والعلوم ؛ لا يمكنه أن يدل على الله بهذه الحجة . وعدم ترتيب الأحكام عليهم في الدنيا قبل البلوغ لا يدل على عدم ترتبها عليهم في الآخرة . وهذا القول هو المحكي عن أبي وأصحابه ، وهو في غاية القوة[٣] .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٣] .

أي : لم تكن عاقبة شركهم إلا أن تبرأوا منه وأنكروه[٤] .

وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الأنعام : ٢٥] .

وهذه الأكنة والوقر هي شدة البغض ، والنفرة ، والإعراض ، التي لا يستطيعون معها سمعاً ولا عقلاً . والتحقيق أن هذا ناشيء عن الأكنة والوقر فهو موجب ذلك ومقتضاه . فمن فسر الأكنة والوقر به ؛ فقد فسرهما بموجبها ومقتضاها . وبكل حال فتلك النفرة والإعراض والبغض من أفعالهم ، وهي مجعولة لله سبحانه كما أن الرأفة والرحمة وميل الأفئدة إلى بيته هو من أفعالهم ، والله جاعله

---

(١) طريق الهجرتين (٣١٥،٣١٦) .

(٢) انظر الأحاديث الواردة في هذه المسألة وأقوال العلماء ، وفهمهم لها عند قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم ﴾ الآية (١٧٢) من سورة الأعراف .

(٣) تحفة الودود (٢٥٢) .

(٤) روضة المحبين (٥١) .

فهو الجاعل للذوات وصفاتها وأفعالها وإرادتها واعتقاداتها ، فذلك كله مجعول مخلوق له ، وإن كان العبد فاعلا له باختياره وإرادته[1] .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٧، ٢٨] .

وقد حام أكثر المفسرين[2] حول معنى هذه الآية وما أوردوا ، فراجع أقوالهم تجدها لا تشفي عليلاً ولا تروي غليلا ، ومعناها أجل وأعظم مما فسروا به ، ولم يتفطنوا لوجه الإضراب ، ببل ولا للأمر الذي بدا لهم وكانوا يخفونه ، وظنوا أن الذي بدا لهم العذاب ، فلما لم يروا ذلك ملتئما مع قوله : ﴿ **ما كانوا يخفون من قبل** ﴾ قدروا مضافا محذوفا وهو خبر ما كانوا يخفون من قبل ، فدخل عليهم أمر آخر لا جواب لهم عنه ، وهو أن القوم لم يكونوا يخفون شركهم وكفرهم ، بل كانوا يظهرونه ويدعون إليه ويحاربون عليه ، ولما عللوا أن هذا وارد عليهم ؛ قالوا إن القوم في بعض موارد القيامة ومواطنها أخفوا شركهم وجحدوه ، وقالوا والله ربنا ماكنا مشركين ، فلما وقفوا على النار بدا لهم جزاء ذلك الذي أخفوه قال الواحدي : وعلى هذا أهل التفسير . ولم يصنع أرباب هذا القول شيئا ، فإن السياق والإضراب ببل والإخبار عنهم بأنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ، وقولهم : ﴿ **والله ربنا ما كنا مشركين** ﴾ لا يلتئم بهذا الذي ذكروه فتأمله .

وقالت طائفة منهم الزّجاج : بل بدا للأتباع ما أخفاه عنهم الرؤساء من أمر البعث ، وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير ، وفيه من التكلف ما ليس بخاف ، وأجود من هذا ما فهمه المبرد من الآية قال : كأن كفرهم لم يكن باديا لهم

(١) شفاء العليل (٥٦) .

(٢) انظر تفسير الطبري (١٧٤/٧ ، ١٧٦) وما ذهب إليه ابن القيم لا يبعد عما ذهب إليه الطبري في تفسير الآيات المذكورة .
والدر المنثور (٢٦١/٣) .
وتفسير القرطبي (٢٤٠٦/٣) .

إذ خفيت عليهم مضرته . ومعنى كلامه أنهم لما خفيت عليهم مضرة عاقبته ووباله فكأنه كان خفيا عنهم لم تظهر لهم حقيقته . فلما عاينوا العذاب ظهرت لهم حقيقته وشره . قال : وهذا كما تقول لمن كنت حدثته في أمر قبل ، قد ظهر لك الآن ما كنت قلت لك . وقد كان ظاهراً له قبل هذا ، ولا يسهل أن يعبر عن كفرهم وشركهم الذي كان ينادون به على رؤوس الأشهاد ، ويدعون إليه كل حاضر وباد ، بأنهم كانوا يخفونه لخفاء عاقبته عنهم ، ولا يقال لمن أظهروا الظلم ، والفساد ، وقتل النفوس والسعي في الأرض بالفساد ، أنه أخفى ذلك لجهله بسوء عاقبته ، وخفائها عليه . فمعنى الآية والله أعلم بما أراد من كلامه أن هؤلاء المشركين لما وقفوا على النار ، وعاينوها وعلموا أنهم داخلوها ، تمنوا أنهم يردون إلى الدنيا ؛ فيؤمنون بالله وآياته ولا يكذبون رسله ، فأخبر سبحانه أن الأمر ليس كذلك ، وأنهم ليس في طبائعهم وسجاياهم الإيمان ، بل سجيتهم الكفر والشرك والتكذيب ، وأنهم لو ردوا لكانوا بعد الرد كما كانوا قبله . وأخبر أنهم كاذبون في زعمهم أنهم لو ردوا لآمنوا وصدقوا .

فإذا تقرر مقصود الآية ومرادها تبين معنى الإضراب ببل وتبين معنى الذي بدا لهم ، والذي كانوا يخفونه ، والحامل لهم على قولهم : ﴿ **ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا** ﴾ فالقوم كانوا يعلمون أنهم كانوا في الدنيا على باطل ، وأن الرسل صدقوهم فيما بلغوهم عن الله ، وتيقنوا ذلك وتحققوه ، ولكنهم أخفوه ولم يظهروه بينهم ؛ بل تواصوا بكتمانه ، فلم يكن الحامل لهم على تمني الرجوع والإيمان معرفة ما لم يكونوا يعرفونه من صدق الرسل ، فإنهم كانوا يعلمون ذلك ويخفونه ، وظهر لهم يوم القيامة ما كانوا ينطوون عليه من علمهم أنهم على باطل ، وأن الرسل على حق ؛ فعاينوا ذلك عياناً بعد أن كانوا يكتمونه ، ويخفونه ، فلو ردوا لما سمحت نفسوهم بالإيمان ولعادوا إلى الكفر والتكذيب ، فإنهم لم يتمنوا الإيمان لعلمهم يومئذ أنه هو الحق وأن الشرك باطل وإنما تمنوا لما عاينوا العذاب الذي لا طاقة لهم باحتماله ، وهذا كمن كان يخفي محبة شخص ومعاشرته وهو يعلم أن حبه باطل وأن الرشد في عدوله عنه ، فقيل له إن اطلع عليه وليه عاقبك ، وهو يعلم ذلك ويكابر ويقول : بل محبته ومعاشرته هي الصواب ، فلما أخذه

وليه ليعاقبه على ذلك وتيقن العقوبة . تمنى أن يعفى من العقوبة وأنه لا يجتمع به بعد ذلك وفي قلبه من محبته والحرص على معاشرته ما يحمله على المعاودة بعد معاينة العقوبة بل بعد أن مسته وأنهكته فظهر له عند العقوبة ما كان يخفي من معرفته بخطئه وصواب ما نهاه عنه ولو رد لعاد لما نهي عنه .

وتأمل مطابقة الإضراب لهذا المعنى ، وهو نفي قولهم إنا لو رددنا لآمنا وصدقنا لأنه ظهر لنا الآن أن ما قاله الرسل هو الحق ، أي : ليس كذلك ، بل كنتم تعلمون ذلك وتعرفونه ، وكنتم تخفونه ، فلم يظهر لكم شيء لتكونوا عالمين به لتعذروا بل ظهر لكم ما كان معلوماً ، وكنتم تتواصون بإخفائه وكتمانه . والله أعلم[1] .

قال تعالى : ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام : ٣٣] .

عقيب قوله : ﴿ فإنهم **لا يكذبونك** ﴾ ومنه : (وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون) (وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون) وعلى هذا لا يحسن استعمال الفقهاء لفظ الجحود في مطلق الإنكار في باب الدعاوى وغيرها ؛ لأن المنكر قد يكون محقاً فلا يسمى جاحداً[2] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام : ٣٤] .

أي لا مبدل لعذاب الله أو لا مبدل لمقتضى عذاب الله[3] .

قال تعالى : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

وقد اختلف في الكتاب هاهنا[4] هل هو القرآن أو اللوح المحفوظ ؟ على قولين :

فقالت طائفة : المراد به القرآن ، وهذا من العام المراد به الخاص ، أي :

---

(١) عدة الصابرين (١٨٧) .

(٢) بدائع الفوائد (١١٨/٤،١١٩) .

(٣) الفوائد المشوق (١٤) .

(٤) وممن ذهب إلى أنه اللوح المحفوظ :

=

ما فرطنا فيه من شيء يحتاجون إلى ذكره وبيانه كقوله : (ونزلنا إليك الكتاب تبيانا لكل شيء) [النحل : ٨٩] ، ويجوز أن يكون من العام المراد به عمومه . والمراد أن كل شيء ذكر مجملاً وفصلاً ، كما قال ابن مسعود[1] وقد لعن الواصلة والمستوصلة : ما لي لا ألعن من لعن الله في كتابه فقالت : لقد قرأت القرآن فما وجدته. فقال : إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه . قال تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) [الحشر : ٧] . ولعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الواصلة والمستوصلة. وقال الشافعي : ما نزل بأحد من المسلمين نازلة إلا وفي كتاب الله سبيل الدلالة عليها .

وقالت طائفة : المراد بالكتاب في الآية : اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل شيء وهذا إحدى الروايتين عن ابن عباس وكان هذا القول أظهر في الآية ، والسياق يدل عليه فإنه قال : ﴿ **وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم** ﴾ وهذا يتضمن أنها أمم أمثالنا في الخلق والرزق والأكل ، والتقدير الأول وإنها لم تخلق سدى ، بل هي معبدة مذللة ، قد قدر خلقها وأجلها ورزقها ، وما تصير إليه ثم ذكر عاقبتها ومصيرها بعد فنائها ثم قال : ﴿ **إلى ربهم يحشرون** ﴾ فذكر مبدأها ونهايتها وأدخل بين هاتين الحالتين قوله : ﴿ **ما فرطنا في الكتاب من شيء** ﴾ أي : كلها قد كتبت وقدرت وأحصيت قبل أن توجد فلا يناسب هذا ذكر كتاب الأمر والنهي وإنما يناسب ذكر الكتاب الأول .

= الإمام الطبري في تفسيره (١٨٨/٧) .
والبغوي (١٣٢/٣) .
والزمخشري (١٢/٢) .
وابن كثير (١٤١/٢) .
ولم يرجح « القرطبي » أحد القولين وإن يفهم ميله إلى أنه القرآن (٢٤١٧/٣) .
وانظر الدر المنثور (٢٦٦/٣) .

(١) رواه البخاري في مواضع منها :-
(٤٩٨/٨) في التفسير ، تفسير سورة الحشر .
ومسلم (٨٣٦/٤) في اللباس ، باب : تحريم فعل الواصلة والمستوصلة .

ولمن نصر القول الأول أن يجيب عن هذا بأن في ذكر القرآن هاهنا الإخبار عن تضمنه لذكر ذلك والإخبار به ، فلم نفرط فيه من شيء بل أخبرناكم بكل ما كان وما هو كائن إجمالاً وتفصيلاً ، ويرجحه أمر آخر وهو أن هذا ذكر عقيب قوله : ﴿ **وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ [الأنعام : ٣٧] منبهم على أعظم الآيات وأدلها على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الكتاب الذي يتضمن بيانا لكل شيء ولم يفرط فيه من شيء ثم نبههم بأنهم أمة من جملة الأمم التي في السموات والأرض وهذا يتضمن التعريف بوجود الخالق وكمال قدرته وعلمه وسعة ملكه وكثرة جنوده والأمم التي لا يحصيها غيره وهذا يتضمن أنه لا إله غيره ولا رب سواه وأنه رب العالمين . فهذا دليل على وحدانيته وصفات كماله من جهة خلقه وقدره وإنزال الكتاب الذي لم يفرط فيه من شيء دليل من جهة أمره وكلامه فهذا استدلال بأمره وذاك بخلقه ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين .

وشهد لهذا أيضاً قوله : (وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أو لم يكفهم أنا أنزلنا إليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) [العنكبوت : ٥٠، ٥١]. ولمن نصر أن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ ؛ أن يقول لما سألوا آية أخبرهم سبحانه بأنه لم يترك إنزالها لعدم قدرته على ذلك فإنه قادر على ذلك وإنما ينزلها لحكمته ورحمته بهم وإحسانه إليهم إذ لو أنزلها على وفق اقتراحهم لعوجلوا بالعقوبة إن لم يؤمنوا . ثم ذكر ما يدل على كمال قدرته بخلق الأمم العظيمة التي لا يحصي عددها إلا هو ، فمن قدر على خلق هذه الأمم مع اختلاف أجناسها وأنواعها وصفاتها وهيئاتها ؛ كيف يعجز عن إنزال آية ؟ ثم أخبر عن كمال قدرته وعلمه بأنّ هؤلاء الأمم قد أحصاهم وكتبهم وقدر أرزاقهم وآجالهم وأحوالهم في كتاب لم يفرط فيه من شيء ، ثم يميتهم ثم يحشرهم إليه ، (والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات) عن النظر والاعتبار الذي يؤديهم إلى معرفة ربوبيته ، ووحدانيته ، وصدق رسله ، ثم أخبر أن الآيات لا تستقل بالهدى ، ولو أنزلها على وفق اقتراح البشر، بل الأمر كله له (من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على

صراط مستقيم) فهو أظهر القولين . والله أعلم[1] .

قال تعالى : ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام : ٣٩] .

وإذا كان سبحانه هو الذي جعل رسله وأتباعهم على الصراط المستقيم ، في أقوالهم وأفعالهم ، فهو سبحانه أحق بأن يكون على صراط مستقيم في قوله وفعله ، وإن كان صراط الرسل وأتباعهم هو موافقة أمره ، فصراطه الذي هو سبحانه عليه هو ما يقتضيه حمده ، وكماله ، ومجده ، من قول الحق وفعله وبالله التوفيق[2] .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٣] .

فلا ريب أن هذا التعليل لفعله المذكور وهو امتحان بعض خلقه ببعض ، كما امتحن السادات والأشراف بالعبيد والضعفاء والموالي ، فإذا نظر الشريف والسيد إلى العبد والضعيف والمسكين قد أسلم ؛ أنف وحمي أن يسلم معه أو بعده ، ويقول هذا يسبقني إلى الخير والفلاح وأتخلف أنا ؟ فلو كان ذلك خيراً وسعادة ما سبقنا هؤلاء إليه . فهذا القول منهم هو بعض الحكم ، والغاية المطلوبة بهذا الامتحان فإن هذا القول دال على إباء واستكبار ، وترك الانقياد للحق بعد المعرفة التامة به وهذا وإن كان علة فهو مطلوب لغيره ، والعلل الغائية تارة تطلب لنفسها وتارة تطلب لغيرها ، فتكون وسيلة إلى مطلوب لنفسه ، وقول هؤلاء ما قالوه . وما يترتب عليه هذا القول موجب لآثار مطلوبة لنفسه ، وقول هؤلاء عدله وحكمته ، وعزه وقهره وسلطانه ، وعطائه من يستحق عطاءه ، ويحسن وضعه عنده ، ومنعه من يستحق المنع ، ولا يليق به غيره ، ولهذا قال : ﴿ أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ الذين يعرفون قدر النعمة ، ويشكرون المنعم عليهم فيما من

(١) شفاء العليل (٤٠،٤١) .

(٢) إعلام الموقعين (٢١٥/١) .

عليهم ، من بين من لا يعرفها ، ولا يشكر ربه عليها ، وكانت فتنة بعضهم ببعض لحصول هذا التميز الذي ترتب عليه شكر هؤلاء وكفر هؤلاء[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [الأنعام : ٥٣] .

وهم الذين يعرفون قدر نعمته بالهدى ، ويشكرونه عليها ، ويحبونه ويحمدونه على أن جعلهم من أهله ، فهو سبحانه ما عدل عن موجب العدل والإحسان في هداية من هدى ، وإضلال من أضل ، ولم يطرد عن بابه ولم يبعد عن جنابه من يليق به التقريب والهدى والإكرام ، بل طرد من لا يليق به إلا الطرد والإبعاد ، وحكمته وحمده تأبى تقريبه ، وإكرامه ، وجعله من أهله وخاصته وأوليائه[٢] .

وقال أيضاً رحمه الله تعالى :

أي : هو سبحانه أعلم بمن يشكره على نعمته ، فيختصه بفضله ويمن عليه ، ممن لا يشكره فليس كل محل يصلح لشكره واحتمال منته والتخصيص بكرامته[٣] .

لكن شكر الصابئة كان من جهة الكواكب والعلويات ، ولذلك ناظرهم إمام الحنفاء صلوات الله وسلامه عليه في بطلان إلهيتها ، بما حكاه الله سبحانه في سورة الأنعام من قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ...﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام : ٧٤-٧٩] .

أحسن مناظرة وأبينها ، ظهرت فيها حجته ، ودحضت حجتهم . فقال بعد أن بين بطلان إلهية الكواكب والقمر والشمس بأفولها ، وأن الإله لا يليق به أن

---

(١) شفاء العليل (١٩١ ، ١٩٢) .

(٢) مدارج السالكين (١/١٢٨) .

(٣) زاد المعاد (١/٥٣) .

يغيب ويأفل ، بل لا يكون إلا شاهداً غير غائب ، كما لا يكون إلا غالباً قاهراً غير مغلوب ولا مقهور ، نافعاً لعباده ، يملك لعابده الضر والنفع فيسمع كلامه ويرى مكانه ويهديه ويرشده ويدفع عنه كل ما يضره ويؤذيه وذلك ليس إلا لله وحده ، فكل معبود سواه باطل .

فلما رأى إمام الحنفاء أن الشمس والقمر والكواكب ليست بهذه المثابة ، صعد منها إلى فاطرها وخالقها ومبدعها فقال : ﴿ **إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً** ﴾ ، وفي ذلك إشارة إلى أنه سبحانه خالق أمكنتها ومحالها التي هي مفتقرة إليها ، ولا قوام لها إلا بها ، فهي محتاجة إلى محل تقوم به وفاطر يخلقها ويدبرها ويربها . والمحتاج المخلوق المربوب المدبر لا يكون إلهاً . فحاجه قومه في الله . ومن حاج في عبادة الله فحجته داحضة . فقال إبراهيم عليه السلام : ﴿ **أتحاجوني في الله وقد هدان** ﴾ [الأنعام : ٨٠] ، وهذا من أحسن الكلام ، أي تريدون أن تصرفوني عن الإقرار بربي وتوحيده ، وعن عبادته وحده ، وتشككوني فيه ، وقد أرشدني وبين لي الحق ، حتى استبان لي كالعيان ، وبين لي بطلان الشرك ، وسوء عاقبته ، وأن آلهتكم لا تصلح للعبادة ، وأن عبادتها توجب لعابديها غاية الضرر في الدنيا والآخرة ، فكيف تريدون مني أن أنصرف عن عبادته وتوحيده إلى الشرك به ، وقد هداني إلى الحق وسبيل الرشاد ؟ فالمحاجة والمجادلة إنما فائدتها طلب الرجوع والانتقال من الباطل إلى الحق ومن الجهل إلى العلم ومن العمى إلى الإبصار ومجادلتكم إياي في الإله الحق الذي كل معبود سواه باطل تتضمن خلاف ذلك .

فخوفوه بآلهتهم أن تصيبه بسوء ، كما يخوف المشرك الموحد بإلهه الذي يألهه مع الله أن يناله بسوء . فقال الخليل : ﴿ **ولا أخاف ما تشركون به** ﴾ فإن آلهتكم أقل وأحقر من أن تضر من كفر بها ، وجحد عبادتها ، ثم رد الأمر إلى مشيئة الله وحده وأنه هو الذي يخاف ويرجى ، فقال ﴿ **إلا أن يشاء ربي شيئا** ﴾ وهذا استثناء منقطع . والمعنى : لا أخاف آلهتكم فإنها لا مشيئة لها ، ولا قدرة ، لكن إن شاء ربي شيئاً نالني وأصابني ، لا آلهتكم التي لا تشاء ، ولا تعلم شيئاً ،

وربي له المشيئة النافذة ، وقد وسع كل شيء علماً ؛ فمن أولى بأن يخاف ويعبد هو سبحانه ، أم هي ؟

ثم قال : ﴿ أفلا تتذكرون ﴾ فتعلمون ما أنتم عليه من إشراك من لا مشيئة له ، ولا يعلم شيئا ممن له المشيئة التامة ، والعلم التام .

ثم قال : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ﴾ . [الأنعام : ٨١]

وهذا من أحسن قلب الحجة ، وجعل حجة المبطل بعينها دالة على فساد قوله ، وبطلان مذهبه ، فإنهم خوفوه بآلهتهم التي لم ينزل الله عليهم سلطاناً بعبادتها . وقد تبين بطلان إلهيتها ، ومضرة عبادتها . ومع هذا فلا تخافون شرككم بالله وعبادتكم معه آلهة أخرى ؟ فأي الفريقين أحق بالأمن وأولى بأن لا يلحقه الخوف ؟ فريق الموحدين ؟ أم فريق المشركين ؟ فحكم الله سبحانه بين الفريقين بالحكم العدل الذي لا حكم أصح منه . فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ أي بشرك ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٢] .

ولما نزلت هذه الآية شق أمرها على الصحابة وقالوا : يارسول الله[(١)] « وأينا لم يظلم نفسه ؟ » فقال : «إنما هو الشرك » ألم تسمعوا قول العبد الصالح (إن الشرك لظلم عظيم) [لقمان : ١٣] فحكم سبحانه للموحدين بالهدى ، والأمن ، وللمشركين بضد ذلك ، وهو الضلال والخوف ، ثم قال : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ . [الأنعام : ٨٣]

قال أبو محمد بن حزم[(٢)] : وكان الذي ينتحله الصابئون أقدم الأديان على وجه الدهر والغالب على الدنيا إلى أن أحدثوا الحوادث ، وبدلوا شرائعه ؛ فبعث الله إليهم إبراهيم خليله بدين الإسلام الذي نحن عليه اليوم وتصحيح ما

---

(١) رواه البخاري في مواضع منها :-
(١٠٩/١) في الإيمان باب : ظلم دون ظلم .
ومسلم (٣٢٩/١) في الإيمان ، باب : صدق الإيمان وإخلاصه .
(٢) انظر « الفصل في الملل والنحل » لابن حزم (٧٠،٦/٤) .

أفسدوه ، وبالحنيفية السمحة التي أتانا بها محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من عند الله وكانوا في ذلك الزمان وبعده يسمون الحنفاء .

قلت : هم قسمان : صابئة مشركون وصابئة حنفاء وبينهم مناظرات وقد حكى الشهرستاني بعض مناظراتهم في كتابه[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

ما حكاه سبحانه في محاجة إبراهيم قومه بقوله : ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٠-٨٢] .

فهذا الكلام لم يخرج في ظاهره فخرج كلام البشر الذي يتكلفه أهل النظر والجدال والمقايسة والمعارضة بل خرج في صورة كلام خبري يشتمل على مبادىء الحجاج ، ومقاطعه ، مشيراً إلى مقدمات الدليل ، ونتائجه ، بأوضح عبارة ، وأفصحها وأقربها تناولاً .

والغرض منه أن إبراهيم قال لقومه متعجباً مما دعوه إليه من الشرك : أتحاجوني في الله وتطمعون أن تستنزلوني عن توحيده بعد أن هداني ، وتأكدت بصيرتي ، واستحكمت معرفتي بتوحيده بالهداية التي رزقنيها وقد علمتم أن من كانت هذه حاله في اعتقاده أمراً من الأمور عن بصيرة لا يعارضه فيها ريب ولا يتخالجه فيها شك فلا سبيل إلى استنزاله عنها .

وأيضا فإن المحاجة والمجادلة بعد وضوح الشيء وظهوره نوع من العبث ، بمنزلة المحاجة في طلوع الشمس وقد رآها من يحاجونه بأعينهم ؛ فكيف يؤثر حجاجكم له أنها لم تطلع بعد .

---

(١) إغاثة اللهفان (٢٥٥/١) .

ثم قال : ﴿ **ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا** ﴾ وكأنه صلوات الله وسلامه عليه يذكر أنهم خوفوه آلهتهم أن يناله منها معرة ، كما قاله قوم هود له : (إن نقول إلّا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) [هود : ٥٤] .

فقال إبراهيم إن أصابني مكروه فليس ذلك من قبل هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله وهي أقل من ذلك فإنها ليست مما يرجى ويخاف بل يكون ذلك الذي أصابني من قبل الحي الفعال الذي يفعل ما يشاء الذي بيده الضر والنفع يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد .

ثم ذكر سعة علمه سبحانه في هذا المقام منبهاً على موقع احتراز لطيف ، وهو أن لله سبحانه علماً في وفيكم وفي هذه الآلهة لا يصل إليه علمي ، فإذا شاء أمراً من الأمور فهو أعلم بما يشاء فإنه وسع كل شيء علماً فإذا أراد أن يصيبني بمكروه لا علم لي من أي جهة أتاني ، فعلمه محيط بما لم أعلمه ، وهذا غاية التفويض والتبري من الحول والقوة ، وأسباب النجاة ، وأنها بيد الله لا بيدي وهكذا قال شعيب لقومه : (قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علماً على الله توكلنا) [الأعراف : ٨٩] فردت الرسل العلم بما يفعله الله إليه ، وأنه إذا شاء شيئاً فهو أعلم بما يشاؤه ، ولا علم لنا بامتناعه وعدم كونه .

ثم رجع الخليل إليهم مقرراً للحجة فقال : ﴿ **وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون** ﴾ [الأنعام : ٨١] .

يقول لقومه : كيف يسوغ في عقل ، أو عند ذي لب أن أخاف ما جعلتموه لله شريكا في الإلهية ، وهي ليست بموضع نفع ولا ضر ، وأنتم لا تخافون أنكم أشركتم بالله في إلهيته أشياء لم ينزل حجة عليكم ، ولا شرعها لكم ، فالذي أشرك بخالقه وفاطره وباريه – الذي يقر بأنه خالق السموات والأرض ورب كل شيء ومليكه ومالك الضر والنفع – آلهة لا تخلق شيئا وهي مخلوقة ، ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها ضراً ، ولا نفعاً ، ولا موتاً ، ولا حياة ، ولا نشوراً ،

وجعلها نداً له ومثلاً في الإلهية تعبد ، ويسجد لها ، ويخضع لها ، ويتقرب إليها ، أحق بالخوف ممن لم يجعل مع الله إلها آخر ، بل وحده ، وأفرده بالإلهية ، والربوبية ، والعظمة ، والسلطان والحب والخوف ، والرجاء فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟ فحكم الله سبحانه بينهما بأحسن حكم خضعت له القلوب ، وأقرت به الفطر ، وانقادت له العقول فقال : ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون** ﴾ [الأنعام : ٨٢] فتأمل هذا الكلام ، وعجيب موقعه ، في قطع الخصوم ، وإحاطته بكل ما وجب في العقل أن يرد به ما دعوه إليه وأرادوا حمله عليه وأخذه بمجامع الحجة التي لم تبق لطاعن مطعناً ، ولا سؤالاً ، ولما كانت بهذه المثابة ، أشار سبحانه بذكرها وعظمها بالإشارة إليها ، وأضافها إلى نفسه تعظيماً لشأنها فقال : ﴿ **وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء** ﴾ [الأنعام : ٨٣] .

فعلم السامع بإضافته إياها إلى نفسه أنه هو الذي فهمها خليله ولقنها إياه وعنه سبحانه أخذها الخليل وكفى بحجة يكون الله عز وجل ملقنها لخليله وحبيبه أن تكون قاطعة لمواد العناد قامعة لأهل الشرك والإلحاد[1] .

قال إبراهيم : ﴿ **ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً** ﴾ [الأنعام : ٨١] .

أي : لا يقع بي مخوف من جهة آلهتكم أبداً ؛ إلا أن يشاء ربي شيئاً ؛ فينفذ ما شاءه ، فرد الأنبياء ما أخبروا ألا يكون إلى مشيئة الرب تعالى وإلى علمه استدراكا واستثناء ، أي لا يكون ذلك أبداً ولكن إن شاءه الله تعالى فإنه تعالى عالم بما لا نعلمه نحن من الأمور التي تقتضيها حكمته وحده[2] .

أنكر على من فهم من قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٢] .

---

(١) الصواعق المرسلة (٤٨٥،٤٩٠) .

(٢) إعلام الموقعين (٤/٩٩) .

أنه ظلم النفس بالمعاصي ، وبين أنه الشرك ، وذكر قول لقمان لابنه : (إن الشرك لظلم عظيم) [لقمان : ١٣] مع أن سياق اللفظ عند إعطائه حقه من التأمل يبين ذلك فإن الله سبحانه لم يقل ولم يظلموا أنفسهم بل قال : ﴿ **ولم يلبسوا إيمانهم بظلم** ﴾ ولبس الشيء بالشيء تغطيته به ، وإحاطته به من جميع جهاته ولا يغطي الإيمان ويحيط به ويلبسه إلا الكفر[١] .

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ﴾ [الأنعام : ٨٣] .

قال زيد بن أسلم[٢] وغيره : بالحجة والعلم ولما غلب أعداء الله معه بالحجة وظهرت حجته عليهم ، وكسر أصنامهم ، فكسر حججهم ، ومعبودهم ، هموا بعقوبته ، وإلقائه في النار ، وهذا شأن المبطلين ، وإذا غلبوا وقامت عليهم الحجة هموا بالعقوبة كما قال فرعون لموسى ، وقد أقام عليه الحجة (لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين) [الشعراء : ٢٦] فأضرموا له النار وألقوه في المنجنيق فكانت تلك السفرة من أعظم سفرة سافرها وأبركها عليه فإنه ما سافر سفرة أبرك ولا أعظم ولا أرفع شيئاً وأقر لعينه منها ، وفي تلك السفرة عرض له جبرائيل بين السماء والأرض فقال : ياإبراهيم ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا . قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) [آل عمران : ١٧٢] قالها نبيكم ، وقالها إبراهيم حين ألقي في النار ، فجعل الله سبحانه عليه النار بردا وسلاماً .

وقد ثبت في صحيح البخاري[٣] من حديث أم شريك أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الوزغ وقال : « كانت تنفخ على إبراهيم »[٤] .

---

(١) إعلام الموقعين (٤٣٤/١) .

(٢) انظر الطبري (٢٥٩/٧) .

والدر المنثور (٣١٠/٣) .

(٣) رواه البخاري (٤٤٨/٦) في أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ .

(٤) جلاء الأفهام (١٦٠) .

قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام : ٨٨،٨٩] .

وقد قيل : إن هؤلاء القوم هم الأنبياء ، وقيل : أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل : كل مؤمن . هذه أمهات الأقوال ، بعد أقوال متفرعة من هذه كقول من قال : هم الأنصار ، أو المهاجرون والأنصار ، أو قوم من أبناء فارس ، وقال آخرون هم الملائكة ، قال ابن جرير(١) وأولى هذه الأقوال بالصواب أنهم الأنبياء الثمانية عشر الذين سماهم في الآيات قبل الآية . قال ذلك أن الخبر في الآيات قبلها عنهم مضى وفي التي بعدها عنهم ذكر فما يليها بأن يكون خبراً عنهم أولى وأحق بأن يكون خبراً عن غيرهم فالتأويل : فإن يكفر قومك من قريش يامحمد بآياتنا ، وكذبوا بها ، وجحدوا حقيقتها ؛ فقد استحفظناها ، واسترعينا القيام بها رسلنا وأنبياء من قبلك الذين لا يجحدون حقيقتها ، ولا يكذبون بها ، ولكنهم يصدقون بها ، ويؤمنون بصحتها . قلت : السورة مكية(٢)، والإشارة بقوله : ﴿ هؤلاء ﴾ إلى من كفر به من قومه أصلا ومن عداهم تبعا فيدخل فيها كل من كفر بما جاء من هذه الأمة والقوم الموكلون بها هم الأنبياء أصلا ، والمؤمنون بهم تبعا ، فيدخل كل من قام بحفظها ، والذب عنها ، والدعوة إليها ، ولا ريب أن هذا للأنبياء أصلا ، وللمؤمنين بهم تبعا ، وأحق من دخل فيها من أتباع الرسول ، خلفاؤه في أمته ، وورثته ؛ فهم الموكلون بها وهذا ينتظم في الأقوال التي قيلت في الآية .

وأما قول من قال إنهم الملائكة(٢) فضعيف جداً لا يدل عليه السياق ، وتأباه لفظة ﴿ قوما ﴾ إذ الغالب في القرآن بل المطرد تخصيص القوم ببني آدم دون الملائكة .

---

(١) تفسير الطبري (٢٦٣/٧) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ، عن ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ونسبوه لأبي رجاء العطاردي (٣١٢/٣) .

وأما قول إبراهيم لهم ﴿ **قوم منكرون** ﴾ [الذاريات : ٢٥] فإنما قاله لما ظنهم من الإنس ، وأيضا فلا يقتضيه فخامة المعنى ومقصوده ولهذا لو أظهر ذلك[1] .

وقيل فإن يكفر بها كفار قومك فقد وكلنا بها الملائكة فإنهم لا يكفرون بها ما لم يخدمنه من التسلية وتحقير شأن الكفرة بها وبيان عدم تأهيلهم لها والإنعام عليهم، وإيثار غيرهم من أهل الإيمان الذين سبقت لهم الحسنى عليهم ، لكونهم أحق بها وأهلها، والله أعلم حيث يضع هداه ، ويختص به من يشاء ، وأيضا فإن تحت هذه الآية إشارة وبشارة **بحفظها وأنه لا ضيعة عليها ، وأن هؤلاء وإن ضيعوها ، و لم يقبلوها فإن لها قوما غيرهم يقبلونها ويحفظونها ، ويرعونها ، ويذبون عنها ، فكفر هؤلاء بها لا يضيعها ، ولا يذهبها ، ولا يضرها شيئا ، فإن لها أهلا ، ومستحقا سواهم ، فتأمل شرف هذا المعنى ، وجلالته ، وما تضمنه من تحريض عباده المؤمنين على المبادرة إليها ، والمسارعة إلى قبولها ، وما تحته من تنبيههم على محبته لهم ، وإيثاره إياهم بهذه النعمة على أعدائه الكافرين ، وما تحته من احتقارهم ، وازدرائهم ، وعدم المبالاة ، والاحتفال بهم ، وإنكم وإن لم تؤمنوا بها ؛ فعبادي المؤمنون بها ، الموكلون بها سواكم كثير كما قال تعالى : (قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتو العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا) وإذا كان للملك عبيد قد عصوه ، وخالفوا أمره ، فنظر إليهم وقال : إن يكفر هؤلاء نعمي ويعصوا أمري ويضيعوا عهدي فإن لي عبيداً سواهم ، وهم أنتم تطيعون أمري ، وتحفظون عهدي وتؤدون حقي ؛ فإن عبيده المطيعين يجدون في أنفسهم من الفرح ، والسرور ، والنشاط ، وقوة العزيمة ، ما يكون موجباً لهم المزيد من القيام بحق العبودية ، والمزيد من كرامة سيدهم ، ومالكهم ، وهذا أمر يشهد به الحس والعيان ، وأما توكيلهم بها فهو يتضمن توفيقهم للإيمان بها والقيام بحقوقها ومراعاتها والذب عنها والنصيحة لها كما يوكل الرجل غيره بالشيء ليقوم به ويتعهده ، ويحافظ عليه** و (بها) الأولى متعلقة بـ (وكلنا) و (بها) الثانية متعلقة بـ ﴿**بكافرين**﴾ والباء في ﴿ **بكافرين** ﴾

---

(١) هكذا في الأصل ، ولعله « ... ومقصوده لو أظهر ذلك » والله أعلم .

لتأكيد النفي . فإن قلت فهل يصح أن يقال لأحد هؤلاء الموكلين أنه وكيل الله بهذا المعنى ، كما يقال ولي الله . قلت : لا يلزم من إطلاق فعل التوكل المقيد بأمر ما أن يصاغ منه اسم فاعل مطلق . كما أنه لا يلزم من إطلاق فعل الاستخلاف المقيد أن يقال خليفة الله لقوله : « ويستخلفكم في الأرض » وقوله : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) [النور : ٥٥] فلا يوجب هذا الاستخلاف أن يقال لكل منهم أنه خليفة الله ، لأنه استخلاف مقيد ، ولما قيل للصديق ياخليفة الله قال لست بخليفة الله ، ولكني خليفة رسول الله وحسبي ذلك ، ولكن يسوغ أن يقال هو وكيل بذلك ، كما قال تعالى : ﴿ **فقد وكلنا بها قوماً** ﴾ والمقصود أن هذا التوكيل خاص بمن قام به علماً ، وعملاً ، وجهاداً لأعدائها وذبا عنها ، ونفيا لتحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين[١] وأيضا فهو توكيل رحمة وإحسان وتوفيق واختصاص لا توكيل حاجة كما يوكل الرجل من يتصرف عنه في غيبته لحاجة إليه . ولهذا قال بعض السلف ﴿ **فقد وكلنا بها قوما** ﴾ يقول رزقناها قوما فلهذا لا يقال لمن رزقها ورحم بها : إنه وكيل الله وهذا بخلاف اشتقاق ولي الله من الموالاة فإنها المحبة والقرب . فكما يقال عبد الله ، وحبيبه ، يقال : والله تعالى يوالي عبده إحسانا إليه وجبراً له ورحمة بخلاف المخلوق ، فإنه يوالي المخلوق ، لتعززه به ، وتكثره بموالاته ، لذل العبد ، وحاجته ، وأما العزيز الغني ، فلا يوالي أحدا من ذل ولا حاجة .

قال تعالى : (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً) [الإسراء : ١١١] فلم ينف الولي نفيا عاما مطلقا بل نفى أن يكون له ولي من الذل وأثبت في موضع آخر أن له أولياءه بقوله : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون)

---

(١) إشارة إلى الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد وغيره من الأئمة « يحمل هذا العلم ... » .
وانظر تخريجه مفصلًا في تحقيقي لكتاب: « شرف أصحاب الحديث » للخطيب البغدادي يسر الله طبعه.

[يونس : ١٠] وقوله : (الله ولي الذين آمنوا) [البقرة : ٢٥٧] فهذا موالاة رحمة وإحسان وجبر والموالاة المنفية موالاة حاجة وذل[١] .

ولما ذكر سبحانه في سورة الأنعام أعداءه ، وكفرهم وشركهم وتكذيب رسله ذكر في أثر ذلك شأن خليله إبراهيم ، وما أراه من ملكوت السموات والأرض ، وما حاج به قومه في إظهار دين الله ، وتوحيده ثم ذكر الأنبياء من ذريته وأنه هداهم وآتاهم الكتاب والحكم ، والنبوة ثم قال : ﴿ **فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين** ﴾ [الأنعام : ٨٩] فأخبر أنه سبحانه كما جعل في الأرض من يكفر به ، ويجحد توحيده ، ويكذب رسله ، كذلك جعل فيها من عباده من يؤمن بما كفر به أولئك ، ويصدق بما كذبوا به ، ويحفظ من حرماته ما أضاعوه ، وبهذا تماسك العالم العلوي والسفلي ، وإلا فلو اتبع الحق أهواء أعدائه لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ولخرب العالم ، ولهذا جعل سبحانه من أسباب خراب العالم رفع الأسباب الممسكة له من الأرض ، وهي كلامه ، وبيته ، ودينه ، والقائمون به ، فلا يبقى لتلك الأسباب المقتضية لخراب العالم أسباب تقاومها ، وتمانعها ، ولو كان اسم الحليم أدخل في الأوصاف واسم الصبور في الأفعال ، كان الحلم أصل الصبر فوقع الاستغناء بذكره في القرآن عن اسم الصبور . والله أعلم[٢] .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام : ٨٩] .

قال قتادة : وكلنا بها الأنبياء الثمانية عشر الذين ذكرناهم – يعني قبل هذه الآية – وقال أبو رجاء العطاردي : معناه : إن يكفر بها أهل الأرض فقد وكلنا بها أهل السماء وهم الملائكة . وقال ابن عباس ومجاهد : هم الأنصار أهل المدينة .

---

(١) مفتاح دار السعادة (١٧٥-١٧٧) .

(٢) عدة الصابرين (٢٧٩،٢٨٠) .

والصواب : أن المراد من قام بها إيماناً ، ودعوة ، وجهاداً ، ونصرة فهؤلاء هم الذين وكلهم الله بها .

فإن قلت : فهل يصح أن يقال : إن أحداً وكيل الله ؟ قلت : لا فإن الوكيل من يتصرف عن موكله بطريق النيابة ، والله عز وجل لا نائب له ولا يخلفه أحد بل هو الذي يخلف عبده كما قال النبي صلى الله عليه وسلم[1] : « اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل » على أنه لا يمتنع أن يطلق ذلك باعتبار أنه مأمور بحفظ ما وكله فيه ورعايته والقيام به .

وأما توكيل العبد ربه : فهو تفويضه إليه ، وعزل نفسه عن التصرف وإثباته لأهله ووليه . ولهذا قيل في التوكل : إنه عزل النفس عن الربوبية وقيامها بالعبودية وهذا معنى كون الرب وكيل عبده . أي كافيه ، والقائم بأموره ومصالحه لأنه نائبه في التصرف ؛ فوكالة الرب عبده أمر وتعبد وإحسان له وخلعه منه عليه لا عن حاجة منه وافتقار إليه كموالاته وأما توكيل العبد ربه : فتسليم لربوبيته وقيام بعبوديته[2] .

قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ٩١] .

وهذا إنما وصف به الذين لا يؤمنون بجميع كتبه المنزلة من المشركين واليهود وغيرهم وقال تعالى : ﴿ **وما قدروا الله حق قدره** ﴾ ولم يقل : وما قدروا الله قدره فإن حق قدره هو الحق الذي لقدره فهو حق عليهم لقدره سبحانه فجحدوا ذلك الحق وأنكروه ، وما قاموا بذلك الحق معرفة ، ولا إقراراً ، ولا عبودية وذلك جحود وإنكار لبعض قدره من صفات كماله وأفعاله لجحودهم أن يتكلم أو يعلم الجزيئات أو يقدر على إحداث فعل . فشبهات منكري الرسالة ترجع إلى ذلك .

(١) رواه مسلم (٤٩٠/٣) في الحج ، باب : استحباب الذكر إذا ركب دابته لسفر .
وأبو داود (٢٥٨/٧) في الجهاد ، باب : ما يقول الرجل إذا سافر .
والترمذي (٤٦٨/٥) في الدعوات ، باب : ما يقول إذا ركب الناقة .

(٢) مدارج السالكين (١٢٦/١، ١٢٧) ..

أما إنكار علمه تعالى أو إنكار قدرته ، أو إنكار كلامه ، فمن أقر بما أرسل به رسله ، وأنه عالم به متكلم بكتبه التي أنزلها عليهم ؛ قادر على الإرسال لا يليق بحكمته تركه فقد قدره حق قدره من هذا الوجه إن لم يقدره حق قدره مطلقاً[(١)] .

قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام : ٩١] .

يعني الذي أنزله جعل سبحانه تعليمهم مالم يعلموا هم ولا آباؤهم دليلاً على صحة النبوة والرسالة إذ لا ينال هذا العلم إلا من وجهة الرسل فكيف يقولون ما أنزل الله على بشر من شيء وهذا من فضل العلم وشرفه ، وأنه دليل على صحة النبوة والرسالة . والله الموفق للرشاد[(٢)] .

ولكن بقي أن يقال : فكيف يحسن الرد عليهم بما لا يقرون به من إنزال الكتاب الذي جاء به موسى ؟ وكيف يقال لهم : ﴿ **تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً** ﴾ [الأنعام : ٩١] . ولا سيما على قراءة من قرأ بتاء الخطاب وهل ذلك صالح لغير اليهود ؟ فإنهم كانوا يخفون من الكتاب مالا يوافق أهواءهم ، وأغراضهم ، ويبدون منه ما سواه ؛ فاحتج عليهم بما يقرون به من كتاب موسى ثم وبخهم بأنهم خانوا الله ورسوله فيه فأخفوا بعضه وأظهروا بعضه وهذا استطراد من ذكر جحدهم النبوة بالكلية وذلك إخفاء لها وكتمان إلى جحد ما أقروا به كتابهم بإخفائه وكتمانه فتلك سجية لهم معروفة لا تنكر إذ من أخفى بعض كتابه الذي يقر بأنه من عند الله فكيف لا يجحد أصل النبوة ؟ ثم احتج عليهم بأنهم قد علموا الوحي مالم يكونوا يعلمونه هم ولا آباؤهم ولولا الوحي الذي أنزله على أنبيائه ورسله لم يصلوا إليه ثم أمر الرسول أن يجيب على هذا السؤال وهو قوله : ﴿ **من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى** ﴾ فقال : ﴿ **قل الله** ﴾

(١) الصواعق المرسلة (١٣٦٢/٤) .

(٢) مفتاح دار السعادة (٦٢) .

أي : الله الذى أنزله ، أي : إن كفروا به وجحدوه فصدق به أنت وأقر به ﴿ ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ .

وجواب هذا السؤال أن يقال : إن الله سبحانه احتج عليهم بما يقر به أهل الكتابين ، وهم أولـو العلم دون الأمم التي لا كتاب لها أي إن جحدتم أصل النبوة وأن يكون الله أنزل على بشر شيئاً فهذا كتاب موسى يقر به أهل الكتاب وهم أعلم منكم فاسألوهم عنه ونظائر هذا في القرآن كثيرة يستشهد سبحانه بأهل الكتاب على منكري النبوات والتوحيد والمعنى إنكم إن أنكرتم أن يكون الله أنزل على بشر شيئا فمن أنزل كتاب موسى ؟ فإن لم تعلموا ذلك فاسألوا أهل الكتاب ، وأما قوله تعالى: ﴿ يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً ﴾ فمن قرأها بالياء فهو إخبار عن اليهود بلفظ الغيبة ، ومن قرأها بتاء للخطاب فهو خطاب لهذا الجنس الذي فعلوا ذلك أي تجعلونه يامن أنزل عليه كذلك ، وهذا من أعلام نبوته أن يخبر أهل الكتاب بما اعتمدوه في كتابهم وأنهم جعلوه قراطيس وأبدوا بعضه وأخفوا كثيراً منه وهذا لا يعلم من غير جهتهم إلا بوحي من الله ولا يلزم أن يكون قوله : ﴿ تجعلونه قراطيس ﴾ خطاباً لمن حكى عنهم أنهم قالوا : ﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ بل هذا استطراد من الشيء إلى نظيره ، وشبهه ، ولازمه وله نظائر في القرآن كثيرة كقوله تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة) إلى آخر الآية [المؤمنون : ١٤-١٦] فاستطرد من الشخص المخلوق من الطين وهو آدم إلى النوع المخلوق من النطفة وهم أولاده . وأوقع الضمير على الجميع بلفظ واحد ومثله قوله تعالى : (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون) إلى آخر الآيات [الأعراف : ١٨٩-١٩٠] ويشبه هذا قوله تعالى : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم * الذي جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون * والذي نزل

من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون * والذي خلق الأزواج كلها) إلى آخر الآيات [الزخرف : ٩-١٢] .

وعلى التقديرين فهؤلاء لم يتم لهم إنكار نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ومكابرتهم إلا بهذا الجحد والتكذيب العام ، ورأوا أنهم إن أقروا ببعض النبوات وجحدوا نبوته ظهر تناقضهم ، وتفريقهم بين المتماثلين وأنهم لا يمكنهم الإيمان بنبي وجحد نبوة من نبوته أظهر وآياتها أكثر وأعظم ممن أقروا به وأخبر سبحانه أن من جحد أن يكون قد أرسل رسله وأنزل كتبه لم يقدره حق قدره وإنه نسبه إلى مالا يليق به بل يتعالى ويتنزه عنه فإن في ذلك إنكار دينه وإلهيته وملكه وحكمته ورحمته والظن السيء به أنه خلق خلقه عبثا باطلا وإنه خلاهم سدًى وهملاً وهذا ينافي كماله المقدس وهو متعالٍ عن كل ما ينافي كماله .

فمن أنكر كلامه وتكليمه وإرساله الرسل إلى خلقه فما قدره حق قدره ، ولا عرفه حق معرفته ، ولا عظمه حق عظمته ، كما أن من عبد معه إلها غيره لم يقدره حق قدره معطل ، جاحد لصفات كماله ، ونعوت جلاله ، وإرسال رسله ، وإنزال كتبه ، ولا عظمه حق عظمته[1] .

قال تعالى : ﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾ [الأنعام : ٩١] .

وقال رحمه الله تعالى :

حتى رتب على ذلك بعضهم أن الذكر بالاسم المفرد وهو «الله، الله» أفضل من الذكر بالجملة المركبة كقوله : « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» وهذا فاسد مبني على فاسد، فإن الذكر بالاسم المفرد غير مشروع أصلا، ولا مفيد شيئاً ، ولا هو كلام أصلا ، ولا يدل على مدح ولا تعظيم ، ولا يتعلق به إيمان ولا ثواب ، ولا يدخل به الذاكر في عقد الإسلام جملة ، فلو قال الكافر «الله، الله». من أول عمره إلى آخره لم يصر بذلك مسلماً، فضلا عن أن يكون من جملة الذكر ، أو يكون أفضل الأذكار ، وبالغ بعضهم في ذلك

---

(١) هداية الحيارى (٢٧٩) .

حتى قال : الذكر بالاسم المضمر أفضل من الذكر بالاسم الظاهر ! فالذكر بقوله « هو ، هو » أفضل من الذكر بقولهم « الله ، الله » وكل هذا من أنواع الهوس ، والخيالات الباطلة المفضية بأهلها إلى أنواع من الضلالات ، فهذا فساد هذا البناء الهائر ، وأما فساد المبني عليه ، فإنهم ظنوا أن قوله تعالى : ﴿ **قل الله** ﴾ أي قل هذا الاسم . فقال : الله الله وهذا من عدم فهم القوم لكتاب الله ، فإن اسم الله هنا جواب لقوله : ﴿ **قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً** ﴾ إلى أن قال : ﴿ **قل الله** ﴾ أي : قل : الله أنزله . فإن السؤال معاد في الجواب ، فيتضمنه فيحذف اختصاراً كما يقول : من خلق السموات والأرض ؟ فيقال : الله . أي الله خلقها . فيحذف الفعل لدلالة السؤال عليه . فهذا معنى الآية الذي لا تحتمل غيره(١) .

وقال رحمه الله تعالى :

قول الله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام : ٩١] .

فأخبر تعالى أن من جحد رسالاته فما قدره حق قدره ولا عرفه ولا عظمه ، ولا نزهه عما لا يليق به تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً(٢) .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٣] .

وهذا خطاب لهم عند الموت ، وقد أخبرت الملائكة وهم الصادقون أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون ، ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا لما صح أن يقال لهم اليوم تجزون(٣) .

---

(١) طريق الهجرتين (٣١٦، ٣١٧) .
(٢) مفتاح دار السعادة (٤٦٢) .
(٣) الروح (٧٥) .

قوله عز وجل : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : ١٠٣] .

والاستدلال بهذا أعجب ، فإنه من أدلة النفاة ، وقد قرر شيخنا[1] وجه الاستدلال به أحسن تقرير وألطفه وقال لي : أنا ألتزم أنه لا يحتج مبطل بآية أو حديث صحيح على باطله إلا وفي ذلك الدليل ما يدل على نقيض قوله ، فمنها هذه الآية وهي على جواز الرؤية أدل منها على امتناعها ؛ فإن الله سبحانه وتعالى إنما ذكرها في سياق التمدح ، ومعلوم أن المدح إنما يكون بالأوصاف الثبوتية ، وأما العدم المحض فليس بكمال ، ولا يمدح الرب تبارك وتعالى بالعدم ، إذا تضمن أمراً وجودياً كتمدحه بنفي السنة والنوم المتضمن كمال القيومية ، ونفي الموت المتضمن كمال الحياة ، ونفي اللغوب والإعياء المتضمن كمال القدرة ونفي الشريك والصاحبة والولد والظهير المتضمن كمال ربوبيته ، وإلهيته وقهره ، ونفي الأكل والشرب المتضمن كمال الصمدية ، وغناه ، ونفي الشفاعة عنده بدون إذنه المتضمن كمال توحيده ، وغناه عن خلقه ، ونفي الظلم المتضمن كمال عدله وعلمه وغناه ، ونفي النسيان وعزوب شيء عن علمه المتضمن كمال علمه وإحاطته ، ونفي المثل المتضمن لكمال ذاته وصفاته ، ولهذا لم يمتدح بعدم محض لا يتضمن أمراً ثبوتياً ، فإن المعدوم يشارك الموصوف في ذلك العدم ، ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم فيه ، فلو كان المراد بقوله : ﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾ إنه لا يرى بحال لم يكن في ذلك مدح ولا كمال ، لمشاركة المعدوم له في ذلك ، فإن العدم الصرف لا يرى ، ولا تدركه الأبصار ، والرب جل جلاله يتعالى أن يمدح بما يشاركه فيه العدم المحض ، فإن المعنى أنه يرى ولا يدرك ولا يحاط به ، كما كان المعنى في قوله : (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة) [يونس : ٦١] . أنه يعلم كل شيء وفي قوله : (وما مسنا من لغوب) [ق : ٣٨] . أنه كامل القدرة وفي قوله : (لا تأخذه سنة ولا نوم) [البقرة : ٢٥٥] . أنه كامل القيومية فقوله : ﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾ يدل على غاية عظمته وأنه أكبر من كل شيء

---

(١) شيخ الإسلام « ابن تيمية » رضي الله عنه .

وأنه لعظمته لا يدرك بحيث يحاط به ، فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء ، وهو قدر زائد على الرؤية . كما قال تعالى : (فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا) فلم ينف موسى الرؤية ولم يريدوا بقولهم: (إنا لمدركون) إنا لمرئيون فإن موسى صلوات الله وسلامه عليه نفى إدراكهم إياهم بقوله : (كلا) وأخبر الله سبحانه أنه لا يخاف دركهم بقوله : (ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى) [طه : ٧٧،٧٨] فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه ، فالرب تعالى يرى ولا يدرك ، كما يعلم ولا يحاط به ، وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية .

قال ابن عباس[1]: ﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾ لا تحيط به الأبصار ، وقال قتادة : هو أعظم من أن تدركه الأبصار . وقال عطية[2]: ينظرون إلى الله ولا تحيط أبصارهم به من عظمته . وبصره يحيط بهم فذلك قوله تعالى : ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار** ﴾ فالمؤمنون يرون ربهم تبارك وتعالى بأبصارهم عياناً ولا تدركه أبصارهم ، بمعنى : أنها لا تحيط به إذ كان غير جائز أن يوصف الله عز وجل بأن شيئا يحيط به ، وهو بكل شيء محيط ، وهكذا يسمع كلام من يشاء من خلقه ولا يحيطون بكلامه ، وهكذا يعلم الخلق ما علمهم ، ولا يحيطون بعلمه .

نظير هذا : استدلالهم على نفي الصفات بقوله تعالى : (ليس كمثله شيء) [الشورى : ١١] . هذا من أعظم الأدلة على كثرة صفات كماله ، ونعوت جلاله ، وأنها لكثرتها وعظمتها وسعتها لم يكن له مثل فيها ، وإلا فلو أريد بها نفي الصفات لكان العدم المحض أولى بهذا المدح منه ، مع أن جميع العقلاء إنما يفهمون من

---

(١) انظر الطبري (٣٠٠/٧) .
في الفرق بين الإدراك والنظر .
(٢) تفسير الطبري (٢٩٩/٧) .
والدر المنثور (٣٣٥/٣) .

قول القائل فلان لا مثل له ، ولا نظير ولا شبيه ، ولا مثل ، أنه قد تميز عن الناس بأوصاف ونعوت لا يشاركونه فيها ، وكلما كثرت أوصافه كثرة نعوته وصفاته . وقوله : ﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾ من أدل شيء على أنه يرى ولا يدرك وقوله : (هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ماكنتم والله بما تعملون بصير) [الحديد : ٤] من أدل شيء على مباينة الرب لخلقه ، فإنه لم يخلقهم في ذاته بل خارجهم خارجاً عن ذاته ، ثم بان عنهم باستوائه على عرشه ، وهو يعلم ما هم عليه فيراهم وينفذهم بصره ، ويحيط بهم علماً وقدرة وإرادة وسمعاً وبصراً ، فهذا معنى كونه سبحانه معهم أينما كانوا ، وتأمل حسن هذه المقابلة لفظاً ومعنى بين قوله : ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار** ﴾ فإنه سبحانه لعظمته يتعالى أن تدركه الأبصار وتحيط به وللطفه وخبرته يدرك الأبصار فلا تخفى عليه فهو العظيم في لطفه ، اللطيف في عظمته ، العالي في قربه ، القريب في علوه ، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير[(١)] .

وقال رحمه الله تعالى :

ولهذا لما تجلى تبارك وتعالى للجبل وكشف من الحجاب شيئاً يسيراً ساخ الجبل في الأرض وتدكدك ، ولم يقم لربه تبارك وتعالى ، وهذا معنى قول ابن عباس في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾ [الأنعام : ١٠٣] قال : ذلك الله عز وجل ، إذا تجلى بنوره لم يقم له شيء ، وهذا من بديع فهمه رضي الله تعالى عنه ، ودقيق فطنته ، كيف وقد دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم[(٢)]

(١) حادي الأرواح (٢٣٧) .

(٢) هذا جزء من حديث صحيح رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٣١٤/١) . بلفظ « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » والمشهور أنها في الصحيحين، والتحقيق كما بيّن ذلك الحافظ في الفتح (١٢٦/٧) أنها ليست فيهما وإنما الذي فيهما :

« اللهم فقهه في الدين » .

رواه البخاري (٢٩٤/١) في الوضوء ، باب : وضع الماء عند الخلاء .

ومسلم (٣٤٦/٥) في الفضائل ، باب فضائل ابن عباس رضي الله عنهما .

أن يعلمه الله التأويل فالرب تبارك وتعالى يرى يوم القيامة بالأبصار عياناً ، ولكن يستحيل إدراك الأبصار له ، وإن رأته فالإدراك أمر وراء الرؤية وهذه الشمس – ولله المثل الأعلى – نراها ولا ندركها كما هي عليه ، ولا قريباً من ذلك ، ولذلك قال ابن عباس لمن سأله وأورد عليه ﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾ فقال : ألست ترى السماء ؟ قال : بلى . قال : أفتدركها ؟ قال : لا . قال : فالله تعالى أعظم وأجل[١] .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ [الأنعام : ١٠٨] .

فحرم الله تعالى سب آلهة المشركين ، مع كون السب غيظا وحمية لله وإهانة لآلهتهم ، لكونه ذريعة إلى سبهم لله تعالى وكانت مصلحة ترك مسبته تعالى أرجح من مصلحة سبنا لآلهتهم ، وهذا كالتنبيه بل كالتصريح على المنع من الجائز لئلا يكون سببا في فعل ما لا يجوز[٢] .

وقال رحمه الله تعالى :

وأما التزيين فقال تعالى : ﴿ **وكذلك زينا لكل أمة عملهم** ﴾ وقال : (أفمن زُين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء) [فاطر : ٨] وقال : ﴿ **وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون** ﴾ [الأنعام : ٤٣] وأضاف التزيين إليه سبحانه خلقاً ومشيئة ، وحذف فاعله تارة ، ونسبه إلى سببه ، ومن أجراه على يده تارة .

وهذا التزيين (منه)[٣] سبحانه حسن إذ هو ابتلاء واختبار للعبد[٤] ليتميز المطيع منهم من العاصي ، والمؤمن من الكافر ، كما قال تعالى : (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا) [الكهف : ٧] .

---

(١) الوابل الصيب (٧٤) .

(٢) إعلام الموقعين (١٨١/١) .

(٣) زيادة لازمة .

(٤) في الأصل (بعيد) وهو خطأ كما ترى .

وهو من الشيطان قبيح .

وأيضاً فتزيينه سبحانه للعبد عمله السيء عقوبة منه له على إعراضه عن توحيده وعبوديته ، وإيثار سيء العمل على حسنه ، فإنه لابد أن يعرفه سبحانه السيء من الحسن ، فإذا آثر القبيح واختاره وأحبه ورضيه لنفسه ، زينه سبحانه له وأعماه عن رؤية قبحه ، بعد أن رآه قبيحاً ، وكل ظالم وفاجر وفاسق ، لابد أن يريه الله تعالى ظلمه وفجوره وفسقه قبيحاً ، فإذا تمادى عليه ، ارتفعت رؤية قبحه من قلبه فربما رآه حسناً ، عقوبة له ، فإنه إنما يكشف له عن قبحه بالنور الذي في قلبه ، وهو حجة الله عليه ، فإذا تمادى في غيّه وظلمه ذهب ذلك النور ، فلم ير قبحه في ظلمات الجهل والفسوق والظلم . ومع هذا فحجة الله قائمة عليه بالرسالة ، وبالتعريف الأول . فتزيين الرب تعالى عدل ، وعقوبته حكمة ، وتزيين الشيطان إغواء وظلم ، وهو السبب الخارج عن العبد ، والسبب الداخل فيه حبه وبغضه وإعراضه ، والرب سبحانه خالق الجميع ، والجميع واقع بمشيئته وقدرته ، ولو شاء لهدى خلقه أجمعين ، والمعصوم من عصمه الله ، والمخذول من خذله الله ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين[1] .

قال تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٠] .

فعاقبهم على ترك الإيمان به حين تيقنوه وتحققوه ، بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم فلم يهتدوا له[2] .

وقال رحمه الله تعالى :

أما تقليب الأفئدة فقال تعالى : ﴿ **ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون** ﴾ [الأنعام : ١١٠] .

هذا عطف على قوله : ﴿ أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ أي نحول بينهم وبين الإيمان ، ولو جاءتهم تلك الآية فلا يؤمنون .

(١) شفاء العليل (١٠٣،١٠٤) .

(٢) مدارج السالكين (٤٢/١) .

واختلف في قوله : ﴿ كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ فقال كثير من المفسرين: المعنى نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم الآية ، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة قال ابن عباس في رواية عطاء عنه : ونقلب أفئدتهم وأبصارهم حتى يرجعوا إلى ما سبق عليهم من علمي . قال : وهذا كقوله : ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ [الأنفال : ٢٤] .

وقال آخرون : المعنى : ونقلب أفئدتهم وأبصارهم لتركهم الإيمان به أول مرة ، فعاقبناهم بتقليب أفئدتهم وأبصارهم ، وهذا معنى حسن. فإن كاف التشبيه تتضمن نوعًا من التعليل. كقوله: (وأحسن كما أحسن الله إليك) [القصص : ٧٧] وقوله : (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكروني أذكركم) [البقرة:١٥١-١٥٢] والذي حسن اجتماع التعليل والتشبيه-الإعلام بأن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر.

والتقليب : تحويل الشيء من وجه إلى وجه ، وكان الواجب من مقتضى إنزال الآية ووصولهم إليها كما سألوا : أن يؤمنوا إذ جاءتهم لأنهم رأوها عيانا وعرفوا أدلتها وتحققوا صدقها . فإذا لم يؤمنوا كان ذلك تقليبا لقلوبهم وأبصارهم عن وجهها الذي ينبغي أن تكون عليه . وقد روى مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد ، يصرفه كيف يشاء ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك »[1] وروى الترمذي من حديث أنس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول : « يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » . فقلت : يارسول الله ، آمنا بك وبما جئت به . فهل تخاف علينا ؟ قال : « نعم ، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء »[2] قال الترمذي : هذا

(١) رواه مسلم (٥/٥٠٩) في القدر ، باب : تصريف الله القلوب كيف شاء .

(٢) رواه الترمذي (٣٩٠/٤) في القدر ، باب : ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن .
وقال حديث حسن .
وصححه الألباني (صحيح الترمذي رقم / ٢٧٩٢) وانظر «ظلال الجنة في تخريج السنة» (رقم ٢٢٢) .

حديث حسن . وروى حماد عن أيوب وهشام ويعلى بن زياد عن الحسن قال : قالت عائشة رضي الله عنها : دعوة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يدعو بها : « يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » . فقلت : يارسول الله ، دعوة كثيراً ما تدعو بها ؟ قال : « إنه ليس من عبد إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله . فإذا شاء أن يقيمه أقامه ، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه »[1] .

وقوله : ﴿ ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ قال ابن عباس : أخذلهم وأدعهم في ضلالهم يتمادون[2] .

قال تعالى : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ [الأنعام : ١١٠] .

فعاقبهم على رد الحق أول مرة بأن قلب أفئدتهم ، وأبصارهم ، بعد ذلك[3] .

قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٢] .

فذكر سبحانه أنهم يستعينون على مخالفة أمر الأنبياء بما يزخرفه بعضهم لبعض من القول ، فيغتر به الأغمار وضعفاء العقول ، فذكر السبب الفاعل والقابل ، ثم ذكر سبحانه انفعال هذه النفوس الجاهلة به ، بصغوها وميلها إليه ، ورضاها به لما كسي من الزخرف الذي يغر السامع ، فلما أصغت إليه ورضيته

---

(١) رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٩١/٦) .
والآجري في الشريعة ص (٣١٧) .
وابن أبي عاصم في السنة (رقم ٢٢٤-٢٣٣) .
وصححه العراقي كما في الإحياء (٤٤/٣) .
والألباني في تعليقه على السنة .

(٢) شفاء العليل (٩٩، ١٠٠) .

(٣) بدائع الفوائد (١٨٠/٣) .

اقترفت ما تدعو إليه من الباطل قولاً وعملاً ، فتأمل هذه الآيات وما تحتها من هذا المعنى العظيم القدر ، الذي فيه بيان أصول الباطل ، والتنبيه على مواقع الحذر منها ، وعدم الاغترار بها ، وإذا تأملت مقالات أهل الباطل ، رأيتهم قد كسوها من العبارات وتخيروا لها من الألفاظ الرائقة ، ما يسرع إلى قبوله كل من ليس له بصيرة نافذة ، – وأكثر الخلق كذلك – حتى إن الفجار ليسمون أعظم أنواع الفجور بأسماء لا ينبو عنها السمع ، ويميل إليها الطبع ، فيسمون أم الخبائث أم الأفراح ، ويسمون اللقمة الملعونة لقيمة الذكر والفكر التي تثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن ، ويسمون مجالس الفجور والفسوق مجالس الطيبة[(١)]، حتى إن بعضهم لما عزل عن شيء من ذلك قال لعازله : ترك المعاصي والتخوف منها إساءة ظن برحمة الله ، وجرأة على سعة عفوه ومغفرته ، فانظر ماذا تفعل هذه الكلمة في قلب ممتلىء بالشهوات ضعيف العلم والبصيرة[(٢)] .

أما اللام في قوله : ﴿ وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَلِيَرۡضَوۡهُ وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٣] .

فهي على بابها للتعليل ، فإنها إن كانت تعليلا لفعل العدو وهو إيحاء بعضهم إلى بعض فظاهر ، وعلى هذا فيكون عطفا على قوله غرورا ، فإنه مفعول لأجله ، أي ليغروهم بهذا الوحي ، ولتصغى إليه أفئدة من يلقى إليه فيرضاه ، ويعمل بموجبه فيكون سبحانه قد أخبر بمقصودهم من الإيحاء المذكور ، وهو أربعة أمور :

---

(١) رحم الله هذا الإمام ذا البصيرة المستنيرة بنور الله تعالى . فالذي ذكره ديدن أعداء الدين إلى الآن فهم يُرغبون الناس في الفسق والفجور، بعد تسميتها بأسماء مزخرفة. فيصرفون قلوب العباد عن القرآن إلى الغناء وتسميته « غذاء الروح » . و« الإمتاع النفسي » والتبرج والمسرحيات والأفلام الماجنة الفاجرة تحت اسم « الإبداع الفني » و « التنوير الفكري » و « الحرية الشخصية » و« الموضة » حتى سموا الخمر التي هم أم الخبائث « بالمشروبات الروحية » وهلم جرا ... فلبسوا على الناس دينهم وحسبنا الله ونعم الوكيل .
و لم يكتفوا بذلك في الترغيب في الموبقات برجلهم وخيلهم وصوتهم يعاونهم الشيطان ، ويتعلم منهم ، بل صرفوا الناس عن الدين وأهله بتسميتهم الإرهابيين والمتطرفين والمتشددين وإلحاقهم الأذى بهم والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

(٢) الصواعق المرسلة (٤٣٨/٢) .

غرور من يوحون إليه ، وإصغاء أفئدتهم إليهم ، ومحبتهم لذلك ، وانفعالهم عنده بالاقتراف ، وإن كان ذلك تعليلا لجعله سبحانه لكل نبي عدوا ، فيكون هذا الحكم من جملة الغايات ، والحكم المطلوبة بهذا الجعل ، وهي غاية وحكمة مقصودة لغيرها ، لأنها مفضية إلى أمور هي محبوبة ، مطلوبة للرب سبحانه ، وفواتها يستلزم فوات ما هو أحب إليه من حصولها ، وعلى التقديرين فاللام لام التعليل والحكمة[1] .

قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام : ١١٢] .

وجده منطبقاً على هؤلاء أتم انطباق ، فإنهم يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، والزخرف هو الكلام المزين ، كما يزين الشيء بالزخرف ، وهو الذهب وهو الغرور لأنه يغر المستمع ، والشبهات المعارضة للوحي هي كلام زخرف ، يغر المستمع ﴿ **ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون** ﴾ [الأنعام : ١١٣] فانظر إلى إصغاء المستجيبين لهؤلاء ورضاهم بذلك واقترافهم المترتب عليه فتأمل[2]!!

وقال رحمه الله تعالى :

قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام : ١١٢] .

فسماه زخرفاً وهو باطل ، لأن صاحبه يزخرفه ويزينه ما استطاع ، ويلقيه إلى سمع المغرور ، فيغتر به[3] .

قوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ ﴾ [الأنعام : ١١٤] .

---

(١) شفاء العليل (١٩٣) .
(٢) الصواعق المرسلة (١٠٤٢١٠٤١/٣) .
(٣) الداء والدواء (١٤٤) .

وهذا يبين أن الحكم بين الناس هو الله عز وجل وحده ، بما أنزله من الكتاب المفصل كما قال في الآية الأخرى : (وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله) [الشورى : ١٠] .

وقال تعالى : (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) [البقرة :٢١٣].

وقال تعالى : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما آراك الله) [النساء : ١٠٥] .

وقال تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما) [النساء : ٦٥] .

فقوله : ﴿ **أفغير الله أبتغي حكماً** ﴾ [الأنعام : ١١٤] .

استفهام إنكار ، يقول : كيف أطلب حكماً غير الله ، وقد أنزل كتابا مفصلا فإن قوله : ﴿ **وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا** ﴾ جملة في موضع الحال وقوله ﴿ **مفصلا** ﴾ يبين أن الكتاب الحاكم مفصل ، بين ضد ما يصفه به من يزعم أن عقول الرجال[1]، وآراءهم تعارض بعض نصوصه، وأن نصوصه خيلت وأفهمت خلاف الحق ، لمصلحة المخاطب ، وأن لها معاني لا تفهم ، ولا يعلم المراد منها ، أو أن لها تأويلات باطلة خلاف ما دلت عليه ظواهرها ، فهؤلاء كلهم ليس الكتاب عندهم مفصلا ، بل مجمل ما دل أو لا يعلم المراد منه خلاف ظاهره ، أو إفهام خلاف الحق ثم قال : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [الأنعام : ١١٤] وذلك أن الكتاب الأول مصدق للقرآن ، فمن نظر فيه علم علماً يقيناً أن هذا وهذا من مشكاة واحدة ، لا سيما في باب التوحيد والأسماء والصفات ، فإن التوراة مطابقة للقرآن في ذلك ، موافقة له ، وهذا يدل على أن ما في التوراة من ذلك ليس هو من المبدل المحرف الذي أنكره الله عليهم ، بل هو من الحق الذي شهد للقرآن

(١) انظر في ذلك درة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى مؤلفه العظيم « درء تعارض العقل والنقل » . مطبوع بتحقيق جيد ، للدكتور محمد رشاد سالم رحمه الله تعالى .

وصدقه ، ولهذا لم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم عليهم ما في التوراة من الصفات ولا عابهم به ، ولا جعله تشبيها وتجسيماً وتمثيلاً ، كما فعل كثير من النفاة وقالوا : اليهود أمة التشبيه والتجسيم ولا ذنب لهم في ذلك ، فإنهم فسروا ما في التوراة فالذي عابهم الله به من تأويل التحريف والتبديل لم يعبهم به المعطلة النفاة ، بل شاركوهم فيه والذي استشهد الله سبحانه على نبوة رسوله به من موافقة ما عندهم من التوحيد والصفات ، عابوهم به ونسبوهم فيه إلى التجسيم والتشبيه ، وهذا ضد ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فإنهم كانوا إذا ذكروا له شيئاً من هذا الذي تسميه المعطلة تجسيماً ، وتشبيهاً ، صدقهم عليه أو أقرهم ولم ينكره ، كما صدقهم في خبر الحبر المتفق على صحته[1] من حديث عبد الله بن مسعود ، وضحك تعجباً وتصديقاً له ، وفي غير ذلك ، ثم قال :

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام : ١١٥] .

فقرر أن ما أخبر به فهو صدق ، وأمر به فهو عدل ، وهذا يبين أن ما في النصوص من الخبر فهو صدق ، علينا أن نصدق به ، لا نعرض عنه ، ولا نعارضه ومن دفعه أو عارضه بعقله لم يصدقوا به ، ولو صدقه تصديقاً مجملاً ولم يصدقه تصديقاً مفصلاً في أعيان ما أخبر به لم يمكن مؤمنا ، ولو أقر بلفظه مع جحد معناه ، أو حرفه إلى معان أخر غير ما أريد به لم يكن مصدقاً ، بل هو إلى التكذيب أقرب[2] .

---

(١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن يهودياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يامحمد إن الله يمسك السموات على إصبع والأرضين على إصبع والجبال على إصبع والشجر على إصبع والخلائق على إصبع ثم يقول أنا الملك فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ثم قرأ « وما قدروا الله حق قدره » قال يحيى بن سعيد وزاد فيه فضيل بن عياض عن منصور عن إبراهيم عن عبيدة عن عبد الله فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجُّباً وتصديقاً له .
هذه رواية البخاري (٤٠٤/١٣) في التوحيد باب : قول الله تعالى : ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ .
ومسلم (٦٥٥/٥) في صفة القيامة .

(٢) الصواعق المرسلة (١٠٤٢/٣-١٠٤٦) .

قول الله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٢] .

فجمع له بين النور والحياة كما جمع لمن أعرض عن كتابه بين الموت والظلمة، فقال ابن عباس وجميع المفسرين: كان كافراً ضالاً فهديناه وجعلنا له نورا.

وقوله : ﴿وجعلنا له نورا يمشي به في الناس﴾ يتضمن أموراً :

أحدها : أنه يمشي في الناس بالنور ، وهم في الظلمة ، فمثله ومثلهم كمثل قوم أظلم عليهم الليل فضلوا ولم يهتدوا للطريق . وآخر معه نور يمشي به في الطريق ويراها ويرى ما يحذره فيها .

وثانيها : أنه يمشي فيهم بنوره فهم يقتبسون منه لحاجتهم إلى النور .

وثالثها : أنه يمشي بنوره يوم القيامة على الصراط إذا بقي أهل الشرك والنفاق، في ظلمات شركهم ونفاقهم[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

قال الله تعالى : ﴿ **أومن كان ميتًا فأحييناه وجعلنا له نورًا يمشي به في الناس** ﴾ الآية [الأنعام : ١٢٢] .

فجمع بين الأصلين : الحياة والنور ، فالحياة تكون قوته ، وسمعه وبصره ، وحياءه وعفته أو شجاعته وصبره وسائر أخلاقه الفاضلة ، ومحبته للحسن وبغضه للقبيح . فكلما قويت حياته قويت فيه هذه الصفات ، وإذا ضعفت حياته ضعفت فيه هذه الصفات ، وحياؤه من القبائح هو بحسب حياته في نفسه ، فالقلب الصحيح الحي إذا عرضت عليه القبائح نفر منها بطبعه وأبغضها ، ولم يلتفت إليها ، بخلاف القلب الميت ، فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح ، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه .. هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف وينكر به المنكر[٢] .

(١) الفوائد (٨٩) .

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٢٠) .

وقال رحمه الله تعالى :

كان ميتاً بالكفر والجهل فأحياه الله بالإيمان والعلم ، وجعل له بالقرآن والإيمان نوراً يستضيء به في الناس على قصد السبيل ، ويمشي به في الظلم . والله أعلم[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

استشهاده[٢] بهذه الآية في هذا الباب ظاهر جداً ، فإن المراد بها : من كان ميت القلب بعدم روح العلم والهدى والإيمان فأحياه الرب تعالى بروح أخرى غير الروح التي أحيا بها بدنه ، وهي روح معرفته وتوحيده ومحبته وعبادته وحده لا شريك له . إذ لا حياة للروح إلا بذلك ، وإلا فهي في جملة الأموات ، ولهذا وصف الله تعالى من عدم ذلك بالموت فقال : ﴿ **أو من كان ميتاً فأحييناه** ﴾ وقال تعالى : (إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء) وسمى وحيه روحاً لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح . فقال تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا) .

فأخبر : أنه « روح » تحصل به الحياة ، وأنه « نور » تحصل به الإضاءة ، وقال تعالى : (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون) [النحل : ١٦] .

وقال تعالى : (رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق) [غافر : ١٥] .

فالوحي حياة الروح ، كما أن الروح حياة البدن ، ولهذا من فقد هذه الروح : فقد فقد الحياة النافعة في الدنيا والآخرة . أما في الدنيا : فحياته حياة

---

(١) مدارج السالكين (٢/٤٨٦) .

(٢) يقصد الإمام « الهروي » وكلامه في منزلة « الحياء » من كتابه « منازل السائرين .. » .

البهائم . وله المعيشة الضنك . وأما في الآخرة : فله جهنم لا يموت فيها ولا يحيا[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

قال تعالى : ﴿ **أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها** ﴾ [الأنعام : ١٢٢] .

فإحياؤه سبحانه وتعالى بروحه الذي هو وحيه ، وهو روح الإيمان والعلم ، وجعل له نورا يمشي به بين أهل الظلمة ، كما يمشي الرجل بالسراج المضيء في الليلة الظلماء ، فهو يرى أهل الظلمة في ظلامتهم وهم لا يرونه ، كالبصير الذي يمشي بين العميان[٢] .

قال الله تعالى : ﴿ **أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها** ﴾ [الأنعام : ١٢٢] .

فالأول هو المؤمن استنار بالإيمان بالله ومحبته ومعرفته وذكره ، والآخر هو الغافل عن الله تعالى المعرض عن ذكره ومحبته ، والشأن كل الشأن والفلاح في النور ، والشقاء كل الشقاء في فواته[٣] .

قوله تعالى : ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام : ١٢٧] .

ومنه تسمية الجنة بدار السلام ، وفي إضافتها إلى السلام ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها إضافة إلى مالكها السلام سبحانه .

الثاني : أنها إضافة إلى تحية أهلها فإن تحيتهم فيها سلام .

الثالث : أنها إضافة إلى معنى السلامة أي دار السلامة من كل آفة ونقص

---

(١) مدارج السالكين (٣/٢٥٨-٢٥٩) .

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية (٥) .

(٣) الوابل الصيب (٧٣) .

وشر ، والثلاثة متلازمة ، وإن كان الثالث أظهرها فإنه لو كانت الإضافة إلى مالكها لأضيفت إلى اسم من أسمائه غير السلام ، وكان يقال دار الرحمن ، أو دار الله ، أو دار الملك ، ونحو ذلك ، فإذا عهدت إضافتها إليه ثم جاء دار السلام حملت على المعهود ، وأيضا فإن المعهود في القرآن إضافتها إلى صفتها أو إلى أهلها . **أما الأول** فنحو دار القرار ، دار الخلد ، جنة المأوى ، جنات النعيم ، جنات الفردوس . **وأما الثاني** فنحو دار المتقين ولم تعهد إضافتها إلى اسم من أسماء الله في القرآن ، فالأولى حمل الإضافة على المعهود في القرآن ، وكذلك إضافتها إلى التحية ضعيف من وجهين . **أحدهما** : أن التحية بالسلام مشتركة بين دار الدنيا والآخرة ، وما يضاف إلى الجنة لا يكون إلا مختصا بها ، كالخلد والقرار والبقاء . **الثاني** : أن من أوصافها غير التحية ما هو أكمل منها ، مثل كونها دائمة وباقية ودار الخلد ، والتحية فيها عارضة عند التلاقي والتزاور ، بخلاف السلامة من كل عيب ونقص وشر فإنها من أكمل أوصافها المقصودة على الدوام ، التي لا يتم النعيم فيها إلا به ، فإضافتها إليه أولى وهذا ظاهره[1] .

قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام : ١٢٨] .

يعني : قد استكثرتم من إضلالهم وإغوائهم .

قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم[2] أضللتم منهم كثيراً . فيجيبه سبحانه أولياؤهم من الإنس بقولهم : ﴿ **ربنا استمتع بعضنا ببعض** ﴾ يعنون استمتاع كل نوع بالنوع الآخر فاستمتاع الجن بالإنس : طاعتهم لهم فيما يأمرونهم به : من الكفر والفسوق والعصيان ، فإن هذا أكبر أغراض الجن من

(١) بدائع الفوائد (١/١٣٤،١٣٥) .

(٢) تفسير الطبري (٨/٣٣) .

وانظر الدر المنثور (٣/٣٥٧) .

الإنس ، فإذا أطاعوهم فيه فقد أعطوهم مناهم . واستمتاع الإنس بالجن : أنهم أعانوهم على معصية الله تعالى ، والشرك به بكل ما يقدرون عليه : من التحسين والتزيين والدعاء ، وقضاء كثير من حوائجهم ، واستخدامهم بالسحر والعزائم وغيرها فأطاعهم الإنس فيما يرضيهم : من الشرك والفواحش والفجور ، وأطاعتهم الجن فيما يرضيهم : من التأثيرات والإخبار ببعض المغيبات فتمتع كل من الفريقين بالآخر .

وهذه الآية منطبقة على أصحاب الأحوال الشيطانية ، الذين لهم كشوف شيطانية وتأثير شيطاني . فيحسبهم الجاهل أولياء الرحمن ، وإنما هم من أولياء الشيطان . أطاعوه في الإشراك ومعصية الله ، والخروج عما بعث به رسله وأنزل به كتبه فأطاعهم في أن خدمهم بإخبارهم بكثير من المغيبات والتأثيرات ، واغتر بهم من قل حظه من العلم والإيمان ، فوالى أعداء الله وعادى أولياءه ، وحسن الظن بمن خرج عن سبيله وسننه ، وأساء الظن بمن اتبع سنة الرسول وما جاء به ، ولم يدعها لأقوال المختلفين ، وآراء المتحيرين ، وشطحات المارقين ، وترهات المتصوفين .

والبصير الذي نور الله بصيرته بنور الإيمان والمعرفة ، إذا عرف حقيقة ما عليه أكثر هذا الخلق ، وكان ناقداً لا يروج عليه الزغل ؛ تبين له أنهم داخلون تحت حكم هذه الآية وهي منطبقة عليهم .

فالفاسق يستمتع بالشيطان بإعانته له على أسباب فسوقه ، والشيطان يستمتع به في قبوله منه ، وطاعته له ، فيسره ذلك ويفرح به منه .

والمشرك يستمتع به الشيطان بشركه به وعبادته له ، ويستمتع هو بالشيطان في قضاء حوائجه وإعانته له .

ومن لم يحط علماً بهذا لم يعلم حقيقة الإيمان والشرك ، وسر امتحان الرب سبحانه كلا من الثقلين بالآخر .

ثم قالوا : ﴿ **وبلغنا أجلنا الذين أجلت لنا** ﴾ وهو يتناول أجل الموت ،

وأجل البعث ، فكلاهما أجل الله تعالى لعباده . وهما الأجلان اللذان قال الله فيهما : (ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده) [الأنعام :٢] .

وكأن هذا – والله أعلم – إشارةٌ منهم إلى نوع استعطاف ، وتوبة ، فكأنهم يقولون : هذا أمر كان إلى وقت وانقطع بانقطاع أجله فلم يستمر ولم يدم فبلغ الأمر الذي كان أجله وانتهى إلى غايته ولكل شيء آخر ، فقال تعالى : (النار مثواكم خالدين فيها) فإنه وإن انقطع زمن التمتع وانقضى أجله ، فقد بقي زمن العقوبة . فلا يتوهم أنه إذا انقضى زمن الكفر والشرك وتمتع بعضكم ببعض أنّ مفسدته زالت بزواله ، وانتهت بانتهائه ، والمقصود أن الشيطان تلاعب بالمشركين حتى عبدوه واتخذوه وذريته أولياء من دون الله[١] .

ويقول رحمه الله تعالى :

ولهذا يقولون في القيامة : ﴿ **ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا** ﴾ [الأنعام : ١٢٨] . **وقال** تعالى : ﴿ **النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله** ﴾ فهذا خطاب للصنفين ، وهو صريح في اشتراكهم في التكليف[٢] ، كما هو صريح في اشتراكهم في العذاب ، وهو كثير في القرآن ، ومما يدل على تكليفهم أيضًا قوله تعالى : ﴿ **يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي** – إلى قوله تعالى – **كافرين** ﴾ فلما اعترفوا بأنهم كانوا كافرين وشهدوا على أنفسهم بالكفر دل ذلك على تكليفهم وتوجه الخطاب إليهم[٣] .

ويقول رحمه الله تعالى :

والقولان في آية الأنعام أيضاً : ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣١] .

قيل : لم يهلكهم قبل التذكير بإرسال الرسول . فيكون قد ظلمهم ، فإنه

(١) إغاثة اللهفان (٢/٢٣٦-٢٣٨) .

(٢) أي الجن .

(٣) طريق الهجرتين (٣٩٠) .

سبحانه لا يأخذ أحداً ولا يعاقبه إلا بذنبه ، وإنما يكون مذنبا إذا خالف أمره ونهيه ، وذلك إنما يعلم بالرسل وقال : ﴿ **ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون** ﴾ وعلى أحد القولين – وهو أن يكون المعنى : لم يهلكهم بظلمهم قبل إرسال الرسل – فتكون الآية دالة على الأصلين : أن أفعالهم وشركهم ظلم قبيح قبل البعثة . وأنه لا يعاقبهم عليه إلا بعد الإرسال وتكون هذه الآية في دلالتها على الأمرين نظير الآية التي في القصص (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين) [القصص : ٤٧] . فهذا يدل على أن ما قدمت سبب لنزول المصيبة بهم ولولا قبحه لم يكن سببا ولكن امتنع إصابة المصيبة لانتفاء شرطها وهو عدم مجيء الرسول إليهم فمذ جاء الرسول انعقد السبب ، ووجد الشرط ، فأصابهم سيئات ما عملوا ، وعوقبوا بالأول والآخر[1] .

قال تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنعام : ١٣٣] .

فهذا قياس جلي بقوله سبحانه : إن شئت أذهبتكم واستخلفت غيركم كما أذهبت من قبلكم واستخلفتكم[2] .

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ فإن قرىء ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٥]. لم يكن فيه استئناف، وإن قرىء سوف تعلمون كان ذلك كأنه قيل : وما يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا ، وعملت أنت على مكانتك ؟ فقيل : ﴿ **سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه** ﴾ وثانيهما أن لا يكون المحذوف استفهاماً وذلك كما إذا كان سبباً وقد دل عليه سببه[3] .

---

(١) مدارج السالكين (٢٣٢/١، ٢٣٣) .

(٢) إعلام الموقعين (١٨٥/١) .

(٣) الفوائد المشوق (٧٢، ٧٣) .

قال تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا ﴾ [الأنعام : ١٤٥] .

فالضمير في قوله : « فإنه » وإن كان عوده إلى الثلاثة المذكورة باعتبار لفظ المحرم فإنه يترجح اختصاص لحم الخنزير به ، لثلاثة أوجه .

أحدها : قربه منه .

والثاني : تذكيره دون قوله ، فإنها رجس .

والثالث : أنه أتى « بالفاء » و « إن » تنبيهاً على علة التحريم ، لتزجر النفوس عنه ، ويقابل هذه العلة ما في طباع بعض الناس من استلذاذه واستطابته فنفى عنه ذلك ، وأخبر أنه رجس ، وهذا لا يحتاج إليه في الميتة والدم ؛ لأن كونهما رجساً أمر مستقر معلوم عندهم ولهذا في القرآن نظائر فتأملها ، ثم ذكر بعد تحريم بيع الأصنام وهو أعظم تحريماً وإثماً ، وأشد منافاة للإسلام من بيع الخمر والميتة والخنزير[1] .

ومما يدل على أن لفظ الشهادة غير مشترط قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ [الأنعام : ١٥٠] .

ومعلوم قطعاً أنه لم ينكر عليهم إلا مجرد قولهم إن الله حرم هذا ، لم يخص الإنكار بقول من قال يشهد أن الله حرمه ولا نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتلفظ بالشهادة على التحريم ، بل هو نهي له أن يقول إن الله حرمه[2] .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ [الأنعام : ١٥٨] .

فلما ذكر إتيانه سبحانه ، ربما توهم متوهم أن المراد إتيان بعض آياته ،

---

(١) زاد المعاد (٥/٧٦٢) .

(٢) بدائع الفوائد (٤/٥٥) .

أزال هذا الوهم ورفع الإشكال بقوله : ﴿ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ فصار الكلام مع هذا التقسيم والتنويع نصاً صريحاً في معناه ، لا يحتمل غيره وإذا تأملت أحاديث الصفات ؛ رأيت هذا لائحاً على صفاتها ، بادياً على ألفاظها ، كقوله صلى الله عليه وسلم[١] : « إنكم ترون ربكم عياناً كما ترى الشمس في الظهيرة صحواً ليس دونها سحاب ، وكما يرى القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب »[٢] .

قوله تعالى : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام : ١٦٠] .

أنث عدد الأمثال لتأويلها بحسنات ومثله قراءة أبي العالية[٣] (لا تنفع نفساً إيمانها) بالتاء والفعل مسند إلى الإيمان لكنه طاعة وإنابة في المعنى[٤] .

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام : ١٦٤]

قال ابن عباس رضي الله عنهما[٥] : سيداً وإلٰها يعني فكيف أطلب ربا غيره، وهو رب كل شيء؟ وقال في أول السورة: ﴿ **قل أغير الله أتخذ وليًا فاطر السموات والأرض** ﴾ [الأنعام:١٤]. يعني معبودًا وناصرًا ومعينًا وملجأ ، وهو من الموالاة

---

(١) انظر ما سبق .

(٢) الصواعق المرسلة (٣٩٥/١، ٣٩٦) .

(٣) انظر تفسير البغوي (٢٠٧/٢) .

(٤) بدائع الفوائد (٢٠٩/٤) .

(٥) يشير إلى الحديث الشريف الصحيح :« من قال حين يمسي : رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ، كان حقاً على الله أن يرضيه » .
رواه الإمام أحمد (٣٦٧/٥) .
وأبو داود (٤١٢/١٣، ٤١٣) في الأدب ، باب : ما يقول إذا أصبح .
والترمذي (٤٣٤/٥) في الدعوات ، باب : ما جاء في الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى . وقال : حسن غريب .
والطبراني في الدعاء (٩٣١/٢، ٩٣٢) .
والحاكم (٥١٨/١) وصححه ووافقه الذهبي .
وحسنه الحافظ كما في « نتائج الأفكار » (٣٥١/٢-٣٥٥) .
وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (رقم ٣٣٤) .

التي تتضمن الحب والطاعة وقال في وسطها ﴿ **أفغير الله أبتغي حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً** ﴾ [الأنعام : ١١٤] أي : أفغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم ، فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه ؟ وهذا كتابه سيد الحكام ، فكيف نتحاكم إلى غير كتابه ؟ وقد أنزله مفصلا مبيناً كافيا شافياً . وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل ، رأيتها هي نفس الرضى بالله رباً وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا . ورأيت الحديث يترجم عنها ، ومشتق منها ، فكثير من الناس يرضى بالله ربا ولا يبغي ربا سواه ، لكنه لا يرضى به وحده ولياً وناصراً بل يوالي من دونه أولياء ظناً منه أنهم يقربونه إلى الله ، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك . وهذا عين الشرك . بل التوحيد : أن لا يتخذ من دونه أولياء . والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء .

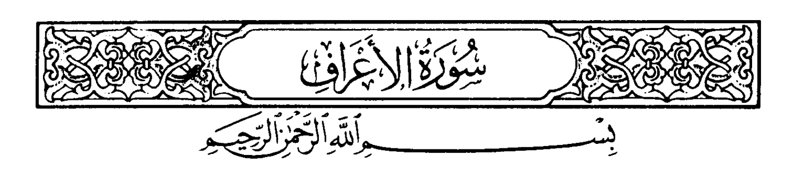
وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين فيه . فإن هذا من تمام الإيمان ومن تمام موالاته فموالاة أوليائه لون ، واتخاذ الولي من دونه لون ، ومن لم يفهم الفرقان بينهما فليطلب التوحيد من أساسه . فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه .

وكثير من الناس يبتغي غيره حكما ، يتحاكم إليه ، ويخاصم إليه ، ويرضى بحكمه ، وهذه المقامات الثلاث هي أصل التوحيد أن لا يتخذ سواه ربا ولا إلـها ولا غيره حكماً[1] .

* * *

(١) مدارج السالكين (٢/١٨١،١٨٢) .

سُورَةُ الأَعْرَافِ



سورة الأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى لرسوله : ﴿ المص * كتب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴾ [الأعراف : ١ ، ٢] .

والله تعالى رفع الحرج عن الصدور بكتابه وكانت قبل إنزال الكتاب في أعظم الحرج والضيق ، فلما أنزل كتابه ؛ ارتفع به عنها ذلك الحرج ، وبقي الحرج والضيق على من لم يؤمنوا به ، كما قال تعالى : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً) [الأنعام : ١٢٥] . ومن آمن به من وجه ؛ دون وجه ارتفع عنه الحرج والضيق من الوجه الذي آمن به دون ذلك الوجه ، فمن أقر أنه منزل من عند الله أنزله على رسوله ، ولم يقر بأنه كلامه الذي تكلم به ، بل جعله مخلوقاً من مخلوقاته كان في صدره من الضيق والحرج ما يناسب ذلك ومن أقر بأنه تكلم بشطره والمعاني دون شطره الآخر ؛ وهو حروفه كان من الحرج منه ما يناسب ذلك ومن زعم أنه غير كاف في معرفة الحق وأن العباد يحتاجون معه إلى معقولات وآراء ومقاييس وقواعد منطقية ومباحث عقلية ؛ ففي صدره منه أعظم حرج ، وأعظم حرج منه من اعتقد أن فيه ما يناقض العقل الصريح ، ويشهد العقل بخلافه ، وكذلك من زعم أن آياته لا يستفاد منها علم ولا يقين ففي صدره منه من الحرج ما الله به عليم ، ومن زعم أن الخطاب به خطاب جمهوري يخيل للعامة ما ينتفعون به مما ليس له حقيقة في نفس الأمر ؛ ففي صدره منه أعظم حرج ، ومن زعم أن أجل ما فيه وأشرفه وأفضله وهو قسم التوحيد المتضمن للأسماء والصفات، مجازات واستعارات وتشبيهات لا حقائق ؛ ففي صدره منه أعظم حرج فكل هذه الطوائف في

صدورهم منه حرج وريب ، وليس في حقهم هدى ، ولا شفاء ، ولا رحمة ، ولا هو كاف لهم بشهادتهم على أنفسهم ، وشهادة الله وملائكته والشهداء من عباده عليهم . وبالله التوفيق[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

وكذلك الحرج الذي في الصدور منه ، فإنه تارة يكون حرجاً من إنزاله وكونه حقا من عند الله ، وتارة يكون من جهة المتكلم به أو كونه مخلوقاً من بعض مخلوقاته ألهم غيره أن تكلم به ، وتارة يكون من جهة كفايته وعدمها وأنه لا يكفي العباد ، بل هم محتاجون معه إلى المعقولات ، والأقيسة ، أو الآراء ، أو السياسات . وتارة يكون من جهة دلالته ، وما أريد به حقائقه المفهومة من عند الخطاب ، أو أريد به تأويلها ، وإخراجها عن حقائقها إلى تأويلات مستكرهة مشتركة . وتارة يكون من جهة كون تلك الحقائق – وإن كانت مرادة – فهي ثابتة من نفس الأمر أوهم أنها مراده لضرب من المصلحة ، فكل هؤلاء في صدورهم حرج من القرآن وهم يعلمون ذلك من نفوسهم ، ويجدونه في صدورهم ، ولا تجد ظالما فاجراً إلا وفي صدره حرج من الآيات التي تحول بينه وبين إرادته ، فتدبر هذا المعنى ثم ارض لنفسك ما شئت[٢] .

وقال رحمه الله تعالى :

فأمر سبحانه باتباع ما أنزل على رسوله ونهى عن اتباع غيره . فما هو إلا اتباع المنزل ، واتبع أولياء من دونه . فإنه لم يجعل بينهما واسطة فكل من لا يتبع الوحي فإنما يتبع الباطل واتبع أولياء من دون الله ، وهذا بحمد الله ظاهر لا خفاء به[٣] .

---

(١) الصواعق المرسلة (١٥١٨/٤،١٥١٩) .
(٢) الفوائد (٨٢) .
(٣) الرسالة التبوكية (٥٤) .

قال تعالى : ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٣] .

فأمر باتباع الوحي المنزل وحده ونهى عن اتباع ما خالفه ، وأخبر سبحانه أن كتابه بينة وشفاء وهدى ورحمة ونور وفضل وبرهان وحجة وبيان فلو كان للعقل ما يعارضه ويجب تقديمه على القرآن لم يكن فيه شيء من ذلك بل كانت هذه الصفات للعقل دونه وكان عنها بمعزل فكيف يشفي ويهدي ويبين ويفصل ما يعارضه صريح العقل[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

فأمر باتباع المنزل منه خاصة ، وأعلم أن من اتبع غيره فقد اتبع من دونه أولياء[٢] .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾ [الأعراف : ١١] .

فإن نفي كونه من الساجدين أخص من نفي السجود عنه لأن نفي الكون يقتضي نفي الأهلية ، والاستعداد . فهو أبلغ في الذم من أن يقال لم يسجد ثم الذي يدل على بطلان هذا المذهب وجوه .

منها : أنه لو كان مابعد إلا مسكوتاً عن حكمه لم يكن قولنا لا إله إلا الله توحيداً واللازم باطل فالملزوم مثله والمقدمتان ظاهرتان .

ومنها : أن الاستثناء المنقطع لا يتصور الإخراج فيه من الاسم لعدم دخوله فيه . فكذلك المتصل .

ومنها : أنه لو كان الإخراج من الاسم وحده لما صح الاستثناء من مضمون الجملة كقولك زيد أخوك إلا أنه ناء عنك وعمرو صديقك إلا أنه يواد عدوك ونحو هذا .

---

(١) الصواعق المرسلة (٢٢٨/٣، ٢٢٩) .

(٢) إعلام الموقعين (٨٢/١) .

ومنها : أنه لا يوجد في كلام العرب قام القوم إلا زيداً فإنه قام ولو كان الإخراج من الاسم وحده والمستثنى مسكوت عنه لجاز إثبات القيام له كما جاز نفيه عنه ، فإن السكوت عن حكمه لا يفيد نفي القيام عنه ولا إثباته فلا يكون واحد منهما مناقضاً للاستثناء . واحتج الفراء بأن المنقطع مخرج من الحكم لا من الاسم ، وكذلك الباب كله وأجيب عن ذلك بأن المستثنى داخل مع الاسم المحكوم عليه تقديراً إذ يقدر الأول شاملاً بوجه ليصح الاستثناء ولِمَن نصر قول الكسائي أيضاً أن يجيب بهذا الجواب وإذ تبين بطلان المذهبين صح مذهب الجمهور أن الإخراج من الاسم والحكم معاً فالاسم المستثنى مخرج من المستثنى منه وحكمه مخرج من حكمه وإن الممتنع إخراج المستثنى من المستثنى منه مع دخوله تحته في الحكم فإنه لا يعقل الإخراج حينئذ البتة فإنه لو شاركه في حكمه لدخل معه في الحكم ، والاسم جميعاً ، فكان استثناؤه غير معقول . ولا يقال إن معنى الاستثناء أن المتكلم تارك للإخبار عنه بنفي ، أو إثبات مع احتمال كل واحد منهما لأنا نقول هذا باطل من وجوه[1] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ . [الأعراف : ١٢]

وقد قيل : إن طرد إبليس ، ولعنه إنما كان بسبب التأويل ، فإنه عارض النص بالقياس ، وقدمه عليه ، وتأوّل لنفسه أن هذا القياس العقلي مقدم على نص الأمر بالسجود فإنه قال : ﴿ **أنا خير منه** ﴾ [الأعراف : ١٢] . وهذا دليل قد حذفت إحدى مقدمتيه ، وهي أن الفاضل لا يخضع للمفضول وطوى ذكر هذه المقدمة (كأنها مقدمة).لكونها معلومة وقرر المقدمة الأولى بقوله : ﴿ **خلقتني من نار وخلقته من طين** ﴾ [الأعراف : ١٢] فكان نتيجة المقدمتين امتناعه من السجود ، وظن أن هذه الشبهة العقلية تنفعه في تأويله ، فجرى عليه ما جرى وصار إماماً لكل من عارض نصوص الوحي بتأويله الباطل إلى يوم القيامة ولا إله إلا الله كم لهذا الإمام اللعين من أتباع من العالمين . وأنت إذا تأملت عامة

---

(١) بدائع الفوائد (٥٨،٥٧/٣) .

شبه المتأولين التي تأولوا لأجلها النصوص وعطلوها رأيتها من جنس شبهته والقائل : إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل من هاهنا اشتق هذه القاعدة ، وجعلها أصلاً لرد نصوص الوحي التي يزعم أن العقل يخالفها ، كما زعم إمامه أن دليل العقل يخالف نص الأمر بالسجود حين قدمه عليه وعرضت لعدو الله هذه الشبهة من ناحية كبره الذي منعه من الانقياد المحض لنص الوحي وهكذا تجد كل مجادل في نصوص الوحي بالباطل إنما يحمله على ذلك كبر في صدره ما هو ببالغه قال تعالى : (إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير) [غافر : ٥٦][1] .

قال الله تعالى إخباراً عن عدوه إبليس . لما سأله عن امتناعه عن السجود لآدم ، واحتجاجه بأنه خير منه ، وإخراجه من الجنة أنه سأله ، أن ينظره ، فأنظره ، ثم قال عدو الله : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٦،١٧] .

قال جمهور المفسرين والنحاة[2]: حذف « على » فانتصب الفعل والتقدير: لأقعدن لهم على صراطك ، والظاهر : أن الفعل مضمر ، فإن القاعد على الشيء ملازم له ، فكأنه قال لألزمنه ، ولأرصدنه ، ولأعوجنه ، ونحو ذلك .

قال ابن عباس[3] : دينك الواضح ، وقال ابن مسعود : هو كتاب الله . وقال جابر : هو الإسلام . وقال مجاهد : هو الحق .

---

(١) الصواعق المرسلة (٣٧١/١،٣٧٢) .

(٢) راجع الطبري (١٣٣/٨) .
وابن كثير (٢٢٠/٢) .
والقرطبي (٢٦١٠/٣) .
والآلوسي (٩٤/٨) .

(٣) نفس المصادر .

والجميع عبارات عن معنى واحد ، وهو الطريق إلى الله تعالى ،وقد تقدم حديث سبرة بن الفاكه[1] « إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه كلها – الحديث » فما من طريق خير إلا والشيطان قاعد عليه يقطعه على السالك.
وقوله : ﴿ **ثم لآتينهم من بين أيديهم** ﴾ قال ابن عباس[2] ، في رواية عطية عنه : من قِبَلِ الدنيا ، وفي رواية علي عنه : أشككهم في آخرتهم ، وكذلك قال الحسن : من قبل الآخرة ، تكذيباً بالبعث والجنة والنار . وقال مجاهد : من بين أيديهم من حيث يبصرون . ﴿ **ومن خلفهم** ﴾ قال ابن عباس : أرغبهم في دنياهم . وقال الحسن : من قبل دنياهم أزينها لهم وأشهيها لهم . وعن ابن عباس رواية أخرى : من قبل الدنيا . قال أبو صالح : أشككهم في الآخرة وأباعدهم عليها ، وقال مجاهد أيضاً : من حيث لا يبصرون . ﴿ **وعن أيمانهم** ﴾ قال ابن عباس : أشبه عليهم أمر دينهم . وقال أبو صالح : الحق أشككهم فيه . وعن ابن عباس أيضاً : من قبل حسناتهم أيضاً .

قال الحسن : من قبل الحسنات أثبطهم عنها ، وقال أبو صالح أيضاً : من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم : أنفقه عليهم وأرغبهم فيه . وقال الحسن : ﴿ **وعن شمائلهم** ﴾ السيئات يأمرهم بها ويحثهم عليها ويزينها في أعينهم . وصح عن ابن عباس – رضي الله عنه – أنه قال[3] : « ولم يقل من

(١) رواه النسائي (٢٢،٢١/٦) في الجهاد ، باب : ما لمن أسلم وهاجر وجاهد .
وابن حبان (٥٧/٧) . وصححه .
والطبري (١٣٤/٨) .
وحسنه الحافظ كما في الإصابة (١٢٠/٤) .
وصححه الألباني (صحيح الجامع رقم ١٦٤٨) .
سَبْرة بن الفاكه ويقال – ابن الفاكهة ويقال ابن أبي الفاكه – صحابي نزل الكوفة الإصابة (١٢٠/٤) .
وانظر شرح الحديث في تفسير الآلوسي (٩٥،٩٤/٨) .
(٢) الطبري (١٣٨،١٣٧/٨) .
الدر المنثور (٤٢٦/٣) .
(٣) رواه الطبري (١٣٧/٨) .
وانظر الدر المنثور (٤٢٧،٤٢٦/٣) .

فوقهم لأنه علم أن الله فوقهم » .

قال الشعبي : فالله عز وجل أنزل الرحمة عليهم من فوقهم . وقال قتادة : أتاك الشيطان ياابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك ، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله .

قال الواحدي : وقول من قال : الأيمان كناية عن الحسنات ، والشمائل كناية عن السيئات ؛ حسن لأن العرب تقول : اجعلني في يمينك ولا تجعلني في شمالك ، تريد : اجعلني من المتقدمين عندك ولا تجعلني من المؤخرين . وأنشد لابن الدمينة[1] :

أَلُبْنَى أَفِي يُمْنى يَديك جعلتني　　فأفرحَ أم صَيّرتِني في شمالك ؟

وروى أبو عبيد عن الأصمعي : هو عندنا باليمين أي بمنزلة حسنة وبضد ذلك : هو عندنا بالشمال وأنشد :

رأيت بني العلات لما تظافروا
يحوزون سهمي بينهم في الشمائل
أي ينزلوني بالمنزلة السيئة

وحكى الأزهري عن بعضهم في هذه الآية : (لأغوينهم) حتى يكذبوا بما تقدم من أمور الأمم السالفة ، ومن خلفهم بأمر البعث (وعن أيمانهم وعن شمائلهم) أي لأضلنهم فيما يعملون ، لأن الكسب يقال فيه ذلك بما كسبت يداك وإن كانت اليدان لم تجنيا شيئاً لأنهما الأصل في التصرف ، فجعلتا مثلا لجميع ما يعمل بغيرهما . وقال آخرون – منهم أبو إسحاق الزمخشري[2] – واللفظ لأبي إسحاق : ذكر هذه الوجوه للمبالغة في التوكيد ، أي : لآتينهم من جميع الجهات والحقيقة والله أعلم أتصرف لهم في الإضلال من جميع جهاتهم، وقال

---

(١) هو : عبيد الله بن عبد الله ، والدُّمَينة أمُّه وهو من خثعم .
طبقات الشعراء لابن قتيبة (٣٧٥) .
(٢) الكشاف للزمخشري (٢/٥٦) .
وانظر القرطبي (٣/٢٦١٢) .

الزمخشري : ثم لآتينهم من الجهات الأربع التي يأتي منها العدو في الغالب ، وهذا مثل لوسوسته إليهم ، وتسويله ما أمكنه وقدر عليه ، كقوله : (واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) [الإسراء : ٦٤] وهذا يوافق ما حكيناه عن قتادة : أتاك من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك . وهذا القول أعم فائدة ولا يناقض ما قال السلف ، فإن ذلك على جهة التمثيل لا التعيين . قال شقيق : ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربعة مواصد : من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ، فيقول : لا تخف فإن الله غفور رحيم فأقرأ (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) [طه : ٨٢] . وأما من خلفي فيخوفني الضيعة على من أخلفه فاقرأ (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) [هود : ٦] . ومن قِبَل يميني يأتيني من قبل النساء فأقرأ : (والعاقبة للمتقين) [الأعراف : ١٢٧] ومن قِبل شمالي يأتيني من قبل الشهوات فأقرأ : (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) [سبأ : ٥٤] . قلت السبل التي يسلكها الإنسان أربعة لا غير ، فإنه تارة يأخذ على جهة يمينه ، وتارة على شماله ، وتارة أمامه ، وتارة يرجع خلفه ، فأي سبيل من هذه وجد الشيطان عليها رصداً له ، فإن سلكها في طاعة وجده عليها يثبطه عنها ويقطعه ، أو يعوقه ويبطئه ، وإن سلكها لمعصية وجده عليها حاملاً له ، وخادماً ، ومعيناً ، وممنياً ، ولو اتفق له الهبوط إلى أسفل لأتاه من هناك ومما يشهد لصحة أقوال السلف قوله تعالى : (وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم مابين أيديهم وما خلفهم) [فصلت : ٢٥] قال الكلبي : ألزمناهم قرناء من الشياطين . وقال مقاتل : هيأنا لهم قرناء من الشياطين . وقال ابن عباس : ما بين أيديهم من أمر الدنيا وما خلفهم من أمر الآخرة . والمعنى : زينوا لهم الدنيا حتى آثروها ، ودعوهم إلى التكذيب بالآخرة ، والإعراض عنها ، وقال الكلبي : زينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الآخرة : إنه لا جنة ولا نار ، ولا بعث ، وما خلفهم من أمر الدنيا ما هم عليه من الضلالة . وهذا اختيار الفراء ، وقال ابن زيد : زينوا لهم ما مضى من خبث أعمالهم وما يستقبلون منها . والمعنى على هذا: زينوا لهم ما عملوه فلم يتوبوا منه وما يعزمون عليه فلا ينوون تركه فقول عدو الله تعالى : ﴿ **ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم** ﴾ يتناول الدنيا

والآخرة ، وقوله : ﴿ **وعن أيمانهم وعن شمائلهم** ﴾ فإن ملك الحسنات عن اليمين يستحث صاحبه على فعل الخير ، فيأتيه الشيطان من هذه الجهة يثبطه عنه ، وإن ملك السيئات عن الشمال ينهاه عنها فيأتيه الشيطان من تلك الجهة يحرضه عليها[1] .

قوله تعالى حكاية عن إبليس : ﴿ **ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم** ﴾ [الأعراف : ١٧] .

فإن الجمع هنا في مقابلة كثرة إغوائهم ، فكأنه أقسم أن يأتي كل واحد من بين يديه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله ، ولا يحسن هنا عن يمينهم وعن شمالهم بل الجمع ههنا من مقابلة الحملة بالجملة المقتضي توزيع الأفراد[2] .

(١) إغاثة اللهفان (١/١٠٢-١٠٥) .

(٢) بدائع الفوائد (١/١٢٠) .

« التـأويل »

وكذلك خروج آدم من الجنة ، إنما كان بسبب التأويل وإلا فهو « صلى الله عليه وسلم » لم يقصد بالأكل معصية الرب ، والتجرؤ على مخالفة نهيه ، وأن يكون ظالماً مستحقاً للشقاء بخروجه من الجنة ، هذا لم يقصده أبو البشر قطعاً ، ثم اختلف الناس في وجه تأويله . فقالت طائفة : تأول بحمله النهي المطلق على الشجرة المعينة ، وغره عدو الله بأن جنس هذه الشجرة هي شجرة الخلد وأطمعه في أنه إن أكل منها لم يخرج من الجنة وفي هذا الذي قالوه نظرٌ ظاهر فإن الله سبحانه أخبر أن إبليس قال له : ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٠] .

فذكر لهما عدو الله الشجرة التي نهيا عنها إما بعينها ، أو بجنسها ، وصرح لهما بأنها هي المنهي عنها ، ولو كان عند آدم أن المنهي عنه تلك الشجرة المعينة دون سائر النوع لم يكن عاصياً بأكله من غيرها ، ولا أخرجه الله من الجنة ونزع عنه لباسه . وقالت فرقة أخرى : تأول آدم أن النهي نهي تنزيه لا نهي تحريم فأقدم على الأكل لذلك وهذا باطل قطعاً من وجوه كثيرة يكفي منها قوله تعالى : (فتكونا من الظالمين) [البقرة : ٣٥] ، وأيضاً فحيث نهى الله عن فعل الشيء بقربانه لم يكن إلا للتحريم كقوله تعالى : (ولا تقربوهن حتى يطهرن) [البقرة : ٢٢٢] (ولا تقربوا الزنى) [الإسراء : ٣٢] (ولا تقربوا مال اليتيم) [الأنعام : ١٥٢] .

وأيضاً لو كان للتنزيه لما أخرجه الله من الجنة وأخبر أنه عصى ربه . وقالت طائفة : بل كان تأويله أن النهي إنما كان عن قربانهما وأكلهما معاً ، لا عن أكل كل منهما على انفراده ، لأن قوله : (ولا تقربا) [البقرة : ٣٥] نهي لهما على الجميع ولا يلزم من حصول النهي حال الاجتماع حصوله حال الانفراد وهذا

التأويل ذكره ابن الخطيب[1] في تفسيره وهو كما ترى في البطلان والفساد ونحن نقطع أن هذا التأويل لم يخطر بقلب آدم وحواء البتة وهما كانا أعلم بالله من ذلك وأصح أفهاماً ، أفترى فهم أحد عن الله تعالى من قوله : (ولاتقربوا مال اليتيم) [الأنعام : ١٥٢] (ولا تقربوا الزنى) [الإسراء : ٣٢] .

ونظائره أي : إنما نهيتكم عن اجتماعكم على ذلك دون انفراد كل واحد منكم به.فياللعجب من أوراق وقلوب تسود على هذه الهذيانات ، وتجد لها حاملاً وقابلاً يستحسنها ويصغي بقلبه ، وسمعه إليها ، والصواب في ذلك أن يقال : إن آدم صلوات الله وسلامه عليه لما قاسمه عدو الله أنه ناصح وأخرج الكلام على أنواع متعددة من التأكيد :

أحدها : القسم .

الثاني : الإتيان بالجملة اسمية لا فعلية .

الثالث : تصديرها بأداة التأكيد .

الرابع : الإتيان بلام التأكيد في الخبر .

الخامس : الإتيان به اسم فاعل لا فعلاً دالاً على الحدث .

السادس : تقديم المعمول على العامل فيه .

ولم يكن آدم يظن أن أحداً يقسم بالله كاذباً يمين غموس ، يتجرأ فيها هذه الجرأة على الله ، فغره عدو الله بهذا التأكيد ، والمبالغة ، فظن آدم صدقه وأنه إن أكل منها لم يخرج من الجنة ورأى أن الأكل وإن كان فيه مفسدة فمصلحة الخلود أرجح ، ولعله يتأتى له استدراك مفسدة النهي أثناء ذلك إما باعتذار ، وإما بتوبة وإما بغير ذلك كما تجد هذا التأويل قائماً في نفس كل من يؤمن بالله واليوم الآخر إيماناً لا شك فيه إذا أقدم على المعصية . فوازن بين هذا التأويل وبين تأويلات المحرفين ؛ يظهر لك الصواب من الخطأ . والله الموفق للصواب[2] .

(١) انظر التفسير الكبير للرازي (٦،٥/٣) .

(٢) الصواعق المرسلة (٣٧٢/١-٣٧٥) .

قال تعالى : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣] .

فإنه إذا اعترف بنقصه خص نفسه بما حصل لها من عدم العلم والصبر بالنسيان الذي أوجب فوات حظه من الجنة ، ثم قال : **﴿ وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾** فإنه سبحانه إن لم يغفر السيئات الوجودية فيمنع أثرها ، وعقابها ، ويق العبد من ذلك وإلا ضرته آثارها ولابد ، كآثار الطعام المسموم إن لم يتداركه المداوي بشرب الترياق ونحوه ، وإلا ضره ولابد وإن لم يرحمه سبحانه بإيجاد ما يصلح به النفس وتصير عالمة بالحق عاملة به . وإلا خسر والمغفرة تمنع الشر والرحمة توجب الخير ، والرب سبحانه إن لم يغفر للإنسان فيقه السيئات ويرحمه فيؤته الحسنات ، وإلا أهلك ولابد إذ كان ظالماً لنفسه ظلوماً بنفسه ، فإن نفسه ليس عندها خير يحصل لها منها ، وهي متحركة بالذات ، فإن لم تتحرك إلى الخير تحركت إلى الشر ، فضرت صاحبها ، وكونها متحركة بالذات من لوازم كونها نفساً ، لأن ماليس حساساً متحركاً بالإرادة فليس نفساً ، ففي الصحيح[1] عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أصدق الأسماء حارث وهمام » فالحارث الكاسب العامل والهمام الكثير الهم ، والهم مبدأ الإرادة فالنفس لا تكون

---

(١) لم أجد هذا عند أحد من أصحاب الصحيحين بهذا اللفظ . وإنما هذا حديث أوله « تسموا بأسماء الأنبياء وأحب الأسماء إلى الله ... » إلخ .
رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٣٤٥/٤) .
وأبو داود (٢٩٣/١٣) في الأدب ، باب : في تغيير الأسماء .
والنسائي (٢١٨/٦) في الخيل ، باب : ما يستحب من شية الخيل .
دون قوله : « وأصدقها حارث وهمام » .
والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٧/٢) .
وأبو يعلى (١١١/١٣-١١٤) وفيه بحث نفيس في الصحابي راوي الحديث وهل هو صحابي أم لا .
والطبراني في الكبير (٣٨٠/٢٢) .
وفي أسانيدها كلها « عقيل بن شبيب » . وهو مجهول ، كما في التقريب (٢٧٧/٢) .
والحديث : صححه فضيلة الشيخ ناصر الدين الألباني كما في الصحيحة برقمي (١٠٤٠،٩٠٤) .

إلا مريدة عاملة فإن لم توفق للإرادة الصالحة وإلا وقعت في الإرادة الفاسدة والعمل الضار[1].

قال الله سبحانه في آخر قصتك مع الأبوين: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٦].

فأخبر سبحانه أن لباس التقوى وزينتها خير من المال، والرياش، والجمال، الظاهر. فالله سبحانه خلق عباده، وجمل ظواهرهم بأحسن تقويم، وجمل بواطنهم بهدايته إلى الصراط المستقيم[2].

قال الله تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف: ٢٦].

فجمع بين الزينتين: زينة البدن باللباس، وزينة القلب بالتقوى، زينة الظاهر والباطن وكمال الظاهر والباطن[3].

قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٨].

فقوله قل إن الله لا يأمر بالفحشاء دليل على أنها في نفسها فحشاء، وأن الله لا يأمر بما يكون كذلك وأنه يعالى ويتقدس عنه ولو كان كونه فاحشة إنما علم بالنهي خاصة كان بمنزلة أن يقال إن الله لا يأمر بما ينهى عنه، وهذا كلام يصان عن آحاد العقلاء، فكيف بكلام رب العالمين ثم أكد سبحانه هذا الإنكار بقوله: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [الأعراف: ٢٩].

(١) طريق الهجرتين (١٠٠).
(٢) الصواعق المرسلة (١٥٥٢/٤، ١٥٥٣).
(٣) إغاثة اللهفان (٥٨/١).

فأخبر أنه يتعالى عن الأمر بالفحشاء بل أوامره كلها حسنة في العقول مقبولة في الفطر فإنه أمر بالقسط لا بالجور وبإقامة الوجوه له عند مساجده ، لا لغيره ، ويدعونه وحده ، مخلصين له الدين ، لا بالشرك ، فهذا هو الذي يأمر به تعالى لا بالفحشاء[١] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾ [الأعراف : ٢٩ - ٣٠]

وروى ابن عبد البر بإسناده عن موسى بن عبيدة سمعت محمد بن كعب القرظي[٢] في قوله : ﴿ **كما بدأكم تعودون فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة** ﴾ [الأعراف : ٣٠] قال من ابتدأ الله خلقه على الهدى صيره إلى الهدى ، وإن عمل بعمل أهل الضلالة ، ومن ابتدأ خلقه للضلالة صيره إلى الضلالة وإن عمل بعمل أهل الهدى ، ابتدأ خلق إبليس على الضلالة ، وعمل بعمل أهل السعادة مع الملائكة ثم رده الله إلى ما ابتدأ خلقه عليه من الضلالة فقال وكان من الكافرين ، وابتدأ خلق السحرة على الهدى ، وعملوا عمل أهل الضلالة ثم هداهم الله إلى الهدى ، والسعادة ، وتوفاهم عليها مسلمين . فهذا المنقول عن محمد بن كعب يبين أن الذي ابتدأهم عليه هو ما كتب أنهم صائرون إليه ، وأنهم قد يعملون قبل ذلك غيره وأن من ابتدىء على الضلالة أي كتب أن يكون ضالاً ؛ فقد يكون قبل ذلك عاملاً بعمل أهل الهدى ، وحينئذ فمن ولد على الفطرة السليمة المقتضية للهدى ؛ لا يمنع أن يعرض لها ما يغيرها فيصير إلى ما سبق به القدر ، كما في الحديث الصحيح[٣] : « إن أحدكم يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار وإن

(١) مفتاح دار السعادة (٣٣٦،٣٣٧) .
(٢) رواه الطبري (١٥٦/٨) .
وانظر الدر المنثور (٤٣٧/٣) .
(٣) رواه البخاري (٤٨٦/١١) في القدر ، في أوله .
ومسلم (٤٩٧/٥،٤٩٨) في القدر ، باب : كيفية خلق الآدمي .

أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه إلاذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة » وقال سعيد بن جبير في قوله (كما بدأكم تعودون) قال : كما كتب عليكم تكونون . وقال مجاهد : كما بدأكم تعودون شقي وسعيد . وقال أيضا : يبعث المسلم مسلماً والكافر كافراً . وقال أبو العالية : عادوا إلى علمه فيهم فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة . قلت : هذا المعنى صحيح في نفسه دل عليه القرآن والسنة والآثار السلفية وإجماع أهل السنة . وأما كونه هو المراد بالآية ففيه ما فيه والذي يظهر من الآية أن معناها معنى نظرائها وأمثالها من الآيات التي يحتج الله سبحانه فيها على النشأة الثانية بالأولى ، وعلى المعاد بالمبدأ ، فجاء باحتجاج في غاية الاختصار والبيان ، كما بدأكم تعودون . كقوله : (ياأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب) [الحج : ٥] وقوله : (وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه) [يس : ٧٨] وقوله : (أيحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى) إلى قوله : (أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) [القيامة : ٣٧-٤٠] وقوله : (فلينظر الإنسان مما خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر) [الطارق : ٥-٧] أي على رجع الإنسان حياً بعد موته هذا هو الصواب في معنى الآية يبقى أن يقال فكيف يرتبط هذا بقوله (فريقا هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة) الآية . فيقال هذا الذى أوجب لأصحاب ذلك القول ما تأولوا به الآية ، ومن تأمل الآية علم أن القول أولى بها ، ووجه الارتباط أن الآية تضمنت قواعد الدين علماً ، وعملاً ، واعتقاداً ، فأمر سبحانه فيها بالقسط الذي هو حقيقة شرعه ودينه ، وهو يتضمن التوحيد فإنه أعدل العدل ، والعدل في معاملة الخلق والعدل في العبادة وهو الاقتصاد في السنة . ويتضمن الأمر بالإقبال على الله ، وإقامة عبوديته في ثبوته ، ويتضمن الإخلاص له ، وهو عبوديته وحده لا شريك له فهذا ما فيها من العمل ثم أخبر بمبدأهم ومعادهم فتضمن ذلك حدوث الخلق وإعادته فذلك الإيمان بالمبدأ والمعاد ، ثم أخبر عن القدر الذي هو نظام التوحيد ، فقال فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة فتضمنت الآية الإيمان بالقدر ، والشرع ، والمبدأ ، والمعاد ، والأمر بالعدل ،

والإخلاص ، ثم ختم الآية بذكر حال من لم يصدق هذا الخبر و لم يطع هذا الأمر بأنه فد والى الشيطان دون ربه وأنه على ضلال وهو يحسب أنه على هدى. والله أعلم[١] .

وقال رحمه الله تعالى

فما الفرق بين قوله : (فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت **عليه** الضلالة) [النحل:٣٦] وبين قوله: (فريقًا هدى وفريقًا حق عليهم الضلالة) [الأعراف:٣٠] قيل **الفرق من وجهين:لفظي ، ومعنوي ، أما اللفظي فهو أن الحروف الحواجز بين** الفعل والفاعل في قوله : (حق عليهم الضلالة) أكثر منها في قوله: (حقت **عليه**) وقد تقدم أن الحذف مع كثرة الحواجز أحسن.**وأما المعنوي** فإن (من) في قوله : (ومنهم من حقت **عليه** الضلالة) واقعة على الأمة ، والجماعة ، وهي مؤنثة لفظاً ألا تراه يقول: (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا) [النحل:٣٦] ثم قال: (ومنهم من حقت **عليه** الضلالة) أي من تلك الأمم أمم حقت عليهم الضلالة، **ولو قال بدل ذلك ضلت لتعينت التاء ، ومعنى الكلامين واحد ، وإذا كان معنى الكلامين واحدا ، كان إثبات التاء أحسن من تركها ، لأنها ثابتة فيما هو في معنى** الكلام الآخر،وأما (فريقًا هدى وفريقًا حق عليهم الضلالة) فالفريق مذكر ولو قال فريقاً ضلوا لكان بغير تاء وقولهم : ﴿ فحق عليهم الضلال ﴾ في معناه ، **فجاء بغير تاء ، وهذا أسلوب لطيف من أساليب العربية تدع العرب حكم اللفظ الواجب له في قياس لغتها إذا كان في معنى كلمة لا يجب لها ذلك الحكم تراهم يقولون هو أحسن الفتيان وأجمله ، لأنه في معنى هو أحسن فتى وأجمله . ونظيره تصحيحهم حول وعور لأنه في معنى أحول وأعور ونظائره كثيرة جداً ، فإذا حسن الحمل على المعنى ؛ فيما كان القياس لا يجوزه ، فما ظنك به حيث يجوزه القياس والاستعمال**[٢] .

---

(١) شفاء العليل (٢٩٢،٢٩٣) .

(٢) بدائع الفوائد (١٢٦/١،١٢٧) .

قول الله تعالى: ﴿ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [الأعراف : ٣١] .

جمعت أصول أحكام الشريعة كلها ، فجمعت الأمر والنهي والإباحة والخبر[١] .

قول الله تعالى ذكره: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] .

وهذا دليل على أنها فواحش في نفسها ، لا تستحسنها العقول . فتعلق التحريم بها لفحشها . فإن ترتيب الحكم على الوصف المناسب المشتق ، يدل على أنه هو العلة المقتضية له ، وهذا دليل في جميع هذه الآيات التي ذكرناها . تدل على أنه حرمها لكونها فواحش ، وحرم الخبيث لكونه خبيثا ، وأمر بالمعروف لكونه معروفاً ، والعلة يجب أن تغاير المعلول . فلو كان كونه فاحشة هو معنى كونه منهياً عنه ، وكونه خبيثاً هو معنى كونه محرماً : كانت العلة عين المعلول ، وهذا محال فتأمله . وكذا : تحريم الإثم والبغي دليل على أن هذا وصف ثابت له قبل التحريم[٢] .

وقال رحمه الله تعالى :

ودخل في قوله تعالى تحريم كل فاحشة ظاهرة وباطنة ، وكل ظلم وعدوان في مال أو نفس أو عرض ، وكل شرك بالله ، وإن دق في قول أو عمل أو إرادة ، بأن يجعل لله عدلاً بغيره في اللفظ ، أو القصد ، أو الاعتقاد . وكل قول على الله لم يأت به نص عنه ، ولا عن رسوله في تحريم أو تحليل أو إيجاب أو إسقاط أو خبر عنه باسم أو صفة نفياً أو إثباتاً أو خبراً عن فعله فالقول عليه بلا علم حرام في أفعاله وصفاته ودينه[٣] .

(١) بدائع الفوائد (٤/٧) .
(٢) راجع : مفتاح دار السعادة (٣٣٣) .
(٣) إعلام الموقعين (١/٤١٣) .

وقال رحمه الله تعالى :

فهذه الأنواع الأربعة التي حرمها تحريماً مطلقاً ؛ لم يبح منها شيئاً لأحد من الخلق ولا في حال من الأحوال الأربعة التي حرمها تحريماً مطلقاً مالم يبح منها شيئاً لأحد من الخلق ولا في حال من الأحوال بخلاف الميتة والدم ولحم الخنزير فإنها تحرم في حال وتباح في حال ، وأما هذه الأربعة فهي محرمة . فالفواحش متعلقة بالشهوة ، وتعديل قوة الشهوة باجتنابها ، والبغي بغير الحق متعلق بالغضب ، وتعديل القوة الغضبية باجتنابه ، والشرك بالله ظلم عظيم بل هو الظلم على الإطلاق وهو مناف العدل والعلم . وقوله : ﴿ **وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا** ﴾ متضمن تحريم أصل الظلم في حق الله وذلك يستلزم إيجاب العدل في حقه وهو عبادته وحده لا شريك له[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

قول الله تعالى : (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) [الأعراف : ٣٣] .

فذكر سبحانه المحرمات الأربع مبتدئاً بالأسهل منها ثم ما هو أصعب منه ، ثم كذلك حتى ختمها بأعظمها وأشدها ، وهو القول عليه بلا علم ، فكيف بالكذب عليه قالوا : ولأن الكذب عليه بأنه قال كذا ، ولم يقله نسبه للقول المكذوب إليه بأنه قاله فالكاذب يعلم أن ما اختلقه كذب ، فإذا نسبه إلى رسول الله فقد نسب إليه الكذب ، وهذا المذهب كما ترى قوة وظهوراً[٢] .

وقال رحمه الله تعالى :

فاشتمل هذا السماع على هذه الأمور الأربعة ؛ التي هي قواعد المحرمات فإن فيه من الفواحش الظاهرة ، والباطنة ، والإعانة على أسبابها ، والإثم والبغي بغير الحق ، والشرك بالله ، مالم ينزل به سلطاناً والقول على الله بغير علم ، ما

(١) مفتاح دار السعادة (٤٥٨) .

(٢) الكلام على مسألة السماع (٣٢٤،٣٢٥) .

الله به عليم فإنه تعدد وتنوع طرقه ، وتفرق أهله فيه وصاروا شيعاً لكل قوم ذوق ومشرب وطريق يفارقون به غيرهم ، حتى في الأشعار والألحان والحركات والأذواق وصار من فيه من العلم والإيمان ما ينهاه عما فيه من أنواع الكفر والفسوق والعصيان يريد أن يجد له حداً يفصل فيه بين ما يسوغ منه وما لا يسوغ ، فلا يكاد ينضبط حتى أن منهم من شرط شروطاً تتعذر ويندر وجودها[1] .

قال الله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ ﴾ [الأعراف : ٣٧] .

قال سعيد بن جبير ومجاهد وعطية : أي : ما سبق لهم في الكتاب من الشقاوة والسعادة . ثم قرأ عطية : ﴿ **فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة** ﴾ والمعنى أن هؤلاء أدركهم ماكتب لهم من الشقاوة . وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء قال : يريد ما سبق في علمي في اللوح المحفوظ فالكتاب على هذا القول الكتاب الأول ، ونصيبهم ما كتب لهم من الشقاوة وأسبابها . وقال ابن زيد والقرظي[2] والربيع بن أنس : ينالهم ما كتب لهم من الأرزاق والأعمال ، فإذا فَنِيَ نصيبهم واستكملوه ، جاءتهم رسلنا ، يتوفونهم . ورجح بعضهم هذا القول لمكان « حتى » التي هي للغاية ، يعني : أنهم يستوفون أرزاقهم ، وأعمارهم إلى الموت ، ولمن نصر القول الأول أن يقول : « حتى » في هذا الموضع هي التي تدخل على الجمل ، ويتصرف الكلام فيها إلى الأبتداء كما في قوله :

فياعجبا حتى كليب تسبني

والصحيح أن نصيبهم من الكتاب يتناول الأمرين ، فهو نصيبهم من الشقاوة ، ونصيبهم من الأعمال التي هي أسبابها ، ونصيبهم من الأعمار التي هي

(١) الكلام على مسألة السماع (٣٣٧) .
(٢) في الأصل القرطبي والصواب المثبت .
وانظر تفسير الطبري (١٧١/٨) .
والدر المنثور (٤٥٠/٣) .

مدة اكتسابها ، ونصيبهم من الأرزاق التي استعانوا بها على ذلك ؛ فعمت الآية هذا النصيب كله ، وذكر هؤلاء بعضه ، وهؤلاء بعضه ، هذا على القول الصحيح . وأن المراد ما سبق لهم في أم الكتاب ، وقالت طائفة : المراد بالكتاب القرآن . قال الزجاج : معنى نصيبهم من الكتاب : ما أخبر الله من جزائهم ، نحو قوله : (فأنذرتكم ناراً تلظى) [الليل : ١٤] وقوله : (يسلكه عذاباً صعداً) [الجن : ١٧] قال أرباب هذا القول : وهذا هو الظاهر ؛ لأنه ذكر عذابهم في القرآن في مواضع ؛ ثم أخبر أنه ينالهم نصيبهم منه ، والصحيح القول الأول ، وهو نصيبهم الذي كتب لهم أن ينالوه قبل أن يخلقوا . ولهذا القول وجه حسن ، وهو أن نصيب المؤمنين من الرحمة والسعادة ونصيب هؤلاء من العذاب والشقاء . فنصيب كل فريق منه ما اختاروه لأنفسهم وآثروه على غيره كما أن حظ المؤمنين منه كان الهدى والرحمة ، فحظ هؤلاء منه الضلال والخيبة ، فكان حظهم من هذه النعمة أن صارت نقمة وحسرة عليهم[1] .

قال تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ۝ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ۝ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٧-٣٩] .

فليتدبر العاقل هذه الآيات ، وما اشتملت عليه من العبر .

وقوله تعالى : ﴿ **افترى على الله كذباً أو كذب بآياته** ﴾ [الأعراف : ٣٧] . ذكر الصنفين المبطلين :

أحدهما : منشىء الباطل والفرية وواضعها وداعي الناس إليها .

---

(١) شفاء العليل (٤٢) .

والثاني : مكذب بالحق .

فالأول : كفره بالافتراء وإنشاء الباطل .

والثاني :كفره بجحود الحق .

ولهذا قال تعالى : (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون) [النحل : ٨٨] . فلما كفروا وصدوا عباده عن سبيله عذبهم عذابين : عذاباً بكفرهم وعذابا بصدهم عن سبيله .

وحيث يذكر الكفر المجرد لا يعدد العذاب .

كقوله تعالى : ﴿ **وللكافرين عذاب أليم** ﴾ [البقرة : ١٠٤] .

وقوله تعالى : ﴿ **أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب** ﴾ [الاعراف : ٣٧] . يعني ينالهم ما كتب لهم في الدنيا من الحياة والرزق وغير ذلك . ﴿ **حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا** ﴾ [الأعراف : ٣٧] . زالوا وفارقوا وبطلت تلك الدعوة . ﴿ **وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار** ﴾ [الأعراف : ٣٧-٣٨] . ادخلوا في جملة هذه الأمم .

﴿ **كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم** ﴾ [الأعراف : ٣٨] . كل أمة متأخرة لأسلافها ﴿ **ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار** ﴾ [الأعراف : ٣٨] . ضاعفه عليهم بما أضلونا وصدونا عن طاعة رسلك ، قال الله تعالى . ﴿ **لكل ضعف** ﴾ [الأعراف : ٣٨] . من الأتباع والمتبوعين بحسب ضلاله وكفره ﴿ **ولكن لا تعلمون** ﴾ [الأعراف : ٣٨] . لا تعلم كل طائفة بما فيها أختها من العذاب المضاعف . ﴿ **وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل** ﴾ [الأعراف : ٣٩] . فإنكم جئتم بعدنا فأرسلت فيكم الرسل وبينوا لكم الحق وحذروكم من ضلالنا ونهوكم عن اتباعنا وتقليدنا ، فأبيتم إلا اتباعنا وتقليدنا ، وترك الحق الذي أتتكم به الرسل . فأي فضل كان لكم علينا ، وقد ضللتم كما ضللنا ، وتركتم الحق كما تركنا ، فضللتم

أنتم بنا كما ضللنا نحن بقوم آخرين فأي فضل كان لكم علينا ؟ .

﴿ **فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون** ﴾ [الأعراف : ٣٩] . فـلله ما أشفاها من موعظة وما أبلغها من نصيحة ، لو صادفت من القلوب حياة . فإن هذه الآية وأمثالها ، مما يذكر قلوب السائرين إلى الله ، وأما أهل البطالة فليس عندهم من ذلك خبر[١] .

قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف : ٤٠] .

فلما لم تفتح أبواب السماء لأعمالهم بل أغلقت عنها ؛ لم تفتح لأرواحهم عند المفارقة ؛ بل أغلقت عنها . وأهل الإيمان والعمل الصالح لما كانت أبواب السماء مفتوحة لأعمالهم حتى وصلت إلى الله سبحانه فتحت لأرواحهم حتى وصلت إليه ، وقامت بين يديه فرحمها وأمر بكتابة اسمها في عليين[٢] .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الأعراف : ٤٢] .

فاعترض بين المبتدأ والخبر بقوله : ﴿ **لا نكلف نفساً إلا وسعها** ﴾ لما تضمنه ذلك من الاحتراز الدافع لتوهم متوهم : أن الوعد إنما يستحقه من أتى بجميع الصالحات فرفع ذلك بقوله : ﴿ **لا نكلف نفساً إلا وسعها** ﴾ وهذا أحسن من قول من قال : إنه خبر عن الذين آمنوا ، ثم أخبر عنهم بخبر آخر فهما خبران عن مخبر واحد فإن عدم التكليف فوق الوسع لا يخص الذين آمنوا ؛ بل هو حكم شامل لجميع الخلق مع ما فى هذا التقدير من إخلاء الخبر عن الرابط وتقدير صفة محذوفة أي نفساً منها وتعطيل هذه الفائدة الجليلة[٣] .

---

(١) الرسالة التبوكية (٥٦ - ٥٨) .

(٢) طريق الهجرتين (٢٥٥) .

(٣) التبيان في أقسام القرآن (٢٢١،٢٢٢) .

وقال رحمه الله تعالى :

فرفع توهم السامع أن المكلفين علموا جميع الصالحات المقدورة والمعجوزة عنها ، كما يجوزه أصحاب تكليف مالا يطاق ، رفع هذا التوهم بجملة اعترض بها بين المبتدأ وخبره ، يزيل الإشكال ونظيره قوله تعالى[1] .

وأما قول أهل الجنة : ﴿ **الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله** ﴾ [الأعراف : ٤٣] . فيحتمل أن يكونوا أرادوا الهداية إلى طريق الجنة وأن يكونوا أرادوا الهداية في الدنيا التي أوصلتهم إلى دار النعيم ، ولو قيل إن كلا الأمرين مراد لهم وأنهم حمدوا الله على هدايته لهم في الدنيا وهدايتهم إلى طريق الجنة كان أحسن وأبلغ[2] .

---

(١) الصواعق المرسلة (١/٣٩٠) .
(٢) مفتاح دار السعادة (٩٢،٩٣) .

« أصحاب الأعراف »

الطبقة الثانية عشر : قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم . فتقابل أثراهما فتقاوما فمنعتهم حسناتهم المساوية من دخول النار وسيئاتهم المساوية من دخول الجنة ، فهؤلاء هم أهل الأعراف ، لم يفضل لأحدهم حسنة يستحق بها الرحمة من ربه ، ولم يفضل عليه سيئة يستحق بها العذاب .

وقد وصف الله سبحانه وتعالى أهل هذه الطبقة[(١)] في سورة الأعراف – بعد أن ذكر دخول أهل النار وتلاعنهم فيها ، ومخاطبة أتباعهم لرؤسائهم ، وردهم عليهم ، ثم مناداة أهل الجنة أهل النار فقال تعالى : ﴿ **وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون * وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين** ﴾ [الأعراف : ٤٦، ٤٧] فقوله تعالى : ﴿ **وبينهما حجاب** ﴾ أي : بين أهل الجنة والنار حجاب ، قيل هو السور الذي يضرب بينهم له باب باطنه فيه الرحمة ، وظاهرة من قبله العذاب باطنة الذي يلي المؤمنين فيه الرحمة ، وظاهره الذي يلي الكفار من جهتهم العذاب . والأعراف جمع عرف وهو المكان المرتفع ، وهو سور عال بين الجنة والنار ، عليه أهل الأعراف . قال حذيفة وعبد الله بن عباس[(٢)]: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار ؛ فوقفوا هناك حتى يقضي الله فيهم ما يشاء ، ثم يدخلهم الجنة بفضل رحمته . قال عبد الله بن المبارك[(٣)]:

---

(١) أي من طبقات المكلفين ؛ وهو ما ذكره في طريق الهجرتين .

(٢) انظر تفسير الطبري (١٨٨/٨) وما بعدها .

(٣) هذا الأثر فيه نقص عما في الزهد لابن المبارك وتفسير الطبري ، ولذا أضفنا ما بين القوسين من الكتابين المذكورين ليتم الأثر والمعنى معاً .
انظر الزهد لابن المبارك (زيادة نعيم بن حماد) ص (١٢٣) برقم (٤١١) .
وتفسير الطبري (١٩٠/٨) .

أخبرنا أبو بكر الهذلي قال : كان سعيد بن جبير يحدث عن ابن مسعود قال : يحاسب الله الناس يوم القيامة ، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار ، ثم قرأ : (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم) ثم قال : إن الميزان يخف بمثقال حبة أو يرجح ، قال : ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف ، فوقفوا على الصراط ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار ، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا : ﴿ سلام عليكم ﴾ وإذا صرفوا أبصارهم إلى أصحاب النار ، قالوا : ﴿ ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴾ [الأعراف : ٤٧] .

قال: فأما أصحاب الحسنات فإنهم يعطون نوراً يمشون به بين أيديهم ، وبأيمانهم ، ويعطى كل عبد يومئذ نوراً ، فإذا أتوا على الصراط **سلب الله تعالى نور كل منافق ومنافقة ، فلما رأى أهل الجنة ماذا لقى المنافقون** قالوا : (أتمم لنا نورنا) [التحريم : ٨] .

وأما أصحاب الأعراف فإن النور كان في أيديهم ومنعتهم سيئاتهم أن يمضوا بها ، فبقي في قلوبهم الطمع ، إذا لم ينزع النور من أيديهم ، فيقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **لم يدخلوها وهم يطمعون** ﴾ [الأعراف : ٤٦] . فكان الطمع للنور الذي في أيديهم ، ثم أدخلوا الجنة وكانوا آخر أهل الجنة دخولاً – يريد آخر أهل الجنة دخولاً ممن لم يدخل النار – وقيل : هم قوم خرجوا في الغزو بغير إذن آبائهم وهذا من جنس القول الأول .

وقيل : هم في قوم رضي عنهم أحد الأبوين دون الآخر يحبسون على الأعراف حتى يقضي الله بين الناس ، ثم يدخلهم الجنة ، وهي من جنس ما قبله فلا تناقض بينهما

وقيل : هم أصحاب الفترة ، وأطفال المشركين .

وقيل هم أولوا الفضل من المؤمنين علواً على الأعراف فيطلعون على أهل النار وأهل الجنة جميعاً .

وقيل هم الملائكة لا من بني آدم .

والثابت عن الصحابة هو القول الأول وقد رويت فيه آثار[١] كثيرة مرفوعة لا تكاد تثبت أسانيدها ، وآثار الصحابة في ذلك المعتمدة وقد اختلف في تفسير الصحابي[٢] **هل له حكم المرفوع ، أو الموقوف على قولين :**

الأول : اختيار أبي عبد الله الحاكم .

والثاني : هو الصواب، ولا نقول على الرسول صلى الله عليه وسلم ما لم **نعلم أنه قاله . وقوله تعالى : ﴿ وعلى الأعراف رجال ﴾ صريح في أنهم من بني** آدم ليسوا من الملائكة ، وقوله تعالى : **﴿ يعرفون كلاً بسيماهم ﴾ يعني يعرفون** الفريقين بسيماهم **﴿ ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم ﴾ أي** : نادى أهل الأعراف أهل الجنة بالسلام ، وقوله تعالى : **﴿ لم يدخلوها وهم يطمعون ﴾ الضميران في الجملتين لأصحاب الأعراف ، لم يدخلوا الجنة بعد وهم يطمعون في دخولها ، قال أبو العالية : ما جعل الله ذلك الطمع فيهم إلا كرامة يريدها بهم ، وقال الحسن : الذي جمع الطمع في قلوبهم يوصلهم إلى ما يطمعون ، وفي هذا رد على قول من قال : إنهم أفاضل المؤمنين علواً على الأعراف يطالعون أحوال الفريقين ، فعاد الصواب إلى تفسير الصحابة وهم أعلم الأمة بكتاب الله ومراده**

(١) انظر الدر المنثور للسيوطي (٤٥٩/٣) وما بعدها .

(٢) انظر المستدرك للحاكم ، وقال : « وقد ذكرت في شرائط هذا الكتاب إخراج التفاسير عن الصحابة» (٥٥/١) .

وقال أيضاً : « ... إن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عند الشيخين حديث مسند » (٢٥٨/٢) .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى –: « إن أصح الطرق – في تفسير القرآن – أن يفسر القرآن بالقرآن ، ... ثم بالسنة ، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له ... وإذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى قول الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن والأحوال التي اختصوا بها ... » .

من مقدمة التفسير ، في أول تفسيره (١١٠/١،١١١) .

والموقوف عن الصحابة في حكم المرفوع – والله أعلم – إذا تعلق بالتفسير والعقيدة ؛ لأنهم يعلمون حكم القائل في القرآن برأيه .

وانظر حديث رقم (١٦٢٣) من السلسلة الصحيحة والتعليق عليه .

منه. ثم قال تعالى: ﴿ **وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين** ﴾ هذا دليل على أنه بمكان مرتفع بين الجنة والنار . فإذا أشرفوا على أهل الجنة نادوهم بالسلام ، وطمعوا في الدخول إليها ، وإذا أشرفوا على أهل النار سألوا الله أن لا يجعلهم معهم ، ثم قال تعالى : ﴿ **ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم** ﴾ [الأعراف : ٤٨] يعني من الكفار الذين في النار، فقالوا لهم: ﴿ **ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون** ﴾ [الأعراف : ٤٨] يعني ما نفعكم جمعكم وعشيرتكم وتجرؤكم على الحق ، ولا استكباركم . وهذا إما نفي ، وإما استفهام وتوبيخ ، وهو أبلغ وأفخم .

ثم نظروا إلى الجنة فرأوا من الضعفاء الذين كان الكفار يستزلونهم في الدنيا ، ويزعمون أن الله لا يختصهم دونهم بفضله ، كما لم يختصهم دونهم في الدنيا ، فيقول لهم أهل الأعراف : ﴿ **أهؤلاء الذين أقسمتم** ﴾ [الأعراف : ٤٩] أيها المشركون أن الله تعالى لا ينالهم برحمة ، فهاهم في الجنة يتمتعون ويتنعمون وفي رياضها يحبرون ثم يقال لأهل الأعراف : ﴿ **ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون** ﴾ [الأعراف : ٤٩] وقيل إن أصحاب الأعراف إذا عيروا الكفار ، وأخبروهم أنهم لم يغن عنهم جمعهم واستكبارهم ، عيرهم الكفار بتخلفهم عن الجنة ، وأنهم يصيرون إلى النار فتقول لهم الملائكة حينئذ ﴿ **أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون** ﴾ والقولان قويان محتملان . والله أعلم[١] .

قول الله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف : ٥٣] . فمجيء تأويله مجيء نفس ما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر والمعاد وتفاصيله والجنة والنار ويسمى تعبير الرؤيا تأويلا بالاعتبارين ، فإنه تفسير لها وهو عاقبتها وما تؤول إليه[٢] .

---

(١) طريق الهجرتين (٣٥٥، ٣٥٧) .

(٢) الصواعق المرسلة (١/١٧٦) .

وقال رحمه الله تعالى :

فتأويل ماأخبرت به الرسل هو مجيء حقيقته ورؤيتها عياناً ومنه تأويل الرؤيا وهو حقيقتها الخارجية التي ضربت للرائي في عالم المثال[٣] .

قال تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] . فخلقه وأمره صدرا عن حكمته وعلمه،وحكمته وعلمه اقتضيا ظهور خلقه وأمره . فمصدر الخلق والأمر عن هذين المتضمنين لهاتين الصفتين . ولهذا يقرن سبحانه بينهما عند ذكر إنزال كتابه ، وعند ذكر ملكه ، وربوبيته إذ هما مصدر الخلق والأمر ولما كان سبحانه كاملاً في جميع أوصافه ، ومن أجلها كلمته كانت عامة التعلق بكل مقدور ، كما أن علمه عام التعلق بكل معلوم ومشيئته عامة التعلق بكل موجود ، وسمعه وبصره عام التعلق لكل مسموع ومرئي ، فهذا من لوازم صفاته فلابد أن تكون حكمته عامة التعلق بكل ما خلقه وقدره وأمر به ونهى عنه ، وهذا أمر ذاتي للصفة يمتنع تخلفه وانفكاكه عنها كما يمتنع تخلف الصفة نفسها وانفكاكها عنه ، وهذا وحده برهان كاف شاف في إبطال تلك الأسولة كلها وأنه يكفي في إبطالها إثبات عموم تعلق صفاته وذلك يستلزم إثبات الصفات وهي تستلزم إثبات الذات فإثبات ذات الرب تعالى كاف في بطلان الأسولة الإبليسية[١] .

---

(٣) جلاء الأفهام (١١٥) .

(١) الصواعق المرسلة (١٥٦٤/٤ ، ١٥٦٥) .

(الدعاء آدابه وأحكامه)

قوله تعالى ذكره : ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۞ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٥،٥٦] .

هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء : دعاء العبادة ، ودعاء المسألة فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة ، وهذا تارة . ويراد به مجموعهما وهما متلازمان .

فإن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي ، وطلب كشف ما يضره ، أو دفعه . ومن يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود حقاً . والمعبود لابد أن يكون مالكا للنفع والضر .. ولهذا أنكر الله تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضراً ولا نفعاً ، وذلك كثير في القرآن كقوله تعالى : (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم) [يونس : ١٨] وقوله تعالى : (ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك) [يونس : ١٠٦] وقوله تعالى : (قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم) [المائدة : ٧٦] وقوله تعالى : (قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم أُفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله) [الأنبياء : ٦٦،٦٧] وقوله تعالى : (واتل عليهم نبأ إبراهيم * إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين * قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون) [الشعراء : ٦٩-٧٣] وقوله تعالى : (واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً) [الفرقان : ٣] وقال تعالى : (ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً) [الفرقان : ٥٥] .

فنفى سبحانه عن هؤلاء المعبودين من دونه النفع والضر، القاصر والمتعدي فلا يملكون لأنفسهم ولا لعابديهم . وهذا في القرآن كثير بَيِّنٌ : أن المعبود لابد

أن يكون مالكا للنفع والضر ، فهو يُدْعَى للنفع ودفع الضر . ودعاء المسألة ، وَيُدْعى خوفاً ورجاء ، ودعاء العبادة . فعلم أن النوعين متلازمان : فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة ، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة .

وعلى هذا قوله تعالى : (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) [البقرة : ١٨٦] يتناول نوعي الدعاء . وبكل منهما فسرت الآية .

قيل : أعطيه إذا سألني . وقيل : أثيبه إذا عبدني . والقولان متلازمان . وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معنييه كليهما ، أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه ، بل هذا استعمال له في حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعاً .

فتأمله فإنه موضع عظيم النفع ، قل من يفطن له .

وأكثر ألفاظ القرآن الدالة على معنيين فصاعداً هي من هذا القبيل .

ومثال ذلك قوله : (أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل) [الإسراء : ٨٧] فسر (الدلوك) بالزوال ، وفسر بالغروب . وحكيا قولين في كتب التفسير . وليسا بقولين ، بل اللفظ يتناولهما معاً . فإن الدلوك هو الميل . ودلوك الشمس ميلها ولهذا الميل مبدأ ومنتهى . فمبدؤه الزوال ، ومنتهاه الغروب . فاللفظ متناول لهما بهذا الاعتبار لا بتناول المشترك لمعنييه . ولا اللفظ لحقيقته ومجازه .

ومثاله أيضاً : تفسير (الغاسق) بالليل والقمر ، وأن ذلك ليس باختلاف ، بل يتناولهما لتلازمهما . فإن القمر آية الليل . ونظائره كثيرة .

ومن ذلك قوله عز وجل: (قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم) [الفرقان : ٧٧].

قيل : لولا دعاؤكم إياه . وقيل : دعاؤه إياكم إلى عبادته فيكون المصدر مضافاً إلى المفعول . وعلى الأول مضافاً إلى الفاعل . وهو الأرجح من القولين . وعلى هذا : فالمراد به نوعا الدعاء والعبادة أظهر ، أي ما يعبأ بكم ربي لولا أنكم تعبدونه عبادة تستلزم مسألته . فالنوعان داخلان فيه.

ومن ذلك قوله تعالى : (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم) [غافر : ٦٠] فالدعاء يتضمن النوعين ، وهو في دعاء العبادة أظهر . ولهذا عقبه بقوله : (إن

الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) فسر الدعاء في الآية بهذا وهذا وقد روى سفيان عن منصور عن زرٍ عن نُسيع الكندي عن النعمان بن بشير قال سمعت[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر : « إن الدعاء هو العبادة » ثم قرأ : (ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) » رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

وأما قوله تعالى : (ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له) [الحج : ٧٣] وقوله : (إن يدعون من دونه إلا إناثاً) [النساء : ١١٧] وقوله : (وضل عنهم ماكانوا يدعون من قبل) [فصلت : ٤٨] وكل موضع ذكر فيه دعاء المشركين لأصنامهم وآلهتهم فالمراد به دعاء العبادة المتضمن دعاء المسألة . فهو في دعاء العبادة أظهر لوجوه ثلاثة :

أحدها : أنهم قالوا : (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) [الزمر : ٣] فاعترفوا بأن دعاءهم إياهم هو عبادتهم لهم .

والثاني : أن الله تعالى فسر هذا الدعاء في موضع آخر بأنه العبادة . كقوله : (وقيل لهم أينما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون) [الشعراء : ٩٢،٩٣] وقوله : (إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَب جهنم) [الأنبياء : ٩٨] وقوله : (قل ياأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) وهو كثير في القرآن . فدعاؤهم لآلهتهم هو عبادتهم لها .

الثالث : أنهم إنما كانوا يعبدونها يتقربون بها إلى الله . فإذا جاءتهم الحاجات والكربات والشدائد دعوا الله وحده وتركوها . ومع هذا فكانوا يسألونها بعض حوائجهم ويطلبون منها ، وكان دعاؤهم لها دعاء عبادة ودعاء مسألة .

---

(١) رواه أبو داود (٣٥٢/٤) في الصلاة ، باب : الدعاء .
والترمذي في مواضع منها : (١٩٤/٥) في تفسير القرآن ، باب : « ومن سورة البقرة » ، وقال : حسن صحيح .
وابن ماجه : (٣٢٤/٢) في الدعاء ، باب : فضل الدعاء .
(صحيح : ابن ماجه للألباني) .

وقوله تعالى : (فادعوا الله مخلصين له الدين) [غافر : ١٤] هو دعاء العبادة . والمعنى : اعبدوه وحده ، وأخلصوا عبادته ، لا تعبدوا معه غيره .

وأما قول إبراهيم الخليل عليه السلام : (إن ربي لسميع الدعاء) [إبراهيم : ٣٩] فالمراد بالسمع هنا : السمع الخاص ، وهو سمع الإجابة والقبول ، لا السمع العام . لأنه سميع لكل مسموع .

وإذا كان كذلك فالدعاء هنا يتناول دعاء الثناء ودعاء الطلب . وسمع الرب تبارك وتعالى له إثابته على الثناء ، وإجابته للطلب . فهو سميع لهذا ولهذا .

وأما قول زكريا عليه السلام : (ولم أكن بدعائك رب شقيا) [مريم : ٤]. فقد قيل : إنه دعاء المسألة ، والمعنى : إنك عودتني إجابتك وإسعافك ، ولم تشقني بالرد والحرمان ، فهو توسل إليه تعالى بما سلف من إجابته وإحسانه ، كما حكي أن رجلا سأل رجلا وقال : أنا الذي أحسنت إليّ وقت كذا وكذا . فقال مرحبا بمن توسل إلينا بنا ، وقضى حاجته . وهذا ظاهر هنا .

ويدل عليه أنه قدم ذلك أمام طلبه الولد ، وجعله وسيلة إلى ربه ، فطلب منه أن يجاريه على عادته التي عوده : من قضاء حوائجه وإجابته إلى ما سأله .

وأما قوله تعالى : (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) [الإسراء : ١١٠] فهذا الدعاء المشهور ، وأنه دعاء المسألة ، وهو سبب النزول. قالوا[1]: كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ربه، فيقول مرة: «يا الله» ومرة: «يارحمن» فظن الجاهلون من المشركين أنه يدعو إلهين، فأنزل الله تعالى هذه الآية . قال ابن عباس : سمع المشركون النبي صلى الله عليه وسلم يدعو في سجوده : يارحمن يارحيم فقالوا : هذا يزعم أنه يدعو واحداً ، وهو يدعو مثنى مثنى ؛ فأنزل الله هذه الآية (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) .

---

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه وغيرهم كما في الدر المنثور (٣٤٧/٥) .
تفسير الطبري (١٨٢/١٥) .
وابن كثير (٧٣/٣) .

وقيل : إن الدعاء هاهنا بمعنى التسمية ، كقولهم : دعوت ولدي سعيدا . وأدعه بعبد الله ونحوه . والمعنى : سموا ربكم الله أو سموه الرحمن : فالدعاء هاهنا بمعنى التسمية. وهذا قول الزمخشري[1]. والذي حمله على هذا قوله: (أيّاً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) فإن المراد بتعدده : معنى « أي » وعمومها هنا تعدد الأسماء ليس إلا . والمعنى : أي اسم سميتموه به من أسماء الله تعالى . إما الله وإما الرحمن فله الأسماء الحسنى ، أي فللمسمى سبحانه الأسماء الحسنى . والضمير في « له » يعود إلى المسمى . فهذا الذي أوجب له أن يحمل الدعاء في هذه الآية على التسمية .

وهذا الذي قاله هو من لوازم المعنى المراد بالدعاء في الآية ، وليس هو عين المراد بل المراد بالدعاء معناه المعهود المطرد في القرآن ، وهو دعاء السؤال ، ودعاء الثناء ولكنه متضمن معنى التسمية فليس المراد مجرد التسمية الخالية عن العبادة والطلب بل التسمية الواقعة في دعاء الثناء والطلب .

فعلى هذا المعنى : يصح أن يكون في (تدعوا) معنى تسموا . فتأمله . والمعنى أيّاً ما تسموا في ثنائكم ودعائكم وسؤالكم . والله أعلم .

وأما قوله تعالى : (إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البَرُّ الرحيم) [الطور : ٣٨] فهذا دعاء العبادة المتضمن للسؤال رغبة ورهبة .

والمعنى : إنا كنا من قبل نخلص له العبادة . وبهذا استحقوا أن وقاهم عذاب السموم ، لا بمجرد السؤال المشترك بين الناجي وغيره ، فإن الله سبحانه يسأله من في السموات ومن في الأرض ، والفوز والنجاة إنما هي بإخلاص العبادة لا بمجرد السؤال والطلب .

وكذلك قول الفتية أصحاب الكهف : (ربنا رب السموات والأرض لن ندعوا من دونه إلها) [الكهف : ١٤] أي لن نعبد غيره .

---

(١) انظر الكشاف (٢/٣٧٨) .

وكذلك قوله تعالى: (أتدعون بَعلاً وتذرون أحسن الخالقين) [الصافات : ١٢٥] وأما قوله تعالى : (وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون) [القصص : ٦٤] فهذا من دعاء المسألة ، يبكتهم الله عز وجل ويخزيهم يوم القيامة بإراءتهم أن شركاءهم لا يستجيبون لدعوتهم . وليس المراد اعبدوهم .

وهو نظير قوله تعالى : (ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم) [الكهف : ٥٣] .

وهذا التقرير نافع في مسألة الصلاة ، وأنها : هل نقلت عن مسماها في اللغة[1]، فصارت حقيقة شرعية منقولة أو استعملت في هذه العبادة مجازاً ، للعلاقة بينها وبين المسمى اللغوي ، أو هي باقية على الوضع اللغوي وضم إليها أركان وشرائع ؟

وعلى ما قررناه ، لا حاجة إلى شيء من ذلك . فإن المصلي من أول صلاته إلى آخرها لا ينفك عن دعاء ، إما دعاء عبادة وثناء ، أو دعاء طلب ومسألة ، وهو في الحالين داع . فما خرجت الصلاة عن حقيقة الدعاء ، فتأمله .

إذا عرفت هذا . فقوله تعالى : (ادعوا ربكم تضرعا وخفية) يتناول نوعي الدعاء ولكنه ظاهر في دعاء المسألة متضمن دعاء العبادة ولهذا أمر بإخفائه وإسراره ، قال الحسن : بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفا ، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت ، إن كان إلّا همسا بينهم وبين ربهم ، وذلك أن الله تعالى يقول : (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية) وأن الله ذكر عبدا صالحا ورضي بفعله ، وقال : (إذ نادى ربه نداءً خفيا) .

وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة :

أحدها : أنه أعظم إيمانا ، لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع دعاءه الخفي . وليس كالذي قال : إن الله يسمع إن جهرنا ، ولا يسمع إن أخفينا .

---

(١) للإمام النووي – رحمه الله تعالى – بحث نفيس في هذه المسألة ، من كتابه المجموع (٣/ص ٢) .

وثانيها : أنه أعظم في الأدب والتعظيم . ولهذا لا تخاطب الملوك ولا تسأل برفع الأصوات ، وإنما تخفض عندهم الأصوات ، ويخف عندهم الكلام بمقدار ما يسمعونه ومن رفع صوته لديهم مقتوه ، ولله المثل الأعلى . فإذا كان ربنا يسمع الدعاء الخفي فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به .

ثالثها : أنه أبلغ في التضرع والخشوع الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده . فإن الخاشع الذليل الضارع إنما يسأل مسألة مسكين ذليل ، قد انكسر قلبه ، وذلت جوارحه ، وخشع صوته ، حتى إنه ليكاد تبلغ به ذلته ومسكنته ، وكسرته ، وضراعته إلى أن ينكسر لسانه فلا يطاوعه بالنطق . فقلبه سائل طالب مبتهل ، ولسانه لشدة ذله وضراعته ومسكنته ساكت . وهذه الحالة لا يتأتى معها رفع الصوت بالدعاء أصلا .

ورابعها : أنه أبلغ في الإخلاص .

وخامسها : أنه أبلغ في جمعية القلب على الله في الدعاء . فإن رفع الصوت يفرقه ويشتته . فكلما خفض صوته كان أبلغ في حمده وتجريد همته وقصده للمدعو ، سبحانه وتعالى .

وسادسها : - وهو من النكت السرية البديعة جداً - أنه دال على قرب صاحبه من الله ، وأنه لاقترابه منه ، وشدة حضوره يسأله مسألة أقرب شيء إليه . فيسأله مسألة مناجاة القريب للقريب ، لا مسألة نداء البعيد للبعيد . ولهذا : أثنى سبحانه وتعالى على عبده زكريا بقوله : (إذ نادى ربه نداء خفيا) [مريم : ٣] فكلما استحضر القلب قرب الله تعالى منه ، وأنه أقرب إليه من كل قريب ، وتصور ذلك أخفى دعاءه ما أمكنه ، ولم يتأت له رفع الصوت به بل يراه غير مستحسن كما أن من خاطب جليسا له يسمع خفي كلامه فبالغ في رفع الصوت استهجن ذلك منه ولله المثل الأعلى سبحانه . وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى بعينه بقوله في الحديث الصحيح لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير وهم معه في السفر فقال[1] : « اربعوا على أنفسكم فإنكم لا

---

(١) رواه البخاري في مواضع منها (١٥٧/٦) في الجهاد والسير، باب: ما يكره من رفع الصوت في التكبير

تدعون أصم ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً قريباً أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته »
وقال تعالى : (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) [البقرة : ١٨٦] وقد جاء أن سبب نزولها : أن الصحابة قالوا[1] : « يارسول الله ربنا قريب فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله عز وجل : (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) هذا يدل على إرشادهم للمناجاة في الدعاء ، لا للنداء الذي هو رفع الصوت فإنهم عن هذا سألوا ، فأجيبوا بأن ربهم تبارك وتعالى قريب لا يحتاج في دعائه وسؤاله إلى النداء ، وإنما يسأل مسألة القريب المناجى ، لا مسألة البعيد المنادَى .

وهذا القرب من الداعي هو قرب خاص ، ليس قرباً عاماً من كل أحد ، فهو قريب من داعيه وقريب من عابده ، و « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد »[2] وهو أخص من قرب الإنابة وقرب الإجابة ، الذي لم يثبت أكثر المتكلمين سواه ، بل هو قرب خاص من الداعي والعابد ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم راوياً عن ربه تبارك وتعالى[3]: « من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً ، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً » فهذا قربه من عابده . وأما قربه من داعيه وسائله فكما قال تعالى : « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » .

وقوله : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ فيه الإشارة والإعلام بهذا القرب . وأما قربه تبارك وتعالى من محبه فنوع آخر وبناء آخر ، وشأن آخر ،

---

(١) رواه الطبري (٣/٤٨٠) وقال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى : « وهذا الحديث ضعيف جداً ، منهار الإسناد بكل حال » (٣/٤٨١) .
وانظر تفسير ابن كثير (١/٢٢٤) .

(٢) رواه مسلم (٢/١٢٠) في الصلاة ، ما يقال في الركوع والسجود .
وأبو داود (٣/١٢٨) في الصلاة ، باب : الدعاء في الركوع والسجود .
والنسائي (٢/٢٢٦) في الصلاة ، باب : أقرب ما يكون العبد من الله عز وجل .

(٣) رواه البخاري (١٣/٣٩٥) في التوحيد ، باب : قول الله تعالى : (ويحذركم الله نفسه) ومسلم (٥/٥٣٣) في أول كتاب الذكر . و (٥/٥٨٧) في أول التوبة .

كما قد ذكرناه في كتاب التحفة المكية . على أن العبارة تنبو عنه ، ولا تحصل في القلب حقيقة معناه أبداً ، لكن بحسب قوة المحبة وضعفها يكون تصديق العبد بهذا القرب . وإياك ثم إياك أن تعبر عنه بغير العبارة النبوية ، أو يقع في قلبك غير معناها ومرادها فتزل بك قدم بعد ثبوتها ، وقد ضعف تمييز خلائق في هذا المقام وساء تعبيرهم ؛ فوقعوا في أنواع الطامات والشطح ، وقابلهم من غلظ حجابه ، فأنكر محبة العبد لربه جملة وقربه منه ، وأعاد ذلك إلى مجرد الثواب المخلوق فهو عنده المحبوب القريب ليس إلا . وقد ذكرنا من طرق الرد على هؤلاء وهؤلاء في « كتاب التحفة »[1] أكثر من مائة طريق .

والمقصود ههنا : الكلام على هذه الآية .

وسابعها : أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال ، فإن اللسان لا يمل ، والجوارح لا تتعب ، بخلاف ما إذا رفع صوته فإنه قد يكل لسانه وتضعف بعض قواه وهذا نظير من يقرأ ، ويكرر رافعا صوته ؛ فإنه لا يطول له ذلك ، بخلاف من يخفض صوته .

وثامنها : أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع، والمشوشات، والمضعفات. فإن الداعي إذا أخفى دعاءه لم يدر به أحد فلا يحصل له هناك تشويش ولا غيره ، وإذا جهر به تفطنت له الأرواح الشريرة والباطولية[2] الخبيثة من الجن والإنس ، فشوشت عليه ولابد ، ومانعته وعارضته ولو لم يكن من ذلك إلا أن تعلقها به يفرق عليه همته فيضعف أثر الدعاء لكفى . ومن له تجربة يعرف هذا . فإذا أسر الدعاء وأخفاه أمن هذه المفسدة .

وتاسعها : أن أعظم النعم هو الإقبال على الله ، والتعبد له ، والانقطاع إليه والتبتل إليه . ولكل نعمة حاسد على قدرها ، دقت أو جلت ، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة . فأنفس الحاسدين المنقطعين متعلقة بها ، وليس للمحسود

(١) سبق الإشارة إليه .

(٢) هكذا في الأصل .

أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد وأن لا يقصد إظهارها له . وقد قال يعقوب ليوسف (لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين) [يوسف : ٤] وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله قد تحدث بها وأخبر بها فسلبه إياها الأغيار ، فأصبح يقلب كفيه . ولهذا يوصي العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله وأن لا يطلعوا عليه أحداً ويتكتمون به غاية التكتم كما أنشد بعضهم في ذلك :

من سارروه فأبدى السر مجتهدا ... لم يأمنوه على الأسرار ماعاشا
وأبعدوه فلم يظفر بقربهم ... وأبدلوه مكان الأنس إيحاشا
لا يأمنون مذيعاً بعض سرهم ... حاشا ودادهم من ذلكم حاشا

والقوم أعظم شيء كتماناً لأحوالهم مع الله ، وما وهب الله لهم من محبته والأنس به ، وجمعية القلب عليه ، ولا سيما للمبتدي والسالك . فإذا تمكن أحدهم وقوي وثبتت أصول تلك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء في قلبه بحيث لا يخشى من العواصف ، فإنه إذا أبدى حاله وشأنه مع الله ليقتدى به ويؤتم به لم يبال . وهذا باب عظيم النفع وإنما يعرفه أهله .

وإذا كان الدعاء المأمور بإخفائه يتضمن دعاء الطلب والثناء والمحبة والإقبال على الله فهو من أعظم الكنوز التي هي أحق بالإخفاء والستر عن أعين الحاسدين وهذه فائدة شريفة نافعة .

وعاشرها : أن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه متضمن للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وأوصافه ، فهو ذكر وزيادة ، كما أن الذكر سمي دعاء لتضمنه الطلب كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أفضل الدعاء الحمد لله »[1] فسمى « الحمد لله » دعاء ، وهو ثناء محض . لأن الحمد يتضمن الحب والثناء . والحب

---

(١) رواه الترمذي (٤٣١/٥) في الدعوات ، باب : ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة .
وابن ماجه (٣١٩/٢ صحيح ابن ماجه) . في الأدب ، باب : فضل الحامدين .
وقال الألباني : حسن .

أعلى أنواع الطلب للمحبوب ، فالحامد طالب لمحبوبه ، فهو أحق أن يسمى داعيا من السائل الطالب من ربه حاجة ما .

فتأمل هذا الموضع فإذا تأملته لا تحتاج إلى ماقيل : إن الذاكر متعرض للنوال وإن لم يكن مصرحاً بالسؤال ، فهو داع بما تضمنه ثناؤه من التعرض ، كما قال أمية بن أبي الصلت في ممدوحه :

أأذكر حاجتي ، أم قد كفاني حياؤك ؟ إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوما كفاه من تعرضه الثناء

وعلى هذه الطريقة التي ذكرناها فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب وهو طلب المحبة ، فهو دعاء حقيقة ، بل أحق أن يسمى دعاء من غيره من أنواع الطلب الذي هو دونه .

والمقصود أن كل واحد من الدعاء والذكر يتضمن الآخر ويدخل فيه . وقد قال تعالى : ﴿ **واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول** ﴾ [الأعراف : ٢٠٥] فأمر تعالى نبيه أن يذكره في نفسه . قال مجاهد وابن جريج: أمر أن يذكره في الصدر بالتضرع والاستكانة دون رفع الصوت أو الصياح. وقد تقدم حديث أبي موسى : « كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فارتفعت أصواتنا بالتكبير فقال : ياأيها الناس ، اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنما تدعون سميعاً قريباً أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته »[1] .

وتأمل كيف قال في آية الذكر : ﴿ **واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة** ﴾ وفي آية الدعاء : ﴿ **ادعوا ربكم تضرعا وخفية** ﴾ فذكر التضرع فيهما معاً ، وهو التذلل والتمسكن والانكسار ، وهو روح الذكر والدعاء ، وخص الدعاء بالخفية لما ذكرنا من الحكم وغيرها . وخص الذكر بالخيفة لحاجة الذاكر إلى الخوف ، فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها ولابد . فمن أكثر من ذكر الله

---

(١) مر تخريجه ص : (٢٢٥)

أثمر له ذلك محبته ، والمحبة مالم تقرن بالخوف ، فإنها لا تنفع صاحبها بل قد تضره . لأنها توجب الإدلال والانبساط ، وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أنهم استغنوا بها عن الواجبات ، وقالوا : المقصود من العبادات إنما هو عبادة القلب وإقباله على الله ومحبته له وتألهه له ، فإذا حصل المقصود فالاشتغال بالوسيلة باطل . ولقد حدثني رجل أنه أنكر على رجل من هؤلاء خلوة له ترك فيها حضور الجمعة فقال له الشيخ : أليس الفقهاء يقولون إذا خاف على شيء من ماله فإن الجمعة تسقط عنه ؟ فقال له بلى . فقال له فقلب المريد أعز عليه من ضياع عشرة دراهم ، أو كما قال . وهو إذا خرج ضاع قلبه فحفظه لقلبه عذر مسقط للجمعة في حقه . فقال له : هذا غرور بل الواجب عليه الخروج إلى أمر الله وحفظ قلبه مع الله . فالشيخ المربي العارف يأمر المريد بأن يخرج إلى الأمر ويراعي حفظ قلبه ، أو كما قال .

فتأمل هذا الغرور العظيم كيف آل بهؤلاء إلي الانسلاخ عن الإسلام جملة فإن من سلك هذا المسلك انسلخ عن الإسلام العام كانسلاخ الحية من قشرها ، وهو يظن أنه من خاصة الخاصة . وسبب هذا عدم اقتران الخوف من الله بحبه وإرادته ، ولهذا قال بعض السلف : مَنْ عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري . ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجىء ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن . وقد جمع تعالى هذه المقامات الثلاث بقوله : (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه) [الإسراء : ٥٧] فابتغاء الوسيلة هو محبته الداعية إلى التقرب إليه . ثم ذكر بعدها الرجاء والخوف . فهذه طريقة عباده وأوليائه .

وربما آل الأمر بمن عبده بالحب المجرد إلى استحلال المحرمات ، ويقول : المحب لا يضره ذنب وقد صنف بعضهم في ذلك مصنفاً وذكر فيه أثراً مكذوباً « إذا أحب الله العبد لم تضره الذنوب »[1] وهذا كذب قطعاً مناف للإسلام . فالذنوب تضر بالذات لكل أحد كضرر السم بالبدن . ولو قدر أن هذا الكلام

(١) بطلانه ظاهر ، ولم أستطع الوقوف عليه .

صح عن بعض الشيوخ . وأما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فمعاذ الله من ذلك – فله محمل ، وهو أنه إذا أحبه لم يدعه حبه إياه إلى أن يصر على ذنب لأن الإصرار على الذنب مناف لكونه محباً لله ، وإذا لم يصر على الذنب بل بادر إلى التوبة النصوح منه ، فإنه يمحا أثره ولا يضره الذنب . وكلما أذنب وتاب وأناب إلى الله زال عنه أثر الذنب وضرره ، فهذا المعنى صحيح .

والمقصود أن تجريد الحب والذكر عن الخوف يوقع في هذه المعاطب ، فإذا اقترن بالخوف جمعه على الطريق ، ورده إليها كلما شرد ، فكأن الخوف سوط يضرب به مطيته ، لئلا تخرج عن الدرب والرجاء حادٍ يحدوها يطيب لها السير ، والحب قائدها وزمامها الذي يسوقها . فإذا لم يكن للمطية سوط ولا عصي تردها إذا حادت عن الطريق ، وتركت تركب التعاسيف خرجت عن الطريق وضلت عنها ، فما حفظت حدود الله ومحارمه .

وما وصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته ، فمتى خلا القلب عن هذه الثلاثة فسد فساداً لا يرجى صلاحه أبداً ، ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه بحسبه .

فتأمل أسرار القرآن وحكمته في اقتران الخيفة بالذكر ، والخفية بالدعاء ، مع دلالته على اقتران الخيفة بالدعاء والخفية بالذكر أيضا ، فإنه قال : ﴿**واذكر ربك في نفسك**﴾ [الأعراف : ٢٠٥] فلم يحتج بعدها أن يقول « خفية » وقال في الدعاء ﴿ **وادعوه خوفا وطمعاً** ﴾ فلم يحتج أن يقول في الأولى ادعوا ربكم تضرعاً وخفية فانتظمت كل واحدة من الآيتين ، للخيفة والخفية والتضرع أحسن انتظام ، ودلت على ذلك أكمل دلالة .

وذكر الطمع الذي هو الرجاء في آية الدعاء لأن الدعاء مبني عليه ، فإن الداعي مالم يطمع في سؤاله ومطلوبه لم تتحرك نفسه لطلبه ، إذ طلب ما لا طمع فيه ممتنع .

وذكر الخوف في آية الذكر لشدة حاجة الخائف إليه كما تقدم . فذكر في

كل آية ما هو اللائق بها والأولى بها : من الخوف والطمع ، فتبارك من أنزل كلامه شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين .

فصــل

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٥] .

قيل : المراد أنه لا يحب المعتدين في الدعاء . كالذى يسأل مالا يليق به من منازل الأنبياء وغير ذلك . وقد روى أبو داود[١] في سننه من حديث حماد ابن سلمة عن سعيد الجريري عن أبي نعامة أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول : اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها . فقال : يابني ، سل الله الجنة وتعوذ من النار ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء» وعلى هذا فالاعتداء في الدعاء تارة بأن يسأل مالا يجوز له سؤاله من الإعانة على المحرمات ، وتارة بأن يسأل مالا يفعله الله ، مثل أن يسأله تخليده إلى يوم القيامة ، أو يسأله أن يرفع عنه لوازم البشرية من الحاجة إلى الطعام والشراب أو يسأله أن يطلعه على غيبه أو يسأله أن يجعله من المعصومين ، أو يسأله أن يهب له ولدا من غير زوجة ولا أمة ، ونحو ذلك مما سؤاله اعتداء . فكل سؤال يناقض حكمة الله أو يتضمن مناقضة شرعه وأمره ، أو يتضمن خلاف ما أخبر به فهو اعتداء لا يحبه الله ولا يحب سائله .

وفسر الاعتداء برفع الصوت أيضاً في الدعاء . قال ابن جريج : من الاعتداء رفع الصوت في الدعاء ، والنداء في الدعاء والصياح .

وبعد فالآية أعم من ذلك كله ، وإن كان الاعتداء في الدعاء مراداً بها

---

(١) رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٨٧/٤) .
وأبو داود (١٦٩/١) في الطهارة ، باب : الإسراف في الوضوء .
وابن ماجه (٣٣١/٢ صحيح ابن ماجه) في الدعاء ، باب : كراهية الاعتداء في الدعاء .
قال الألباني : إسناده صحيح (الإرواء ١٧١/١) .

فهو من جملة المراد ، والله لا يحب المعتدين في كل شيء ، دعاء كان أو غيره ، كما قال : (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) [البقرة : ١٩٠] .

وعلى هذا فيكون قد أمر بدعائه وعبادته وأخبر أنه لا يحب أهل العدوان ، وهم الذين يدعون معه غيره . فهؤلاء أعظم المعتدين عدوانا . فإن أعظم العدوان هو الشرك ، وهو وضع العبادة في غير موضعها . فهذا العدوان لابد أن يكون داخلا في قوله : (إنه لا يحب المعتدين) .

ومن العدوان : أن يدعوه دعاء غير متضرع ، بل دعاء مُدِلّ ، كالمستغني بما عنده المدل على ربه به . وهذا من أعظم الاعتداء المنافي لدعاء الضارع الذليل الفقير المسكين من كل جهة في مجموع حالاته فمن لم يسأل مسألة مسكين متضرع خائف فهو معتد .

ومن الاعتداء : أن تعبده بما لم يشرعه ، وتثني عليه بما لم يثن به على نفسه ولا أذن فيه . فإن هذا اعتداء في دعاء الثناء والعبادة ، وهو نظير الاعتداء في دعاء المسألة والطلب .

وعلى هذا فتكون الآية دالة على شيئين :

أحدهما : محبوب للرب تبارك وتعالى مرضي له ، وهو الدعاء تضرعا وخفية .

والثاني : مكروه له مبغوض، مسخوط، وهو الاعتداء، فأمر بما يحبه الله وندب إليه ، وحذر مما يبغضه وزجر عنه بما هو أبلغ طرق الزجر والتحذير . وهو أنه لا يحب فاعله ومن لم يحبه الله فأي خير يناله ؟

وفي قوله : ﴿ **إنه لا يحب المعتدين** ﴾ عقب قوله : ﴿ **ادعوا ربكم تضرعا وخفيه** ﴾ دليل على أن من لم يدعه تضرعاً وخفية فهو من المعتدين الذين لا يحبهم .

فقسمت الآية الناس إلى قسمين : داع لله تضرعاً وخفية ، ومعتد بترك ذلك .

فصـــل

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ .
[الأعراف:٥٦]

قال أكثر المفسرين : لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة ، والدعاء إلى طاعة الله . فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم فساد في الأرض ، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به ، ومخالفة أمره . قال تعالى : (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس) وقال عطية في الآية : ولا تعصوا في الأرض ، فيمسك الله المطر ، ويهلك الحرث بمعاصيكم . وقال غير واحد من السلف : إذا قحط المطر فإن الدواب تلعن عصاة بني آدم ، وتقول : اللهم العنهم ، فبسببهم أجدبت الأرض ، وقحط المطر .

وبالجملة فالشرك والدعوة إلى غير الله ، وإقامة معبود غيره ومطاع متبع غير رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو أعظم الفساد في الأرض ، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا بأن يكون الله وحده هو المعبود ، والدعوة له لا لغيره ، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا ، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول . فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة . فإن الله أصلح الأرض برسوله ودينه ، وبالأمر بتوحيده ، ونهى عن إفسادها بالشرك به وبمخالفة رسوله .

ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله ، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك ؛ فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله .

ومن تدبر هذا حق التدبر وتأمل أحوال العالم منذ قام إلى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ؛ وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه وفي حق غيره عموما وخصوصاً. ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

فصـــل

وقوله تعالى : ﴿ وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ ﴾ [الأعراف : ٥٦]

إنما كرر الأمر بالدعاء لما ذكره معه من الخوف ، والطمع . فأمر أولاً بدعائه تضرعا وخفية ، ثم أمر بأن يكون الدعاء أيضاً خوفاً وطمعاً ، وفصل بين الجملتين بجملتين إحداهما خبرية متضمنة للنهي ، وهي قوله : ﴿ **إنه لا يحب المعتدين** ﴾ والثانية طلبية ، وهي قوله : ﴿ **ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها** ﴾ والجملتان مقررتان مقويتان للجملة الأولى ، مؤكدتان لمضمونها . ثم لما تم تقريرها وبيان ما يضادها ويناقضها أمر بدعائه خوفا وطمعا ، ثم قرر ذلك وأكد مضمونه بجملة خبرية ، وهي قوله : ﴿ **إن رحمة الله قريب من المحسنين** ﴾ فتعلق هذه الجملة بقوله : ﴿ **وادعوه خوفا وطمعا** ﴾ كتعلق قوله : ﴿ **إنه لا يحب المعتدين** ﴾ بقوله : ﴿ **ادعوا ربكم تضرعا وخفية** ﴾ .

ولما كان قوله تعالى : ﴿ **وادعوه خوفا وطمعاً** ﴾ مشتملا على جميع مقامات الإيمان والإحسان ، وهي الحب والخوف والرجاء ، عقبها بقوله : ﴿ **إن رحمة الله قريب من المحسنين** ﴾ أي إنما ينال الرحمة من دعاه خوفا وطمعا ، فهو المحسن والرحمة قريب منه ؛ لأن مدار الإحسان على هذه الأصول الثلاثة .

ولما كان دعاء التضرع والخفية يقابله الاعتداء بعدم التضرع والخفية عقب ذلك بقوله : ﴿ **إنه لا يحب المعتدين** ﴾ .

وانتصاب قوله : « تضرعا ، وخفية ، وخوفا ، وطمعا » قيل : هو على الحال أي ادعوه متضرعين ، مخفين ، خائفين ، طامعين ، وهذا هو الذي رجحه السهيلي وغيره .

وقيل : هو نصب على المفعول له . وهذا قول كثير من النحاة .

وقيل : هو نصب على المصدر . وفيه على هذا تقديران :

أحدهما : أنه منصوب بفعل مقدر من لفظ المصدر ، والمعنى تضرعوا إليه تضرعا وأخفوا خفية .

الثاني : أنه منصوب بالفعل المذكور نفسه ؛ لأنه في معنى المصدر ، فإن الداعي متضرع طامع في حصول مطلوبه خائف من فواته . فكأنه قال : تضرعوا تضرعاً .

والصحيح في هذا : أنه منصوب على الحال ، والمعنى عليه ، فإن المعنى ادعوا ربكم متضرعين إليه خائفين طامعين . ويكون وقوع المصدر موقع الاسم على حد قوله : ﴿ ولكن البر من آمن بالله ﴾ [البقرة : ١٧٧] وقولهم : رجل عدل، ورجل صوم ، قال الشاعر :

فإنمـا هـي إقبـال وإدبـار

وهو أحسن من أن يقال : ادعوه متضرعين خائفين وأبلغ . والذي حسنه أن المأمور به هنا شيئان : الدعاء الموصوف المقيد بصفة معينة وهي صفة التضرع والخوف والطمع . فالمقصود تقييد المأمور به بتلك الصفة ، وتقييد الموصوف الذي هو صاحبها بها . فأتى بالحال على لفظ المصدر لصلاحيته لأن يكون صفة للفاعل وصفة للفعل المأمور به .

فتأمل هذه النكتة فإنك إذا قلت : اذكر ربك تضرعا فإنك تريد : اذكره متضرعا إليه ، واذكره ذكر تضرع ، فأنت مريد للأمرين معاً . ولذلك إذا قلت : ادعه طمعا أي ادعه دعاء طمع ، وادعه طامعا في فضله ، وكذلك إذا قلت : ادعه رغبة ورهبة ، كقوله تعالى : ﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا ﴾ [الأنبياء : ٩٠] كان المراد : ادعه راغبا وراهبا وادعه دعاء رغبة ورهبة .

فتأمل هذا الباب تجده كذلك ، فأتى فيه المصدر الدال على وصف المأمور به بتلك الصفة ، وعلى تقييد الفاعل بها تقييد صاحب الحال بالحال .

ومما يدل على هذا : أنك تجد مثل هذا صالحا وقوعه جوابا لكيف . فإذا

قيل : كيف أدعوه ؟ قيل : تضرعا وخفية ، وتجد اقتضاء « كيف » لهذا أشد من اقتضاء « لِمَ » ولو كان مفعولا له لكان جوابا للم ، ولا تحسن هنا . ألا ترى أن المعنى ليس عليه . فإنه لا يصح أن يقال لم أدعوه ؟ فيقول تضرعا وخفية . وهذا واضح ، ولا هو انتصاب على المصدر المبين للنوع الذي لا يتقيد به الفاعل لما ذكرناه من صلاحيته جوابا لكيف .

وبالجملة فالمصدرية في هذا الباب لا تنافي الحال ، بل الإتيان بالحال ههنا بلفظ المصدر يفيد ما يفيده المصدر مع زيادة فائدة الحال ، فهو أتم معنى ولا تنافي بينهما . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف :٥٦]

فيه تنبيه ظاهر على أن فعل هذا المأمور به هو الإحسان المطلوب منكم ، ومطلوبكم أنتم من الله هو رحمته القريبة من المحسنين الذين فعلوا ما أمروا به من دعائه خوفا وطمعا ، فقرب مطلوبكم منكم وهو الرحمة بحسب أدائكم لمطلوبه منكم وهو الإحسان الذي هو في الحقيقة إحسان إلى أنفسكم . فإن الله هو الغني الحميد ، وإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم . وقوله : ﴿ **إن رحمة الله قريب من المحسنين** ﴾ له دلالة بمنطوقه ودلالة بإيمائه وتعليله ودلالة بمفهومه فدلالته بمنطوقه على قرب الرحمة من أهل الإحسان ودلالته بتعليله وإيمائه على أن هذا القرب مستحق بالإحسان فهو السبب في قرب الرحمة منهم ، ودلالته بمفهومه على بعد الرحمة من غير المحسنين . فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة ، وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة منهم لأنها إحسان من الله أرحم الراحمين ، وإحسانه تعالى إنما يكون لأهل الإحسان ، لأن الجزاء من جنس العمل ، فكما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته . وأما من لم يكن من أهل الإحسان فإنه لما بعد عن الإحسان بعدت عنه الرحمة بعدا ببعد وقربا بقرب ، فمن تقرب بالإحسان تقرب الله إليه برحمته ومن تباعد عن الإحسان تباعد الله عنه برحمته . والله سبحانه يحب المحسنين ويبغض من ليس من المحسنين ، ومن أحبه الله فرحمته أقرب شيء منه ومن أبغضه فرحمته أبعد شيء منه . والإحسان ههنا هو فعل المأمور به سواء كان إحسانا

إلى الناس أو إلى نفسه . فأعظم الإحسان الإيمان والتوحيد والإنابة إلى الله والإقبال عليه والتوكل عليه وأن يعبد الله كأنه يراه إجلالا ومهابة وحياء ومحبة وخشية فهذا هو مقام الإحسان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم وقد سأله جبريل عن الإحسان فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه »[1] وإذا كان هذا هو الإحسان فرحمة الله قريب من صاحبه ، فإن الله إنما يرحم أهل توحيده المؤمنين به وإنما كتب رحمته (للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون) والذين يتبعون رسوله فهؤلاء هم أهل الرحمة ، كما أنهم هم المحسنون ، وكما أحسنوا جوزوا بالإحسان . وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ يعني هل جزاء من أحسن عبادة ربه إلا أن يحسن ربه إليه ؟ قال ابن عباس : هل جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم إلا الجنة ؟

وقد ذكر ابن أبي شيبة وغيره من حديث الزبير بن عدي عن أنس بن مالك قال : « قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) ، ثم قال : هل تدرون ما قال ربكم ؟ قالو : الله ورسوله أعلم . قال يقول : هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة »[2] .

فصـــل

وأما الإخبار عن الرحمة – وهي مؤنثة بالتاء – بقوله « قريب » وهو مذكر ففيه اثنا عشر مسلكا نذكرها ونبين ما فيها من صحيح وسقيم ومقارب .

---

(١) رواه مسلم (١٣٢/١) في أول الإيمان ، باب : إثبات القدر .
وأبو داود (٤٥٩/١٢) في السنة ، باب : في القدر .
ورواه غيرهما . راجع (١) (٢٠٥/١) الفاتحة .

(٢) رواه البغوي (١١/٧-١٢) .
وقال السيوطي في الدر المنثور (٧١٣/٧) : « أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان وضعفه .

المسلك الأول : أن فعيلا على ضربين : **أحدهما** يأتي بمعنى فاعل كقدير وسميع وعليم .

والثاني : يأتي بمعنى مفعول كقتيل وجريح ، وكف خضيب . وطرف كحيل وشعر دهين ، كله بمعنى مفعول . فإذا أتى بمعنى فاعل فقياسه أن يجري مجراه في إلحاق التاء به مع المؤنث دون المذكر كجميل وجميلة وشريف وشريفة وصبيح وصبيحة وصبي وصبية ومليح ومليحة وطويل وطويلة ونحوه . وإذا أتى بمعنى مفعول فلا يخلو إما أن يصحب الموصوف كرجل قتيل وامرأة قتيل أو يفرد عنه . فإن صحب الموصوف استوى فيه المذكر والمؤنث كرجل قتيل وامرأة قتيل ، وإن لم يصحب الموصوف فإنه يؤنث إذا جرى على المؤنث نحو قتيلة بني فلان. ومنه قوله تعالى (حرمت عليكم الميتة– إلى قوله – والنطيحة) [المائدة :٣]. هذا حكم فعيل ، وفعول قريب منه لفظاً ومعنى ، فإنهما مشتبهان في الوزن والدلالة على المبالغة وورودها بمعنى فاعل ومفعول .

ولما كان فعيل أخف استغني به عن فاعل في المضاعف ، كجليل ، وعزيز ، وذليل كراهية منهم لثقل التضعيف إذا قالوا : جالل وعازز وذالل . فأتوا بفعيل مفصولا فيه بين المثلين بالياء الساكنة ، ولم يأتوا في هذا بفعول لأن فعيلا أخف منه ولخفته أيضاً اطرد بناؤه من فعل كشريف ، وظريف ، وجميل ، ونبيل ، وليس لفعول بناء يطرد منه ، ولخفته أيضاً كان في أسماء الله تعالى أكثر من فعول فإن الرحيم والقدير والحسيب والجليل والرقيب ونظائره أكثر من ألفاظ الرؤوف والغفور والشكور والصبور والودود والعفو ، ولا يعرف إلا هذه الألفاظ الستة .

وإذا ثبت التشابه بين فعيل وفعول فيما ذكرنا ؛ وكانوا قد خصوا فعولا الذي بمعنى فاعل بتجريده من التاء الفارقة بين المذكر والمؤنث وشركوا بينهما في لفظ المذكر فقالوا : رجل صبور وشكور وامرأة صبور وشكور ونظائرهما . وأما عدو وعدوة فشاذ . فإن قصد بالتاء المبالغة لحقت المذكر والمؤنث كرجل ملولة وفروقة وامرأة كذلك ، وإن كان فعول في معنى مفعول لحقته التاء في المؤنث كحلوبة وركوبة .

فإذا تقرر ذلك فقريب في الآية هو فعيل بمعنى فاعل ، وليس المراد أنه بمعنى قارب ؛ بل بمعنى اسم الفاعل العام . فكان حقه أن يكون بالتاء ، ولكنهم أجروه مجرى فعيل بمعنى مفعول ، فلم يلحقوه التاء ، كما جرى فعيل بمعنى مفعول مجرى فعيل بمعنى فاعل في إلحاقه التاء ، كما قالوا خصلة حميدة وفعلة ذميمة بمعنى محمودة ومذمومة ؛ فحملوا على جميلة وشريفة في لحاق التاء فحملوا قريباً على امرأة قتيل وكف خضيب وعين كحيل في عدم إلحاق التاء حملا لكل من البابين على الآخر .

ونظيره قوله تعالى : (قال من يحيي العظام وهي رميم) [يس : ٧٨] فحمل رميما وهي بمعنى فاعل على امرأة قتيل وبابه فهذا المسلك هو من أقوى مسالك النحاة وعليه يعتمدون وقد اعترض عليه بثلاثة اعتراضات .

أحدها : أن ذلك يستلزم التسوية بين اللازم والمتعدي فإن فعيلا بمعنى مفعول ، بابه الفعل المتعدي ، وفعيلا بمعني فاعل بابه الفعل اللازم ؛ لأنه غالب ما يأتي من فعل المضموم العين فلو جرى على أحدهما حكم الآخر لكان ذلك تسوية بين اللازم والمتعدي وهو ممتنع .

الاعتراض الثاني : أن هذا إن ادعى على وجه العموم فباطل ، وإن ادعى على سبيل الخصوص فما الضابط وما الفرق بين ما يسوغ فيه هذا الاستعمال ومالا يسوغ ؟

الاعتراض الثالث : أن العرب قد نطقت في فعيل بالتاء وهو بمعنى مفعول وجردته من التاء وهو بمعنى فاعل قال جرير يرثي خالته :

نعم القرين وكنت علق مضنه ... واري بنعق بلية الأحجار

فجرد القرين من التاء وهو بمعنى فاعل وقال :

فسقاك حيث حللت غير فقيدة ... هزج الرواح وديمة لا تقلع

فقرن فقيدة بالتاء وهو فعيل مفعول أي غير مفقودة . وقال الفرزدق :

فداويته عامين وهي قريبة ... أراها وتدنو لي مراراً وأرشف

ويقولون : امرأة فتين وسريح[1] وهربت، فجردوه عن التاء ، وهو بمعنى فاعل وقالوا : امرأة فروك وهلوك ورشوف وأنوف ورضوف فجردوه وهو بمعنى فاعل كصبور . وقالوا : امرأة عروب فجردوه أيضاً ، ثمّ قالوا : امرأة ملولة وفروقة فقرنوه بالتاء وهو بمعنى فاعل أيضاً . ودعوى أن التاء ههنا للمبالغة لا دليل عليها ، فقد رأيت اشتراك فعول وفعيل في الاقتران بالتاء والتجرد منها . فدعوى أصالة المجرد منهما وشذوذ المقرون مقابلة بمثلها ومع مقابلها قياس اللغة في اقتران المؤنث وتجريد المذكر . وأما ما استشهدتم به من قوله تعالى : (من يحيي العظام وهي رميم) فهو على وفق قياس العربية ، فإن العظام جمع عظم وهو مذكر ولكن جمعه جمع تكسير وجمع التكسير يجوز أن يراعى فيه تأنيث الجماعة وباعتباره قال : (وهي) ولم يقل وهو . ويراعى فيه معنى الواحد وباعتباره قال : (رميم) كما يقال : عظم (رميم) مع أن رميما يطلق على المذكر مفرداً وجمعا . قال جرير :

آل المهلب جذ الله دابرهم ... أمسوا رميما فلا أصل ولا طرف

فهذا الاعتراض على هذا المسلك .

فصل

المسلك الثاني : أن قريباً في الآية من باب تأويل المؤنث بمذكر موافق له في المعنى كقول الشاعر :

أرى رجلا منهم أسيفا كأنما ... يضم إلى كشحيه كفاً مخضبا

فكف مؤنث ولكن تأويله بمعنى عضو وطرف فذكر صفته فكذلك تتأول

(١) (أما المرأة « السريح » فهي بمعنى المسرحة الشعر ، و « الهريت » المرأة المغضاة ، و « الفروك » هي التي تبغض الزوج ، و « الهلوك » هي حسنة التبعل لزوجها ، و« الرشوف » هي الطيبة الفم واليابسة الفرج ، و « الأنوف » طيبة رائحة الأنف أو التي تأنف مما لاخير فيه) .

مستفاد من هامش « بدائع الفوائد » (٣/٢٠) .

الرحمة وهي مؤنثة بالإحسان فيذكر خبرها .

قالوا : وتأويل الرحمة بالإحسان أولى من تأويل الكف بعضو لوجهين :

أحدهما : أن الرحمة معنى قائم بالراحم والإحسان هو بر المرحوم ومعنى القرب في البر من المحسنين أظهر منه في الرحمة .

الثاني : أن ملاحظة الإحسان بالرحمة الموصوفة بالقرب من المحسنين هو مقابلة للإحسان الذي صدر منهم وباعتبار المقابلة ازداد المعنى قوة واللفظ جزالة حتى كأنه قال : إن إحسان الله قريب من أهل الإحسان ، كما قال تعالى : (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) [الرحمن : ٦٠] فذكر قريباً ليفهم منه أنه صفة لمذكر وهو الإحسان فيفهم المقابلة المطلوبة .

قالوا : ومن تأويل المؤنث بمذكر ما أنشده الفراء :

وقائع في مضر تسعة وفي وائل كانت العاشرة

فتأول الوقائع وهي مؤنثة بأيام الحرب المذكرة فأنث العدد الجاري عليها فقال « تسعة » ولولا هذا التأويل لقال تسع لأن الوقائع مؤنثة .

قالوا : وإذا جاز تأويل المذكر بمؤنث في قول من قال : جاءته كتابي أي صحيفتي ، وفي قول الشاعر :

يأأيها الراكب المزجي مطيته سائل بني أسد: ماهذه الصوت؟

أي ما هذه الصيحة مع أنه حمل أصل على فرع فلأن يجوز تأويل مؤنث بمذكر لكونه حمل فرع على أصل أولى وأحرى وهذا وجه وجيه :

وقد اعترض عليه باعتراضين فاسدين غير لازمين :

أحدهما : أنه لو جاز تأويل المؤنث بمذكر يوافقه وعكسه لجاز أن يقال : كلمتني زيد ، وأكرمتني عمرو ، وكلمني هند وأكرمني زينب ، تأويلا لزيد وعمرو بالنفس والجثة وتأويلا لهند وزينب بالشخص والشبح . وهذا باطل ، وهذا الاعتراض غير لازم ، فإنهم لم يدّعوا اطراد ذلك وإنما ادعوا أنه مما يسوغ

أن يستعمل ، وفرق بين ما يسوغ في بعض الأحيان وبين ما يطرد ، كرفع الفاعل ونصب المفعول وهم لم يدعوا أنه من القسم الثاني .

ثم إن هذا الاعتراض مردود بكل ما يسوغ استعماله بمسوغ وهو غير مطرد وهو أكثر من أن يذكر هاهنا ولا ينكره نحوي أصلا . وهل هذا إلا اعتراض على قواعد العربية بالتشكيكات والمناقضات ؟ وأهل العربية لا يلتفتون إلى شيء من ذلك . فلو أنهم قالوا : يجوز تأويل كل مؤنث بمذكر يوافقه وبالعكس لصح النقض وإنما قالوا يسوغ أحيانا تأويل أحدهما بالآخر لفائدة يتضمنها التأويل كالفائدة التي ذكرناها من تأويل الرحمة بالإحسان .

الاعتراض الثاني : أن حمل الرحمة على الإحسان إما أن يكون حملا على حقيقته أو مجازه وهما ممتنعان . فإن الرحمة والإحسان متغايران لا يلزم من أحدهما وجود الآخر ؛ لأن الرحمة قد توجد وافرة في حق من لا يتمكن من الإحسان كالوالدة العاجزة ونحوها . وقد يوجد الإحسان ممن لا رحمة في طباعه كالملك القاسي فإنه قد يحسن إلى بعض أعدائه وغيرهم لمصلحة ملكه مع أنه لا رحمة عنده . وإذا تبين انفكاك أحدهما عن الآخر لم يجز إطلاقه عليه لا حقيقة ولا مجازا . أما الحقيقة فظاهر . وأما المجاز : فإن شرطه خطور المعنى المجازي بالبال ليصح انتقال الذهن إليه فإذا كان منفكا عن الحقيقة لم يخطر بالذهن .

وهذا الاعتراض أفسد من الذي قبله . وهو من باب التعنت والمناكدة . وأين هذا من قول أكثر المتكلمين – ولعل هذا المعترض منهم – : أنه لا معنى للرحمة غائياً إلا الإحسان المحض . وأما الرقة والحنان التي في الشاهد فلا يوصف الله بها وإنما رحمته مجرد إحسانه ، ومع أنا لا نرتضي هذا القول بل نثبت لله تعالى الرحمة حقيقة كما أثبتها لنفسه منزهة مبرأة عن خواص صفات المخلوقين كما نقوله في سائر صفاته من إرادته وسمعه وبصره وعلمه وحياته وسائر صفات كماله – فلم نذكره إلا لنبين فساد اعتراض هذا المعترض على قول أئمته ومن قال بقول المتكلمين .

ثم نقول : الرحمة لا تنفك عن إرادة الإحسان فهي مستلزمة للإحسان

أو إرادته ، استلزام الخاص للعام ، فكما يستحيل وجود الخاص بدون العام فكذلك الرحمة بدون الإحسان أو إرادته يستحيل وجودها .

وأما قضية الأم العاجزة : فإنها وإن لم تكن تقدر على الإحسان بالفعل فهي محسنة بالإرادة فرحمتها لا تنفك عن إرادتها التامة للإحسان التي يقترن بها مقدورها إما بدعاء وإما بإيثار بما تقدر عليه ونحو ذلك ، فتخلف بعض الإحسان الذي لا تقدر عليه عن رحمتها لا يخرج رحمتها عن استلزامها للإحسان المقدور وهذا واضح .

وأما الملك القاسي إذا أحسن فإن إحسانه لا يكون رحمة فهذا لأن الإحسان أعم من الرحمة والأعم لا يستلزم الأخص ، وهم لم يدعوا ذلك فلا يلزمهم .

وأيضا فإن الإحسان قد يقال إنه يستلزم الرحمة وما فعله الملك المذكور فليس بإحسان في الحقيقة ، وإن كانت صورته صورة الإحسان .

وبالجملة : فالعنت والمناكدة على هذا الاعتراض أبين من أن يتكلف معه رده وإبطاله .

فصـــل

المسلك الثالث : إن ﴿ قريب ﴾ في الآية من باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه مع الالتفات إلى المحذوف ، فكأنه قال : إن مكان الرحمة قريب من المحسنين ، ثم حذف المكان وأعطى الرحمة إعرابه وتذكيره . ومن ذلك قول حسان :

يسقون من ورد البريض عليهم بَرَدَى يصفق بالرحيق السلسل

فقال : « يصفق » بالياء و « بردى » هي مؤنث لأنه أراد ماء بردى . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم وقد أخذ بيديه ذهبا وحريراً فقال[1] :

(١) رواه الطبراني في الصغير (١٦٧/١) ورواه في الأوسط .
والبزار (٣٨٢/٣) .

« هذان حرام على ذكور أمتي » فقال : « حرام » بالإفراد والمخبر عنه مثنى ، كأنه قال : استعمال هذين حرام . وهذا المسلك ضعيف جدا لأن حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه لا يسوغ ادعاؤه مطلقا وإلا لالتبس الخطاب وفسد التفاهم ، وتعطلت الأدلة . إذ ما من لفظ أمر أو نهي أو خبر متضمن مأموراً به ومنهيا عنه ومخبرا إلا ويمكن على هذا أن يقدر له لفظ مضاف ، يخرجه عن تعلق الأمر والنهي والخبرية ، فيقول الملحد في قوله : (ولله على الناس حج البيت) [آل عمران : ٩٧] أي معرفة حج البيت و (كتب عليكم الصيام) [البقرة : ١٨٣] أي معرفة الصيام . وإذا فتح هذا الباب فسد التخاطب وتعطلت الأدلة ، وإنما يضمر المضاف حيث يتعين ولا يصح الكلام إلا بتقديره للضرورة ، كما إذا قيل : أكلت الشاة فإن المفهوم من ذلك أكلت لحمها فحذف المضاف لا يلبس ، وكذلك إذا قلت أكل فلان كد فلان إذا أكل ماله ، فإن المفهوم أكل ثمرة كده فحذف المضاف هنا لا يلبس ونظائره كثيرة .

وليس منه : ﴿ واسأل القرية ﴾ [الأعراف : ١٦٣] وإن كان أكثر الأصوليين يمثلون به فإن القرية اسم للسكان في مسكن مجتمع فإنما تطلق القرية باعتبار الأمرين كالكأس لما فيه من الشراب ، والذنوب للدلو الملآن ماء والنهر[1] والخوان للمائدة إذا كان عليها طعام ونظائره .

ثم إنهم لكثرة استعمالهم لهذه اللفظة ودورانها في كلامهم أطلقوها على السكان تارة وعلى المسكن تارة بحسب سياق الكلام وبساطه ، وإنما يفعلون هذا حيث لا لبس فيه ولا إضمار في ذلك ولا حذف .

= وفي سندهما « عمرو بن جرير » .
متروك الحديث ، كذاب .
انظر ميزان الاعتدال (٢٥٠/٣) .
ومجمع الزوائد (١٤٣/٥) .
ولكن صح تحريم الذهب على الرجال ، راجع مثلاً فتح الباري (٣٢٧/١٠) كتاب اللباس ، باب : خواتيم الذهب .

(١) على هامش « بدائع الفوائد » (٢٥/٣) « في نسخة حذف النهر ، وعلى إثباته فالمعنى : والنهر كذلك أي كالذنوب » .

فتأمل هذا الموضع الذى خفي على القوم مع وضوحه .

وإذا عرفت هذا فقوله : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ ليس في اللفظ ما يدل على إرادة موضع ولا مكان أصلا فلا يجوز دعوى إضماره بل دعوى إضماره خطأ قطعا . لأنه يتضمن الإخبار بأن المتكلم أراد المحذوف ولم ينصب على إرادته دليلا لا صريحا ولا لزومها . فدعوى المدعي أنه أراده: دعوى باطلة .

وأما قوله : « بردى يصفق » فليس أيضا من باب حذف المضاف بل أراد ببردى النهر ، وهو مذكر ، فوصفه بصفة المذكر فقال : « يصفق » فلم يذكر بناء على حذف المضاف ، وإنما ذكر بناء على أن بردى المراد به النهر .

فإن قلت : فلابد من حذف مضاف لأنهم إنما يسقون ماء بردى لا نفس النهر .

قلت : هذا إن كان مراد الشاعر فلم يلزم منه صحة ما ادعاه من أنه ذكر « يصفق » باعتبار الماء المحذوف ، فإن تذكيره إنما يكون باعتباره إرادة النهر وهو مذكر ، فلا يدل على ما ادعوه .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم : « هذان حرام » ففي إفراد الخبر سر بديع جدا ، وهو التنبيه ، والإشارة ، على أن كل واحد منهما بمفرده موصوف بأنه حرام ، فلو ثنى الخبر لم يكن فيه تنبيه على هذا المعنى . فلهذا أفرد الخبر ، فكأنه قال : كل واحد من هذين حرام فدل إفراد الخبر على إرادة الإخبار عن كل واحد بمفرده .

فتأمله فإنه من بديع اللغة . وقد تقدم بيانه في هذا التعليق في مسألة « كلا وكلتا ». وأن قولهم : كلاهما قائم بالإفراد ، لا يدل على أن « كلا » مفرد كما ذهب إليه البصريون بل هو مثنى حقيقة ، وإنما أفردوا الخبر للدلالة على أن الإخبار عن كل واحد منهما بالقيام . وقد قررنا ذلك بما فيه كفاية .

فصـــل

المسلك الرابع : أنه من باب حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، كأنه قال : إن رحمة الله شيء قريب من المحسنين ، أو لطف قريب ، أو بر قريب ونحو ذلك وحذف الموصوف كثير . فمنه قول الشاعر :

قامت تبكيه على قبره من لي من بعدك ياعامر ؟
تركتني في الدار ذا غربة قد ذل من ليس له ناصر

المعنى تركتني شخصاً أو إنساناً ذا غربة . ولولا ذلك لقالت تركتني ذات غربة . ومنه قول الآخر :

فلو أنك في يوم الرخاء سألتني فراقك لم أبخل وأنت صديق

أراد وأنت شخص أو إنسان صديق .

وعلى هذا المسلك حمل سيبويه قولهم للمرأة : حائض وطامث وطالق . فقال : كأنهم قالوا : شيء حائض وشيء طامث ، وهذا المسلك أيضا ضعيف لثلاثة أوجه :

أحدها : أن حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه إنما يحسن بشرطين أن تكون الصفة خاصة يعلم ثبوتها لذلك الموصوف بعينه لا لغيره .

الثاني : أن تكون الصفة قد غلب استعمالها مفردة على الموصوف كالبر والفاجر والعالم والجاهل والمتقي والرسول والنبي ونحو ذلك مما غلب استعمال الصفة فيه مجردة عن الموصوف فلا يكاد يجيء ذكر الموصوف معها كقوله تعالى : (إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم) [الانفطار : ١٣،١٤] وقوله تعالى : (إن المتقين في جنات وعيون) [الذاريات : ١٥] وقوله : (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) [الأحزاب : ٣٥] وقوله (والكافرون هم الظـالمون) [البقرة : ٢٥٤] وهو كثير جداً في القرآن وكلام العرب . وبدون ذلك لا يحسن

الاقتصار على الصفة فلا يحسن أن تقول : جاءني طويل ورأيت جميلا أو قبيحاً ، وأنت تريد جاءني رجل طويل ، ورأيت رجلا جميلا أو قبيحا ، ولا تقول سكنت في قريب ، تريد في مكان قريب مع دلالة السكنى على المكان .

الثاني : أن الشيء أعم المعلومات فإنه يشمل الواجب والممكن ، فليس في تقديره ولا في اللفظ به زيادة فائدة يكون الكلام بها فصيحا بليغا فضلا عن أن يكون بها في أعلى مراتب الفصاحة والبلاغة . فأي فصاحة وبلاغة في قول القائل في حائض وطامث وطالق : شيء حائض وشيء طامث وشيء طالق ؟ وهو لو صرح بهذا لاستهجنه السامع . فكيف يقدر في الكلام مع أنه لا يتضمن فائدة أصلا ؟ إذ كونه شيئاً أمر معلوم عام لا يدل على مدح ولا ذم ولا كمال ولا نقصان .

وينبغي أن يتفطن هاهنا لأمر لابد منه وهو أنه لا يجوز أن يحمل كلام الله عز وجل ويفسر بمجرد الاحتمال النحوي الإعرابي الذي يحتمله تركيب الكلام ويكون الكلام به له معنى ما ، فإن هذا مقام غلط فيه أكثر المعربين للقرآن فإنهم يفسرون الآية ويعربونها بما يحتمله تركيب تلك الجملة ويفهم من ذلك التركيب أي معنى اتفق وهذا غلط عظيم يقطع السامع بأن مراد القرآن غيره ، وإن احتمل ذلك التركيب هذا المعنى في سياق آخر وكلام آخر ، فإنه لا يلزم أن يحتمله القرآن، مثل قول بعضهم في قراءة من قرأ (والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا) [النساء:١] بالجر : إنه قسم . ومثل قول بعضهم في قوله تعالى : (وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام) [البقرة : ٢١٧] أن المسجد مجرور بالعطف على الضمير المجرور في به ، ومثل قول بعضهم في قوله تعالى : (لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة) [النساء : ١٦٢] أن المقيمين مجرور بواو القسم . ونظائر ذلك أضعاف أضعاف ما ذكرنا وأوهى بكثير . بل للقرآن عرف خاص ومعان معهودة لا يناسبه تفسيره بغيرها ولا يجوز تفسيره بغير عرفه والمعهود من معانيه فإن نسبة معانيه إلى المعاني كنسبة ألفاظه إلى الألفاظ بل أعظم ، فكما أن ألفاظه ملوك الألفاظ وأجلها

وأفصحها ولها من الفصاحة أعلى مراتبها التي يعجز عنها قدر العالمين فكذلك معانيه أجل المعاني وأعظمها وأفخمها ، فلا يجوز تفسيره بغيرها من المعاني التي لا تليق به بل غيرها أعظم منها وأجل وأفخم . فلا يجوز حمله على المعاني القاصرة بمجرد الاحتمال النحوي الإعرابي .

فتدبر هذه القاعدة ولتكن منك على بال فإنك تنتفع بها في معرفة ضعف كثير من أقوال المفسرين وزيفها وتقطع أنها ليست مراد المتكلم تعالى بكلامه . وسنزيد هذا إن شاء الله تعالى بيانا وبسطاً في الكلام على أصول التفسير . فهذا أصل من أصوله بل هو أهم أصوله .

الوجه الثالث : أن طالقا وحائضاً وطامثاً إنما حذفت تاؤه لعدم الحاجة إليها فإن التاء إنما دخلت للفرق بين المذكر والمؤنث في محل اللبس ، فإذا كانت الصفة خاصة بالمؤنث فلا لبس ، فلا حاجة إلى التاء هذا هو الصواب في ذلك وهو المذهب الكوفي .

فإن قلت : هذا خلاف مذهب سيبويه .

قلت : فكان ماذا ؟ وهل يرتضي محصل برد موجب الدليل الصحيح لكونه خلاف قول عالم معين ؟ هذه طريقة الخفافيش . فأما أهل البصائر فإنهم لا يردّون الدليل وموجبه بقول معين أبدا ، وقليل ماهم . ولا ريب أن أبا بشر[1] رحمه الله ضرب في هذا العلم بالقدح المعلى وأحرز من قصبات سبقه واستولى من أمده على مالم يستول عليه غيره فهو المصلي في هذا المضمار ، ولكن لا يوجب ذلك أن يعتقد أنه أحاط بجميع كلام العرب ، وأنه لاحق إلا ما قاله . وكم لسيبويه من نص قد خالفه جمهور أصحابه فيه والمبرزون منهم ؟ ولو ذهبنا نذكر ذلك لطال الكلام به .

ولا تنس قوله في باب[2] الصفة المشبهة : مررت برجل حسن وجهه

---

(١) يعني سيبويه رحمه الله تعالى مرت ترجمته رقم (٨٠) ص (١٣٥) .

(٢) انظر « الكتاب » لسيبويه (١٩٤/١) .

بإضافة حسن إلى الوجه والوجه إلى الضمير ، ومخالفة جميع البصريين والكوفيين في ذلك ، فسيبويه رحمه الله ممن يؤخذ من قوله ويترك وأما أن نعتقد صحة قوله في كل شيء فكلا .

وسنفرد إن شاء الله كتاباً للحكومة بين البصريين والكوفيين فيما اختلفوا فيه وبيان الراجح من ذلك وبالله التوفيق والتأييد .

فإن قلت : يكفي في رد ما اخترتموه في طامث وحائض وطالق من المذهب الكوفي قوله تعالى : (يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت) [الحج : ٢] فهذا وصف يختص به الإناث وقد جاء بالتاء قلت : ليس في هذا ولله الحمد رد لهذا المذهب ولا إبطال له ، فإن دخول التاء ههنا يتضمن فائدة لا تحصل بدونها فتعين الإتيان بها ، وهي أن المراد بالمرضعة فاعلة الرضاع ، فالمراد الفعل لا مجرد الوصف ولو أريد الوصف المجرد بكونها من أهل الإرضاع لقيل : مرضع كحائض وطامث ألا ترى إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يقبل الله صلاة حائض إلا بخمار »[1] فإن المراد به الموصوفة بكونها من أهل الحيض لا من يجري دمها فالحائض والمرضع وصف عام يقال على من لها ذلك وصفا وإن لم يكن قائما بها ، ويقال على من قام بها بالفعل فأدخلت التاء ههنا إيذانا بأن المراد من تفعل الرضاع فإنها تذهل عما ترضعه لشدة هول زلزلة الساعة . وأكد هذا المعنى بقوله : ﴿ عما أرضعت ﴾ فعلم أن المراد المرضعة التي ترضع بالفعل لا بالقوة والتهيؤ . وترجيح هذا المذهب له موضع غير هذا .

---

(١) رواه أبو داود (٣٤٥/٢) في الصلاة ، باب : المرأة تصلي بغير خمار .
والترمذي (٢١٧/٢) في الصلاة باب : ما جاء « لا تقبل صلاةُ المرأة إلا بخمار » .
وابن ماجه الصحيح (١١٩/١) في الصلاة ، باب : ماجاء لا تقبل صلاة الحائض .... » ورواه الحاكم (٢٥١/١) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي .
وانظر تفصيل الكلام على الحديث في إرواء الغليل للألباني (٢١٤/١) وصححه .

فصــل

المسلك الخامس : أن هذا من باب اكتساب المضاف حكم المضاف إليه إذا كان صالحا للحذف والاستغناء عنه بالثاني ، كقول الشاعر :

لما أتى خبر الزبير تواضعت   سور المدينة والجبال الخشع

وقال الآخر :

مشين كما اهتزت رماح تسفهت   أعاليها مر الرياح النواسم

وقال الآخر :

بغي النفوس معيدة نعماءها   نقما، وإن عمهت وطال غرورها

فأنث في الأول « السور » المضاف إلى المدينة ، وفي الثاني « المر » المضاف إلى الرياح وفي الثالث « البغي » المضاف إلى النفوس لتأنيث المضاف إليه مع أن التذكير أصل والتأنيث فرع فحمل الأصل على الفرع ، فلأن يجوز تذكير المؤنث لإضافته إلى غير مؤنث أولى ، لأنه حمل للفرع على الأصل ، ومن الأول أيضاً قول الشاعر :

وتشرق بالأمر الذي قد أذعته   كما شرقت صدر القناة من الدم

فأنث الصدر لإضافته إلى القناة . وأنشدني بعض أصحابنا لأبي محمد بن حزم في هذا المعنى بإسناد لا يحضرني :

تجنب صديقاً مثل ما واحذر الذي   تواه كعمرو بين عرب وأعجم
فإن صديق السوء يردي وشاهدي   كما شرقت صدر القناة من الدم

ومنه قول النابغة :

حتى استغثن بأهل الملح ضاحية   يركضن قد قلقت عقد الأطانيب

ومنه قول لبيد :

فمضى وقدمها ، وكانت عادة منه إذا هي عرّدت أقدامها

وهذا المسلك – وإن كان قد ارتضاه غير واحد من الفضلاء – فليس بقوي ؛ لأن إنما يعرف مجيئه في الشعر ، ولا يعرف في الكلام الفصيح منه إلا النادر ، كقولهم : ذهبت بعض أصابعه . والذي قواه هاهنا شدة اتصال المضاف بالمضاف إليه ، وكونه جزءه حقيقة ، فكأنه قال : ذهبت إصبع وإصبعان من أصابعه ، وحمل القرآن على المكثور الذي خلافه أفصح منه : ليس بسهل

فصـــل

المسلك السادس : أن هذا من باب الاستغناء بأحد المذكورين عن الآخر ، لكونه تبعا له ومعنى من معانيه . فإذا ذكر أغنى عن ذكره لأنه يفهم منه .

ومنه في أحد الوجوه قوله تعالى : (إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) [الشعراء : ٤] فاستغنى عن خبر الأعناق بالخبر عن أصحابها .

ومنه في أحد الوجوه قوله تعالى : (والله ورسوله أحق أن يرضوه) [التوبة : ٦٢] المعنى : والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك ، فاستغني بإعادة الضمير إلى الله إذ إرضاؤه هو إرضاء رسوله فلم يحتج أن يقول : يرضوهما .

فعلى هذا يكون الأصل في الآية : إن الله قريب من المحسنين . وأن رحمة الله قريبة من المحسنين فاستغنى بخبر المحذوف عن خبر الموجود وسوغ ذلك ظهور المعنى .

وهذا المسلك مسلك حسن إذا كسي تعبيرا أحسن من هذا . وهو مسلك لطيف المنزع دقيق على الإفهام . وهو من أسرار القرآن .

والذي ينبغي أن يعبر عنه به : أن الرحمة صفة من صفات الرب تبارك وتعالى والصفة قائمة بالموصوف لا تفارقه لأن الصفة لا تفارق موصوفها . فإذا كانت قريبة من المحسنين فالموصوف تبارك وتعالى أولى بالقرب منه ، بل قرب رحمته تبع لقربه هو تبارك وتعالى من المحسنين وقد تقدم في أول الآية أن الله تعالى قريب من أهل الإحسان بإثابته ومن أهل سؤاله بإجابته ، وذكرنا شواهد ذلك ، وأن الإحسان يقتضي قرب الرب من عبده كما أن العبد قرب من ربه بالإحسان وأن من تقرب منه شبراً تقرب الله منه ذراعا ومن تقرب منه ذراعا تقرب منه باعا . فالرب تبارك وتعالى قريب من المحسنين ورحمته قريبة منهم ، وقربه يستلزم قرب رحمته . ففي حذف التاء هاهنا تنبيه على هذه الفائدة العظيمة الجليلة ، وأن الله تعالى قريب من المحسنين وذلك يستلزم القربين قربه وقرب رحمته . ولو قال إن رحمة الله قريبة من المحسنين لم يدل على قربه تعالى منهم ، لأن قربه تعالى أخص من قرب رحمته والأعم لا يستلزم الأخص بخلاف قربه ، فإنه لما كان أخص استلزم الأعم وهو قرب رحمته فلا تستهن بهذا المسلك . فإن له شأنا . وهو متضمن لسر بديع من أسرار الكتاب . وما أظن صاحب هذا المسلك قصد هذا المعنى ولا ألم به . وإنما أراد أن الإخبار عن قرب الله تعالى من المحسنين كاف عن الإخبار عن قرب رحمته منهم .

فهو مسلك سابع : في الآية وهو المختار ، وهو من أليق ما قيل فيها .

وإن شئت قلت قربه تبارك وتعالى من المحسنين، وقرب رحمته منهم متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر فإذا كانت رحمته قريبة منهم فهو أيضاً قريب منهم ، وإذا كان المعنيان متلازمين صح إرادة كل واحد منهما ، فكان في بيان قربه سبحانه من المحسنين من التحريض على الإحسان ، واستدعائه من النفوس ، وترغيبها فيه غاية حظ لها وأشرفه وأجله على الإطلاق ، وهو أفضل إعطاء أعطيه العبد وهو قربه تبارك وتعالى من عبده ؛ الذي هو غاية الأماني ونهاية الآمال وقرة العيون وحياة القلوب وسعادة العبد كلها فكان في العدول عن قريبة إلى قريب من استدعاء الإحسان وترغيب النفوس فيه مالا يتخلف بعده إلا من غلبت عليه شقاوته ، ولا قوة إلا بالله .

فصل

المسلك الثامن : أن الرحمة مصدر والمصادر ، كما لا تثنى ولا تجمع فحقها أن لا تؤنث وهذا المسلك ضعيف جدا فإن الله سبحانه حيث ذكر الرحمة أجرى عليها التأنيث كقوله : (ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون) وقوله فيما حكى عن رسوله صلى الله عليه وسلم : « إن رحمتي غلبت أو سبقت غضبي »[1] ولو كان حذف التاء من الرحمة لكونها مصدراً والمصادر لاحظ للتأنيث فيها ؛ لم يعد عليها الضمير إلا مذكرا ، وكذلك ما كان من المصادر بالتاء كالقدرة والإرادة والحكمة والهمة ونظائرها وفي بطلان ذلك دليل على بطلان هذا المسلك .

فصل

المسلك التاسع : أن القريب يراد به شيئان **أحدهما** : النسب والقرابة . فهذا بالتاء تقول فلانة قريبة لي **والثاني** : قرب المكان وهذا بلا تاء تقول جلست فلانة قريبا مني ولا تقول قريبة مني . وهذا مسلك الفراء رحمه الله وجماعة وهو أيضاً ضعيف فإن هذا إنما هو إذا كان لفظ القريب ظرفا ، فإنه يذكر كما قال تقول : جلست المرأة مني قريبا . فأما إذا كان اسما محضا فلا .

---

(١) رواه البخاري في مواضع منها: (١٣/٣٩٥،٤١٥) في التوحيد، باب : قول الله تعالى : ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ وباب ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ .
ومسلم (٥/٥٩٥) في التوبة ، باب : سعة رحمة رب العالمين .

فصــل

المسلك العاشر : أن تأنيث الرحمة لما كان غير حقيقي ساغ فيه حذف التاء ، كما تقول طلع الشمس وطلعت . وهذا المسلك أيضاً فاسد فإن هذا إنما يكون إذا أسند الفعل إلى ظاهر المؤنث . فأما إذا أسند إلى ضميره فلابد من التاء كقولك : الشمس طلعت وتقول الشمس طالعة ، ولا تقول طالع لأن في الصفة ضميرها فهي بمعنى الفعل في ذلك سواء .

فصــل

المسلك الحادي عشر : أن قريبا مصدر لا وصف وهو بمنزلة النقيض فجرد من التاء ، لأنك إذا أخبرت عن المؤنث بالمصدر لم تلحقه التاء . ولهذا تقول : امرأة عدل ، ولا تقول : عدلة ، وامرأة صوم وصلاة وصدق وبر ونظائره .

وهذا المسلك من أفسد ما قيل في « قريب » فإنه لا يعرف استعماله مصدرا أبداً ، وإنما هو وصف والمصدر هو « قرب » لا « قريب » .

فصــل

المسلك الثاني عشر : أن فعيلا وفعولا مطلقا يستوي فيهما المذكر والمؤنث حقيقيا كان أو غير حقيقي ، كما قال امرؤ القيس :

برهرهة رودة رخصة	كخرعوبة البانة المنفطر
قطيع القيام ، فتور الكلام	تفتر عن ذي عزوب خصر

وقال أيضاً :

له الويل إن أمسى ولا أم هاشم قريب ولا السباسة ابنة يشكرا

وقال جرير :

أتنفعك الحياة وأمّ عمرو قريب لا تزور ولا تزار ؟

وقال جرير أيضاً :

كأن لم نحارب يابثين لو أنها تكشف غماها وأنت صديق

وقال أيضا :

دعون الهوى ثم ارتهن قلوبنا بأسهم أعداء ، وهن صديق

قالوا : وشواهد ذلك كثيرة .

وفي هذا المسلك غنية عن تلك التعسفات والتأويلات .

وهذا المسلك ضعيف أيضا . وممن رده أبو عبد الله بن مالك ، فقال : هذا القول ضعيف ، لأن قائله إما أن يريد أن فعيلا في هذا الموضع وغيره يستحق ما يستحقه فعول من الجري على المذكر والمؤنث بلفظ واحد ، وإما أن يريد أن فعيلا في هذا الموضع خاصة محمول على فعول . فالأول مردود لإجماع أهل العربية على التزام التاء في ظريفة وشريفة وأشباههما وزنا ودلالة ولذلك احتاج علماؤهم أن يقولوا في قوله تعالى : (وما كانت أمك بغيًّا) [مريم : ٢٨] وقوله : (ولم أك بغيا) [مريم : ٢٠] أن الأصل هو بغوي على فعول ، فلذلك لم تلحقه التاء ، ثم أعل بإبدال الواو ياء والضمة كسرة ، فصار لفظه كلفظ فعيل ، ولو كان فعيلا أصلا للحقته التاء ، فقيل : لم أك بغية . والثاني أيضاً مردود لأن لفعيل على فعول من المزايا ما لا يليق به أن يكون تبعا له ، بل العكس أولى أن يكون فعولا تبعا لفعيل ، ولأنه يتضمن حمل فعيل على فعول ، وهما مختلفان لفظا ومعنى أما اللفظ فظاهر ، وأما المعنى فلأن قريبا لا مبالغة فيه لأنه يوصف به كل ذي قرب وإن قل ، وفعول لابد فيه من المبالغة .

وأيضا فإن الدال على المبالغة لابد أن يكون له بنية لا مبالغة فيها ، ثم يقصد

به المبالغة ، فتغير بنيته كضارب وضروب ، وعالم وعليم . وقريب ليس كذلك فلا مبالغة فيه .

وأما بيت امرىء القيس فلا حجة فيه لوجوه :

أحدها : أنه نادر فلا حكم له فلا كثرت صوره ولا جاء على الأصل كاستجوذ واستوثق البعير ، وأغيمت السماء وأغور وأحول ، وما كان كذلك فلا حكم له .

الثاني : أن يكون أراد قطيعة القيام ، ثم حذف التاء للإضافة ، فإنها يجوز حذفها عند الفراء وغيره ، وعليه حمل قوله تعالى : (وإقام الصلاة) [الأنبياء : ٧٣] أي إقامتها ، لأن المعروف في ذلك إنما هو لفظ الإقامة ، ولا يقال : « إقام » دون إضافة كما لا يقال : « إراد » في إرادة ولا « إقال » في إقالة ، لأنهم جعلوا هذه التاء عوضاً عن ألف إفعال أو عينه ، لأن أصل إقامة إقوام فنقلت حركة العين إلى الفاء فانقلبت ألفاً فالتقت ألفان فحذفت إحداهما فجاءوا بالتاء عوضاً فلزمت إلا مع الإضافة ، فإن حذفها جائز عند قوم قياساً ، وعند آخرين سماعاً .

ومثلها في اللزوم : تاء عدة وزنة . وأصلهما وعد ووزن ، فحذفت الواو ، وجعلت التاء عوضاً منها فلزمت . وقد تحذف للإضافة كقول الشاعر .

إن الخليط أجدوا البين وانجردوا وأخلفوك عِدَ الأمر الذي وعدوا

أي أخلفوك عدة الأمر ، فحذف التاء .

وعلى هذه اللغة قرأ بعض القراء[1] (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عُدَّهُ) [التوبة : ٤٦] بالهاء أي عدته . فحذف التاء .

---

(١) « حكاه أبو الفتح ابن جني – رحمه الله تعالى – قال : « ... رواه ابن وهب عن حرملة بن عمران أنه سمع محمد بن عبد الملك يقرأ : « لأعدوا له عُدَّهُ » قال – ابن جني –: المستعمل في هذا المعنى العُدّةُ بالتاءِ ، ولم يمر بنا في هذا الموضع العُدّ ، إنما العُدّ : البثر يخرج في الوجه .

وطريقه أن يكون أراد : ولو أرادو الخروج لأعدوا له عُدَّته : أي تأهبوا له ، إلا أنه حذف تاء التأنيث وجعل هاء الضمير كالعوض منها ... » انظر « المحتسب » لابن جني (٢٩٢/١) .

الثالث : أن يكون فعيل في قوله : « قطيع القيام » بمعنى مفعول ، لأن صاحب المحكم حكى أنه يقال قطعه وأقطعه إذا بكّته ، وقطع هو فهو قطيع القول . فقطيع على هذا بمعنى مقطوع أي مبكت ، فحذف التاء على هذا التوجيه ليس مخالفاً للقياس .

وإن جعل قطيعاً مبنياً على قَطُع كسريع من سرع : فحقه على ذلك أن يلحقه التاء عند جريه على المؤنث إلا أنه شبه بفعيل الذي هو بمعنى مفعول ، فأجري مجراه .

فهذا تمام اثني عشر مسلكا في هذه الآية أصحها المسلك المركب من السادس والسابع . وباقيها ضعيف واه ومحتمل والمبتدي والمقلد لا يدرك هذه الدقائق والفاضل المنصف لا يخفى عليه قويها من ضعيفها . وليكن هذا آخر الكلام على الآية . والله أعلم[١] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۞ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف : ٥٧، ٥٨] .

أخبر سبحانه أنهما إحياءان ، وأن أحدهما معتبر بالآخر مقيس عليه . ثم ذكر قياساً آخر : أن من الأرض ما يكون أرضا طيبة . فإذا أنزلنا عليها الماء أخرجت نباتها بإذن ربها . ومنها ما يكون أرضا خبيثة ، لا يخرج نباتها إلا نكداً ، أي قليلا غير منتفع به . فهذه إذا أنزل عليها الماء لم تخرج ما أخرجت الأرض الطيبة .

فشبه سبحانه الوحي الذي أنزله من السماء على القلوب بالماء الذي أنزله على الأرض ، لحصول الحياة بهذا وهذا .

---

(١) بدائع الفوائد (٣/٢٢-٣٥) .

وشبه القلوب بالأرض ، إذ هي محل الأعمال ، كما أن الأرض محل النبات ، وأن القلب الذي لا ينتفع بالوحي ، ولا يزكو عليه ، ولا يؤمن به كالأرض التي لا تنتفع بالمطر ، ولا تخرج نباتها به إلا قليلاً ، لا ينفع .

وأن القلب الذي آمن بالوحي وزكا عليه ، وعمل بما فيه كالأرض التي أخرجت نباتها بالمطر .

فالمؤمن إذا سمع القرآن وعقله ، وتدبره بان أثره عليه ، فشبه بالبلد الطيب الذي يُمرح ويخصب ، ويحسن أثر المطر عليه ، فينبت من كل زوج كريم ، والمعرض عن الوحي عكسه . والله الموفق[1] .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ ﴾ [الأعراف : ٦٠،٦١] .

معناه لا ضلالة واحدة بي ويلزم من ذلك أن لا يثبت له فرد من الضلال البتة ولا كذلك لو قال ليس بي ضلال ؛ لأن اسم الجنس يقال على الكثير والقليل فيجوز أن يكون المنفي هو الكثير[2] .

قول الله تعالى في اللواط : ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٠] .

تبين له تفاوت ما بينهما ، وأنه سبحانه نكر الفاحشة في الزنى أي هو فاحشة من الفواحش وعرفها في اللواط وذلك يفيد أنه جامع لمعاني اسم الفاحشة ، كما تقول : زيد الرجل ونعم الرجل زيد ، أي : أتأتون الخصلة التي استقر فحشها عند كل أحد ، فهي لظهور فحشها وكماله غنية عن ذكرها بحيث لا ينصرف الاسم إلى غيرها ، وهذا نظير قول فرعون لموسى : (وفعلت فعلتك التي فعلت) [الشعراء : ١٩] .

---

(١) إعلام الموقعين (١/١٨٧-١٨٨) .

(٢) الفوائد المشوق (١٨٣) .

أي الفعلة الشنعاء الظاهرة المعلومة لكل أحد ثم أكد سبحانه شأن فحشها بأنها لم يعلمها أحد من العالمين قبلهم فقال : ﴿ **ما سبقكم بها من أحد من العالمين** ﴾ ثم زاد في التأكيد بأن صرح بما تشمئز منه القلوب وتنبو عنه الأسماع وتنفر منه الطباع أشد نفرة وهو إتيان الرجل رجلاً مثله ينكحه كما ينكح الأنثى فقال : ﴿ **إنكم لتأتون الرجال** ﴾ [الأعراف : ٨١] . ثم نبه عن استغنائهم عن ذلك وأن الحامل لهم عليه ليس إلا مجرد الشهوة لا الحاجة التي مال لأجلها الذكر إلى الأنثى، من قضاء الوطر، ومن لذة الاستمتاع، وحصول المودة والرحمة التي تنسى المرأة لها أبويها، وتذكر بعلها، وحصول النسل الذي هو حفظ هذا النوع الذي هو أشرف المخلوقات، وتحصين المرأة، وقضاء وطرها، وحصول علاقة المصاهرة التي هي أخت النسب وقيام الرجال على النساء ، وخروج أحب الخلق إلى الله من جماعهن كالأنبياء والأولياء والمؤمنين ومكاثرة[1] النبي صلى الله عليه وسلم الأنبياء بأمته إلى غير ذلك من مصالح النكاح والمفسدة التي في اللواط تقاوم ذلك كله وتربي عليه بما لا يمكن حصر فساده ولا يعلم تفصيله إلا الله ، ثم أكد قبح ذلك بأن اللوطية عكسوا فطرة الله التي فطر الله عليها الرجال وقلبوا الطبيعة التي ركبها الله في الذكور وعكسوا الفطرة والطبيعة فأتوا الرجال شهوة من دون النساء ولهذا قلب الله سبحانه ديارهم فجعل عاليها سافلها وكذلك قلبوا هم ونكسوا في العذاب على رؤوسهم ، ثم أكد سبحانه قبح ذلك بأن حكم عليهم بالإسراف وهو مجاوزة الحد فقال : ﴿ **بل أنتم قوم مسرفون** ﴾ [الأعراف : ٨١] فتأمل هل جاء مثل ذلك أو قريب منه في الزنى وأكد سبحانه ذلك عليهم بقوله : (ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث) [الأنبياء : ٧٤] . ثم أكد سبحانه عليهم الذم بوصفين في غاية القبح فقال : (إنهم كانوا قوم سوء فاسقين) [الأنبياء : ٧٤] .

---

(١) يشير للحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (١٥٨/٣) عن أنس رضي الله عنه .
ورواه أبو داود : (٤٥/٦) في النكاح ، باب : النهي عن تزويج من لم يلد من النساء .
والنسائي (٦٥/٦،٦٦) في النكاح ، باب : كراهية تزويج العقيم .
وانظر تخريجه في آداب الزفاف للألباني (ص ١٣٢) .

وسماهم مفسدين في قول نبيهم : (رب انصرني على القوم المفسدين) [العنكبوت : ٣٠] . وسماهم ظالمين في قول الملائكة لإبراهيم : (إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين) [العنكبوت : ٣١] . فتأمل من عوقب بمثل هذه العقوبات ، ومن ذمه الله بمثل هذه المذمات ولما جادل فيهم خليله إبراهيم الملائكة ، وقد أخبروه بإهلاكهم قيل له : (ياإبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود)[1] [هود : ٧٦] .

قال تعالى إخبارا عن نبيه شعيب أنه قال لقومه : ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ﴾ [الأعراف : ٨٩] . وهذا يبطل تأويل القدرية المشيئة في مثل ذلك بمعنى الأمر فقد علمت أنه من الممتنع على الله أن يأمر بالدخول في ملة الكفر والشرك به ولكن استثنوا بمشيئته التي يضل بها من يشاء ويهدي من يشاء ثم قال شعيب ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ فرد الأمر إلى مشيئته وعلمه فإن له سبحانه في خلقه علماً محيطاً ومشيئته نافذة وراء ما يعلمه الخلائق فامتناعنا من العود فيها هو مبلغ علومنا ومشيئتنا ولله علم آخر ومشيئة أخرى وراء علومنا ومشيئتنا فلذلك رد الأمر إليه[2] .

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ ﴾[الأعراف : ٩٩] . إنما هو في حق الفجار والكفار ومعنى الآية: فلا يعصي ويأمن مقابلة الله على مكر السيئات بمكره به إلا القوم الخاسرون والذي يخافه العارفون بالله من مكره أن يؤخر عنهم عذاب الأفعال فيحصل منهم نوع اغترار فيأنسوا بالذنوب فيجيئهم العذاب على غرة وفترة[3] .

قال الله تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٠١] .

(١) الداء والدواء (٢٥٨-٢٦٠) .
(٢) شفاء العليل (٦٤) .
(٣) الفوائد (١٦١) .

وفي هذه الآية ثلاثة أقوال :

أحدها : قال أبو إسحاق : هذا إخبار عن قوم لا يؤمنون كما قال عن نوح : (إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) [هود : ٣٦] . واحتج على هذا بقوله : ﴿ **كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين** ﴾ قال : وهذا يدل على أنه قد طبع على قلوبهم .

وقال ابن عباس : فما كان أولئك الكفار ليؤمنوا عند إرسال الرسل بما كذبوا يوم أخذ ميثاقهم حين أخرجهم من ظهر آدم فآمنوا كرهاً ، وأقروا باللسان وأضمروا التكذيب .

وقال مجاهد : فما كانوا لو أحييناهم بعد هلاكهم ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل هلاكهم .

قلت : وهو نظير قوله : (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) [الأنعام : ٢٨] .

وقال آخرون : لما جاءتهم رسلهم بالآيات التي اقترحوها وطلبوها ماكانوا ليؤمنوا بعد رؤيتها ومعاينتها فمنعهم تكذيبهم السابق بالحق لما عرفوه من الإيمان به بعد ذلك وهذه عقوبة من رد الحق أو أعرض عنه فلم يقبله فإنه يصرف عنه ويحال بينه وبينه ويقلب قلبه عنه ، فهذا إضلال العقوبة وهو من عدل الرب من عبده وأما الإضلال السابق الذي ضل به عن قبوله أولاً والاهتداء به فهو إضلال ناشيء عن علم الله السابق في عبده أنه لا يصلح للهدى ولا يليق به وأن محله غير قابل له فالله أعلم حيث يضع هداه وتوفيقه .

كما هو أعلم حيث يجعل رسالته فهو أعلم حيث يجعلها أصلاً وميراثاً وكما أنه ليس كل محل أهلاً لتحمل الرسالة عنه وأدائها إلى الخلق فليس كل محل أهلاً لقبولها والتصديق بها[1] .

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾ [الأعراف : ١١٥] .

---

(١) شفاء العليل (٣١) .

قولهم : ياموسى إما أن تلقي تخيير منهم له وحسن أدب راعوه معه كما يفعل أرباب الصناعات إذا تلاقوا في تقديم بعضهم على بعض كالمتناظرين قبل أن يتخاوضوا في الجدال وإنما قالوا – وإما أن نكون نحن الملقين – ولم يقولوا وإما أن نلقي كما قالوا – يا موسى إما أن تلقي – لرغبتهم في أن يلقوا قبله وتشوفهم إلى التقدم عليه وذلك لما فيه من تأكيد الضمير المتصل بالمنفصل[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

إن إرادة الإلقاء قبل موسى لم يكن معلوماً عنده لأنهم لم يصرحوا بما في أنفسهم من ذلك لكنهم لما عدلوا عن مقالة خطابهم لموسى إلى ماهو توكيد ما هو لهم بالضميرين علم أنهم يريدون التقدم عليه والإلقاء قبله لأن من شأن مقابلة خطابهم لموسى عليه الصلاة والسلام بمثله أن يقولوا إما أن تلقي وإما أن نلقي لتكون الجملتان متقابلتين فحيث قالوا عن أنفسهم – وإما أن نكون نحن الملقين – استدل بذلك على إرادتهم الإلقاء قبله فهذه معان لطيفة ورموز غامضة لا ينتبه لها إلا الفطن اللبيب فاعرفها[2] .

وكذلك حكى الله سبحانه عن قوم فرعون فقال : ﴿ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأعراف: ١٣١]. حتى إذا أصابهم الخصب والسعة والعافية قالوا لنا هذه أي نحن الجديرون الحقيقون به ونحن أهله وإن أصابهم بلاء وضيق وقحط ونحوه قالوا : هذا بسبب موسى وأصحابه أصبنا بشؤمهم ونفض علينا غبارهم يقوله المتطير لمن يتطير به فأخبر سبحانه أن طائرهم عنده ، كما قال تعالى عن أعداء رسوله صلى الله عليه وسلم (وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك) [النساء : ٧٨] . فهذه ثلاثة مواضع حكى فيها التطير عن أعدائه وأجاب سبحانه عن تطيرهم بموسى وقومه أن طائرهم عند الله لا بسبب موسى وأجاب عن تطير رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : (قل كل من عند الله)

---

(١) الفوائد المشوق ٢٠٤ .

(٢) الفوائد المشوق (٢٠٦،٢٠٧) .

وأجاب عن الرسول بقوله (قالوا طائركم معكم) [يس : ١٩] وأما قوله (ألا إنما طائركم عند الله) فقال ابن عباس[1] طائرهم ما قضي عليهم وقدر وفي رواية : شؤمهم عند الله ومن قبله أي إنما جاءهم الشؤم من قبله بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله وقال أيضاً أن الأرزاق والأقدار تتبعكم[2] .

فقال له ربه تبارك وتعالى : ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

وبيان الدلالة[3] من هذه الآية من وجوه عديدة :

أحدها : أنه لا يظن بكليم الرحمن ورسوله الكريم عليه أن يسأل ربه مالا يجوز عليه ، بل هو من أبطل الباطل وأعظم المحال وهو عند فروخ اليونان والصابئة الفرعونية بمنزلة من يسأله أن يأكل ويشرب وينام ونحو ذلك مما يتعالى الله عنه فيالله العجب كيف صار أتباع الصابئة والمجوس والمشركين عباد الأصنام وفروخ الجهمية والفرعونية أعلم بالله تعالى من مؤسى بن عمران وبما يستحيل عليه ويجب له وأشد تنزيهاً له منه .

الوجه الثاني : أن الله لم ينكر عليه سؤاله ولو كان محالاً لأنكره عليه ولهذا لما سأل إبراهيم الخليل ربه تبارك وتعالى أن يريه كيف يحيي الموتى لم ينكر عليه[4] ولماسأل عيسى بن مريم ربه إنزال المائدة من السماء لم ينكر[5] سؤاله ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر عليه سؤاله وقال : (إني أعظك أن تكون من

---

(١) انظر تفسير الطبري (٩/٢٩،٣٠) .
والدر المنثور (٣/٥١٨،٥١٩) .

(٢) مفتاح دار السعادة (٥٨٧) .

(٣) أي الدلالة على رؤية المؤمنين ربهم تبارك وتعالى بأبصارهم جهرة، وذلك يوم الدين جعلنا الله منهم برحمته .

(٤) وذلك في قوله تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى ... ﴾ الآية (البقرة : ٢٦٠) .

(٥) وذلك في قوله تعالى ذكره : ﴿ قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء ... ﴾ الآية (المائدة : ١١٤) .

الجاهلين قال رب إني أعوذ بك أن أسئلك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين) [هود : ٤٦،٤٧] .

الوجه الثالث : أنه أجاب بقوله : لن تراني ولم يقل لا تراني ، ولا أني لست بمرئيٍّ ، ولا تجوز رؤيتي والفرق بين الجوابين ظاهر لمن تأمله وهذا يدل على أنه سبحانه وتعالى يرى ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار لضعف قوة البشر فيها عن رؤيته تعالى يوضحه :

الوجه الرابع : وهو قوله : ﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ﴾ فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت لتجليه له في هذه الدار فكيف بالبشر الضعيف الذي خلق من ضعف .

الوجه الخامس : أن الله تعالى قادر أن يجعل الجبل مستقراً مكانه وليس هذا بممتنع في مقدوره بل هو ممكن وقد علق به الرؤية ولو كانت محالاً في ذاتها لم يعلقها بالممكن في ذاته ولو كانت الرؤية محالاً لكان ذلك نظير أن يقول : إن استقر الجبل فسوف آكل وأشرب وأنام فالأمران عندكم سواء .

الوجه السادس : قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً** ﴾ وهذا من أبين الأدلة على جواز رؤيته تبارك وتعالى فإنه إذا جاز أن يتجلى للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب ، فكيف يمتنع أن يتجلى لأنبيائه ورسله وأوليائه في دار كرامته ويريهم نفسه فأعلم سبحانه وتعالى موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار ، فالبشر أضعف .

الوجه السابع : أن ربه سبحانه وتعالى قد كلمه منه إليه وخاطبه وناجاه وناداه ، ومن جاز عليه التكلم والتكليم أن يسمع مخاطبه كلامه معه بغير واسطة فرؤيته أولى بالجواز ، ولهذا لا يتم إنكار الرؤية إلا بإنكار التكليم وقد جمعت هذه الطوائف بين إنكار الأمرين ، فأنكروا أن يكلم أحداً أو يراه أحد ، ولهذا سأله موسى النظر إليه لما أسمعه كلامه وعلم نبي الله جواز رؤيته من وقوع خطابه وتكليمه ، فلم يخبره باستحالة ذلك عليه ، ولكن أراه أن ما سأله لا يقدر على

احتماله كما لم يثبت الجبل لتجليه وأما قوله تعالى : ﴿ **لن تراني** ﴾ فإنما يدل على النفي في المستقبل ، ولا يدل على دوام النفي ، ولو قيدت بالتأبيد فكيف إذا أطلقت قال تعالى : (ولن يتمنوه أبداً) [البقرة : ٩٥] مع قوله تعالى : (ونادوا يامالك ليقض علينا ربك)[1] [الزخرف : ٧٧] .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ﴾ [الأعراف : ١٤٣] أن الله سبحانه أراد أن يُري موسى صلى الله عليه وسلم من كمال عظمته ، وجلاله ، ما يعلم به أن القوة البشرية في هذه الدار لا تثبت لرؤيته ، ومشاهدته عياناً ؛ لصيرورة الجبل دكاً عند تجلي ربه سبحانه أدنى تجل ، كما رواه ابن جرير[2] في تفسيره من حديث حماد بن سلمة أخبرنا ثابت عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ **فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً** ﴾ قال حماد : « ووضع الإبهام على مفصل الخنصر الأيمن » فقال حميد لثابت أتحدّث بمثل هذا فضرب ثابت صدر حميد ضربة بيده وقال: «رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث به وأنا لا أحدث به » رواه الحاكم في صحيحه وقال : هو على شرط مسلم وهو كما قال[3] .

قال تعالى في صفة الكلام : ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف : ١٤٨] .

---

(١) حادي الأرواح (٢٢٩،٢٣٠) .

(٢) تفسير ابن جرير الطبري (٥٣/٩) .

ورواه الإمام أحمد رضي الله عنه (١٢٥/٣) .

والترمذي (٢٤٨/٥) في التفسير باب (٨) « ومن سورة الأعراف » .

وقال : حديث حسن غريب صحيح .

والحاكم (٣٢٠/٢،٣٢١) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي .

وقال ابن كثير « ورواه أبو محمد الحسن بن محمد بن علي الخلال عن محمد بن علي بن سويد عن أبي القاسم البغوي عن هدبة بن خالد عن حماد بن سلمة فذكره وقال : هذا إسناد صحيح لا علة فيه ... » تفسير ابن كثير (٢٦٢/٢،٢٦٣) .

ورواه ابن أبي عاصم في السنة (٢١٠/١) وما بعدها وصححه الألباني .

(٣) مدارج السالكين (١٠٠/٣) .

نبه بهذا الدليل على أن من لا يُكَلِّم ، ولا يهدي ، لا يصلح أن يكون إلها[١] .

وهذا هو مشهد[٢] موسى إذ يقول في خطابه لربه : ﴿ **أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين** ﴾ [الأعراف : ١٥٥] . أي : إن ذلك إلا امتحانك واختبارك ، كما يقال فتنت الذهب إذا امتحنته واختبرته ، وليس من الفتنة التي هي الفعل المسيء[٣] .

وقال رحمه الله تعالى :

قول موسى عليه السلام : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ ﴾ [الأعراف : ١٥٥] . أي امتحانك وابتلاؤك ، تضل بها من وقع فيها وتهدي من نجا منها[٤] .

قول الله تعالى: ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [الأعراف : ١٥٧].

إذا كان لا معنى عند نفاة الحكمة عن الرب ، والحسن والقبيح الفطريين للمعروف : إلا ما أمر به ، فصار معروفاً بالأمر فقط ، ولا للمنكر : إلا ما نهى عنه . فصار منكراً بنهيه فقط فأي معنى لقوله تعالى : ﴿ **يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر** ﴾ .

وهل حاصل ذلك زائد على أن يقال : يأمرهم بما يأمرهم به ، وينهاهم عما ينهاهم عنه ؟ .

وهذا كلام ينزه عنه كلام آحاد العقلاء ، فضلا عن كلام رب العالمين .

وهل دلت الآية إلا على أنه أمرهم بالمعروف الذي تعرفه العقول ، وتقر

(١) الصواعق المرسلة (٩١٤/٣) .
(٢) أي مشهد التوحيد والأمر .... .
(٣) طريق الهجرتين (١٥٥) .
(٤) إغاثة اللهفان (١٥٩/١) .

بحسنه الفطر ، فأمرهم بما هو معروف في نفسه عند كل عقل سليم . ونهاهم عما هو منكر في الطباع والعقول بحيث إذا عرض أمره ونهيه على العقل السليم قبله أعظم قبول ، وشهد بحسنه كما قال بعض الأعراب ، وقد سئل : بم عرفت أنه رسول الله ؟ فقال : ما أمر بشيء فقال العقل : ليته ينهى عنه . ولا نهى عن شيء ، فقال : ليته أمر به .

فهذا الأعرابي أعرف بالله ودينه ورسوله من هؤلاء ، وقد أقر عقله وفطرته بحسن ما أمر به وقبح ما نهي عنه ، حتى كان في حقه من أعلام نبوته وشواهد رسالته .

ولو كان جهة كونه معروفاً ومنكراً هو الأمر المجرد لم يكن فيه دليل . بل كان يطلب له الدليل من غيره .

ومن سلك ذلك المسلك الباطل لم يمكنه أن يستدل على صحة نبوته بنفس دعوته ودينه .

ومعلوم أن نفس الدين الذي جاء به ، والملة التي دعا إليها من أعظم براهين صدقه ، وشواهد نبوته . ومن يثبت لذلك صفات وجودية أوجبت حسنه وقبول العقول له ولضده صفات أوجبت قبحه ونفور العقل عنه ، فقد سد على نفسه باب الاستدلال بنفس الدعوة ، وجعلها مستدلا عليه فقط .

ومما يدل على صحة ذلك قوله تعالى : ﴿ **ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث** ﴾ [الأعراف : ١٥٨] فهذا صريح في أن الحلال كان طيباً قبل حله . وأن الخبيث كان خبيثاً قبل تحريمه . ولم يستفد طيب هذا وخبث هذا من نفس التحليل والتحريم لوجهين اثنين :

أحدهما : أن هذا عَلَم من أعلام نبوته التي احتج الله بها على أهل الكتاب فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ

ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] فلو كان الطيب والخبيث إنما استفيد من التحريم والتحليل لم يكن في ذلك دليل . فإنه بمنزلة أن يقال : يحل لهم ما يحل ، ويحرم عليهم ما يحرم . وهذا أيضاً باطل . فإنه لا فائدة فيه وهو **الوجه الثاني**.

فثبت أنه أحل ما هو طيب في نفسه قبل الحل ، فكساه بإحلاله طيباً آخر ، فصار منشأ طيبه من الوجهين معاً .

فتأمل هذا الموضع حق التأمل ، يطلعك على أسرار الشريعة ، ويشرفك على محاسنها ، وكمالها ، وبهجتها ، وجلالها . وأنه من الممتنع في حكمة أحكم الحاكمين : أن تكون بخلاف ما وردت به . وأن الله تعالى منزه عن ذلك ، كما يتنزه عن سائر ما لا يليق به[1] .

(١) مفتاح دار السعادة (٣٣٣،٣٣٢) .

« ذم الحيل والمكر ... المتضمن لتحليل ما حرم الله »

تعالى في قوله : ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ -إلى قوله- وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف : ١٦٣-١٦٧] .

إن الله تعالى أخبر [الأعراف : ١٦٣-١٦٧] عن أهل السبت من اليهود بمسخهم قردة ؛ لما احتالوا على إباحة ما حرمه الله تعالى من الصيد بأن نصبوا الشباك يوم الجمعة ، فلما وقع فيها الصيد أخذوه يوم الأحد ، قال بعض الأئمة : ففي هذا زجر عظيم لمن يتعاطى الحيل على المناهي الشرعية ممن يتلبس بعلم الفقه ، وهو غير فقيه ، إذ الفقيه هو من يخشى الله تعالى بحفظ حدوده ، وتعظيم حرماته ، والوقوف عندها ، ليس المتحيل على إباحة محارمه ، وإسقاط فرائضه ، ومعلوم أنهم لم يستحلوا ذلك تكذيباً لموسى عليه السلام ، وكفراً بالتوراة وإنما هو استحلال تأويل ، واحتيال ظاهره ظاهر الاتقاء وباطنه باطن الاعتداء ، ولهذا والله أعلم مُسخوا قردة لأن صورة القرد فيها شبه من صورة الإنسان ، وفي بعض ما يذكر من أوصافه شبه منه، وهو مخالف له في الحد والحقيقة، فلما مسخ أولئك المعتدون دين الله تعالى بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين في بعض ظاهره دون حقيقته مسخهم الله تعالى قردة، يشبهونهم في بعض ظواهرهم دون الحقيقة جزاء وفاقاً[1].

وقال رحمه الله تعالى :

ما قصه الله تعالى في قوله : ﴿ **وسئلهم عن القرية ...** ﴾ الآية من قصة أصحاب السبت ، حتى مسخهم قردة لما تحيلوا على استحلال محارم الله تعالى . ومعلوم أنهم كانوا يعصون الله تعالى بأكل الحرام ، واستباحة الفروج الحرام ، والدم الحرام ؛ وذلك أعظم إثماً من مجرد العمل يوم السبت ؛

(١) إغاثة اللهفان (١/٣٤٣) .

ولكن لما استحلوا محارم الله تعالى بأدنى الحيل ، وتلاعبوا بدينه وخادعوه مخادعة الصبيان ومسخوا دينه بالاحتيال مسخهم الله تعالى قردة ، وكان الله تعالى قد أباح لهم الصيد في كل أيام الأسبوع إلا يوما واحداً فلم يدعهم حرصهم وجشعهم حتى تعدوا إلى الصيد فيه وساعد القدر بأن عوقبوا بإمساك الحيتان عنهم في غير يوم السبت وإرسالها عليهم يوم السبت وهكذا يفعل الله سبحانه بمن تعرض لمحارمه فإنه يرسلها عليه بالقدر تزدلف إليه بأيها يبدأ فانظر ما فعل الحرص وما أوجب من الحرمان بالكلية ومن هاهنا قيل : من طلبه كله فاته كله[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

أنه تعالى عاقب الذين حفروا الحفائر يوم الجمعة فوقع فيها السمك يوم السبت فأخذوه يوم الأحد ومسخهم الله قردة وخنازير ، وقيل : إنهم نصبوا الشباك يوم الجمعة وأخذوا الصيد يوم الأحد وصورة الفعل الذي فعلوه مخالف لما نهوا عنه ، ولكنهم لما جعلوا الشباك والحفائر ذريعة إلى أخذ ما يقع فيها من الصيد يوم السبت نزلوا منزلة من اصطاد فيه إذ صورة الفعل لا اعتبار بها ، بل بحقيقته وقصد فاعله ويلزم من لم يسد الذرائع أن لا يحرم مثل هذا كما صرحوا به في نظيره سواء ، وهو لو نصب قبل الإحرام شبكة فوقع فيها صيد وهو محرم جاز له أخذه بعد الحِل ، وهذا جار على قواعد من لم يعتبر المقاصد ولم يسد الذرائع[2] .

---

(١) إغاثة اللهفان (٣١٨،٣١٧/١) .

(٢) إعلام الموقعين (٢٠٦/٣) .

« تلاعب الشيطان باليهود »

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧]

ومن تلاعبه بهم أنهم لما عرضت عليهم التوراة لم يقبلوها ، وقد شاهدوا من الآيات ما شاهدوه حتى أمر الله سبحانه جبريل فقلع جبلاً من أصله على قدرهم ثم رفعه فوق رؤوسهم وقيل لهم : إن لم تقبلوها ألقيناها عليكم ، فقبلوها كرهاً قال الله تعالى : ﴿ **وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون** ﴾ [الأعراف : ١٧١] قال عبد الله بن وهب قال ابن زيد[١] : لما رجع موسى من عند ربه بالألواح ، قال لبني إسرائيل : إن هذه الألواح فيها كتاب الله ، وأمره الذي أمركم به ونهيه الذي نهاكم عنه فقالوا : ومن يأخذ بقولك أنت لا والله حتى نرى الله جهرة حتى يطلع الله إلينا فيقول هذا كتابي فخذوه فماله لا يكلمنا كما كلمك أنت ياموسى فيقول : هذا كتابي فخذوه فجاءت غضبة من الله تعالى فجاءتهم صاعقة فصعقتهم فماتوا أجمعون قال : ثم أحياهم الله تعالى بعد موتهم فقال لهم موسى خذوا كتاب الله قالوا : لا . قال : فبعث الله ملائكته فنتقت الجبل فوقهم ، فقيل لهم : أتعرفون هذا قالوا : نعم . الطور . قال : خذوا الكتاب وإلا طرحناه عليكم . قال : فأخذوه بالميثاق . وقال السدي : لما قال الله تعالى لهم : (ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة) فأبوا أن يسجدوا ، فأمر الله الجبل أن يرتفع فوق رؤوسهم فنظروا إليه وقد غشيهم فسقطوا سجداً على شق ونظروا بالشق الآخر ثم تولوا من بعد هذه الآيات ، وأعرضوا . ولم يعملوا بما في كتاب الله ونبذوه وراء ظهورهم فقال تعالى مذكراً لهؤلاء بما جرى من أسلافهم (وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ثم توليتم

(١) انظر الطبري (١٠٨/٩،١٠٩) .
والدر المنثور (٥٩٥/٣) .

من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين ﴾[1] [البقرة : ٦٣-٦٤] .

تفسير قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] . وبيان معنى الفطرة .

قال رحمه الله تعالى :

قيل : هذا موضع قد اضطربت فيه الأقدام ، وطال فيه النزاع والخصام ، ونحن نذكر فيه بعض ما انتهى إلينا من كلام أئمة الإسلام . قال أبو عبيد القاسم ابن سلام[2] في كتاب « غريب الحديث » الذي هو لما بعده من كتب الغريب إمام : « سألت محمد بن الحسن عن تفسير هذا الحديث فقال : كان هذا في أول الإسلام قبل أن تنزل الفرائض ، وقبل أن يؤمر المسلمون بالجهاد » . قال أبو عبيد : فأما عبد الله بن المبارك فإنه سئل عن تأويل هذا الحديث الآخر : أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن أطفال المشركين فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين »[3]. قال أبو عبيد : فذهب إلى أنهم يولدون على ما يصيرون إليه من كفر أو إسلام .

قال ابن قتيبة[4]: حكى أبو عبيد هذين القولين ولم يحلّ على نفسه في

(١) إغاثة اللهفان (٣١٢،٣١١/٢) .

(٢) أبو عبيد القاسم بن سلام ، إمام اللغة الحافظ الحجة . وكتابه : « الغريب المصنف » أحد العجائب وصاحب كتاب « الأموال » وغيرها ، وكتابه « الغريب » طبع منه الجزء الأول بتحقيق العلامة الدكتور رمضان عبد التواب .
انظر سير أعلام النبلاء (١٦٤/١٠)

(٣) رواه البخاري (٢٨٩/٣) في الجنائز باب : ما قيل في أولاد المشركين .
ومسلم (٥١٥/٥) في القدر ، باب : كل مولود يولد على الفطرة .
وانظر هذه الأقوال في التمهيد للإمام « ابن عبد البر » (١٨/٦٦) .

(٤) هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، الإمام العلامة الكبير ذو الفنون والمصنفات البارعة ولد في (٢١٣) هـ وكانت وفاته في (٢٧٦) هـ .
ولم استدل على مواطن تعليقه على أبي عبيد رحمهما الله ، وانظر تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص =

هذا قولاً ولا اختياراً . قال محمد بن نصر المروزي[١] في كتاب « الرد على ابن قتيبة » : فيقال له : وما على رجل حكى اختلافاً في شيء ، ولم يتبين له الصواب فأمسك عن التقدم على مالم يتبين له صوابه ، ما على هذا من سبيل ، بل هو محمود على التوقف عما لم يتبين له عسى أن يتبين له ، بل العيب المذموم من اجترأ على القول فيما لا علم له ، ففسر حديث النبي صلى الله عليه وسلم تفسيراً خالف فيه حكم الكتاب ، وخرج من قول أهل العلم ، وترك القياس والنظر ، فقال قولاً لا يصلح في خبر ولا يقوم على نظر ، وهو هذا العائب على أبي عبيد : زعم أن الفطرة التي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأن كل مولود يولد عليها : هي خلقه في كل مولود معرفة بربه وزعم أنه على معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بني آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُم عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ الآية .

قال محمد بن نصر : قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ [النحل : ٧٨] فزعم هذا أنهم يعرفون أعظم الأشياء : وهو الله تعالى ، فمن أعظم جرماً وأشد مخالفة للكتاب ممن سمع الله عز وجل يقول : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ فزعم أنهم يعلمون أعظم الأشياء ؟ وهذا هو المعاند لرب العالمين والجاهل بالكتاب .

قلت : إن أراد أبو محمد[٢] بالمعرفة المعرفة الثانية بالفعل التي هي للكبار ، فإنكار أبي عبد الله[٣] عليه متوجه ؛ وإن أراد أنه مهيأ للمعرفة ، وأن المعرفة فيه بالقوة كما هو مهيأ للفعل والنطق لم يلزمه ما ذكره أبو عبد الله ، كما إذا قيل : يولد ناطقاً عاقلا بحيث إذا عقل عرف ربه بتلك القوة التي أودعها الله فيه دون

= (٨٧)، وترجمة ابن قتيبة ومصادرها في سير أعلام النبلاء (١٣/٢٩٦) .

(١) شيخ الإسلام محمد بن نصر بن الحجاج المروزي الإمام الحافظ ، ولد في (٢٠٢ هـ) ، وتوفي في (٢٩٤ هـ) ، له كتاب « القسامة » ، « وتعظيم قدر الصلاة » وغيرها . ولم أر كتابه المذكور . انظر : سير أعلام النبلاء (١٤/٣٣) .

(٢) يعني « ابن قتيبة » .

(٣) يعني « محمد بن نصر المروزى » .

الجمادات ، بحيث لو خُلّي وما فطر عليه ، ولم تغيّر فطرته ، لكان عارفاً بربه موحداً له محباً له .

فإن قيل : أبو عبد الله لم ينكر هذا ، وإنما أنكر أن يكون المراد بالفطرة الميثاق الأول الذي أخذه الله سبحانه من بني آدم من ظهورهم حين أشهدهم على أنفسهم ﴿ **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ** ﴾ فأقروا بذلك ، ولا ريب أن هذه المعرفة والإقرار غير حاصلين من الطفل ، فصح إنكار أبي عبد الله ، قيل : ابن قتيبة إنما قال : الفطرة هي خلقه في كل مولود معرفة بربه على معنى قوله : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ** ﴾ الآية ، وهذا لا يلزم منه أن تكون المعرفة حاصلة في المولود بالفعل . وتشبيهه الحديث بالآية في هذا المعنى لا يدل على أن الميثاق الذي ذكر في الآية هو المعرفة الفعلية قبل خروجهم إلى الدنيا أحياء ناطقين ، وإن كان هذا قد قاله غير واحد من السلف والخلف فلا يلزم ابن قتيبة أن يختار هذا القول ، بل هذا من حسن فهمه في القرآ ن والسنة : إذ حمل الحديث على الآية ، وفسر كلاً منهما بالآخر . وقد قال هذا غير واحد من أهل العلم قبله وبعده .

وأحسن ما فسرت به الآية قوله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة : فأبواه يهودانه وينصرانه » ، فالميثاق الذي أخده سبحانه عليهم ، والإشهاد الذي أشهدهم على أنفسهم ، والإقرار الذي أقروا به هو الفطرة التي فطروا عليها ، لأنه سبحانه احتج عليهم بذلك ، وهو لا يحتج عليهم بما لا يعرفه أحد منهم ولا يذكره ، بل بما يشركون في معرفته والإقرار به . وأيضاً ، فإنه قال : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ** ﴾ ولم يقل (من آدم) ثم قال : ﴿ **من ظهورهم** ﴾ ولم يقل (من ظهرهم) ثم قال : ﴿ **ذريتهم** ﴾ ولم يقل : (ذريته) ثم قال : ﴿ **وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم** ﴾ وهذا يقتضي إقرارهم بربوبيته إقراراً تقوم عليهم به الحجة . وهذا إنما هو الإقرار الذي احتج به عليهم على ألسنة رسله كقوله تعالى : ﴿ **قالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ** ﴾ وقوله : ﴿ **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللّهُ** ﴾ ، ﴿ **وَلَئِنْ**

سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوات وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ ﴿ قُلْ لِمَنْ الأَرْضُ وَمَنْ فيها إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلّهِ ﴾ ، ونظائر ذلك كثيرة : يحتج عليهم بما فطروا عليه من الإقرار بربهم وفاطرهم ، ويدعوهم بهذا الإقرار إلى عبادته وحده ، وألا يشركوا به شيئاً : هذه طريقة القرآن ، ومن ذلك هذه الآية التي في « الأعراف » وهي قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَني آدَمَ ﴾ الآية ولهذا قال في آخرها : ﴿ أَنْ تَقُولُوا[1] يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤنا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلونَ ﴾ ، فاحتج عليهم بما أقروا به من ربوبيته على بطلان شركهم وعبادة غيره ، وألا يعتذروا ، إما بالغفلة عن الحق ، وإما بالتقليد في الباطل ، فإن الضلال له سببان : إما غفلة عن الحق ، وإما تقليد أهل الضلال ، فيطابق الحديث مع الآية ، ويبين معنى كل منهما بالآخر ، فلم يقع ابن قتيبة في معاندة رب العالمين ، ولا جهل الكتاب ولا خرج عن المعقول ، ولكن لما ظن أبو عبد الله أن معنى الآية أن الله سبحانه أخرجهم أحياء ناطقين من صلب آدم في آن واحد ، ثم خاطبهم وكلمهم وأخذ عليهم الميثاق وأشهدهم على أنفسهم بربوبيته ، ثم ردهم في ظهره ، وأن أبا محمد فسر الفطرة بهذا المعنى بعينه ، ألزمه ما ألزمه .

ثم قال محمد بن نصر واحتج – يعني ابن قتيبة – بقوله تعالى : (الحَمْدُ لِلّهِ فَاطِرِ السَّمٰوات) [فاطر : ١] خالقها ، وبقوله تعالى عن مؤمن آل فرعون في سورة يسٓ : (وَمالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذي فَطَرَني) [يس : ٢٢] أي خلقني ، وبقوله : (فِطْرَةَ اللّهِ الَّتي فَطَرَ النّاسَ علَيْها لاَ تَبْديلَ لِخَلْقِ اللّهِ) [الروم : ٣٠] قال : وكان أبو هريرة رضي الله عنه يسرع[2] بهذه الآية عند روايته لهذا الحديث ليدل على أن الفطرة خِلْقة .

---

(١) قال القرطبي « قرأ أبو عمرو بالياء » .
« أن يقولوا » ، « أو يقولوا » – فيهما .
ردهما على لفظ الغيبة المتكرر قبله ، ... وقرأ الباقون بالتاء فيهما ... » .
تفسير القرطبي (٢٧٥٤/٣) ، وانظر « كتاب السبعة في القراءات » لابن مجاهد ص (٢٩٨) .
(٢) راجع الحديث رقم (٣) ص (٢٧٣) .

قال محمد بن نصر : فيقال له : لسنا نخالفك في أن الفطرة خلقة في اللغة ، وأن فاطر السموات والأرض خالقهما ، ولكن ما الدليل على أن هذه الخلقة هي معرفة ؟ هل عندك من دليل من كتاب الله أو سنة رسوله أن الخلقة هي المعرفة ؟ فإن أتيت بحجة من كتاب الله أو سنة رسوله أن الخلقة هي المعرفة ، وإلا فأنت مبطل في دعواك ، وقائل مالا علم لك به .

قلت : لم يرد ابن قتيبة ولا من قال بقوله : « إن الفطرة خلقة » أنها معرفة حاصلة بالفعل مع المولود حين يولد ، فهذا لم يقله أحد . وقد قال أحمد في رواية الميموني : الفطرة الأولى التي فطر الناس عليها ، فقال له الميموني : الفطرة الدين ؟ قال : نعم . وقد نص في غير موضع أن الكافر إذا مات أبواه أو أحدهما حكم بإسلامه ؛ واستدل بالحديث : « كل مولود يولد على الفطرة » ففسر الحديث بأنه يولد على فطرة الإسلام كما جاء ذلك مصرحاً به في الحديث ، ولو لم يكن ذلك معناه عنده لما صح استدلاله بعد في بعض ألفاظه « ما من مولود إلا يُولد على هذه الملة » .

وأما قول أحمد[1] في مواضع أخر : يولد على ما فطر عليه من شقاوة أو سعادة ، فلا تنافي بينه وبين قوله : إنها الدين ، فإن الله سبحانه قدر الشقاوة والسعادة وكتبهما ، وإنها تكون بالأسباب التي تحصل بها كفعل الأبوين : فتهويدهما وتنصيرهما وتمجيسهما هو بما قدره الله تعالى ، والمولود يولد على الفطرة مسلماً ويولد على أن هذه الفطرة السليمة قد يغيرها الأبوان ، كما قدر الله ذلك وكتبه ، كما مثل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله : « كما تُنْتَجُ البهيمة جمعاء هل تحسّون فيها من جدعاء » . فبين أن البهيمة تولد سليمة ثم يجدعها الناس وذلك أيضاً بقضاء الله وقدره ، فكذلك المولود يولد على الفطرة مسلماً ، ثم يفسده أبواه . وإنما قال أحمد وغيره : ولد على ما فطر عليه من شقاوة وسعادة ،

---

(١) من هنا حتى قوله : « حقيقة وحكماً » ص (٢٨٧) نقله ابن القيم رحمه الله تعالى نقلاً يكاد يكون حرفياً من كتاب « درء تعارض العقل والنقل » لشيخ الإسلام ابن تيمية من (٣٦٠/٨-٣٧٩) . وكلاهما نقل قول ابن عبد البر رحمهم الله تعالى كما سيأتي .

لأن القدرية كانوا يحتجون بهذا الحديث على أن الكفر والمعاصي ليست بقدر الله ، بل بما فعله الناس ، لأن كل مولود يولد على الفطرة ، وكفره بعد ذلك من الناس . ولهذا لما قيل لمالك : إن القدرية يحتجون علينا بأول الحديث ، قال : احتجوا عليهم بآخره ، وهو قوله : « الله أعلم بما كانوا عاملين » ، فبين الأئمة أنه لا حجة فيه للقدرية ، فإنه لم يقل : إن الأبوين خلقا تهويده وتنصيره ، والقدرية لا تقول ذلك ، بل عندهم أنه تهود وتنصر باختياره ، ولكن كان الأبوان سبباً في حصول ذلك بالتعليم والتلقين ، وهذا حق لا يقتضي نفي القدر السابق من العلم والكتاب والمشيئة ، بل ذلك مضاف إلى الله تعالى علماً وكتابة ومشيئة ، وإلى الأبوين تسبباً وتعليماً وتلقيناً ، وإلى الشيطان تزييناً ووسوسة ، وإلى العبد رضى واختياراً ومحبة .

ولا ينافي هذا قوله في حديث ابن عباس رضي الله عنهما : « إن الغلام الذي قتله الخضر طُبع يوم طُبع كافراً ، ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً »[1] ، فإن معناه أن قُضي عليه وقدر في أم الكتاب أنه يكون كافراً ، فهي حال مقدرة كقوله : ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها ﴾ [الزمر : ٧٣] وقوله : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً ﴾ [الصافات : ١١٢] ونظائر ذلك . وليس المراد : أن كفره كان موجوداً بالفعل معه حتى طبع ، كما يقال : ولد ملكا ، وولد عالماً ، وولد جباراً . ومن ظن أن الطبع المذكور في الحديث هو الطبع في قوله تعالى : ﴿ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ ﴾ [النحل : ١٠٨] فقد غلط غلطاً ظاهراً ، فإن ذلك لا يقال فيه : طبع يوم طبع ، فإن الطبع على القلب إنما يوجد بعد كفره

(١) رواه مسلم (٥/٢٣٥،٢٣٩) . في الفضائل ، باب : فضائل الخضر .
وانظر تخريجه مفصلاً في « كتاب السنة » لابن أبي عاصم ، بتحقيق الألباني (١/٨٥،٨٦) .

فصـــل

ويدل على صحة ما فسر به الأئمة الفطرة أنها « الدين » ما رواه مسلم في صحيحه من حديث عياض بن حمار المجاشعي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى[1] : «إني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي مالم أنزل به سلطاناً » وهذا صريح في أنهم خلقوا على الحنيفية ، وأن الشياطين اقتطعتهم بعد ذلك عنها ، وأخرجوهم منها .

قال تعالى : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ [البقرة : ٢٥٧] .

وهذا يتناول إخراج الشياطين لهم من نور الفطرة إلى ظلمة الكفر والشرك، ومن النور الذي جاءت به الرسل من الهدى والعلم إلى ظلمات الجهل والضلال .

وفي المسند وغيره من حديث الأسود بن سريع[2] قال: بعث رسول الله

(١) رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (١٦٢/٤، ٢٦٦) .
رواه مسلم (٧١٦/٥) في الجنة ، باب : الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار .
وأبو داود الطيالسي (رقم ١٠٧٩) ص (١٤٥) .
والنسائي في فضائل القرآن ص (١٠٤) .
وانظر التمهيد (٧٣/١٨) .
« درء تعارض العقل والنقل » (٤٠٠/٧) .

(٢) الأسود بن سريع ، صحابي ، شاعر مشهور . الإصابة (٦٨/١) .
والحديث رواه الإمام أحمد (٤٣٥/٣) و (٢٤/٤) .
والدارمي (١٤١/٢، ١٤٢) .
وأبو يعلى (٢٤٠/٢) .
والطبراني (٢٨٤/١) .
والحاكم (١٢٣/٢) وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي .
وقال الهيثمي : « بعض أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح » (٣١٦/٥) مجمع الزوائد .

صلى الله عليه وسلم سرية ، فأفضى بهم القتل إلى الذرية ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : « ما حملكم على قتل الذرية ؟ » قال يارسول الله : أليسوا أولاد المشركين ؟ قال : « أو ليس خياركم أولاد المشركين ؟ » ثم قام النبي صلى الله عليه وسلم خطيباً فقال : « ألا إن كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه » فخطبته لهم بهذا الحديث عقيب نهيه لهم عن قتل أولاد المشركين ، وقوله لهم : « أو ليس خياركم أولاد المشركين ؟ » نص أنه أراد أنهم ولدوا غير كفار ، ثم الكفر طرأ بعد ذلك . ولو أراد : أن المولود حين يولد يكون إما كافراً وإما مسلماً على ما سبق به القدر ، لم يكن فيما ذكره حجة على ما قصده من نهيه لهم عن قتل أولاد المشركين .

وقد ظن بعضهم أن معنى قوله : « أو ليس خياركم أولاد المشركين » معناه : لعله أن يكون قد سبق في علم الله أنهم لو بقوا لآمنوا فيكون النهي راجعا إلى هذا المعنى من التجويز وليس هذا معنى الحديث ولكن معناه : أن خياركم هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، وهؤلاء من أولاد المشركين ، فإن آباءهم كانوا كفاراً ، ثم إن البنين أسلموا بعد ذلك ، فلا يضر الطفل أن يكون من أولاد المشركين إذا كان مؤمناً ، فإن الله إنما يجزيه بعمله لا بعمل أبويه ، وهو سبحانه يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن . وهذا الحديث – وهو حديث الفطرة – ألفاظه يفسر بعضها بعضاً ، ففي « الصحيحين » – واللفظ للبخاري[1] – عن ابن شهاب عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من مولود يولد إلا على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تُنْتَجُ البهيمة بهيمةً جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا (فِطْرَةَ اللّهِ الَّتي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) [الروم : ٣٠] قالوا : يارسول الله أفرأيت من يموت صغيراً ؟ قال : « الله أعلم بما

---

(١) راجع حديث رقم (١) ص (٨٠) .
وفتح الباري (٣/٢٩٠) الجنائز باب : ما قيل في أولاد المشركين .

كانوا عاملين » . وفي الصحيح قال الزهري[١] : يصلى على كل مولود يتوفى وإن كان لِغَيَّةٍ من أجل أنه ولد على فطرة الإسلام إذا استهل خارجاً ، ولا يصلى على من لم يستهل من أجل أنه سِقْطٌ ، وأن أبا هريرة كان يحدث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من مولود إلا ويولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تُنْتَجُ البهيمة بهيمةً جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ » ثم يقول أبو هريرة : « فِطْرَةَ اللّهِ الَّتي فَطَرَ النّاس عَلَيْهَا » وفي الصحيح[٢] من رواية الأعمش: «ما من مولود إلا وهو على الملة» في رواية أبي معاوية عنه: إلا على هذه الملة ، حتى يبين عنه لسانه : فهذا صريح في أنه يولد على ملة الإسلام كما فسره ابن شهاب راوي الحديث واستشهاد أبي هريرة بالآية يدل على ذلك .

قال ابن عبد البر[٣] : وسئل ابن شهاب عن رجل عليه رقبة مؤمنة : أيجزىء عنه الصبي أن يعتقه وهو رضيع ؟ قال : نعم ، لأنه ولد على الفطرة . قال ابن عبد البر ، وقد ذكر أقوال الناس في هذا الحديث : وقال آخرون : الفطرة هاهنا هي الإسلام . قالوا : وهو المعروف عند عامة السلف . وأهل التأويل قد أجمعوا في تأويل قوله عز وجل : (فِطْرَةَ اللّهِ الَّتي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها) على أن قالوا : فطرة الله دين الإسلام ، واحتجوا بقول أبي هريرة في هذا الحديث : « اقرؤوا إن شئتم : (فطرة الله التي فطرة الناس عليها) . قال : وذكروا عن

(١) رواه البخاري (٢٦٠/٣) في الجنائز ، باب : إذا أسلم الصبي ...
وقال الحافظ ابن حجر : « وقول ابن شهاب « لِغيّة » بكسر اللام والمعجمة وتشديد التحتانية ، أي من زنا ، ومراده أنه يصلى على ولد الزنا ولا يمنع ذلك من الصلاة عليه لأنه محكوم بإسلامه تبعاً لأمه ... » اهـ باختصار .
فتح الباري (٢٦٣،٢٦٢/٣) .

(٢) راجع الحديث رقم (٣) ص (٢٧٣) وما بعده .

(٣) ابن عبد البر ، الإمام العلامة ، حافظ المغرب ، شيخ الإسلام ، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد ... النمري الأندلسي ... المجتهد صاحب التصانيف الفائقة النافعة وحسبك « بالتمهيد » ما صنف مثله .
ولد في سنة (٣٦٨ هـ) وتوفي رضي الله عنه في (٤٦٣ هـ) .
انظر ترجمته ومصادرها في : سير أعلام النبلاء (١٥٣/١٨) .
وقوله المذكور هنا ، في التمهيد (١٨/٧٦،٧٢) في بحث نفيس في معنى الفطرة من (٥٧-١٨/٩٧).
فراجعه لزاماً .

عكرمة ومجاهد والحسن وإبراهيم والضحاك وقتادة في قوله عز وجل : (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها) قالوا : فطرة الله دين الإسلام (لا تبديل لخلق الله) قالوا : لدين الله ، واحتجوا بحديث محمد بن إسحاق عن ثور بن يزيد عن يحيى ابن جابر عن عبد الرحمن بن عائذ الأزدي عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للناس يوماً[(١)] : « ألا أحدثكم بما حدثني الله في الكتاب ؟ إن الله خلق آدم وبنيه حنفاء مسلمين ، وأعطاهم المال حلالاً لا حرام فيه ، فجعلوا ما أعطاهم الله حراما وحلالاً » الحديث . قال : وكذلك روى بكر بن مهاجر عن ثور بن يزيد بإسناده مثله في هذا الحديث : « حنفاء مسلمين » .

قال أبو عمر[(٢)] : رُوي هذا الحديث عن قتادة عن مطرف بن عبد الله عن عياض بن حمار ، ولم يسمعه قتادة من مطرِّف ولكن قال : حدثني ثلاثة : عقبة بن عبد الغافر ويزيد بن عبد الله بن الشِّخير والعلاء بن زياد ، كلهم يقول : حدثني مطرف عن عياض عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال فيه : « وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم » لم يقل : « مسلمين » . وكذلك رواه الحسن عن مطرف عن عياض . ورواه ابن إسحاق عمن لا يتهم ، عن قتادة بإسناده قال فيه : « وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم » ولم يقل : « مسلمين » قال : فدل هذا على حفظ محمد بن إسحاق وإتقانه وضبطه ، لأنه ذكر « مسلمين » في روايته عن ثور بن يزيد لهذا الحديث ، وأسقطه من رواية قتادة ، وكذلك رواه الناس عن قتادة : قصر فيه عن قوله « مسلمين » وزاده ثور بإسناده . فالله أعلم .

قال أبو عمر : والحنيف في كلام العرب المستقيم المخلص ، ولا استقامة أكبر من الإسلام . قال : وقد روي عن الحسن قال : « الحنيفية حج البيت » وهذا يدل على أنه أراد الإسلام . وكذلك روي عن الضحاك والسدي « حنفاء : حجاجاً » وعن مجاهد : « حنفاء : متبعين » قال : وهذا كله يدل على أن الحنيفية : الإسلام .

(١) راجع الحديث رقم (١) ص (٢٧٩) .
(٢) انظر التمهيد (٧٤/١٨) .

قال : وقال أكثر العلماء : الحنيف المخلص . وقال الله عز وجل : (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِياً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً) [آل عمران : ٦٧] وقال تعالى : (مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ) [الحج : ٧٨] قال الراعي[1] :

أخليفةَ الرحمانِ إنّا مَعْشرٌ حُنفَاءُ نَسجُدُ بُكرةً وأصيلاَ
عربٌ نَرَى لِلّهِ في أموالنا حقَّ الزكاةِ منزَّلاً تَنزيلاَ

قال : فوصف الحنيفية بالإسلام ، وهو أمر واضح لاخفاء به . قال : ومما احتج به من ذهب إلى أن الفطرة في هذا الحديث : « الإسلام» قوله صلى الله عليه وسلم : « خمس من الفطرة » ويروى : « عشر من الفطرة » يعني : فطرة الإسلام . انتهى .

قال شيخنا[2] : فالأدلة الدالة على أنه أراد فطرة الإسلام كثيرة : كألفاظ الحديث الصحيح المتقدمة ، كقوله : « على الملة » : و « على هذه الملة » ؛ وقوله : « خلقت عبادي حنفاء » ، وفي الرواية الأخرى « حنفاء مسلمين » ؛ ومثل تفسير أبي هريرة ، وهو أعلم بما سمع . ولو لم يكن المراد بالفطرة الإسلام لما سألوا عقيب ذلك : « أرأيت من يموت من أطفال المشركين وهو صغير ؟ » ، لأنه لو لم يكن هناك ما يغير تلك الفطرة لما سألوه ؛ والعلم القديم والكتاب السابق لا يتغير . وقوله : « فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » بيَّن فيه أنهم يغيرون الفطرة المخلوق عليها بذلك . وأيضاً ، فإنه شبه ذلك بالبهيمة التي تولد مجتمعة الخلق لا نقص فيها ، ثم تجدع بعد ذلك : فعلم أن التغير وارد على الفطرة السليمة التي ولد العبدُ عليها . وأيضاً ، فالحديث مطابق لقوله تعالى : (فِطْرَةَ اللّه الَّتي

---

(١) هو : حصين بن معاوية من بني نمير ، قيل له الراعي : لأنه كان يصف راعي الإبل في شعره ... انظر « طبقات الشعراء » لابن قتيبة (ص ٢٠١) .
وطبقات فحول الشعراء (٥٠٨/١) .
وجمهرة أشعار العرب ص (١٧٢-١٧٦) .

(٢) يعني : الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى .
وانظر « درء تعارض العقل والنقل » (٧١/٣) .

فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) وهذا يعم جميع الناس ، فعُلم أن الله فطر الناس كلهم على فطرته المذكورة ، وفطرة الله أضافها إليه إضافة مدح لا إضافة ذم ، فعلم أنها فطرة محمودة لا مذمومة : يبين ذلك أنه قال : (فأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللّهِ الَّتي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها) ، وهذا نصب على المصدر الذي دل عليه الفعل الأول عند سيبويه وأصحابه ؛ فدل على أن إقامة الوجه للدين حنيفاً هو فطرة الله التي فطر الناس عليها كما في نظائره ، مثل قوله : (كِتابَ اللّهِ عَلَيْكُمْ) [النساء : ٢٤] وقوله : (سُنَّةَ اللّهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسنَّةِ اللّهِ تَبْدِيلاً) فهذا عندهم مصدر منصوب بفعل مضمر لازم إضماره ، دل عليه الفعل المتقدم ، كأنه قال : كتب الله ذلك عليكم ، وكذلك هنا : فطر الله الناس على ذلك : على إقامة الدين حنيفاً .

وكذلك فسره السلف . قال ابن جرير[1] في هذه الآية : يقول : فسدد وجهك نحو الوجه الذي وجهك الله يامحمد لطاعته ، وهو الدين حنيفاً ، يقول : « مستقيماً لدينه وطاعته » ؛ فطرة الله التي فطر الناس عليها ، يقول : « صنعة الله التي خلق الناس عليها » ونصب فطرة على المصدر من معنى قوله : (فأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً) وذلك أن معنى ذلك : فطر الله الناس على ذلك فطرة .

قال : وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل . ثم روي عن ابن زيد قال : فطرة الله التي فطر الناس عليها قال : هي الإسلام ، منذ خلقهم الله من آدم جميعاً يقرون بذلك . وقرأ : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالوا بَلى شَهِدْنا أن تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِين** ﴾ فهذا قول الله : (كان الناس أُمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) . ثم ذكر بإسناد صحيح عن مجاهد قال : فطرة الله التي فطر الناس عليها ، قال : الدين ، الإسلام .

حدثنا ابن حميد ؛ ثنا يحيى بن واضح ، ثنا يونس بن أبي صالح[2] عن

---

(١) نقله بنصه من تفسير الطبري (٢١/٤٠) ، مع بعض الاختلاف اليسير .

(٢) في « أحكام أهل الذمة » الذي نقلنا منه هذا النص « إسحاق » وهو خطأ إنما الصواب « صالح » كما في الطبري (٢١/٤٠) .

يزيد بن أبي مريم قال : مرّ عمر بمعاذ بن جبل فقال : ما قوام هذه الأمة ؟ قال معاذ : ثلاث وهنّ المنجيات : الإخلاص ، وهو الفطرة فطرة الله التي فطر الناس عليها والصلاة وهي الملة والطاعة وهي العصمة . فقال عمر : صدقت .

ثم قال : حدثني يعقوب الدورقي ثنا ابن علّية ثنا أيوب عن أبي قلابة أن عمر قال لمعاذ : ما قوام هذه الأمة ؟ فذكر نحوه .

قال : وقوله : ﴿ **لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ** ﴾ يقول : لا تغيير لدين الله ، أي لا يصلح ذلك ولا ينبغي أن يفعل .

وروى عبد الله بن إدريس[١] عن ليث قال : أرسل مجاهد رجلاً يقال له قاسم إلى عكرمة يسأله عن قوله : ﴿ **لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ** ﴾ فقال : لدين الله . ثم ذكر عن عكرمة : فطرة الله قال : الإسلام . وكذلك روي عن قتادة وسعيد ابن جبير ومجاهد والضحاك وإبراهيم النخعي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وروي عن ابن عباس أنه سئل عن خصاء البهائم فكرهه وقال : لا تبديل لخلق الله . وكذلك قال عكرمة ومجاهد في رواية ليث عنه .

قال شيخنا[٢] : ولا منافاة بين القولين عنهما ، كما قال تعالى عن الشيطان: (ولآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأنْعَامِ ولآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ) [النساء : ١١٩] فتغيير ما خلق الله عباده عليه من الدين تغيير لدينه ، والخصاء وقطع الأذن تغيير لخلقه ، ولهذا شبه النبي صلى الله عليه وسلم أحدهما بالآخر في قوله : « كل مولود يولد على الفطرة : فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تُنْتَجُ البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » فأولئك يغيرون الدين ، وهؤلاء يغيرون الصورة بالجدع والخصاء : هذا يغير ما خلق الله عليه قلبه ، وهذا يغير ما خلق عليه بدنه .

---

(١) تفسير الطبري (٢١/٤١) .
وفيه : « فقال – أي عكرمة – إنما هو الدين ثم قرأ ﴿ لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾ » . اهـ والملاحظ أن ابن القيم – رحمه الله تعالى – اختصر ما في الطبري .

(٢) يقصد بالقولين الأول : قول عكرمة .
الثاني : تفسير ابن عباس رضي الله عنهما للآية وهما قولان ذكرهما ابن جرير رحمه الله تعالى في تفسيره للآية (٣٠) من سورة الروم .
=

فصــل

قال شيخنا : واعلم أن هذا الحديث لما صارت القدرية يحتجون به على قولهم الفاسد ، صار الناس يتأولونه تأويلات يخرجونه بها عن مقتضاه . فالقدرية من المعتزلة وغيرهم يقولون : كل مولود يولد على الإسلام ، والله لا يضل أحداً ، ولكن أبواه يضلانه . والحديث حجة عليهم من وجهين :

أحدهما : أنه عند المعتزلة وغيرهم من المتكلمين لم يولد أحد منهم على الإسلام أصلاً ، ولا جعل الله أحداً مسلماً ولا كافراً . ولكن هذا أحدث لنفسه الكفر ، وهذا أحدث لنفسه الإسلام ، والله لم يفعل واحداً منهما عندهم بلا نزاع عند القدرية . ولكن هو دعاهما إلى الإسلام ، وأزاح عللهما وأعطاهما قدرة مماثلة فيهما تصلح للإيمان والكفر ، ولم يختص المؤمن بسبب يقتضي حصول الإيمان : فإن ذلك عندهم غير مقدور ، ولو كان مقدوراً لكان ظلماً ، وهذا قول عامة المعتزلة وإن كان بعض متأخريهم كأبي الحسين[1] يقول : إنه خص المؤمن بداعي الإيمان ، ويقول : عند الداعي والقدرة يجب وجود الإيمان ، فهذا في الحقيقة موافق لأهل السنة . فهذا أحد الوجهين .

الثاني : أنهم يقولون : إن معرفة الله لا تحصل إلا بالنظر المشروط بالعقل ، فيستحيل أن تكون المعرفة عندهم ضرورية ، أو تكون من فعل الله تعالى . وإن احتجت القدرية بقوله : « فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » من جهة كونه أضاف التغيير إلى الأبوين ، فيقال لهم : أنتم تقولون : إنه لا يقدر الله ولا أحد من مخلوقاته على أن يجعلهما يهوديين ولا نصرانيين ولا مجوسيين ، بل هما فعلا

= وانظر درء تعارض العقل والنقل (٣٧٧/١٨) وما بعدها مع اختلاف يسير .

(١) هو أبو الحسين ، محمد بن علي بن الطيب . البصري شيخ المعتزلة ، وصاحب التصانيف الكلامية ، كان فصيحاً بليغاً ، عذب العبارة ، يتوقد ذكاء وله اطلاع كبير .
انظر ترجمته ومصادرها في سير أعلام النبلاء (٥٨٧/١٧) .

بأنفسهما ذلك بلا قدرة من غيرهما ولا فعل من غيرهما ، فحينئذ لا حجة لكم في قوله : « فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » . وأهل السنة متفقون على أن غير الله لا يقدر على جعل الهدى والضلال في قلب أحد ، فقد اتفقت الأمة على أن المراد بذلك دعوة الأبوين إلى ذلك وترغيبهما فيه وتربية الولد عليه ، كما يفعل المعلم بالصبي . وذكر الأبوين بناء على الغالب المعتاد ؛ وإلا فقد يقع ذلك من أحدهما ومن غيرهما حقيقة وحكماً .

قال محمد بن نصر : واحتج ابن قتيبة بقوله : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى** ﴾ فأجابوا بكلام شاهدين مقرين على أنفسهم بأن الله ربهم[1] ، ثم ولدوا على ذلك .

قال محمد بن نصر : فقوله : « ثم ولدوا على ذلك » زيادة منه ليست في الكتاب ولا جاءت في شيء من الأخبار . وسنذكر الأخبار المروية في تأويل هذه الآية لنبين للناظر فيها أنه لا حجة له فيها ، وأنه لا دليل في شيء منها أن الأطفال يولدون وهم عارفون بالله من وقت سقوطهم من بطون أمهاتهم .

قلت : قوله : « ثم ولدوا على ذلك » إن أراد به أنهم ولدوا حال سقوطهم وخروجهم من بطون أمهاتهم عالمين بالله وتوحيده وأسمائه وصفاته فقد أصاب في الرد عليه ؛ وإن أراد أنهم ولدوا على حكم ذلك الأخذ ، وأنهم لو تركوا لما عدلوا عنه إذا عقلوا ، فهو الصواب الذي لا يرد .

قال محمد : فمن أجلّ ما روي في تأويل هذه الآية حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه : حدثنا يحيى قال : قرأت على مالك عن زيد بن أبي أُنَيْسَةَ عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن يزيد بن الخطاب عن مسلم بن يسار

---

(١) قال الأستاذ الدكتور/صبحي الصالح- رحمه الله تعالى - محقق كتاب « أحكام أهل الذمة » قال : (لفظ ابن قتيبة هنا في إصلاح غلط أبي عبيد ، ورقة (٢٨/ب) : « فلست واجداً أحداً إلا وهو مقر بأن له صانعاً ومدبراً ، وإن سماه بغير اسمه ، أو عبد شيئاً دونه ليقربه منه »). اهـ

الجُهني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سئل عن هذه الآية : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ فقال[1] سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال : « إن الله تعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ؛ ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون » . فقال رجل : يارسول الله ففيم العمل ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من عمل أهل الجنة فيدخل به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار ، فيدخل به النار » .

حدثنا محمد بن يحيى ، ثنا محمد بن يزيد بن سنان الرهاوي عن أبيه ، أخبرنا زيد بن أبي أُنَيْسَةَ عن عبد الحميد بن عبد الرحمن عن مسلم بن يسار عن نعيم بن أبي ربيعة الأزدي ، قال مسلم : سألت نعيماً عن هذه الآية فقال نعيم : كنت عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجاء رجل فسأله عنها ، فقال : « الحديث » ... وهذا يبين علة الحديث الأول ، وأن مسلم بن يسار لم يسمعه من عمر .

---

(١) رواه مالك في الموطأ (٢/٢٩٨) .
والإمام أحمد رضي الله عنه (١/٢٨٩،٢٩٠) تحقيق أحمد شاكر – رحمه الله تعالى – وصححه .
والطبري (٩/١١٣) .
والنسائي في تفسيره (١/٥٠٤) .
والترمذي (٥/٢٤٨،٢٤٩) :
وقال : « حسن ، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر ، وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم ابن يسار وبين عمر رجلاً مجهولاً » . اهـ. يقصد : « نعيم بن ربيعة الأودي » .
وثقه ابن حبان (٥/٤٧٧) ووقع عنده « الأزدي » وأظن الصواب « الأودي » .
والجرح والتعديل (٨/٤٦٠) . ولم يذكر فيه شيئاً .
والحاكم (٢/٣٢٤،٣٢٥) وقال : « صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي » .
وانظر تخريجه مفصلاً في تفسير ابن كثير (٢/٢٨١،٢٨٢) .
« وكتاب السنة » لابن أبي عاصم (١/٨٨،٨٩) بتحقيق الألباني .
وأحاديث من (٤٦ : ٥٠) من سلسلة الأحاديث الصحيحة وفيه بحث نفيس عن القدر .

قال : وحدثنا إسحاق أخبرنا حكام بن سَلْمٍ عن عنبسة عن عباد بن عمير عن أبي محمد رجل من أهل المدينة قال : سألت عمر بن الخطاب عن قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ** ﴾ فقال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها كما سألتني ، فقال[1]: خلق الله آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، ثم أجلسه فمسح ظهره فأخرج ذراً ، فقال : « ذرٌّ ذرّاتُهم للجنة يعملون بما شئتُ من عمل ، ثم أختم لهم بأحسن أعمالهم فأدخلهم الجنة » . ثم مسح ظهره فأخرج ذراً ، فقال : « ذرٌّ ذراتُهم للنار يعملون بما شئتُ من عمل ، ثم أختم لهم بأسوأ أعمالهم فأدخلهم النار » .

قلت : هذا الحديث أدخله مالك في موطئه على ما فيه من العلة ، ونحن نذكر علته . قال الترمذي : هذا حديث حسن ، ومسلم بن يسار لم يسمعه من عمر ، وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وبين عمر رجلاً . وقال أبو القاسم حمزة بن محمد الكناني : لم يسمع مسلم بن يسار هذا من عمر ؛ رواه عن نعيم عن عمر . وقال ابن أبي خيثمة : قرأت على يحيى بن مَعين حديث مالك عن زيد بن أبي أُنَيْسَة ، فكتب بيده على مسلم بن يسار : « لا يعرف » . وقال أبو عمر : « هذا حديث منقطع بهذا الإسناد ، لأن مسلم بن يسار هذا لم يلق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وبينهما في هذا الحديث نعيم بن ربيعة ، وهذا أيضاً – مع هذا الإسناد – لا تقوم به حجة ، ومسلم بن يسار هذا مجهول . قيل : إنه مدني ، وليس بمسلم بن يسار البصري . قال : وجملة القول في هذا الحديث أنه حديث ليس إسناده بالقائم ، لأن مسلم بن يسار ونعيم بن ربيعة جميعاً غير معروفين بحمل العلم . ولكن معنى هذا الحديث قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه ثابتة كثيرة يطول ذكرها من حديث عمر بن الخطاب وغيره » انتهى .

---

(١) راجع الحديث السابق .

ونحن نذكر بعض تلك الأحاديث[١] : قال إسحاق بن راهويه : أخبرنا بقية بن الوليد قال : أخبرني الزبيدي محمد بن الوليد ، عن راشد بن سعد ، عن عبد الرحمن بن أبي قتادة البصري ، عن أبيه ، عن هشام بن حكيم بن حزام : أن رجلاً قال : يارسول الله أتبتدأ الأعمال أم قد قضي القضاء ؟ فقال : « إن الله لما أخرج ذرية آدم من ظهره أشهدهم على أنفسهم ثم أفاض بهم في كفيه فقال : هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار . فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة ، وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار » .

أخبرنا عبد الصمد ، ثنا حماد ، ثنا الحريري ، عن أبي نضرة[٢] أن رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقال له أبو عبد الله دخل عليه أصحابه يعودونه وهو يبكي ، فقالوا له : ما يبكيك ؟ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله قبض قبضة بيمينه ، وأخرى بيده الأخرى ، فقال : هذه لهذه ، وهذه لهذه ، ولا أبالي » . فلا أدري في أي القبضتين أنا .

---

(١) سنده مضطرب .
كما في تعجيل المنفعة لابن حجر (ص ٢٥٥،٢٥٦) .
وقال « واختلف فيه على راشد بن سعد فقيل هكذا – أي راشد بن سعد عن عبد الرحمن بن قتادة مرفوعاً– وقيل عن عبد الرحمن بن قتادة عن هشام بن حكيم، وقيل عن عبد الرحمن عن أبيه وهشام وقيل عن أبيه عن هشام » .
وانظر الإصابة (٦/٣١٥،٣١٦) .
ورواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٤/١٨٦) ، عن معاوية بن صالح عن راشد بن سعد عن عبد الرحمن ابن قتادة به ...
وكذا ابن سعد (١/٣٠) و (٨/٤١٧) .
والحاكم (١/٣١) وقال « هذا حديث صحيح قد اتفقا على الاحتجاج برواته عن آخرهم إلى الصحابة ... » ووافقه الذهبي . وقال : « على شرطهما إلى الصحابي » .
والطبري (٩/١١٧) من طرق .
وصححه الألباني (رقم ٤٨) من الصحيحة . وقال الهيثمي : « رواه أحمد ورجاله ثقات » (٤/١٨٦) .

(٢) رواه الإمام أحمد (٦/٦٨) ، (٤/١٧٦،١٧٧) .
قال الهيثمي « رجاله رجال الصحيح » (٤/١٨٥،١٨٦) .
وقال الألباني : إسناده صحيح (رقم ٥٠ الصحيحة) .

أخبرنا عمرو بن محمد ثنا إسماعيل بن رافع عن المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال[١] : « إن الله خلق آدم من تراب ثم جعله طيناً ، ثم تركه حتى إذا كان حمأ مسنوناً ، خلقه وصوره ثم تركه،حتى إذا كان صلصالاً كالفخار كان إبليس يمر به فيقول : خُلقتَ لأمر عظيم ؛ ثم نفخ الله فيه من روحه ، قال : يارب ما ذريتي قال : اختر يا آدم . قال : أختار يمين ربي – وكلتا يدي ربي يمين – ثم بسط الله كفه فإذا كل من هو كائن من ذريته في كف الرحمان » .

أخبرنا النضر ، أخبرنا أبو معشر عن سعيد المقبري ونافع مولى الزبير عن أبي هريرة رضي الله عنه[٢] قال : لما أراد الله أن يخلق آدم – فذكر خلق آدم – فقال له يا آدم أي يدي أحب إليك أمن أريك ذريتك فيها ؟ فقال : يمين ربي ، وكلتا يدي ربي يمين . فبسط يمينه فإذا فيها ذريته كلهم : ما هو خالق إلى يوم القيامة ، الصحيح على هيئته ، والمبتلى على هيئته ، والأنبياء على هيئاتهم ، فقال ألا أغنيتهم كلهم ؟ فقال : « إني أحببت أن أشكر » وذكر الحديث .

وقال محمد بن نصر : ثنا محمد بن يحيى ، ثنا سعيد بن أبي مريم ، أخبرنا الليث بن سعد ، حدثني ابن عجلان ، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبيه

---

(١) سنده ضعيف ، إسماعيل بن رافع ضعيف الحفظ ، قال أحمد : ضعيف ، وفي رواية : منكر الحديث .
وضعفه ابن معين ، وقال النسائي : متروك .
انظر التهذيب (٢٩٥،٢٩٤/١) .
ورواه أبو يعلى (٤٥٣/١١) . وانظر تخريجه مفصلاً هناك .
وقال الحافظ ابن حجر : « ومما لم يذكره – يعني البخاري من أحاديث خلق آدم – ما رواه الترمذي والنسائي والبزار وصححه ابن حبان من طريق سعيد المقبري وغيره عن أبي هريرة مرفوعاً ... فذكره »
فتح الباري (٤١٩/٦) . في أحاديث الأنبياء ، باب خلق آدم ...
وانظر مسند أبي يعلى (٢٦٣/١١) و (٨/١٢) وقال المحقق : إسناده صحيح .
والترمذي (٤٢٢/٥) في تفسير القرآن ، باب : ٩٤ .
ومجمع الزوائد (١٩٧/٨) .
(٢) انظر الحديث السابق .

عن عبد الله بن سلام[١] قال : خلق الله آدم ، ثم قال بيديه فقبضهما فقال : اختر يا آدم ، فقال : اخترت يمين ربي ، وكلتا يديك يمين ؛ فبسطها فإذا ذريته فقال : من هؤلاء يارب ؟ قال : « من قضيت أن أخلق من ذريتك من أهل الجنة إلى أن تقوم الساعة ! » .

حدثنا إسحاق ثنا جعفر بن عون الخزاعي، أخبرنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال[٢] : « لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة » ، وذكر الحديث .

ثنا إسحاق وعمرو بن زرارة قال : « أنا إسماعيل عن كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس[٣] رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ** ﴾ الآية ، قال : مسح ربك ظهر آدم فخرجت منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، بـ « نَعْمان » هذا الذي وراء عرفة ، فأخذ ميثاقهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا .

ثنا إسحاق ، ثنا وكيع ، ثنا ربيعة بن كلثوم بن جَبْر عن أبيه عن سعيد

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) حديث صحيح .

رواه الترمذي (٥/٢٤٩) في تفسير القرآن باب : ومن سورة الأعراف .

وقال : حديث حسن صحيح . وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

والحاكم (٢/٣٢٥) وصححه ووافقه الذهبي .

وقع في المطبوعة من (أحكام الذمة) : هشام بن سعيد ، والصواب ما أثبتناه .

(٣) صحيح .

رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (١/٢٧٢) .

وابن جرير (٩/١١١) .

والحاكم (٢/٤ :٥) وصححه ، ووافقه الذهبي .

وصححه الشيخ الألباني كما في « الصحيحة ٤/١٥٨ برقم (١٦٢٣) . وفيه بحث نفيس في المسألة وقد أخرجه الحاكم مرفوعاً (١/٢٧،٢٨) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي .

ابن جبير عن ابن عباس[1] رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ الآية قال : مسح الله ظهر آدم وهو ببطن نَعْمان واد إلى جنب عرفة فأخرج من ظهر آدم ذريته فأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا .

ثم ساقه إسحاق من طرق متعددة عن ابن عباس رضي الله عنهما[2] ، ثم قال : أخبرنا المخزومي – وهو المغيرة بن سلمة – ثنا أبو هلال عن أبي جمرة الضبعي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مسح الله ظهر آدم فأخرج ذريته في آذِيٍّ من الماء .

أخبرنا جرير عن الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مسح الله ظهر آدم ، فخرجت منه كل ذرية بدءاً إلى يوم القيامة فعرضوا عليه .

حدثنا الملاَئِيّ ثنا المسعودي عن علي بن بَذِيمة عن سعيد عن ابن عباس[3] في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ ﴾ الآية ، قال : إن الله أخذ على آدم ميثاقه أنه ربه ، وكتب أجله ورزقه ومصيباته ، ثم أخرج من ظهره ولده كهيئة الذر ، فأخذ عليهم الميثاق أنه ربهم ، فكتب أجلهم ورزقهم ومصيباتهم .

حدثنا وكيع ثنا الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مسح الله ظهر آدم فأخرج كل طيب في يمينه ، وفي يده الأخرى كل خبيث .

---

(١) راجع الحديث السابق .

(٢) رواه الطبري (٩/١١٢) .
وانظر الدر المنثور (٣/٥٩٨) في بيان من خرجه .
ووقع في « أحكام أهل الذمة » «أدل» وقال المحقق رحمه الله (في الأصل «أدر» وصوابه كما أثبتنا) اهـ .
والصواب في غير ما أثبته، بل ما أثبتناه–والله أعلم–لما وقع ذلك في رواية الطبري، وكذا الدر المنثور.
وقال ابن الأثير في النهاية بعد ذكره للحديث: « ..... كأنهم الذر في آذِيّ الماء » الآذي .
بالمد والتشديد – : الموج الشديد ، ويجمع على « أواذي » – النهاية (١/٣٤) .

(٣) الطبري (٩/١١٢) . =

ثنا يحيى ثنا المسعودي أخبرني علي بن بذيمة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية قال : خلق الله آدم ، فأخذ ميثاقه أنه ربه ، وكتب أجله ورزقه ومصيبته ، ثم أخرج ولده من ظهره كهيئة الذر ، فأخذ مواثيقهم أنه ربهم ؛ فكتب آجالهم وأرزاقهم ومصيباتهم .

وقال عبد الرزاق[١] حدثنا معمر عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية قال : مسح الله على صلب آدم فأخرج من صلبه ما يكون من ذريته إلى يوم القيامة ، وأخذ ميثاقهم أنه ربهم فأعطوه ذلك ، فلا يسأل أحداً – كافراً أو غيره – من ربك ؟ إلا قال : الله . قال معمر : وكان الحسن يقول مثل ذلك .

قال إسحاق : وأخبرنا جرير عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو[٢] في قوله تعالى : ﴿ **وإذْ أخذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ** ﴾ الآية ، قال : أخذهم كما يؤخذ بالمشط من الرأس .

قال محمد بن نصر : وحدثنا الحسن بن محمد الزعفراني ثنا حجاج عن ابن جريج عن الزبير بن موسى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس[٣] رضي الله عنهما قال : إن الله تعالى ضرب منكب آدم الأيمن ، فخرجت كل نفس مخلوقة للجنة بيضاء نقية ، فقال : هؤلاء أهل الجنة ؛ ثم ضرب منكبه الأيسر ، فخرجت كل نفس مخلوقة للنار سوداء ، فقال : هؤلاء أهل النار . ثم أخذ عهدهم على الإيمان به والمعرفة له وبأمره ، والتصديق له وبأمره من بني آدم كلهم ، وأشهدهم على أنفسهم ، فآمنوا وصدقوا وعرفوا وأقرّوا .

= والدر المنثور (٥٩٨/٣) .

(١) انظر الدر المنثور (٥٩٨/٣) .

(٢) الطبري (١١٣/٩) .
والدر المنثور (٦٠١/٣) .

(٣) تفسير الطبري (١١٤/٩، ١١٥) .

قال إسحاق : وحدثنا روح بن عبادة ثنا محمد بن عبد الملك عن أبيه عن الزبير بن موسى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما بهذا الحديث ، وزاد : قال ابن جريج : وبلغني أنه أخرجهم على كفه أمثال الخردل .

قال إسحاق : وحدثنا حكام بن سَلْم الرازي ، حدثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب[1] في قوله عز وجل : ﴿ وإذْ أخذَ رَبُّكَ مِنْ بَني آدَمَ ﴾ الآية قال : جمعهم يومئذ جمعاً ، ما هو كائن إلى يوم القيامة ، فجعلهم أرواحاً ثم صورهم ، ثم استنطقهم وتكلموا ، وأخذ عليهم العهد والميثاق ، وأشهدهم على أنفسهم ، قال : فإني أشهد عليكم السموات والأرضين السبع ، وأشهد عليكم أباكم آدم ، أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم هذا . اعلموا أنه لا إله غيري ولا رب غيري ، ولا تشركوا بي شيئاً ، فإني سأرسل إليكم رسلاً يذكرونكم عهدي وميثاقي وأنزل عليكم كتبي . قالوا : نشهد أنك ربنا وإلهنا ، ولا رب غيرك ولا إله لنا غيرك . فأقروا يومئذ بالطاعة ، ورفع لهم أبوهم آدم ، فنظر فرأى فيهم الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذلك فقال : يارَبِّ ، لو سوّيت بين عبادك ! فقال : « إني أحببت أن أُشكر » ، ورأى فيهم الأنبياء مثل السُّرُج عليهم النور ، وخُصّوا بميثاق آخر في الرسالة والنبوة . فهو الذي يقول : (وَإذْ أخَذْنا مِنْ النَّبِيّينَ مِيثاقَهُمْ) إلى قوله : (غَلِيظاً) [الأحزاب : ٧] وهو الذي يقول : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدين حَنِيفاً فِطْرَةَ اللّهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ) [الروم : ٣٠] فلذلك قال : (هذا نَذيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأولى) [النجم : ٥٦] وفي ذلك قال : (وَمَا وَجَدْنا لأكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ) [الأعراف : ١٠٢] وفي ذلك قال : (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بعدهِ[2] رسلاً إلى قَوْمِهِمْ فَجاءوهُمْ بالبيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنوا بما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ) [يونس : ٧٤] كان في علمه يوم أقرّوا بما أقروا به ، من يكذب به ومن يصدق . قال : وكان روح عيسى من تلك الأرواح التي أخذ عليها العهد والميثاق في زمن آدم ، فأرسل ذلك إلى مريم

---

(١) انظر الدر المنثور (٣/٦٠٠) .

(٢) في المطبوعة « بعدهم » والصواب ما أثبتناه .

(حتى انتبذت من أهلها) إلى قوله (فحملته) [مريم : ١٦-٢٢] حملت الذي خاطبها ، وهو روح عيسى .

وفي تفسير أسباط بن نصر عن السدي عن أبي مالك ، وعن أبي صالح عن ابن عباس ، وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود[١] ، وعن أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ** ﴾ الآية قال : لما أخرج الله آدم من الجنة قبل أن يهبط من السماء مسح صفحة ظهر آدم اليمنى ، فأخرج منه ذرية بيضاء مثل اللؤلؤ وكهيئة الذر ، فقال لهم : ادخلوا الجنة برحمتي . ومسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منه ذرية سوداء كهيئة الذر ، فقال : ادخلوا النار ولا أبالي ، فذلك حين يقول (وَأَصْحَابُ اليَمِينِ) (وَأَصْحَابُ الشِّمالِ) ، ثم أخذ منهم الميثاق فقال : ﴿ **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى** ﴾ . فأعطاه طائفة طائعين ، وطائفة كارهين . فقالت الملائكة : ﴿ **شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ القِيامَة إنّا كُنَّا عَنْ هذا غَافلين أَوْ تَقُولُوا إنَّما أشْرَكَ آباؤنا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ المُبْطِلونَ** ﴾ [الأعراف : ١٧٢،١٧٣] فلذلك ليس أحد من ولد آدم إلا وهو يعرف أن ربه الله ، ولا مشرك إلا وهو يقول : إنا وجدنا آباءنا على أمة . فلذلك قول الله عز وجل : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ** ﴾ الآية وذلك حين يقول : (وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ في السَّموات وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً) [آل عمران : ٨٣] وذلك حين يقول : (قُلْ فَلِلَّه الْحُجَّةُ البَالغةُ فَلَوْ شاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) [الأنعام : ١٤٩] قال : يعني يوم أخذ عليهم الميثاق .

قال إسحاق[٢] : وأخبرنا روح بن عبادة ثنا موسى بن عبيدة الربذي قال : سمعت محمد بن كعب القرظي يقول في هذه الآية : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ** ﴾ فأقروا له بالإيمان والمعرفة : الأرواح قبل أن يخلق أجسادها .

---

(١) رواه « ابن عبد البر » في التمهيد (٨٥/١٨) من طريق أسباط بن نصر ...
وقال : « ومن أحسن ما روي في تأويل قوله ... » فذكره .

(٢) التمهيد (٨٠/١٨) .
والدر المنثور (٥٩٩/٣) .

قال إسحاق .

وحدثنا الفضل بن موسى عن عبد الملك عن عطاء قال : أخرجوا من صلب آدم حين أخذ منهم الميثاق ، ثم رُدّوا في صلبه .

قال إسحاق : وأخبرنا علي بن الأجلح عن الضحاك قال : إن الله أخرج من ظهر آدم يوم خلقه ما يكون إلى أن تقوم الساعة ، فأخرجهم مثل الذر ، فقال : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ؛ قالت الملائكة : شهدنا ، أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . ثم قبض قبضة بيمينه فقال : هؤلاء في الجنة وقبض أخرى فقال : هؤلاء في النار .

قال محمد بن نصر : وحدثنا بندار ، ثنا أبو أحمد ، ثنا سفيان عن الربيع ابن أنس عن أبي العالية[1] في قوله : (وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ في السَّمٰواتِ والأَرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً) [آل عمران : ٨٣] قال : أخذه الميثاق .

قال محمد : فقد ذكرنا ما حضرنا من الأخبار المروية عن السلف في تأويل قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ ﴾ الآية ، وليس في شيء منها أن الطفل يسقط من بطن أمه وهو عارف بالله ، ولا في شيء منها دليل على ذلك .

قلت : أبو محمد لم يرد أنهم ولدوا عارفين بالله معرفة حاصلة معهم بالفعل وإنما أراد أنهم ولدوا على حكم تلك الفطرة والميثاق الذي أخذ عليهم بحيث لو خلّوا وفطرهم لما عدلوا عن موجب ذلك .

قال محمد : فيقال له : هل عندك من دليل يدل على أن الفطرة التي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم : « أن كل مولود يولد عليها » هي المعرفة بالله ؟ أو هل يحكى عن أحد من السلف أنه قال ذلك ؟ أو هل يدل على ذلك بقياس ؟ فإن أتى بشيء من هذه الدلائل وإلا بانَ باطل دعواه . فإن هو رجع إلى قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ﴾ الآية فقال : استشهاد الله ذرية آدم على أنه ربهم دليل على أن معرفة ذلك متقدمة عندهم كما استشهدهم عليه ، فهذه غاية حجته عند نفسه .

(١) رواه «ابن جرير» عن «ابن عباس رضي الله عنهما» (٥٦٥/٦) بتحقيق العلامة أحمد شاكر .

قال : لأن كل مستشهد على شيء لم تتقدم المعرفة عنده بما استشهد عليه قبل الاستشهاد فإن المستشهد دعاه إلى أن شهد بقول الزور ، والله لا يأمر أحداً بذلك .

فيقال له : إن إجابتك عن غير ما تسأل عنه واحتجاجك له هو الدليل على عجزك وعلى أنه لاحجة لك. إنا لم نسألك عن الوقت الذي استشهدهم الله فيه ، وقال لهم : ألست بربكم ؟ فأجابوه بأن قالوا : بلى - هل كانوا عارفين في ذلك الوقت أم لا - إنما سألناك عن وقت سقوطهم من بطون أمهاتهم : هل عندك حجة تثبت أنهم في ذلك الوقت عارفون ؟ فإن قال : إن ثبوت المعرفة لهم في ذلك الوقت دليل على أنهم ولدوا على ذلك ، فهم في وقت الولادة على ما كانوا عليه قبل ذلك ، قيل له : فقد كانوا في ذلك الوقت مقرّين أيضاً ، وذلك أن الله عز وجل أخبر أنه قال : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، والله عز وجل لا يخاطب إلا من يفهم عند المخاطبة ، ولا يجيب إلا من فهم السؤال ، فإجابتهم إياه بقولهم دليل على أنهم قد فهموا عن الله وعقلوا عنه استشهاده إياهم : ألست بربكم ، فأجابوه من بعد عقلهم للمخاطبة وفهمهم لها بأن قالوا : بلى ، فأقروا له بالربوبية ، فيقال له : فهكذا تقول : إن الطفل إذا سقط من بطن أمه فهو من ساعته يفهم المخاطبة إن خوطب ، ويجيب عنها ، ويقر له بالربوبية ، كإقرار الذين أقرّوا له بالربوبية في الوقت الذي أخذ عليهم الميثاق ؛ فإن قال : نعم كابر عقله وأكذبه العيان ، وإن قال : لا أقول ذلك فرق بين الوقتين ، فجعل حالهم في وقت الولادة خلاف حالهم في الوقت الأول عند أخذ الميثاق منهم ، فيقال له : فكذلك جائز أن يكونوا في الوقت الأول عارفين ، وهم في وقت الولادة غير عارفين كما كانوا في الوقت الأول ، فقد فهموا المخاطبة وعقلوها وأجابوا مقرين لله بالربوبية ، وهم في وقت الولادة على خلاف ذلك .

قلت : كل من قال بأن العهد الذي أخذ عليهم هو أنهم أخرجوا من صلب آدم وخوطبوا وأقروا له بالربوبية ، ثم ردّوا في صلبه ، فإنه يفرق بين حالهم ذلك الوقت وحالهم وقت الولادة قطعاً ، ولا يقول ابن قتيبة ولا غيره : إنهم ولدوا

عارفين فاهمين يفهمون السؤال ويردون الجواب ، فالأقسام أربعة :

أحدها : استواء حالتهم وقت أخذ العهد ، ووقت سقوطهم – في العلم والمعرفة .

الثاني : استواء الوقتين في ذلك .

الثالث : حصول المعفرة عند السقوط ، وعدمها عند أخذ العهد وهذه الأقسام الثلاثة باطلة لا يقول بواحد منها .

الرابع : معرفتهم وفهمهم وقت أخذ العهد دون وقت السقوط ، وهذا يقوله كل من يقول : إنه أخرجهم من صلب أبيهم آدم ، وكلمهم ، وخاطبهم ، وأشهد عليهم ملائكته ، وأشهدهم على أنفسهم ، ثم ردهم في صلبه .

وهذا قول جماهير من السلف والخلف ، واعتمدوا على ما ذكرنا من هذه الآثار ، مرفوعها وموقوفها . وأحسن شيء فيها حديث مسلم بن يسار عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، وقد ذكرنا كلام الأئمة فيه . على أن إسحاق قد رواه عن حكام بن سَلْم عن عبادة بن عمير عن أبي محمد رجل من أهل المدينة قال : سألت عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن هذه الآية فقال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقال : « خلق الله آدم بيده ونفخ فيه من روحه ، ثم أجلسه فمسح ظهره فأخرج ذراً فقال : ذرٌّ ذراتُهمْ للجنة يعملون بما شئت من عمل ، ثم أختم لهم بأحسن أعمالهم فأدخلهم الجنة ، ثم مسح ظهره فأخرج ذراً فقال : ذرٌّ ذراتهم للنار يعملون بما شئت من عمل ، ثم أختم لهم بأسوء أعمالهم ، فأدخلهم النار . فهذا لا ذكر فيه لمخاطبتهم وسؤالهم واستنطاقهم ، وهو موافق لسائر الأحاديث ، ويشبه أن يكون هو المحفوظ عن عمر رضي الله عنه . .

وأما سائر الأحاديث فالمرفوع الصحيح منها إنما فيه إثبات القبضتين ، وتمييز أهل السعادة من أهل الشقاوة قبل إخراجهم إلى دار التكليف : مثل الحديث الذي رواه أحمد[1] عن عبد الصمد ثنا حماد ثنا الحريري عن أبي نضرةَ أن رجلاً من

(١) انظر الحديث رقم (٢) ص (٢٩٠) .

أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقال له أبو عبد الله دخل عليه أصحابه يعودونه وهو يبكي ؟ فقالوا له : ما يبكيك ؟ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله قبض قبضة بيمينه ، وأخرى بيده الأخرى ، فقال : هذه لهذه ، وهذه لهذه ولا أبالي » فلا أدري في أي القبضتين أنا ! وكذلك حديث المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه – يرفعه – الذي تقدم هو وغيره من الأحاديث التي فيها « أن الله أخرج ذرية آدم من ظهره ، وأراه إياهم ، وجعل أهل السعادة في قبضته اليمنى وأهل الشقاوة في القبضة الأخرى » .

وأما الآثار[1] التي فيها أنه استنطقهم وأشهدهم وخاطبهم فهي بين موقوفة ومرفوعة لا يصح إسنادها كحديث مسلم بن يسار ، وحديث هشام بن حكيم ابن حزام : فإن في إسناده بقية بن الوليد وراشد بن سعد ، وفيهما مقال ، وأبا قتادة البصري ، وهو مجهول وبالجملة ، فالآثار في إخراج الذرية من ظهر آدم ، وحصولهم في القبضتين كثيرة لا سبيل إلى ردها وإنكارها ، ويكفي وصولها إلى التابعين ، فكيف بالصحابة ؟ ومثلها لا يقال بالرأي والتخمين ولكن الذي دل عليه الصحيح من هذه الآثار إثبات القدر ، وأن الله علم ما سيكون قبل أن يكون ، وعلم الشقي والسعيد من ذرية آدم ، وسواء كان ما استخرجه فرآه آدم هو أمثالهم أو أعيانهم . فأما نطقهم فليس في شيء من الأحاديث التي تقوم بها الحجة ، ولا يدل عليه القرآن : فإن القرآن يقول فيه : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ** ﴾ فذكر الأخذ من ظهور بني آدم لا من نفس ظهر آدم ﴿ **وذريتهم** ﴾ يتناول كل من ولده إن كان كثيراً ، كما قال في تمام الآية : ﴿ **أَوْ يَقُولُواْ**[2] **إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ** ﴾ وقال تعالى : (إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ) [آل عمران : ٣٣ – ٣٤] . وقال : (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا

(١) انظر التخريجات السابقة ، ففيها بيان الصحيح من الضعيف ، وإما إطلاق الضعف عليها كلها ، فبعيد . والله أعلم .
(٢) راجع تعليق رقم (١) ص (٢٧٦)
وأشار محقق الكتاب أنها كذلك في الأصل « أن يقولوا » وغيرها هو ، فأثبتنا ما بالأصل .

مَعَ نُوحٍ) [الإسراء : ٣] ، وقال : (وَمِنْ ذُرِّيَتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ ومُوسى وَهارُونَ) [الأنعام : ٨٤] فاسم الذرية يتناول الكبار وقوله : ﴿ **وَأَشْهَدَهُمْ على أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرِبِّكُم قَالُوا بَلَى** ﴾ فشهادة المرء على نفسه في القرآن يراد بها إقراره ، فمن أقر بحق عليه فقد شهد به على نفسه . قال تعالى : (كُونُوا قَوامِين بالقِسْطِ شُهَداَء لِلّهِ وَلَوْ على أَنْفُسِكُمْ أَوِ الوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبينَ) [النساء : ١٣٥] ، كما احتج الفقهاء بذلك على صحة الإقرار ، وفي حديث[1] ماعز بن مالك : « فلما شهد على نفسه أربع مرات » أي أقر أربع مرات وقال تعالى : (مَا كَانَ لِلْمُشرِكِينِ أَنْ يَعْمُروا مَسَاجِدَ اللّهِ شَاهِدِينَ على أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ) [التوبة : ١٧] ، فإنهم كانوا مقرين بما هو كفر ، فكان ذلك شهادتهم على أنفسهم . ومنه قوله : (أَلَمْ يَأْتِكُم رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصونَ عَلَيكُمْ آيَاتي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذا قَالُوا شَهِدْنَا عَلى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الحيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا على أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرينَ) [الأنعام : ١٣٠] . فشهادتهم على أنفسهم هي إقرارهم وهي أداء الشهادة على أنفسِهم ولفظ « شهد » فلان ، و « أشهد به » يراد به تحمل الشهادة ، ويراد به أداؤها . فالأول كقوله : (وَأَشْهِدوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ) [الطلاق:٢]؛ والثاني كقوله: (كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولو على أنفسكم) وقوله: ﴿**وأشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ**﴾ من هذا الثاني، ليس المراد: أنه جعلهم يتحملون الشهادة على أنفسهم ويؤدونها في وقت آخر، فإنه سبحانه في مثل ذلك إنما يُشْهِدُ على الرجل غَيْرَه، كما في قصة آدم، لما أشهد عليه الملائكة، وكما في شهادة الملائكة، وشهادة الجوارح على أصحابها.

ولهذا قال بعض المفسرين: المعنى (أشهد بعضهم على بعض) لكن هذا اللفظ حيث جاء في القرآن إنما يراد به شهادة رجل على نفسه، بمعنى أداء الشهادة على نفسه وقولهم ﴿**بلى شهدنا**﴾ هو إقرارهم بأنه ربهم؛ ومن أخبر بأمر عن نفسه فقد شهد به على نفسه، فإن

---

(١) حديث ماعز رواه البخاري (١٣٨/١٢) في الحدود باب : « هل يقول الإمام للمقر ... » .
ومسلم (٢٧١/٤) في الحدود ، باب : حد الزنا .
وأبو داود (٩٩/١٢) في الحدود ، باب : رجم ماعز بن مالك .
ورواه غيرهم .

قولهم: ﴿بلى شهدنا﴾ معناه: أنت ربنا، وهذا إقرار منهم بربوبيته لهم، وجعلهم شُهَداء على أنفسهم بما أقروا به ؛ وقوله ﴿ أَشْهَدَهُمْ ﴾ يقتضي أنه هو الذي جعلهم شاهدين على أنفسهم بأنه ربهم .

وهذا الإشهاد مقرون بأخذهم من ظهور آبائهم، وهذا الأخذ المعلوم المشهود الذي لا ريب فيه هو أخذ المنيّ من أصلاب الآباء، ونزوله في أرحام الأمهات، لكن لم يذكر هنا الأمهات، كقوله: ﴿أَوْ تقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ وهم كانوا متبعين لدين آبائهم لا لدين الأمهات، كما قالوا: (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلى أُمَّةٍ) [الزخرف : ٢٣] ولهذا قال : (أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ) فهو سبحانه يقول : اذكر حين أخذوا من أصلاب الآباء فخلقوا حين ولدوا على الفطرة مقرين بالخالق ، شاهدين على أنفسهم بأن الله ربهم ، فهذا الإقرار حجة الله عليهم يوم القيامة ، فهو يذكر أخذه لهم وإشهاده إياهم على أنفسهم ، فإنه سبحانه خلق فسوّى ، وقدر فهدى ؛ فأَخذُهم يتضمن خلقهم ، والإشهاد يتضمن هداه لهم إلى هذا الإقرار ، فإنه قال : ﴿ أشهدهم ﴾ أي جعلهم شاهدين ، فهذا الإشهاد من لوازم الإنسان ، وكل إنسان جعله الله مقراً بربوبيته شاهداً على نفسه بأنه مخلوق ، والله خالقه ، وهذا أمر ضروري لبني آدم لا ينفك منه مخلوق ، وهو مما جبلوا عليه ، فهو علم ضروري لهم لا يمكن أحداً جحده . ثم قال بعد ذلك : ﴿ أَنْ يَقُولوا ﴾ أي كراهية أن تقولوا ، أو لئلا تقولوا : ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذَا غَافِلِينَ ﴾ أي عن هذا الإقرار لله بالربوبية وعلى نفوسنا بالعبودية ، فإنهم ما كانوا غافلين عن هذا ، بل كان هذا من العلوم الضرورية اللازمة لهم التي لم يخل منها بشرٌ قط ، بخلاف كثير من العلوم التي قد تكون ضرورية ، ولكن قد يغفل عنها كثير من بني آدم من علوم العدد والحساب وغير ذلك : فإنها إذا تصورت كانت علوماً ضرورية ، لكن كثيراً من الناس غافل عنها . وأما الاعتراف بالخالق فإنه علم ضروري لازم للإنسان لا يغفل عنه أحد بحيث لا يعرفه ، بل لابد أن يكون قد عرفه ، وإن قدّر أنه نسيه . ولهذا يسمى التعريف بذلك تذكيراً ، فإنه تذكير بعلوم فطرية ضرورية ،

وقد ينساها العبد ، كما قال تعالى : (وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ) [الحشر : ١٩] وفي الحديث الصحيح :« يقول الله للكافر : فاليوم أنساك كما نسيتني »[١] .

ثم قال : ﴿ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٣] فذكر سبحانه لهم حجتين يدفعهما هذا الإشهاد :

إحداهما : أن يقولوا إنا كنا عن هذا غافلين ، فبين أن هذا علم فطري ضروري لابد لكل بشر من معرفته ، وذلك يتضمن حجة الله في إبطال التعطيل ، وأن القول بإثبات الصانع علم فطري ضروري ، وهو حجة على نفي التعطيل .

والثانية : أن يقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل ، وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون ، وهم آباؤنا المشركون : أي أفتعاقبنا بذنوب غيرنا ؟ فإنه لو قدّر أنهم لم يكونوا عارفين بأن الله ربهم ووجدوا آباءهم مشركين ، وهم ذرية من بعدهم ومقتضى الطبيعة العادية أن يحتذي الرجل حذو أبيه حتى في الصناعات والمساكن والملابس والمطاعم إذ كان هو الذي رباه ، ولهذا كان أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، فإذا كان هذا مقتضى العادة والطبيعة ، ولم يكن في فطرهم وعقولهم ما يناقض ذلك ، قالوا : نحن معذورن ، وآباؤنا هم الذين أشركوا ، ونحن كنا ذرية لهم بعدهم ، ولم يكن عندنا ما يبيّن خطأهم : فإذا كان في فطرهم ما شهدوا به من أن الله وحده هو ربهم ، كان معهم ما يبين بطلان هذا الشرك وهو التوحيد الذي شهدوا به على أنفسهم . فإذا احتجوا بالعادة الطبيعية من اتباع الآباء كانت الحجةُ عليهم الفطرة الطبيعية الفعلية السابقة لهذه العادة الطارئة ، وكانت الفطرة الموجبة للإسلام سابقة للتربية التي يحتجون بها ؛ وهذا يقتضي أن نفس العقل الذي به يعرفون التوحيد حجة في بطلان الشرك لا يحتاج ذلك إلى رسول ، فإنه جعل ما تقدم حجة عليهم بدون هذا . وهذا

(١) رواه مسلم (٨٢٣/٥) في الزهد ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .
والترمذي (٥٣٤/٤،٥٣٥) في صفة القيامة ، باب : (٦) .
وقال : صحيح غريب .

لا يناقض قوله تعالى : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) [الإسراء : ١٥] فإن الرسول يدعو إلى التوحيد ، ولكن الفطرة دليل عقلي يعلم به إثبات الصانع ، لم يكن في مجرد الرسالة حجة عليهم : فهذه الشهادة على أنفسهم التي تتضمن إقرارهم بأن الله ربهم ، ومعرفتهم بذلك أمر لازم لكل بني آدم ، به تقوم حجة الله تعالى في تصديق رسله ، فلا يمكن أحداً أن يقول يوم القيامة : إني كنت عن هذا غافلاً ، ولا أن الذنب كان لأبي المشرك دوني لأنه عارف بأن الله ربه لا شريك له ، فلم يكن معذوراً في التعطيل والإشراك بل قام به ما يستحق به العذاب .

ثم إن الله سبحانه – لكمال رحمته وإحسانه – لا يعذب أحداً إلا بعد إرسال الرسول إليه ، وإن كان فاعلا لما يستحق به الذم والعقاب : فلله على عبده حجتان قد أعدهما عليه لا يعذبه إلا بعد قيامهما :

إحداهما : مافطره عليه وخلقه عليه من الإقرار بأنه ربه ومليكه وفاطره ، وحقه عليه لازم .

والثانية : إرسال رسله إليه بتفصيل ذلك وتقريره وتكميله فيقوم عليه شاهد الفطرة والشرعة ، ويقرُّ على نفسه بأنه كان كافراً كما قال تعالى : (وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ) [الأنعام : ١٣٠] فلم ينفذ عليهم الحكم إلا بعد إقرار وشاهدين وهذا غاية العدل[1].

وقال رحمه الله تعالى :

في مناظرة بين أصحاب الغناء وأصحاب القرآن ، والرد على استشهادهم بقوله : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ... ﴾ الآية [الأعراف : ١٧٢] .

قال صاحب الغناء: نحن نتحاكم في هذه المسألة إلى سيد الطائفة الجنيد[2]،

---

(١) أحكام أهل الذمة (٥٢٤/٢–٥٦٥) .

(٢) الجنيد ، ابن محمد بن الجنيد النهاوندي ثم البغدادي ، وهو شيخ الصوفية ، صاحب علم وحال جيد فرحمه الله تعالى ، ولد سنة نيّف وعشرين ومئتين ، وكانت وفاته سنة سبع وتسعين ومائتين . =

قال أبو عمرو الأنماطي سمعته يقول وقد سئل ما بال الإنسان يكون هادئاً فإذا سمع السماع اضطرب فقال : إن الله لما خاطب الأرواح في الميثاق الأول بقوله : ﴿ **ألست بربكم** ﴾ استفرغت عذوبة سماع الكلام الأرواح ، فإذا سمعوا السماع حركهم ذكر ذلك .

قال صاحب القرآن : من دعي إلى تحكيم الله ورسوله ، وما أنزل على نبيه من الكتاب والحكمة فلم يرض بذلك ، ودعا إلى تحكيم من يصيب ويخطىء ، ولم يوله الله الحكم فيما شجر بين المتنازعين ، فقد بخس حظه وأضاع نصيبه . فهذا النقل إن كان ثابتاً عن الجنيد فهو نقل عن غير معصوم ، وإن لم يكن ثابتاً عنه وهو الأليق بمثل جلالته ومعرفته فهو نقل غير مصدق عن قائل غير معصوم ، فكيف يكون حجة والجنيد أعرف بالله من أن يقول مثل هذا فإن هذا الاضطراب يكون لجميع الحيوان ناطقه وأعجميه ، ويكون للكفار والمنافقين والفساق والفجار ، ثم الاضطراب قد يكون لحلاوة الصوت ومحبته واستلذاذه ، وقد يكون للخوف منه وهيبته ، وقد يكون للحزن والجزع ، وقد يكون للغضب ، وأيضاً فمن المعلوم قطعاً أنّ الصوت المسموع ليس هو ذلك الخطاب الأول ولا هو متعلق به ولا هو منه بسبيل .

وأيضا فإن هذا الاضطراب على قرآن الشيطان والغناء الذي هو مادة النفاق ورقية الفجور كيف يحرك للخطاب بقوله : ﴿ **ألست بربكم** ﴾ [الأعراف : ١٧٢] وأيضاً فإن العبد لو سمع كلام الله بلا واسطة كما سمعه موسى بن عمران ، لم يكن سماعه بعد للأصوات والألحان والغناء محركاً لذلك مذكراً به ، بل المأثور أن موسى مقت الآدميين وأصواتهم وكلامهم لما وقر في مسامعه من كلام ربه جل جلاله ، وأيضا فإن استلذاذ الصوت أمر طبيعي لا تعلق به بكونهم سمعوا خطاب الرب في الأزل أصلا وأيضاً فإن أحداً لا يذكر ذلك السماع أصلاً إلا بالخبر عنه وأيضاً فإن معنى الآية ينبو عما حملها من قال بهذا القول من وجوه متعددة .

= انظر ترجمته ومصادرها في سير أعلام النبلاء (٦٦/١٤) .
« ووفيات الأعيان » لابن خلكان (٣٧٣/١) .

منها : أنه قال : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم** ﴾ ولم يقل من آدم ولا قال من ظهره ولا قال من ذريته .

ومنها : أنه أشهدهم على أنفسهم ولابد أن يكونوا عند هذا الإشهاد موجودين والنفوس البشرية إنما تحدث عند خلق أبدانها لأنها مخلوقة قبل الأبدان .

ومنها : أن المقصود بهذا الإشهاد إثبات الحق وإقامة الحجة وهذا إنما حصل بعد خروجهم إلى هذه الدار وإقامة الحجة عليهم من الرسل وبما ركب فيهم من العقول ونصب لهم من الأدلة وكيف تقوم الحجة عليهم بأمر لا يذكره أحد منهم .

ومنها : أنه قال : ﴿ **أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين** ﴾ .

أي حذار أن يقولوا ولئلا يقولوا ، فأخبر أن هذا الإشهاد والتقرير لئلا يحتجوا عليه سبحانه يوم القيامة بغفلتهم عنه فكيف تقوم عليهم الحجة بأمر كلهم عنه غافل لا يذكره أحد منهم .

ومنها : أنه قال : ﴿ **أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم** ﴾ ، فأخبر أنه أقام عليهم الحجة لئلا يحتجوا عليه بتقليد الآباء فلو أهلكهم لأهلكهم بذنوب غيرهم وهذا كله حصل بعد إرسال الرسل وإنزال الكتب وتركيب العقول والأسماع والأبصار فيهم فكيف يحصل بهذا العهد الذي لا يذكره أحد حجة ثم إن الجنيد في السماع كان له أحوال أولها حضوره ثم المنع من التكلف له والرخصة لمن صادفه[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ .... ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

فذكر سبحانه من حكم أخذ الميثاق عليهم أن لا يحتجوا يوم القيامة بغفلتهم عن هذا الأمر ولا بتقليد الأسلاف ومنه قوله (وذكر به أن تبسل نفس بما

---

(١) الكلام على مسألة السماع (٣٨٣-٣٨٥) .

كسبت) فالضمير في (به) للقرآن و (أن تبسل) في محل نصب على أنه مفعول له ، أي حذار أن تسلم نفس إلى الهلكة والعذاب وترتهن بسوء عملها[١] .

قول الله تعالى : ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف : ١٧٥-١٧٦] .

فشبه[٢] سبحانه من آتاه كتابه ، وعلمه العلم الذي منعه غيره ، فترك العمل به واتبع هواه ، وآثر سخط الله على رضاه ، ودنياه على آخرته ، والمخلوق على الخالق بالكلب الذي هو من أخس الحيوانات ، وأوضعها قدراً ، وأخسها نفساً وهمته لا تتعدى بطنه . وأشدها شرهاً وحرصاً . ومن حرصه : أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض يتشمم ، ويستروح حرصاً وشرهاً . ولا يزال يشم دبره دون سائر أجزاء جسمه ، وإذا رميت إليه بحجر رجع إليه ليعضه من فرط نهمته ، وهو من أمهن الحيوانات وأحملها للهوان ، وأرضاها بالدنايا . والجيف القذرة المروحة أحب إليه من اللحم ، والعذرة أحب إليه من الحلوى . وإذا ظفر بميتة تكفي مائة كلب لم يدع كلباً يتناول معه منها شيئاً إلَّا هَرَّ عليه وقهره ، لحرصه وبخله وشرهه .

ومن عجيب أمره وحرصه : أنه إذا رأى ذا هيئة رثة وثياب دنية ، وحال رزيَّة نبحه ، وحمل عليه ، كأنه يتصور مشاركته له ، ومنازعته في قوته . وإذا رأى ذا هيئة حسنة وثياب جميلة ورياسة : وضع له خطمه بالأرض ، وخضع له ، ولم يرفع إليه رأسه .

وفي تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها على الله والدار الآخرة - مع وفور

(١) شفاء العليل (١٩٥) .

(٢) انظر تفسير الطبري (١٢٨/٩) .

وذكر أكثر الأقوال الواردة هنا .

علمه – بالكلب في حال لهثه : سر بديع ، وهو أن هذا الذي حاله ما ذكره الله من انسلاخه من آياته واتباعه هواه : إنما كان لشدة لهفه على الدنيا . لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة . فهو شديد اللهف عليها ، ولهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه . واللهف واللهث شقيقان وأخوان في اللفظ والمعنى .

قال ابن جريج[1] : الكلب منقطع الفؤاد ، لا فؤاد له : إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث . فهو مثل الذي يترك الهدى ، لا فؤاد له إنما فؤاده منقطع .

قلت : مراده بانقطاع فؤاده : أنه ليس له فؤاد يحمله على الصبر وترك اللهث وهكذا هذا الذي انسلخ من آيات الله ، لم يبق معه فؤاد يحمله على الصبر عن الدنيا ، وترك اللهف عليها . فهذا يلهث على الدنيا من قلة صبره عنها . وهذا يلهث من قلة صبره عن الماء . فالكلب من أقل الحيوانات صبراً عن الماء ، وإذا عطش أكل الثرى من العطش ، وإن كان فيه صبر على الجوع . وعلى كل حال فهو أشد الحيوانات لهثاً : يلهث قائماً ، وقاعداً ، وماشياً ، وواقفاً . وذلك لشدة حرصه ، فحرارة الحرص في كبده توجب له دوام اللهث .

فهكذا مشبهه : شدة الحرص وحرارة الشهوة في قلبه توجب له دوام اللهث فإن حملت عليه بالموعظة والنصيحة فهو يلهث ، وإن تركته ولم تعظه فهو يلهث .

قال مجاهد : ذلك مثل الذي أوتي الكتاب ولم يعمل به . وقال ابن عباس : إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها . وإن تتركه لم يهتد إلى خير ، كالكلب إن كان رابضاً لهث ، وإن طرد لهث .

وقال الحسن[2] : هو المنافق لا يثبت على الحق ، دعي أو لم يدع ، وعظ أو لم يوعظ . كالكلب يلهث طرداً وتركا .

(١) الطبري (١٢٩/٩) .
(٢) نفس المصدر

وقال عطاء : ينبح إن حملت عليه أو لم تحمل عليه .

وقال أبو محمد بن قتيبة[١] : « كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش ، (أو علة)[٢] إلا[٣] الكلب ، فإنه يلهث في حال الكلال ، وحال الراحة ، وحال الصحة ، (وحال)[٤] المرض والعطش » .

فضربه الله مثلا لمن كذب بآياته ، وقال : إن وعظته فهو ضال ، وإن تركته فهو ضال . كالكلب إن طردته لهث ، وإن تركته على حاله لهث .

ونظيره قوله سبحانه : (وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون) [الأعراف : ١٩٣] .

وتأمل ما في هذا المثل من الحكم والمعاني .

فمنها قوله ﴿ **آتيناه آياتنا** ﴾ فأخبر سبحانه أنه هو الذي آتاه آياته ، فإنها نعمة والله هو الذي أنعم بها عليه ، فأضافها إلى نفسه . ثم قال ﴿ **فانسلخ منها** ﴾ أي خرج منها ، كما تنسلخ الحية من جلدها ، وفارقها فراق الجلد يسلخ عن اللحم .

ولم يقل : فسلخناه منها لأنه هو الذي تسبب إلى انسلاخه منها باتباعه هواه .

ومنها : قوله سبحانه : ﴿ **فأتبعه الشيطان** ﴾ أي لحقه وأدركه ، كما قال في قوم فرعون (فأتبعوهم مشرقين) [الشعراء: ٦٠] وكان محفوظاً محروساً بآيات الله محمي الجانب بها من الشيطان لا ينال منه شيئاً إلا على غِرَّةٍ وخَطْفة . فلما انسلخ من آيات الله ظفر به الشيطان ظَفَر الأسد بفريسته ﴿ **فكان من الغاوين** ﴾ العاملين بخلاف عملهم ، الذين يعرفون الحق ويعملون بخلافه ، كعلماء السوء .

---

(١) انظر « تأويل مشكل القرآن » لابن قتيبة ص ٣٦٩ .
(٢) زيادة من « تأويل مشكل القرآن » .
(٣) في المشكل [خلا] .
(٤) ليست في المشكل .

ومنها : أنه سبحانه قال : ﴿ **ولو شئنا لرفعناه بها** ﴾ فأخبر سبحانه أن الرفعة عنده ليست بمجرد العلم . فإن هذا كان من العلماء ، وإنما هي باتباع الحق وإيثاره ، وقصد مرضاة الله . فإنَّ هذا كان من أعلم أهل زمانه ، ولم يرفعه الله بعلمه ، ولم ينفعه به . نعوذ بالله من علم لا ينفع .

وأخبر سبحانه أنه هو الذي يرفع عبده إذا شاء بما آتاه من العلم ، وإن لم يرفعه الله فهو موضوع، لا يرفع أحد به رأساً. فإن الرب الخافض الرافع سبحانه خفضه ولم يرفعه .

والمعنى : لو شئنا فضلناه وشرفناه ورفعنا قدره ومنزلته بالآيات التي آتيناه .

قال ابن عباس : لو شئنا لرفعناه بعلمه .

وقالت طائفة[1] : الضمير في قوله ﴿ **لرفعناه** ﴾ عائد على الكفر . والمعنى : لو شئنا لرفعنا عنه الكفر بما معه من آياتنا . قال مجاهد وعطاء : لرفعنا عنه الكفر بالإيمان وعصمناه .

وهذا المعنى حق . والأول هو مراد الآية . وهذا من لوازم المراد .

وقد تقدم أن السلف كثيراً ما ينبهون على لازم معنى الآية ، فيظن الظان أن ذلك هو المراد منها .

وقوله : ﴿ **ولكنه أخلد إلى الأرض** ﴾ قال سعيد بن جبير : ركن إلى الأرض . وقال مجاهد : سكن . وقال مقاتل : رضي بالدنيا . وقال أبو عبيدة : لزمها وأبطأ .

والمخلد من الرجال : هو الذي يبطىء في مشيته . ومن الدواب : التي تبقى ثناياه إلى أن تخرج رباعيته .

وقال الزجاج : خلد وأخلد . وأصله من الخلود .. وهو الدوام والبقاء . يقال أخلد فلان بالمكان إذا أقام به . قال مالك بن نويرة :

بأبناء حَيٍّ مِنْ قَبائِل مالِك　　وَعمْرِو بن يَرْبُوع أقاموا فأَخْلَدوا

(١) انظر تفصيل الأقوال في الآية في تفسير الطبري (١٢٧/٩) .

قلت : ومنه قوله تعالى : (يطوف عليهم ولدان مخلدون) [الواقعة : ١٧] أي قد خلقوا للبقاء ، لذلك لا يتغيرون ولا يكبرون ، وهم على سن واحد أبداً .

وقيل : هم المقرَّطون في آذانهم . والمسورون في أيديهم .

وأصحاب هذا القول فسروا اللفظة ببعض لوازمها . وذلك أمارة التخليد على ذلك السن فلا تنافي بين القولين .

وقوله : ﴿ **فاتبع هواه** ﴾ قال الكلبي : اتبع مسافل الأمور ، وترك معاليها .

وقال أبو رَوْق[1] : اختار الدنيا على الآخرة . وقال عطاء : أراد الدنيا وأطاع شيطانه .

وقال ابن زيد : كان هواه مع القوم ، يعني الذين حاربوا موسى وقومه .

وقال ابن يمان : اتبع امرأته لأنها هي التي حملته على ما فعل .

فإن قيل : الاستدراك بـ « لكن » يقتضي أن يثبت بعدها ما نفي قبلها، أو ينفي ما أثبت ، كما تقول : لو شئت لأعطيته ، لكني لم أعطه ، ولو شئت لما فعلت كذا لكني فعلته . والاستدراك يقتضي : ولو شئنا لرفعناه بها ولكنا لم نشأ ، أو لم نرفعه ، فكيف استدرك بقوله : ﴿ **ولكنه أخلد إلى الأرض** ﴾ بعد قوله : ﴿ **لو شئنا لرفعناه بها** ﴾ .

قيل : هذا من كلام الملحوظ فيه جانب المعنى ، المعدول فيه عن مراعاة الألفاظ إلى المعاني . وذلك أن مضمون قوله : ﴿ **ولو شئنا لرفعناه بها** ﴾ أنه لم يتعاط الأسباب التي تقتضي رفعه بالآيات : من إيثار الله ومرضاته على هواه ، ولكنه آثر الدنيا ، وأخلد إلى الأرض واتبع هواه .

وقال الزمخشري[2] : المعنى : ولو لزم آياتنا لرفعناه بها .

---

(١) أبو روق ، هو عطية بن الحارث ، صاحب التفسير ، صدوق .
تهذيب التهذيب (٧/٢٢٤) .

(٢) راجع نص كلام « الزمخشري » في تفسيره « الكشاف » (٢/١٠٤) .

فذكر المشيئة . والمراد ما هي تابعة له ومسببة عنه ، كأنه قيل : ولو لزمها لرفعناه بها .

قال : ألا ترى إلى قوله ﴿ **ولكنه أخلد** ﴾ فاستدرك المشيئة بإخلاده الذي هو فعله . فوجب أن يكون : ولو شئنا في معنى : ما هو فعله ، ولو كان الكلام على ظاهره لوجب أن يقال : ولو شئنا لرفعناه ، ولكنا لم نشأ .

فهذا من الزمخشري شنشنة نعرفها من قدري ناف للمشيئة العامة ، مبعد للنجعة في جعل كلام الله معتزليا قدرياً .

فأين قوله ﴿ **ولو شئنا** ﴾ من قوله : ولو لزمها . ثم إذا كان اللزوم لها موقوفاً على مشيئة الله – وهو الحق – بطل أصله .

وقوله : إن مشيئة الله تابعة للزوم الآيات : من أفسد الكلام وأبطله ، بل لزومه لآياته تابع لمشيئة الله ، فمشيئة الله سبحانه متبوعة لا تابعة . وسبب لا مسبب . وموجب مقتض لا مقتضى فما شاء الله وجب وجوده وما لم يشأ امتنع وجوده[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

فهذا مثل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه .

وتأمل ما تضمنته هذه الآية من ذمه وذلك من وجوه :

أحدها : أنه ضل بعد العلم واختار الكفر على الإيمان عمداً لا جهلاً .

وثانيها : أنه فارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبداً ، فإنه انسلخ من الآيات بالجملة كما تنسلخ الحية من قشرها ، ولو بقي معه شيء لم ينسلخ منها .

وثالثها : أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه ، ولهذا قال : ﴿ **فأتبعه الشيطان** ﴾ ، ولم يقل تبعه ، فإن في معنى أتبعه أدركه ولحقه ، وهو أبلغ من تبعه لفظاً ومعنى .

(١) إعلام الموقعين (٢١٦/١) .

ورابعها : أنه غوى بعد الرشد ، والغي : الضلال في العلم والقصد ، وهو أخص بفساد القصد والعمل ، كما أن الضلال أخص بفساد العلم والاعتقاد ، فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر ، وإن اقترنا فالفرق ما ذكر .

وخامسها: أنه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم فكان سبب هلاكه لأنه لم يرفع به فصار وبالا عليه ، فلو لم يكن عالماً كان خيراً له وأخف لعذابه .

وسادسها : أن سبحانه أخبر عن خسة همته وأنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى .

وسابعها : أن اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس ، ولكنه كان عن إخلاد إلى الأرض وميل بكليته إلى ما هناك وأصل الإخلاد اللزوم على الدوام كأنه قيل : لزم الميل إلى الأرض ، ومن هذا يقال : أخلد فلان بالمكان إذا لزم الإقامة به ، قال مالك بن نويرة :

بأبناء حي من قبائل مالك وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا

وعبر عن ميله إلى الدنيا بإخلاده إلى الأرض ؛ لأن الدنيا هي الأرض وما فيها يستخرج منها من الزينة والمتاع .

وثامنها : أنه رغب عن هداه ، واتبع هواه ، فجعل هواه إماماً له يقتدي به ويتبعه .

وتاسعها : أنه شبه بالكلب الذي هو أخس الحيوانات همة ، وأسقطها نفساً وأبخلها ، وأشدها كلبا ، ولهذا سمي كلبا .

وعاشرها : أنه شبه لهثه على الدنيا وعدم صبره عنها وجزعه لفقدها وحرصه في تحصيلها بلهث الكلب في حالتي تركه والحمل عليه بالطرد ، وهكذا ... هذا إن ترك فهو لهثان على الدنيا – وإن وعظ وزجر فهو كذلك – فاللهث لا يفارقه في كل حال كلهث الكلب .

قال ابن قتيبة : كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب ؛ فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة ، وحال الري وحال العطش ،

فضربه الله مثلاً لهذا الكافر فقال : إن وعظته فهو ضال ، وإن تركته فهو ضال ؛ كالكلب إن طردته لهث وإن تركته في حاله لهث ، وهذا التمثيل لم يقع بكل كلب وإنما وقع بالكلب اللاهث ، وذلك أخس ما يكون وأشنعه[1] .

قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف : ١٨٠] .

والإلحاد في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها وهو مأخوذ من الميل كما يدل عليه مادته (ل ح د) فمنه اللحد وهو الشق في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط . ومنه الملحد في الدين ، المائل عن الحق إلى الباطل . قال ابن سكيت : الملحد المائل عن الحق ، المدخل فيه ما ليس منه ، ومنه الملتحد وهو مفتعل من ذلك . وقوله تعالى : (ولن تجد من دونه ملتحدا) [الكهف : ٢٧] أي من تعدل وتهرب إليه وتلتجيء إليه وتبتهل إليه فتميل إليه عن غيره . تقول العرب التحد فلان إلى فلان إذا عدل إليه إذا عرف هذا فالإلحاد في أسمائه تعالى أنواع :

أحدها : أن يسمي الأصنام بها ، كتسميتهم اللات من الإلهية والعزى من العزيز وتسميتهم الصنم إلٰهاً وهذا إلحاد حقيقة فإنهم عدلو بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة .

الثاني : تسميته بمالا يليق بجلاله كتسمية النصارى له أباً ، وتسمية الفلاسفة له موجباً بذاته ، أو علة فاعله بالطبع ونحو ذلك .

وثالثها : وصفها بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص كقول أخبث اليهود أنه فقير وقولهم إنه استراح بعد أن خلق خلقه وقولهم (يد الله مغلولة) وأمثال ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته .

ورابعها : تعطيل الأسماء عن معانيها ، وجحد حقائقها ، كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم : أنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ، ولا معاني فيطلقون

---

(١) الفوائد (١٠٠-١٠٢) .

عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم والمريد ويقولون : لا حياة ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به . وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلاً وشرعاً ولغة وفطرة ، وهو يقابل إلحاد المشركين فإن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لآلهتهم وهؤلاء سلبوه صفات كماله وجحدوها وعطلوها فكلاهما ملحد في أسمائه ثم الجهميه وفروخهم متفاوتون في هذا الإلحاد ، فمنهم الغالي والمتوسط والمنكوب. وكل من جحد شيئا عما وصف الله به نفسه ، أو وصفه به رسوله فقد ألحد في ذلك فليستقل أو يستكثر .

وخامسها : تشبيه صفاته بصفات خلقه تعالى الله عما يقول المشبهون علواً كبيراً فهذا الإلحاد في مقابلة إلحاد المعطلة فإن أولئك نفوا صفة كماله وجحدوها . وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه ، فجمعهم الإلحاد ، وتفرقت بهم طرقه ، وبرأ الله أتباع رسوله وورثته القائمين بسنته عن ذلك كله فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه ولم يجحدوا صفاته ، ولم يشبهوها بصفات خلقه ، ولم يعدلوا بها عما أنزلت عليه لفظاً ولا معنى ؛ بل أثبتوا له الأسماء والصفات ، ونفوا عنه مشابهة المخلوقات فكان إثباتهم بريا من التشبيه وتنزيهم خلياً من التعطيل . لا كمن شبه حتى كأنه يعبد صنماً أو عطل حتى كأنه لا يعبد إلا عدماً . وأهل السنة وسط في النحل . كما أن أهل الإسلام وسط في الملل توقد مصابيح معارفهم من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء . فنسأل الله تعالى أن يهدينا لنوره ويسهل لنا السبيل للوصول إلى مرضاته ومتابعة رسوله إنه قريب مجيب .

فهذه عشرون[1] فائدة مضافة إلى القاعدة التي بدأنا بها في أقسام ما يوصف به الرب تبارك وتعالى ، فعليك بمعرفتها ومراعتها . ثم اشرح الأسماء الحسنى إن وجدت قلباً عاقلاً ولساناً قائلاً ومحلاً قابلاً وإلا فالسكوت أولى بك فجناب الربوبية أجل وأعز مما يخطر بالبال أو يعبر عنه المقال (وفوق كل ذي علم عليم) [يوسف : ٧٦] حتى ينتهي إلى ما أحاط بكل شيء علماً وعسى الله أن يعين بفضله

(١) راجع « بدائع الفوائد » (١/١٦١-١٧٠) .

على تعليق شرح الأسماء الحسنى مراعياً فيه أحكام هذه القواعد بدئياً من الإلحاد في أسمائه وتعطيل صفاته فهو المان بفضله . والله ذو الفضل العظيم[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

قال الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٠] .

والدعاء بها يتناول دعاء المسألة ودعاء الثناء ودعاء التعبد وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته ، ويثنوا عليه بها ويأخذوا بحظهم من عبوديتها وهو سبحانه يحب موجب أسمائه وصفاته فهو عليم يحب كل عليم جواد يحب كل جواد ، وتر يحب الوتر ، جميل يحب الجمال ، عفو يحب العفو وأهله ، حيي يحب الحياء وأهله بر يحب الأبرار، شكور يحب الشاكرين، صبور يحب الصابرين، حليم يحب أهل الحلم ؛ فلمحبته سبحانه للتوبة والمغفرة والعفو والصفح : خلق من يغفر له ويتوب عليه ويعفو عنه وقدر عليه ما يقتضي وقوع المكروه والمبغوض له ليترتب عليه المحبوب له المرضي له فتوسطه كتوسط الأسباب المكروهة المفضية إلى المحبوب[٢] .

وقال رحمه الله تعالى :

ونفي معاني أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيها . قال تعالى : ﴿ **وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون** ﴾ [الأعراف : ١٨٠] ولأنها لو لم تدل على معان وأوصاف لم يجز أن يخبر عنها بمصادرها ويوصف بها . لكن الله أخبر عن نفسه بمصادرها وأثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله ، كقوله تعالى : (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) [الذاريات : ٥٨] فعلم أن (القوي) من أسمائه ، ومعناه : الموصوف بالقوة ، وكذلك قوله : (فلله العزة جميعاً) [فاطر : ١٠] فالعزيز من له العزة ، فلولا ثبوت القوة والعزة له لم يسم قوياً ولا

---

(١) بدائع الفوائد (١٦٩/١) .

(٢) مدارج السالكين (٤٢٠/١) .

عزيزاً وكذلك قوله : (أنزله بعلمه) [النساء : ١٦٦] (فاعلموا أنما أنزل بعلم الله) [هود : ١٤] (ولا يحيطون بشيء من علمه)[١] [البقرة : ٢٥٥] .

قال رحمه الله تعالى :

وكذلك أسماء الرب تعالى كلها أسماء مدح . فلو كانت ألفاظاً مجردة لا معاني لها لم تدل على المدح وقد وصفها الله سبحانه بأنها حسنى كلها فقال : ﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون** ﴾ [الأعراف : ١٨٠] . **فهي** لم تكن حسنى لمجرد اللفظ بل لدلالتها على أوصاف الكمال ولهذا لما سمع بعض العرب قارئا يقرأ : (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله غفور رحيم) [المائدة : ٣٨] قال ليس هذا كلام الله تعالى ، فقال القارىء : أتُكَذِّبُ بكلام الله تعالى فقال : لا ولكن ليس هذا بكلام الله فعاد إلى حفظه وقرأ : (والله عزيز حكيم) فقال الأعرابي : صدقت عز فحكم فقطع ولو غفر ورحم لما قطع . ولهذا إذا ختمت آية الرحمة باسم عذاب أو بالعكس ظهر تنافر الكلام وعدم انتظامه[٢] .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٨٥] .

جعل السموات والأرض والمخلوقات كلها محلاً لتعلق النظر لا لنفس النظر فإن الناظر قائم بالنظر حالّ فيه[٣] .

قول الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٩] .

فجعل علة السكون أنها منه ، ولو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية لوجب أن لا يستحسن الأنقص من الصور ، ونحن نجد كثيراً ممن يؤثر الأدنى ويعلم فضل غيره ، ولا يجد محيداً لقلبه عنه .

(١) مدارج السالكين (٢٨/١) .
(٢) جلاء الأفهام (٩٣) .
(٣) الفوائد المشوق (٣٨) .

ولو كان للموافقة في الأخلاق لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه ، فعلمنا أنه شيء في ذات النفس وربما كانت المحبة بسبب من الأسباب ، فتفنى بفنائه[١] .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٩٤،١٩٥] .

فبين سبحانه أن هذه أشباح وصور خالية عن صفات الإلٰهية ، وأن المعنى المعتبر معدوم فيها ، وأنها لو دُعيت لم تجب ، فهي صور خالية عن أوصاف ، ومعان تقتضي عبادتها ، وزاد هذا تقريرا بقوله : ﴿ **ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها** ﴾ ، أي : أن جميع ماهذه الأصنام من الأعضاء التي نحتتها أيديكم إنما هي صور عاطلة عن حقائقها وصفاتها ؛ لأن المعنى المراد المختص بالرجل هو مشيها ، وهو معدوم في هذه الرجل ، والمعنى المختص باليد هو بطشها ، وهو معدوم في هذه اليد ، والمراد بالعين إبصارها ، وهو معدوم في هذه العين ومن الأذن سمعها وهو معدوم فيها والصور في ذلك كله ثابتة موجودة ، وكلها فارغة خالية عن الأوصاف والمعاني فاستوى وجودها وعدمها ، وهذا كله مدحض لقياس الشبه الخالي عن العلة المؤثرة والوصف المقتضي للحكم . والله أعلم[٢] .

وقال تعالى في آلهة المشركين المعطلين : ﴿ **ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم ءاذان يسمعون بها** ﴾ [الأعراف : ١٩٥] فجعل سبحانه عدم البطش والمشي والسمع والبصر دليلاً على عدم إلٰهية من عدمت فيه هذه الصفات فالبطش والمشي من أنواع الأفعال والسمع والبصر من أنواع الصفات[٣] .

---

(١) روضة المحبين (٨٤) .

(٢) إعلام الموقعين (١/١٩٩-٢٠٠) .

(٣) الصواعق المرسلة (٣/٩١٥) .

وقد جمع الله له مكارم الأخلاق في قوله تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

قال جعفر بن محمد : أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بمكارم الأخلاق وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية وقد ذكر: أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل[1]: « ما هذا قال : لا أدري حتى أسأل ؟ فسأل ، ثم رجع إليه فقال : إن الله يأمرك أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك » .

ولا ريب أن للمطاع مع الناس ثلاثة أحوال :

أحدها : أمرهم ونهيهم بما فيه مصلحتهم .

الثاني : أخذه منهم ما يبذلونه مما لديهم من الطاعة .

الثالث : أن الناس معه قسمان : موافق له موال ، ومعاد له معارض ، وله في كل واحدة من هذه واجب فواجبه في أمرهم ونهيهم : أن يأمر بالمعروف ، وهو المعروف الذي به صلاحهم وصلاح شأنهم وينهاهم عن ضده ، وواجبه فيما يبذلونه من الطاعة : أن يأخذ منهم ما سهل عليهم وطوعت له به أنفسهم سماحة واختياراً ولا يحملهم على العنت والمشقة فيفسدهم وواجبه عند جهل الجاهلين عليه : الإعراض عنهم وعدم مقابلتهم بالمثل والانتقام منهم لنفسه فقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

قال عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما : أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تخسيس . وقال مجاهد : يعني خذ العفو من أخلاق الناس من غير تخسيس ، مثل قبول الاعتذار ، والعفو والمساهلة ، وترك الاستقصاء

---

(١) رواه ابن جرير (٩/١٥٥) .
مرسلاً عن سفيان بن عيينة ، عن رجل قد سماه .
وانظر الدر المنثور (٣/٦٢٨) .
وابن كثير (٢/٢٩٧) .

في البحث والتفتيش عن حقائق بواطنهم . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : خذ ما عفا لك من أموالهم وهو الفاضل عن العيال . وذلك معنى قوله تعالى : (ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو) [البقرة : ٢١٩] .

ثم قال تعالى : ﴿ **وأمر بالعرف** ﴾ وهو كل معروف وأعرفه : التوحيد ثم حقوق العبودية وحقوق العبيد .

ثم قال تعالى : ﴿ **وأعرض عن الجاهلين** ﴾ يعني إذا سفه عليك الجاهل فلا تقابله بالسفه كقوله تعالى : (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) وعلى هذا فليست بمنسوخة . بل يعرض عنه مع إقامة حق الله تعالى ولا ينتقم لنفسه وهكذا كان خلقه صلى الله عليه وسلم ، قال أنس رضي الله عنه[1] : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً» وقال[2] : « ما مسست ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقد خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي قط : أف ولا قال لشيء فعلته لم فعلته ولا لشيء لم أفعله : ألا فعلت كذا »[3] متفق عليهما .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ ليس المراد إعراضه عمن لا علم عنده فلا يعلمه ولا يرشده وإنما المراد إعراضه عن جهل من جهل عليه فلا يقابله ولا يعاتبه قال مقاتل وعروة والضحاك وغيرهم: صن نفسك

---

(١) رواه البخاري (٥٩٨/١٠) في الأدب . باب : الكنية للصبي ...
ومسلم (٨٥٧/٤) في الأدب ، باب : جواز تكنية من لم يولد له ... .

(٢) روى آخره البخاري (٤٧١/١٠) وهو قوله « خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لي أف ، ولا : لم صنعت ... » إلخ في الأدب : باب : حسن الخلق والسخاء ...
وكذا مسلم (١٦٦/٥) في الفضائل ، حسن خلقه صلى الله عليه وسلم .
ورواه بتمامه الترمذي (٣٢٣/٤، ٣٢٤) في البر والصلة ، باب : ما جاء في خلق النبي صلى الله عليه وسلم . وقال : حسن صحيح .

(٣) مدارج السالكين (٣٠٤/٢-٣٠٦) .

عن مقابلتهم على سفههم وهذا كثير في كلامهم[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

أمره بدفع شر الجاهلين بالإعراض عنهم ، ثم أمره بدفع شر الشيطان بالاستعاذة منه فقال : ﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزع فاستعذ بالله إنه سميع عليم** ﴾[٢] [الأعراف : ٢٠٠] .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠١] .

والتذكر: تفعل من الذكر وهو حصول صورة من المذكور في القلب فإذا استحضره القلب وشاهده على وجهه أوجب له البصيرة فالبصر ما جعل دليلاً عليه فكان في حقه تبصرة وذكرى والهدى مداره على هذين الأصلين التذكّر والتبصّر[٣] .

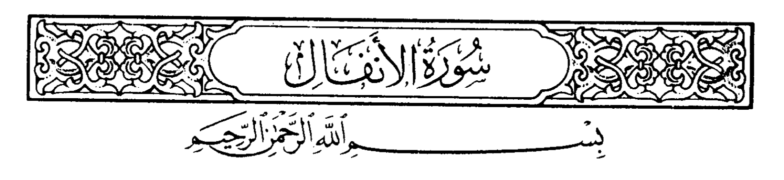
قوله تعالى : ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ [الأعراف : ١٩٩] . تدبراً لما تضمنته هذه الآية من حسن المعاشرة مع الخلق وأداء حق الله فيهم والسلامة من شرهم . فلو أخذ الناس كلهم بهذه الآية لكفتهم وشفتهم فإن العفو ما عفي من أخلاقهم وسمحت به طبائعهم ، ووسعهم بذله من أموالهم وأخلاقهم[١] .

* * *

---

(١) مفتاح دار السعادة (١٠٩-١١٠) .
(٢) إغاثة اللهفان (١/٩٦) .
(٣) إعلام الموقعين (١/١٩٤) .
(١) الرسالة التبوكية (٨٥) .

سُورَةُ الأَنفَالِ



وأوحى الله إلى رسوله : ﴿ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال : ٩] .

قرىء[1] بكسر الدال ، وفتحها فقيل : المعنى إنهم ردف لكم وقيل : يردف بعضهم بعضاً أرسالاً لم يأتوا دفعة واحدة .

فإن قيل : ها هنا ذكر أنه أمدهم بألف ، وفي (سورة آل عمران) قال : (إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) [آل عمران : ١٢٤-١٢٥] .

فكيف الجمع بينهما ؟

قيل : قد اختلف[2] في هذا الإمداد الذي بثلاثة آلاف والذي بالخمسة على قولين :

أحدهما : أنه كان يوم أحد ، وكان إمداداً معلقاً على شرط فلما فات شرطه ، فات الإمداد ، وهذا قول الضحاك ومقاتل وإحدى الروايتين عن عكرمة .

---

(١) **قال القرطبي:** « ﴿ مردفين ﴾ بفتح الدال قراءة نافع ، والباقون بالكسر .. » (٤ / ٢٨٠٦) .

(٢) راجع تفسير الطبري (٤ / ٧٦) و (٩ / ١٨٩) .
والقرطبي (٣ / ١٤٣٢) .

والثاني : أنه كان يوم بدر ، وهذا قول ابن عباس ومجاهد ، وقتادة . والرواية الأخرى عن عكرمة اختاره جماعة من المفسرين .

وحجة هؤلاء أن السياق يدل على ذلك فإنه سبحانه قال : (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون*إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى إن تصبروا وتتقوا) [آل عمران : ١٢٣-١٢٥] إلى أن قال : (وما جعله الله) أي : هذا الإمداد (إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم) .

قال هؤلاء : فلما استغاثوا ؛ أمدهم بتمام ثلاثة آلاف ثم أمدهم بتمام خمسة آلاف لما صبروا واتقوا فكان هذا التدريج ومتابعة الإمداد أحسن موقعاً وأقوى لنفوسهم وأسر لهم من أن يأتي به مرة واحدة ، وهو بمنزلة متابعة الوحي ونزوله مرة بعد مرة .

وقالت الفرقة الأولى : القصة في سياق أحد ، وإنما أدخل ذكر بدر اعتراضاً في أثنائها فإنه سبحانه قال : (وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون) [آل عمران : ١٢١-١٢٢]. ثم قال : (**ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون**) [آل عمران : ١٢٣] .

فذكرهم نعمته عليهم لما نصرهم ببدر وهم أذلة ثم عاد إلى قصة أحد ، وأخبر عن قول رسوله لهم : (ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) ثم وعدهم أنهم إن صبروا واتقوا أمدهم بخمسة آلاف فهذا من قول رسوله ، والإمداد الذي ببدر من قوله تعالى وهذا بخمسة آلاف ، وإمداد بدر بألف وهذا معلق على شرط وذلك مطلق . والقصة في سورة آل عمران هي قصة أحد مستوفاة مطولة ، وبدر ذكرت فيها اعتراضا ، والقصة في سورة الأنفال قصة بدر مستوفاة مطولة فالسياق في(آل عمران)غير السياق في الأنفال . يوضح هذا أن قوله : (ويأتوكم من فورهم هذا) [آل عمران : ١٢٥] . قد قال مجاهد : إنه يوم أحد ، وهذا يستلزم أن يكون الإمداد المذكور فيه فلا يصح

قوله : إن الإمداد بهذا العدد كان يوم بدر ، وإتيانهم من فورهم هذا يوم أحد . والله أعلم[1] .

قال تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [الأنفال : ١٢] . قيل في تفسيرها : قووا قلوبهم وبشروهم بالنصر وقيل : احضروا معهم القتال .

والقولان حق : فإنهم حضروا معهم القتال وثبتوا قلوبهم[2] .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال : ١٧]

قلت : اعتقد جماعة أن المراد بالآية : سلب فعل الرسول صلى الله عليه وسلم عنه ، وإضافته إلى الرب تعالى .

وجعلوا ذلك أصلاً في الجبر ، وإبطال نسبة الأفعال إلى العباد وتحقيق نسبتها إلى الرب وحده . وهذا غلط منهم في فهم القرآن .

فلو صح ذلك لوجب طرده في جميع الأعمال ، فيقال : ما صليت إذ صليت ، وما صمت إذ صمت ، وما ضحيت إذ ضحيت ، ولا فعلت كل فعل إذ فعلته ، ولكن الله فعل ذلك . فإن طردوا ذلك لزمهم في جميع أفعال العباد - طاعتهم ومعاصيهم - إذ لا فرق ، فإن خصوه بالرسول صلى الله عليه وسلم وحده وأفعاله جميعها، أو رميه وحده : تناقضوا ، فهؤلاء لم يوفقوا لفهم ما أريد بالآية .

وبعد ، فهذه الآية نزلت[3] في شأن رميه صلى الله عليه وسلم المشركين

---

(١) زاد المعاد (٣ / ١٧٦ - ١٧٨) .

(٢) مدارج السالكين (١ / ٤٦) .

(٣) رواه ابن إسحاق (٢ / ٢٧٠) في أحداث غزوة بدر .
والطبراني في الكبير (٣ / ٢٠٣) من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه .
قال الهيثمي (رواه في الكبير والأوسط ، وإسناده حسن) (٦ / ٨٤) .
ورواه في الكبير أيضاً (١١ / ٢٨٥) عن ابن عباس رضي الله عنه .
قال الهيثمي (ورجاله رجال الصحيح) (٦ / ٨٤) .
وصححه الألباني كما في فقه السيرة (ص ٢٣٩) . =

يوم بدر بقبضة من الحصباء ، فلم تدع وجه أحد منهم إلا أصابته ، ومعلوم أن تلك الرمية من البشر لا تبلغ هذا المبلغ .

فكان منه صلى الله عليه وسلم مبدأ الرمي وهو الحذف ، ومن الله سبحانه وتعالى : نهايته ، وهو الإيصال .

فأضاف إليه رمي الحذف الذي هو مبدؤه ، ونفى عنه رمي الإيصال الذي هو نهايته، ونظير هذا قوله في الآية نفسها (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) [الأنفال : ١٧] ثم قال : ﴿ **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى** ﴾ فأخبره : أنه هو وحده هو الذي تفرد بقتلهم . ولم يكن ذلك بكم أنتم ، كما تفرد بإيصال الحصى إلى أعينهم ، ولم يكن ذلك من رسوله ، ولكن وجه الإشارة بالآية : أنه سبحانه أقام أسباباً ظاهرة ، كدفع المشركين ، وتولى دفعهم ، وإهلاكهم بأسباب باطنة غير الأسباب التي تظهر للناس . فكان ما حصل من الهزيمة والقتل والنصرة مضافاً إليه وبه ،وهو خير الناصرين[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

وقد ظن طائفة من الناس أن من هذا الباب قوله تعالى : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾ [الأنفال : ١٧] وجعلوا ذلك من أدلتهم على القدرية ، ولم يفهموا مراد الآية .

وليست من هذا الباب ، فإن هذا خطاب لهم في وقعة بدر حيث أنزل الله سبحانه ملائكته فقتلوا أعداءه ، فلم يفرد المسلمون بقتلهم بل قتلتهم الملائكة ، وأما رميه ﷺ فمقدوره كان هو الحذف والإلقاء ، وأما إيصال ما رمى به إلى وجوه العدو مع البعد ، وإيصال ذلك إلى وجوه جميعهم فلم يكن من فعله ، ولكن فعل الله وحده فالرمي يراد به الحذف والإيصال فأثبت له الحذف بقوله

= وانظر تفسير الطبري (٩ / ٢٠٤) .
وابن كثير (٢ / ٣١٦) .

(١) مدارج السالكين (٣ / ٤٢٦ - ٤٢٧) .

﴿ **إذ رميت** ﴾ ونفى عنه الإيصال بقوله : ﴿ **وما رميت** ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ﴾ [الأنفال : ١٧] .

فالبلاء الحسن هنا هو النعمة بالظفر والغنيمة والنصر على الأعداء وليس من الابتلاء الذي هو الامتحان بالمكروه بل من أبلاه بلاء حسنا إذا أنعم عليه ، يقال : أبلاك الله ولا ابتلاك فأبلاه بالخير وابتلاه بالمكاره غالباً كما في الحديث[2] « إني مبتليك ومبتل بك »[3] .

قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٣] .

فأخبر سبحانه أنه قطع عنهم مادة الاهتداء وهو إسماع قلوبهم وإفهامها ما ينفعها لعدم قبول المحل ، فإنه لا خير فيه فإن الرجل إنما ينقاد للحق بالخير الذي فيه والميل إليه والطلب له ومحبته والحرص عليه والفرح بالظفر به ، وهؤلاء ليس في قلوبهم شيء من ذلك فوصل الهدى إليها ووقع عليها كما يصل الغيث النازل من السماء ، ويقع على الأرض الغليظة العالية التي لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فلا هي قابلة للماء ولا للنبات فالماء في نفسه رحمة وحياة ، ولكن ليس فيها قبول له .

---

(١) شفاء العليل (٥٩)

(٢) حديث صحيح .

رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٤ / ١٦٢، ٢٦٦) .

ومسلم (٥ / ٧١٦) في الجنة ، باب : الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة ...

(٣) طريق الهجرتين (٣٢٠) .

ثم أكد الله هذا المعنى في حقهم بقوله : ﴿ **ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون** ﴾ فأخبر أن فيهم مع عدم القبول والفهم آفة أخرى وهي الكبر والإعراض وفساد القصد فلو فهموا لم ينقادوا ، ولم يتبعوا الحق ، ولم يعملوا به فالهدى في حق هؤلاء هدى بيان ، وإقامة حجة لا هدى توفيق وإرشاد فلم يتصل الهدى في حقهم بالرحمة .

وأما المؤمنون : فاتصل الهدى في حقهم بالرحمة ؛ فصار القرآن لهم هدى ورحمة ولأولئك هدى بلا رحمة .

والرحمة المقارنة للهدى في حق المؤمنين عاجلة وآجلة[1]

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٣] .

أي لو علم الله في هؤلاء الكفار قبولاً وانقياداً لأفهمهم وإلا فهم قد سمعوا سمع الإدراك ﴿ **ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون** ﴾ أي ولو أفهمهم لما انقادوا ولا انتفعوا بما فهموا ؛ لأن في قلوبهم من داعي التولي والإعراض ما يمنعهم عن الانتفاع بما سمعوه[2] .

وقال رحمه الله تعالى :

أيضا في قوله : ﴿ **ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم** ﴾ أي لجعلهم يسمعون سمع إجابة وانقياد وقيل : المعنى لأفهمهم وعلى هذا : يكون المعنى لأسمع قلوبهم ، فإن سماع القلب يتضمن الفهم. والتحقيق : أن كلا الأمرين مراد فلو

---

(١) إغاثة اللهفان (٢ / ١٧١ - ١٧٢) .

(٢) مدارج السالكين (١ / ٤٨٣،٤٨٤) .

علم فيهم خيراً لأفهمهم ، ولجعلهم يستجيبون لما سمعوه وفهموه[١] .

قول الله تعالى ذكره :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٤] .

فتضمنت هذه الآية أموراً :

أحدها : أن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ولرسوله، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له ، وإن كانت له حياة بهيمية ، مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات . فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهراً وباطناً . فهؤلاء هم الأحياء ، وإن ماتوا وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان . ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم . فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة ، فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة ، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول .

قال مجاهد ﴿ **لما يحييكم** ﴾ يعني : للحق .

وقال قتادة : هو هذا القرآن ، فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة .

وقال السدي : هو الإسلام ، أحياهم به بعد موتهم بالكفر .

قال ابن إسحاق[٢] وعروة بن الزبير – واللفظ له – ﴿ **لما يحييكم** ﴾ : يعني للحرب التي أعزكم الله بها بعد الذل . وقواكم بها بعد الضعف ، ومنعكم بها من عدوكم بعد القهر منهم لكم .

وهذه كلها عبارات عن حقيقة واحدة[٣] : وهي القيام بما جاء به

(١) مدارج السالكين (٣ / ١٦٨) .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢ / ٣١٢) .
(٣) راجع تفسير الطبري (٩ / ٢١٣) .

الرسول صلى الله عليه وسلم ظاهراً وباطناً .

قال الواحدي : والأكثرون على أن معنى قوله ﴿ **لما يحييكم** ﴾ هو الجهاد . وهو قول ابن إسحاق ، واختيار أكثر أهل المعاني .

قال الفراء : إذا دعاكم إلى إحياء أمركم بجهاد عدوكم ، يريد أن أمرهم إنما يقوى بالحرب والجهاد ، فلو تركوا الجهاد ؛ ضعف أمرهم ، واجترأ عليهم عدوهم .

قلت : الجهاد من أعظم ما يحييهم به في الدنيا ، وفي البرزخ ، وفي الآخرة .

أما في الدنيا : فإن قوتهم وقهرهم لعدوهم بالجهاد .

وأما في البرزخ : فقد قال تعالى : (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) [آل عمران : ١٦٩] .

وأما في الآخرة : فإن حظ المجاهدين والشهداء من حياتها ونعيمها أعظم من حظ غيرهم .

ولهذا قال ابن قتيبة[١] : «لما يحييكم» يعني الشهادة .

وقال بعض المفسرين : «لما يحييكم» يعني الجنة ، فإنها دار الحيوان ، وفيها الحياة الدائمة الطيبة . حكاه أبو علي الجرجاني .

والآية تتناول هذا كله ، فإن الإيمان والإسلام والقرآن والجهاد تحيي القلوب الحياة الطيبة ، وكمال الحياة في الجنة . والرسول داع إلى الإيمان وإلى الجنة . فهو داع إلى الحياة في الدنيا والآخرة .

والإنسان مضطر إلى نوعين من الحياة حياة بدنه التي بها يدرك النافع والضار ، ويؤثر ما ينفعه على ما يضره . ومتى نقصت فيه هذه الحياة ناله من الألم والضعف بحسب ذلك . ولذلك كانت حياة المريض والمحزون وصاحب الهم والغم والخوف والفقر والذل دون حياة من هو معافى من ذلك .

---

(١) في تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة : « أي إلى الجهاد الذي يحيي دينكم ويعليكم » (صـ ١٥١) .

وحياة قلبه وروحه التي بها يميز بين الحق والباطل ، والغي والرشاد ، والهوى والضلال فيختار الحق على ضده ؛ فتفيده هذه الحياة قوة التمييز بين النافع والضار في العلوم، والإرادات ، والأعمال . وتفيده قوة الإيمان والإرادة والحب للحق، وقوة البغض والكراهة للباطل: فشعوره وتمييزه وحبه ونفرته ونصرته بحسب نصيبه من هذه الحياة ، كما أن البدن الحي يكون شعوره وإحساسه بالنافع والمؤلم أتم ، ويكون ميله إلى النافع ونصرته عن المؤلم أعظم فهذا بحسب حياة البدن . وذاك بحسب حياة القلب. فإذا بطلت حياته بطل تمييزه وإن كان له نوع تمييز لم يكن فيه قوة يؤثر بها النافع على الضار ، كما أن الإنسان لا حياة له حتى ينفخ فيه الملك الذي هو رسول الله من روحه ؛ فيصير حياً بذلك النفخ . وكان قبل ذلك من جملة الأموات فكذلك لا حياة لروحه وقلبه حتى ينفخ فيه الرسول صلى الله عليه وسلم من الروح الذي ألقي إليه . قال تعالى : (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده) [النحل : ٢] . وقال : (يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده) [غافر : ١٥] . وقال : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا) [الشورى : ٥٢] . فأخبر أن وحيه روح ونور . فالحياة والاستنارة موقوفة على نفخ الرسول الملكي فمن أصابه نفخ الرسول الملكي ، ونفخ الرسول البشري حصلت له الحياتان .

ومن حصل له نفخ الملك دون نفخ الرسول حصلت له إحدى الحياتين ، وفاتته الأخرى .

وقوله : ﴿ **واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه** ﴾ .

المشهور في الآية : أنه يحول بين المؤمن وبين الكفر ، وبين الكافر وبين الإيمان ويحول بين أهل طاعته وبين معصيته ، وبين أهل معصيته وطاعته . وهذا قول ابن عباس ، وجمهور المفسرين[1] .

---

(١) انظر تفسير الطبري (٩ / ٢١٤ - ٢١٧) .

وفي الآية قول آخر : أنه سبحانه قريب من قلبه لا تخفى عليه خافية ، فهو بينه وبين قلبه ، ذكره الواحدي عن قتادة . وكان هذا أنسب بالسياق ، لأن الاستجابة أصلها بالقلب فلا تنفع الاستجابة بالبدن دون القلب ، فإن الله سبحانه بين العبد وبين قلبه ، فيعلم هل استجاب له قلبه ، وهل أضمر ذلك أو أضمر خلافه .

وعلى القول الأول فوجه المناسبة : إنكم إن تثاقلتم عن الاستجابة ، وأبطأتم عنها ؛ فلا تأمنوا أن الله يحول بينكم وبين قلوبكم ، فلا يمكنكم بعد ذلك من الاستجابة ، وعقوبة لكم على تركها بعد وضوح الحق واستبانته ، فيكون كقوله : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ [الأنعام : ١١٠] .

وقوله : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ [الصف : ٥] .

وقوله : ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ﴾ [الأعراف : ١٠١] . ففي الآية تحذير عن ترك الاستجابة بالقلب ، وإن استجاب بالجوارح .

وفي الآية سر آخر وهو أنه جمع لهم بين الشرع والأمر به وهو الاستحابة ، وبين القدر وبين الإيمان به . فهي كقوله : ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ [التكوير : ٢٨-٢٩] . .

وقوله : ﴿ فمن شاء ذكره وما يذكرون إلا أن يشاء الله ﴾ [المدثر : ٥٥-٥٦] . والله أعلم[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

وتأمل كيف أخبر عن حيلولته بين المرء وقلبه بعد أمره بالاستجابة له ولرسوله ، كيف تجد في ضمن هذا الأمر ، والخبر أن من ترك الاستجابة له ولرسوله ؛ حال بينه وبين قلبه عقوبة له على ترك الاستجابة فإنه سبحانه يعاقب القلوب بإزاغتها عن هداها ثانياً كما زاغت هي عنه أولاً . قال تعالى : ﴿ فلما

---

(١) الفوائد (٨٧ - ٩٠) و (١٣٠) .

زاغوا أزاغ الله قلوبهم) [الصف : ٥][(١)] .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٩] .

وهذا يتيسر بالفرقان المتضمن النجاة والنصر والعلم والنور الفارق بين الحق والباطل ، وتكفير السيئات ، ومغفرة الذنوب ، وذلك غاية التيسير[(٢)] .

قوله تعالى لرسوله : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٣] .

فأشارت هذه الآية إلى أن محبة الرسول ، وحقيقة ما جاء به إذا كان في القلب ؛ فإن الله لايعذبه لا في الدنيا ولا في الآخرة .

وإذا كان وجود الرسول في القلب مانعاً من تعذيبه فكيف بوجود الرب تعالى في القلب فهاتان إشارتان[(٣)] .

وقال رحمه الله تعالى :

تأمل قوله تعالى لنبيه : ﴿ **وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم** ﴾

[الأنفال: ٣٣]

كيف يفهم منه أنه إذا كان وجود بدنه وذاته فيهم دفع عنهم العذاب ، وهم أعداؤه فكيف وجود سره والإيمان به ومحبته ووجود ما جاء به إذا كان في قوم أو كان في شخص أفليس رفعه العذاب عنهم بطريق الأولى والأحرى[(٤)] .

---

(١) الكلام في مسألة السماع (١٠٠ - ١٠١) .
(٢) التبيان في أقسام القرآن (٥٨) .
(٣) الكلام على مسألة السماع (٣٩٧) .
(٤) إعلام الموقعين (١ / ٢٩٠) .

المكاء والتصدية

قال تعالى عن الكفار : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [الأنفال : ٣٥] .

قال ابن عباس وابن عمر وعطية ومجاهد والضحاك والحسن وقتادة : « المكاء : الصفير ، التصدية : التصفيق » .

وكذلك قال أهل اللغة : المكاء : الصفير . يقال : مكا ، يمكو مُكاء : إذا جمع يديه ثم صفر فيهما . ومنه : مكت است الدابة إذا خرجت منها الريح بصوت ولهذا جاء على بناء الأصوات كالرغاء والعواء والثغاء ، قال ابن السكيت : الأصوات كلها مضمومة إلا حرفين : النداء والغناء .

وأما التصدية : فهي في اللغة : التصفيق . يقال : صدى يصدى تصدية إذا صفق بيديه .

قال حسان بن ثابت يعيب المشركين بصفيرهم وتصفيقهم :

إذا قام الملائكة انبعثتم صلاتكم التصدِّي والمكاء

وهكذا الأشباه . يكون المسلمون في الصلوات الفرض والتطوع وهم في الصفير والتصفيق .

قال ابن عباس : « كانت قريش يطوفون بالبيت عراة ، ويصفرون ويصفقون » .

وقال مجاهد : « كانوا يعارضون النبي ﷺ في الطواف ، ويصفرون ويصفقون يخلطون عليه طوافه وصلاته » ونحوه عن مقاتل . ولا ريب أنهم كانوا يفعلون هذا وهذا فالمتقربون إلى الله بالصفير والتصفيق أشباه النوع الأول ، وإخوانهم المخلطون به على أهل الصلاة والذكر والقراءة أشباه النوع الثاني .

قال ابن عرفة وابن الأنباري : المكاء والتصدية ليسا بصلاة ولكن الله تعالى أخبر أنهم جعلوا مكان الصلاة التي أمروا بها : المكاء والتصدية ؛ فألزمهم ذلك عظيم الأوزار وهذا كقولك : زرته فجعل جفائي صلتي ، أي أقام الجفاء مقام الصلة . والمقصود : أن المصفقين والصفارين في يراع أو مزمار ونحوه فيهم شبه من هؤلاء ولو أنه مجرد الشبه الظاهر ، فلهم قسط من الذم بحسب تشبههم بهم وإن لم يتشبهوا بهم في جميع مكائهم وتصديتهم ، والله سبحانه لم يشرع التصفيق للرجال وقت الحاجة إليه في الصلاة إذا نابهم أمر ، بل أمروا بالعدول عنه إلى التسبيح ؛ لئلا يتشبهوا بالنساء فكيف إذا فعلوه لا لحاجة ، وقرنوا به أنواعا من المعاصي قولاً وفعلا ؟[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

فإن المكاء هو الصفير وتوابعه من الغناء ، « والتصدية » : التصفيق بالأيدي وتوابعه فإذا كان هذا سماع المشركين الذي ذمه الله في كتابه فكيف إذا اقترن بالمكاء المواصيل والشبابات ، وبالتصدية الدفوف المصلصلات والرقص والتكسر والتثني بالحركات الموزونات فكأن القوم إنما حل لهم المكاء والتصدية لما انضمت إليه هذه المؤكدات[2] .

قال تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال : ٣٩] .

فناقض بين كون الفتنة وبين كون الدين كله . فكل منهما يناقض الآخر . والفتنة قد فسرت بالشرك .

فما حصلت به فتنة القلوب فهو إما شرك وإما من أسباب الشرك وهي جنس تحته أنواع من الشبهات والشهوات[3] .

---

(١) إغاثة اللهفان (١ / ٢٤٤ - ٢٤٥) .
(٢) الكلام في مسألة السماع (٣٣٥ - ٣٣٦) .
(٣) إغاثة اللهفان (٢ / ١٥٨) .

أما اللام في قوله : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال : ٤٢] .

فلام التعليل على بابها فإنها مذكورة في بيان حكمته في جمع أوليائه وأعدائه على غير ميعاد ونصرة أوليائه مع قلتهم ورقتهم وضعف عددهم وعدتهم على أصحاب الشوكة والعدد والحد والحديد الذي لا يتوهم بشر أنهم ينصرون عليهم فكانت تلك آية من أعظم آيات الرب سبحانه صدق بها رسوله وكتابه ليهلك بعدها من اختار لنفسه الكفر والعناد عن بينة فلا يكون له على الله حجة ، ويحيى من حي بالإيمان بالله ورسوله عن بينة فلا يبقى عنده شك ولا ريب وهذا من أعظم الحكم ، ونظير هذا قوله : (إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين)[1] [يس : ٦٩-٧٠] .

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال : ٤٥] .

فأمرهم بالذكر الكثير والجهاد معاً ؛ ليكونوا على رجاء من الفلاح ، وقد قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً) [الأحزاب : ٤١] .

وقال تعالى : (والذاكرين الله كثيراً والذاكرات) [الأحزاب : ٣٥] . أي كثيراً[1] .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال : ٤٨] .

فإنه تراءى للمشركين عند خروجهم إلى بدر في صورة سراقة بن مالك

---

(١) شفاء العليل (١٩٣) .

(٢) الوابل الصيب (٤٩) طبعة : دار البيان .

وقال : أنا جار لكم من بني كنانة أن يقصدوا أهلكم وذراريكم بسوء فلما رأى عدو الله جنود الله تعالى من الملائكة نزلت لنصر رسوله فرَّ عنهم وأسلمهم ، كما قال حسان :

دَلاَّهم بغرورٍ ثم أسلمهم   إن الخبيث لمن والاه غَرار

وكذلك فعل بالراهب[1] الذي قتل المرأة وولدها ، أمره بالزنا ثم بقتلها ثم دل أهلها عليه ، وكشف أمره لهم ثم أمره بالسجود فلما فعل فر عنه وتركه ، وفيه أنزل الله سبحانه : (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين) [الحشر : ١٦] . وهذا السياق لا يختص بالذي ذكرت عنه هذه القصة بل هو عام في كل من أطاع الشيطان في أمره له بالكفر لينصره ويقضي حاجته فإنه يتبرأ منه ويسلمه كما يتبرأ من أوليائه جملة في النار ويقول لهم: (إني كفرت بما أشركتمون من قبل) [إبراهيم : ٢٢] . فأوردهم شر الموارد ، وتبرأ منهم كل البراءة .

وتكلم الناس[2] في قول عدو الله : ﴿ **إني أخاف الله** ﴾ فقال قتادة وابن إسحاق « صدق عدو الله في قوله : ﴿ **إني أرى ما لا ترون** ﴾ وكذب في قوله :

---

(١) يقصد ما رواه كثير من المفسرين عند قوله – جل ذكره – من سورة الحشر آية (١٦) .
انظر تفسير الطبري (٢٨ / ٤٩ – ٥٠) عن علي وعن عبد الله بن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم .
وتفسيرالبغوي (٧ / ٦٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما .
وتفسير ابن كثير (٤ / ٣٦٢) .
وقال : « وذكر بعضهم هاهنا قصة لبعض عباد بني إسرائيل هي كالمثال لهذا المثل ، لا أنها المرادة وحدها بالمثل ، بل هي منه مع غيرها من الوقائع المشاكلة لها .. » ثم ساقها من رواية ابن جرير .
ورواه مختصراً مرفوعاً **القرطبي** وقال : « ذكره **القاضي** إسماعيل **وعلي** بن **المديني** عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عروة بن عامر عن عبيد بن رفاعة **الزرقي** عن النبي صلى الله **عليه وسلم**» (٨ / ٦٥١٦) عند تفسير آية الحشر .
وانظر الدر المنثور (٨ / ١١٦) .
وفتح القدير للشوكاني (٥ / ٢٠٥) .
(٢) انظر تفسير الطبري (١٠ / ١٨ – ٢٠) .

﴿ إني أخاف الله ﴾ والله ما به مخافة الله ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة فأوردهم وأسلمهم ، وكذلك عادة عدو الله بمن أطاعه » .

وقالت طائفة : « إنما خاف بطش الله تعالى به في الدنيا كما يخاف الكافر والفاجر أن يقتل أو يؤخذ بجرمه لا أنه خاف عقابه في الآخرة » وهذا أصح ، وهذا الخوف لا يستلزم إيمانا ولا نجاة قال الكلبي : « خاف أن يأخذه جبريل فيعرفهم حاله فلا يطيعونه » وهذا فاسد فإنه إنما قال لهم ذلك بعد أن فر ونكص على عقبيه إلا إنه يريد أنه إذا عرَّف المشركين أن الذي أجارهم وأوردهم إبليس لم يطيعوه فيما بعد ذلك ، وقد أبعد النجعة إن أراد ذلك ، وتكلف غير المراد .

وقال عطاء : « إني أخاف الله أن يهلكني فيمن يهلك » وهذا خوف هلاك الدنيا فلا ينفعه .

وقال الزجاج وابن الأنباري « ظن أن الوقت الذي أنظر إليه قد حضر – زاد ابن الأنباري – قال : أخاف أن يكون الوقت المعلوم الذي يزول معه إنظاري قد حضر ، فيقع بي العذاب ، فإنه لما عاين الملائكة ؛ خاف أن يكون وقت الإنظار قد انقضى فقال ما قال إشفاقاً على نفسه »(١) .

قال الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال : ٥٣] .

وإشارتها أنه إذا عاقب قوماً وابتلاهم لم يغير ما بهم من العقوبة والبلاء حتى يغيروا ما بأنفسهم من المعصية إلى الطاعة كما قال العباس عم رسول الله ﷺ « ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة » ومنه قول النبي ﷺ « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة »(٢) .

---

(١) إغاثة اللهفان (١ / ١٠٨ – ١١٠) .

(٢) رواه البخاري (١٠ / ٣٩٤) في اللباس ، باب : التصاوير .

ومسلم (٤ / ٨١٣) في اللباس ، باب : تحريم تصوير صورة الحيوان .

فإذا منع الكلب والصورة دخول الملك إلى البيت ، فكيف تدخل معرفة الرب ومحبته في قلب ممتلىء بكلاب الشهوات وصورها[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

فأخبر الله تعالى أنه لا يغير نعمه التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه ، فيغير طاعة الله بمعصيته ، وشكره بكفره ، وأسباب رضاه بأسباب سخطه ، فإذا غير غُير عليه جزاءً وفاقاً وما ربك بظلام للعبيد .

فإن غير المعصية بالطاعة ؛ غير الله عليه العقوبة بالعافية والذل بالعز[٢] .

قول الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال : ٦٤]

أي : الله وحده كافيك ، وكافي أتباعك ، فلا تحتاجون معه إلى أحد .

وهنا تقديران :

أحدهما : أن تكون الواو عاطفة لـ « مَنْ » على الكاف المجرورة ، ويجوز العطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار على المذهب المختار . وشواهده كثيرة وشبه المنع منه واهية .

والثاني : أن تكون الواو واو « مع » وتكون « من » في محل نصب عطفاً على الموضع . فإن « حسبك » في معنى كافيك ، أي الله يكفيك ويكفي من اتبعك ، كما تقول العرب : حسبك وزيداً درهم . قال الشاعر :

إذا كانت الهيجاءُ وانشقَّتِ العصا فحسبك والضَّحَّاكَ سيفٌ مهنّدُ

وهذا أصح التقديرين .

(١) الكلام في مسألة السماع (٣٩٧ - ٣٩٨) .

(٢) الجواب الكافي (١٠٥) .

وفيها تقدير ثالث : أن تكون « من » في موضع رفع بالابتداء أي : ومن اتبعك من المؤمنين فحسبهم الله .

وفيها تقدير رابع : وهو خطأ من جهة المعنى – وهو أن يكون « من » في موضع رفع عطفاً على اسم الله ، ويكون المعنى : حسبك الله وأتباعك .

وهذا – وإن قال به بعض الناس – فهو خطأ محض ، لا يجوز حمل الآية عليه فإن الحسب والكفاية لله وحده ، كالتوكل والتقوى والعبادة . قال الله تعالى : ﴿ **وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين** ﴾ [الأنفال : ٦٢] . ففرق بين الحسب والتأييد . فجعل الحسب له وحده ، وجعل التأييد له بنصره وبعباده .

وأثنى الله سبحانه على أهل التوحيد والتوكل من عباده حيث أفردوه بالحسب فقال تعالى : (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) [آل عمران : ١٧٣] . ولم يقولوا : حسبنا الله ورسوله ، فإذا كان هذا قولهم ومدح الرب تعالى لهم بذلك ، فكيف يقول لرسوله « الله وأتباعك حسبك » وأتباعه قد أفردوا الرب تعالى بالحسب ولم يشركوا بينه وبين رسوله فيه ؟ ! فكيف يشرك بينهم وبينه في حسب رسوله ؟ هذا من أمحل المحال ، وأبطل الباطل ونظير هذا : قوله تعالى : (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون) [التوبة : ٥٩] فتأمل كيف جعل الإيتاء لله ولرسوله . كما قال تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه) [الحشر : ٧] . وجعل الحسب له وحده ، فلم يقل : وقالوا حسبنا الله ورسوله ، بل جعله خالص حقه ، كما قال تعالى : (إنا إلى الله راغبون) ولم يقل : وإلى رسوله ، بل جعل الرغبة إليه وحده ، كما قال تعالى : (فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب) [الشرح : ٧-٨] .

فالرغبة والتوكل والإنابة والحسب لله وحده ، والنذر والحلف لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى .

ونظير هذا قوله تعالى : (أليس الله بكاف عبده) [الزمر : ٣٦] . فالحسب هو الكافي ، فأخبر سبحانه وتعالى أنه وحده كاف عبده فكيف يجعل أتباعه مع الله في هذه الكفاية ؟ والأدلة الدالة على بطلان هذا التأويل الفاسد أكثر من أن تذكر ها هنا[1] .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٢-٦٣] (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً) [آل عمران : ١٠٣] .

وتأليف القلوب جعل بعضها يألف بعضاً ويميل إليه ويحبه ، وهو من أفعالها الاختيارية ، وقد أخبر سبحانه أنه هو الذي فعل ذلك لا غيره[1] .

قال تعالى : ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٨] .

وقد اختلف السلف في هذا الكتاب السابق :

فقال جمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم : لولا قضاء من الله سبق لكم يا أهل بدر في اللوح المحفوظ أن الغنائم حلال لكم لعاقبكم .

وقال آخرون : لولا كتاب من الله سبق أنه لا يعذب أحداً إلا بعد الحجة لعاقبكم .

وقال آخرون : لولا كتاب من الله سبق لأهل بدر أنه مغفور لهم ، وإن عملوا ما شاءوا لعاقبهم .

---

(١) زاد المعاد (١ / ٣٥) .

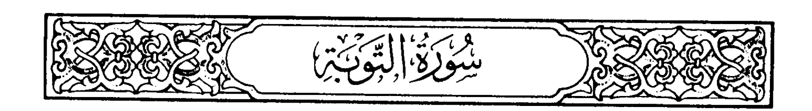
(٢) شفاء العليل (٥٧) .

وقال آخرون[١] :- وهو الصواب: لولا كتاب من الله سبق بهذا كله لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم . والله أعلم[١] .

* * *

(١) شفاء العليل (٢٨) .

سُورَةُ التَّوْبَةِ



قوله تعالى : ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ١-٤] .

فأمر سبحانه أن يوفى لهم ما لم ينقصونا شيئاً مما عاهدناهم عليه ، ومعلوم أن من فعل تلك الأفعال فقد نقصنا جل ما عاهدناه عليه ، ما خلا الدينار الذي هو أهون شيء عُوهد عليه ، فهو أولى بفسخ العهد من نقص الدينار ، ولا كان باذله وقد جاهر بأعظم العداوة ! يوضحه أن الدينار لم يأخذه منه المسلمون لحاجتهم إليه ، وقد فتح الله عليهم الدنيا ، وإنما أخذ منه إذلالاً له وقهراً حتى يكون صاغراً ، فإذا امتنع من بذله لم يكن صاغراً فاستحق القتل . فإذا أتى ما هو أعظم من منع الدينار مما ينافي الصغار فاستحقاقه للقتل أولى وأحرى وهذا يقرب من « المقاطع »[1][2].

وقال رحمه الله تعالى :

إذ العهد ينافي الذلة كما دلت عليه الآية وهذا ظاهر فإن الأذل ليس له قوة يمتنع بها ممن أراده بسوء فإذا كان له من المسلمين عهد ، يجب عليهم به نصره ومنعه ، فليس بأذل فثبت أن المحاد لله ورسوله لا يكون له عهد يعصمه[3] .

---

(١) قال محقق « أحكام أهل الذمة » : كذا بالأصل ولعلها (المقطوع به) .

(٢) أحكام أهل الذمة (٢ / ٨٢٩ - ٨٣٠) .

(٣) أحكام أهل الذمة (٢ / ٨٢٥ - ٨٢٦) .

قال تعالى : ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٤-١٥] .

فأمر بقتال عدوهم ، وأعلمهم أن فيه ست فوائد .

فالغيظ يؤلم القلب ودواؤه(١) في شفاء غيظه فإن شفاه بحق اشتفى ، وإن شفاه بظلم وباطل زاده مرضاً من حيث ظن أنه يشفيه ، وهو كمن شفى مرض العشق بالفجور بالمعشوق ، فإن ذلك يزيد مرضه ، ويوجب له أمراضاً أخر أصعب من مرض العشق ، كما سيأتي إن شاء الله(٢)(٣) .

قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ [التوبة : ١٦].

أي وليجة(٤) ممن اتخذ رجلاً بعينه ، عياراً على كلام الله ورسوله وكلام سائر علماء الأمة ، يزن القرآن والسنة وكلام سائر العلماء على قوله فما خالفه رده وما وافقه قبله »(٥) .

ولا وليجة أعظم ممن جعل رجلاً بعينه مختاراً على كلام رسوله وكلام سائر الأمة يقدمه على ذلك كله ، ويعرض كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة على قوله فما وافقه منها قبله لموافقته لقوله ، وما خالفه منها تلطف في رده وتطلب له وجوه الحيل ، فإن لم تكن هذه وليجة فلا ندري ما الوليجة ؟(٦) .

(١) في طبعة المكتب الإسلامي « شفاؤه » (١ / ٢٨) .
(٢) إغاثة اللهفان (١ / ١٩) .
(٣) ليست في طبعة المكتب الإسلامي (١ / ٢٨) .
(٤) « وليجة » من الولائج : بطانة .
أساس البلاغة (صـ ٥٠٨) .
وقال الأصفهاني في المفردات « ... كل ما يتخذه الإنسان معتمداً عليه وليس من أهله .. » (صـ ٥٣٢) .
(٥) الصواعق المرسلة (٤ / ١٥٢٥) .
(٦) إعلام الموقعين (٢ / ١٧٩) .

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٩-٢٢].

فأخبر سبحانه وتعالى أنه لا يستوي عنده عُمّار المسجد الحرام وهم عمّاره بالاعتكاف والطواف والصلاة ، هذه هي عمارة مساجده المذكورة في القرآن ، وأهل سقاية الحاج لا يستوون هم وأهل الجهاد في سبيل الله ، وأخبر أن المؤمنين المجاهدين أعظم درجة عنده وأنهم هم الفائزون ، وأنهم أهل البشارة بالرحمة والرضوان والجنات ، فنفى التسوية بين المجاهدين وعُمّار المسجد الحرام مع أنواع العبادة مع ثنائه على عُمّاره بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة : ١٨] .

فهؤلاء هم عُمّار المساجد ، ومع هذا فأهل الجهاد أرفع درجة عند الله منهم[(١)] .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٢٤].

وأما تقديمهم على الأموال في تينك الآيتين فلحكمة باهرة وهي أن براءة

(١) طريق الهجرتين (٣٣٢ - ٣٣٣) .

متضمنة لوعيد من كانت تلك الأشياء المذكورة فيها أحب إليه من الجهاد في سبيل الله ومعلوم أن تصور المجاهد فراق أهله وآبائه وإخوانه وعشيرته تمنعه من الخروج عنهم أكثر مما يمنعه مفارقته ماله فإن تصور مع هذا أن يقتل فيفارقهم فراق الدهر نفرت نفسه عن هذه أكثر وأكثر ، ولا يكاد عند هذا التصور يخطر له مفارقة ماله بل يغيب بمفارقة الأحباب عن مفارقة المال فكان تقديم هذا الجنس أولى من تقديم المال . وتأمل هذا الترتيب البديع في تقديم ما قدم ، وتأخير ما أخر يطلعك على عظمة هذا الكلام وجلالته فبدأ أولا بذكر أصول العبد وهم آباؤه المتقدمون طبعاً وشرفاً ورتبة وكان فخرا لقوم بآبائهم ومحاماتهم عنهم أكثر من محاماتهم عن أنفسهم وأموالهم وحتى عن أبنائهم ولهذا حملتهم محاماتهم عن آبائهم ومناضلتهم عنهم إلى أن احتملوا القتل وسبي الذرية ولا يشهدون على آبائهم بالكفر والنقيصة ويرغبون عن دينهم لما في ذلك من إزرائهم بهم ثم ذكر الفروع وهم الأبناء لأنهم يتلونهم في الرتبة وهم أقرب أقاربهم إليهم، وأعلق بقلوبهم، وألصق بأكبادهم من الإخوان والعشيرة ، ثم ذكر الإخوان وهم الكلالة وحواشي النسب ، فذكر الأصول **أولاً** ، ثم الفروع **ثانياً** ، ثم النظراء **ثالثاً** ، ثم الأزواج **رابعاً** ، لأن الزوجة أجنبية عنده ويمكن أن يتعوض عنها بغيرها وهي إنما تراد للشهوة ، وأما الأقارب من الآباء والأبناء والإخوان فلا عوض عنهم ويرادون للنصرة والدفاع وذلك مقدم على مجرد الشهوة .

ثم ذكر القرابة البعيدة **خامساً** ، وهي العشيرة وبنو العم فإن عشائرهم كانوا بني عمتهم غالبا وإن كانوا أجانب فأولى بالتأخير ، ثم انتقل إلى ذكر الأموال بعد الأقارب **سادساً** ، ووصفها بكونها مقترفة أي مكتسبة لأن القلوب إلى ما اكتسبته من المال أميل ، وله أحب ، وبقدره أعرف ؛ لما حصل له فيه من التعب والمشقة بخلاف مال جاء عفواً بلا كسب من ميراث أو هبة أو وصية فإن حفظه للأول ومراعاته له وحرصه على بقائه أعظم من الثاني ، والحس شاهد بهذا وحسبك به . ثم ذكر التجارة **سابعا** ، لأن محبة العبد للمال أعظم من محبته للتجارة التي يحصله بها فالتجارة عنده وسيلة إلى المال المقترف فقدم المال على التجارة تقديم الغايات على وسائلها ، ثم وصف التجارة بكونها مما يخشى كسادها

وهذا يدل على شرفها وخطرها وأنه قد بلغ قدرها إلا أنها مخوفة الكساد ثم ذكر الأوطان ، **ثامناً** ، آخر المراتب لأن تعلق القلب بها دون تعلقه بسائر ما تقدم فإن الأوطان تتشابه وقد يقوم الوطن الثاني مقام الأول من كل وجه ويكون خيرا منه فمنها عوض . وأما الآباء والأبناء والأقارب والعشائر فلا يتعوض منها بغيرها فالقلب وإن كان يحن إلى وطنه الأول فحنينه إلى آبائه وأبنائه وزوجاته أعظم فمحبة الوطن آخر المراتب ، وهذا هو الواقع إلا لعارض يترجح عنده إيثار البعيد على القريب فذلك جزئي لا كلي فلا تناقض به ، وأما عند عدم العوارض فهذا هو الترتيب المناسب والواقع[١] .

قال تعالى : ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩] .

فالجزية هي : الخراج المضروب على رؤوس الكفار إذلالا وصغاراً .

والمعنى : حتى يعطوا الخراج عن رقابهم واختلف في اشتقاقها فقال القاضي في « الأحكام السلطانية » :[٢] اسمها مشتق من الجزاء ، إما جزاءً على كفرهم لأخذها منهم صغاراً أو جزاء على أماننا لهم لأخذها منهم رفقاً .

قال صاحب « المغني » : **هي** مشتقة من جزاه بمعنى قضاه لقوله : (لا تجزي نفس عن نفسٍ شيئاً) فتكون الجزية مثل الفدية . قال شيخنا :[٣] والأول أصح وهذا يرجع إلى أنها عقوبة أو أجرة وأما قوله **﴿ عن يد ﴾** فهو في موضع النصب على الحال : أي يعطوها أذلاء مقهورين : هذا هو الصحيح في الآية[٤] .

وقالت طائفة : المعنى : من يد إلى يد نقداً غير نسيئة .

---

(١) بدائع الفوائد (١ / ٧٥ - ٧٦) .

(٢) « الأحكام السلطانية » للقاضي أبي يعلى (صـ ١٥٣) .

(٣) شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى .

(٤) راجع تفسير الطبري (١٠ / ١٠٩) .

وقالت فرقة: من يده إلى يد الآخذ لا باعثاً بها ولا موكلاً في دفعها وقالت طائفة .

معناه عن إنعام منكم عليهم بإقراركم لهم ، وبالقبول منهم والصحيح القول الأول ، وعليه الناس ، وأبعد كل البعد ولم يصب مراد الله من قال : المعنى : عن يد منهم أي على قدرة على أدائها ، فلا تؤخذ من عاجز عنها .

وهذا الحكم صحيح ، وحمل الآية عليه باطل ولم يفسر به أحد من الصحابة ولا التابعين ولا سلف الأمة وإنما هو من حذاقة بعض المتأخرين ، وقوله تعالى : ﴿ **وهم صاغرون** ﴾ حال أخرى .

فالأول : حال المسلمين في أخذ الجزية منهم أن يأخذوها بقهر وعن يد .

والثاني : حال الدافع لها أن يدفعها وهو صاغر ذليل .

واختلف الناس في تفسير «الصغار»[1] الذي يكونون عليه وقت أداء الجزية فقال عكرمة : أن يدفعها وهو قائم ، ويكون الآخذ جالساً . وقالت طائفة : أن يأتي بها بنفسه ماشياً لا راكباً ويطال وقوفه عند إتيانه بها ويجر إلى الموضع الذي تؤخذ منه بالعنف ، ثم تجر يده ويمتهن وهذا كله مما لا دليل عليه ولا هو مقتضى الآية ولا نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا عن الصحابة أنهم فعلوا ذلك .

والصواب في الآية أن الصغار هو التزامهم لجريان أحكام الملة عليهم ، وإعطاء الجزية فإن التزام ذلك هو الصغار وقد قال الإمام أحمد في رواية حنبل : كانوا يجرون في أيديهم ، ويختمون في أعناقهم إذا لم يؤدوا الصغار الذي قال الله تعالى : ﴿ **وهم صاغرون** ﴾ وهذا يدل على أن الذمي إذا بذل ما عليه ، والتزم الصغار ؛ لم يحتج إلى أن يجر بيده ويضرب .

وقد قال في رواية مهنا بن يحيى : يستحب أن يتعبوا في الجزية .

قال القاضي : ولم يرد تعذيبهم ولا تكليفهم فوق طاقتهم وإنما أراد الاستخفاف بهم وإذلالهم .

---

(١) الطبري (١٠ / ١٠٩) .

قلت : لما كانت يد المعطي العليا ، ويد الآخذ السفلى احترز الأئمة أن يكون الأمر كذلك في الجزية وأخذوها على وجه تكون يد المعطي السفلى ويد الآخذ العليا .

قال القاضي أبو يعلى : وفي هذا دلالة على أن هؤلاء النصارى الذين يتولون أعمال السلطان ويظهر منهم الظلم والاستعلاء على المسلمين ، وأخذ الضرائب لا ذمة لهم وأن دماءهم مباحة ؛ لأن الله تعالى وصفهم بإعطاء الجزية على وجه الصغار والذل . وهذا الذي استنبطه القاضي من أصح الاستنباط فإن الله سبحانه وتعالى مد القتال إلى غاية : وهي إعطاء الجزية مع الصغار فإذا كانت حالة النصراني وغيره من أهل الجزية منافية للذل والصغار فلا عصمة لدمه ولا ماله وليست له ذمة ومن ها هنا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه[1] تلك الشروط التي فيها صغارهم ، وإذلالهم وأنهم متى خرجوا عن شيء منها فلا عهد لهم ولا ذمة ، وقد حل للمسلمين منهم ما يحل من أهل الشقاق والمعاندة »[2] .

ومنها قوله عن نبيه: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠].

فمن أصح الإشارات إشارة هذه الآية وهي أن من صحب الرسول صلى الله عليه وسلم وما جاء به بقلبه وعمله وإن لم يصحبه ببدنه فإن الله معه[3].

وأما التثبيط ، فقال تعالى : ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة : ٤٦] .

(١) انظر شرح كتاب « عمر بن الخطاب » رضي الله عنه في أحكام أهل الذمة (٢ / ٦٥٧) . وتفسير ابن كثير (٢ / ٣٧٢) .

(٢) أحكام أهل الذمة (٢٢ - ٢٥) .

(٣) الكلام على مسألة السماع (٣٩٧) .

والتثبيط رد الإنسان عن الشيء الذي يفعله . قال ابن عباس[١] : يريد خذلهم وكسلهم عن الخروج .

وقال في رواية أخرى : حبسهم .

قال مقاتل : وأوحى إلى قلوبهم اقعدوا مع القاعدين . وقد بين سبحانه حكمته في هذا التثبيط والخذلان قبل وبعد ، فقال : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴾ [التوبة : ٤٥ - ٤٦] فلما تركوا الإيمان به وبلقائه ، وارتابوا بما لا ريب فيه ، ولم يريدوا الخروج في طاعة الله ، ولم يستعدوا له ، ولا أخذوا أهبة ذلك ؛ كره سبحانه انبعاث من هذا شأنه . فإن من لم يرفع به وبرسوله أو كتابه رأساً ، ولم يقبل هديته التي أهداها إليه على يد أحب خلقه إليه وأكرمهم عليه ، ولم يعرف قدر هذه النعمة ولا شكرها، بل بدلها كفرا، فإن طاعة هذا وخروجه مع رسوله يكرهه الله سبحانه فَثَبَّطه لئلا يقع ما يكره من خروجه، وأوحى إلى قلبه قدرا وكونا أن يقعد مع القاعدين .

ثم أخبر سبحانه عن الحكمة التي تتعلق بالمؤمنين في تثبيط هؤلاء عنهم فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ ﴾ [التوبة: ٤٧].

والخبال : الفساد والاضطراب فلو خرجوا مع المؤمنين ؛ لأفسدوا عليهم أمرهم . فأوقعوا بينهم الاضطراب والاختلاف. قال ابن عباس : ما زادوكم إلا خبالا : عجزا وجبناً . يعني يجبنوهم عن لقاء العدو بتهويل أمرهم ، وتعظيمهم في صدورهم . ثم قال : ﴿ **ولأوضعوا خلالكم** ﴾ أي أسرعوا في الدخول بينكم للتفريق والإفساد . قال ابن عباس : يريد أضعفوا شجاعتكم ، يعني بالتفريق بينهم ، لتفرق الكلمة ؛ فيجبنوا عن لقاء العدو .

وقال الحسن : لأوضعوا خلالكم بالنميمة لإفساد ذات البين .

(١) راجع تفسير الطبري (١٠ / ١٤٤) .

وقال الكلبي : ساروا بينكم يبغونكم العيب . قال لبيد :

أرانا موضعين لحتم غيب وسحر بالطعام وبالشراب

أي : مسرعين .

ومنه قول عمر بن أبي ربيعة :

يتأهن بالعرفان لما عرفنني وقلن امرؤ باغ أكَلَّ وأوضعا

أي أسرع حتى كلت مطيته ﴿ **يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم** ﴾ قال قتادة : وفيكم من يسمع كلامهم ويطيعهم .

وقال ابن إسحاق : وفيكم قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم فيهم . ومعناه على هذا القول : وفيكم أهل سمع وطاعة لهم لو صحبهم هؤلاء المنافقون ؛ أفسدوهم عليكم .

قلت : تتضمن « سماعون » معنى مستجيبين .

وقال مجاهد وابن زيد والكلبي : المعنى وفيكم ميول لهم ينقلون إليهم ما يسمعون منكم ، أي جواسيس ، والقول هو الأول . كما قال تعالى : ﴿ **سماعون للكذب** ﴾ [المائدة : ٤١] أي قابلون له .

ولم يكن في المؤمنين جواسيس للمنافقين ، فإن المنافقين كانوا مختلطين بالمؤمنين ، ينزلون معهم ويرحلون ويصلون معهم ، ويجالسونهم ، ولم يكونوا متحيزين عنهم قد أرسلوا فيهم العيون ينقلون إليهم أخبارهم . فإن هذا إنما يفعله من انحاز عن طائفة ولم يخالطها . وأرصد بينهم عيونا له . فالقول قول قتادة وابن إسحاق والله أعلم .

فإن قيل : انبعاثهم إلى طاعته طاعتهم له . فكيف يكرهها ؟ وإذا كان سبحانه يكرهها فهو يحب ضدها لا محالة ، إذ كراهة أحد الضدين تستلزم محبة الضد الآخر فيكون قعودهم محبوباً له ، فكيف يعاقبهم عليه ؟

قيل : هذا سؤال له شأن ، وهو من أكبر الأسئلة في هذا الباب . وأجوبة الطوائف على حسب أصولهم .

فالجبرية : تجيب عنه بأن أفعاله لا تعلل بالحكم والمصالح . وكل ممكن فهو جائز عليه . ويجوز أن يعذبهم على فعل ما يحبه ويرضاه وترك ما يبغضه ويسخطه والجميع بالنسبة إليه سواء .

وهذه الفرقة قد سدت على نفسها باب الحكمة والتعليل .

والقدرية : تجيب عنه على أصولها أنه سبحانه لم يثبطهم حقيقة ولم يمنعهم ، بل هم منعوا أنفسهم ، وثبطوها عن الخروج ، وفعلوا ما لا يريد . ولما كان في خروجهم المفسدة التي ذكرها الله سبحانه ؛ ألقى في نفوسهم كراهة الخروج مع رسوله .

قالوا : وجعل سبحانه إلقاء كراهة الانبعاث في قلوبهم كراهة مشيئة ، من غير أن يكره هو سبحانه انبعاثهم ، فإنه أمرهم به .

قالوا : وكيف يأمرهم بما يكرهه ، ولا يخفى على من نور الله بصيرته فساد هذين الجوابين ، وبعدهما من دلالة القرآن .

فالجواب الصحيح : أنه سبحانه أمرهم بالخروج طاعة له ولأمره واتباعاً لرسوله صلى الله عليه وسلم ، ونصرة له وللمؤمنين ، وأحب ذلك منهم ورضيه لهم دينا ، وعلم سبحانه أن خروجهم لو خرجوا لم يقع على هذا الوجه ، بل يكون خروجهم خروج خذلان لرسوله وللمؤمنين . فكان خروجا يتضمن خلاف ما يحبه ويرضاه ، ويستلزم وقوع ما يكرهه ويبغضه ، فكان مكروهاً له من هذا الوجه ، ومحبوبا له من الوجه الذي خرج عليه أولياؤه ، وهو يعلم أنه لا يقع منهم إلا على الوجه المكروه له . فكرهه وعاقبه على ترك الخروج الذي يحبه ويرضاه ، لا على ترك الخروج الذي يبغضه ويسخطه .

وعلى هذا فليس الخروج الذي كرهه منهم طاعة ، حتى لو فعلوه لم يثبهم عليه ، ولم يرضه منهم ، وهذا الخروج المكروه له ضدان :

أحدهما : الخروج المرضي المحبوب ، وهذا الضد هو الذي يحبه .

والثاني : التخلف عن رسوله والقعود عن الغزو معه . وهذا الضد يبغضه ويكرهه أيضاً . وكراهته للخروج على الوجه الذي كانوا يخرجون عليه لا ينافي كراهته لهذا الضد .

فنقول للسائل : قعودهم مبغوض له ، ولكن ههنا أمران مكروهان له سبحانه :

أحدهما : أكره له من الآخر ؛ لأنه أعظم مفسدة ، فإن قعودهم مكروه له ، وخروجهم على الوجه الذي ذكره أكره إليه . ولم يكن لهم بد من أحد المكروهين إليه سبحانه . فدفع المكروه الأعلى بالمكروه الأدنى . فإن مفسدة قعودهم عنه أصغر من مفسدة خروجهم معه . فإن مفسدة قعودهم تختص بهم ، ومفسدة خروجهم تعود على المؤمنين . فتأمل هذا الموضع .

فإن قلت : فهلا وفقهم للخروج الذي يحبه ويرضاه ، وهو الذي خرج عليه المؤمنون ؟

قلت : قد تقدم جواب مثل هذا السؤال مراراً . وأن حكمته سبحانه تأبى أن يضع التوفيق في غير محله ، وعند غير أهله ، فالله أعلم حيث يجعل هداه وتوفيقه وفضله وليس كل محل يصلح لذلك . ووضع الشيء في غير محله لا يليق بحكمته فإن قلت : وعلى ذلك فهلا جعل المحال كلها صالحة .

قلت : يأباه كمال ربوبيته وملكه وظهور آثار أسمائه وصفاته في الخلق والأمر ، وهو سبحانه لو فعل ذلك لكان محبوباً له ، فإنه يحب أن يذكر ، ويشكر ويطاع ويوحد ويعبد ،ولكن كان ذلك يستلزم فوات ما هو أحب إليه من استواء أقدام الخلائق في الطاعة والإيمان ، وهو محبته لجهاد أعدائه والانتقام منهم ، وإظهار قدر أوليائه وشرفهم وتخصيصهم بفضله وبذل نفوسهم له في معاداة من عاداه ، وظهور عزته وقدرته وسطوته وشدة أخذه وأليم عقابه ، وأضعاف أضعاف هذه الحكم التي لا سبيل للخلق ، ولو تناهوا في العلم والمعرفة ، إلى الإحاطة بها ،

ونسبة ما عقلوه منها ، إلى ما خفي عليهم كنقرة عصفور في بحر[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

وفي المسلمين سماعون للمنافقين ، كما قال الله تعالى : ﴿ **وفيكم سماعون لهم** ﴾ أي قابلون مستجيبون لهم ، فإذا كان جيل القرآن كان بينهم منافقون ، وفيهم سماعون لهم فما الظن بمن بعدهم ، فلا يزال المنافقون في الأرض ، ولا يزال في المؤمنين سماعون لهم لجهلهم بحقيقة أمرهم وعدم معرفتهم بغور كلامهم ..[٢] .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿ **ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين** ﴾ [التوبة : ٤٦-٤٧] .

فأخبر سبحانه : أنه كره انبعاثهم مع رسوله صلى الله عليه وسلم للغزو وهو طاعة وقربة ، وقد أمرهم به . فلما كرهه منهم ثبطهم عنه . ثم ذكر سبحانه بعض المفاسد التي كانت ستترتب على خروجهم لو خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿ **لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا** ﴾ أي فساداً وشراً ﴿ **ولأوضعوا خلالكم** ﴾ أي سعوا فيما بينكم بالفساد والشر ﴿ **يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم** ﴾ ، أي قابلون منهم مستجيبون لهم فيتولد من بين سعي هؤلاء بالفساد وقبول أولئك منهم من الشر ما هو أعظم من مصلحة خروجهم فاقتضت الحكمة والرحمة : أي منعهم من الخروج ، وأقعدهم عنه[٣] .

(١) شفاء العليل (١٠١ - ١٠٣) .
(٢) الصواعق المرسلة (٤ / ١٤٠٤ - ١٤٠٥) .
(٣) مدارج السالكين (٢ / ٢٠٢) .

وقال رحمه الله تعالى :

أي قابلون منهم مستجيبون لهم . هذا أصح القولين في الآية ، وأما قول من قال : عيون لهم وجواسيس فضعيف فإنه سبحانه أخبر عن حكمته في تثبيطهم عن الخروج بأن خروجهم يوجب الخبال والفساد ، والسعي بين العسكر بالفتنة وفي العسكر من يقبل منهم ، ويستجيب لهم ، فكان في إقعادهم عنهم لطفاً بهم ورحمة، حتى لا يقعوا في عنت القبول منهم . أما اشتمال العسكر على جواسيس وعيون لهم : فلا تعلق له بحكمة التثبيط والإقعاد .

ومعلوم أن جواسيسهم وعيونهم منهم . وهو سبحانه قد أخبر أنه أقعدهم لئلا يسعوا بالفساد في العسكر ، ولئلا يبغوهم الفتنة ، وهذه الفتنة إنما تندفع بإقعادهم ، وإقعاد جواسيسهم وعيونهم .

وأيضاً فإن الجواسيس إنما تسمى عيوناً هذا المعروف في الاستعمال لا تسمى سماعين ، وأيضاً فإن هذا نظير قوله تعالى في إخوانهم اليهود : (سماعون للكذب أكالون للسحت) . أي قابلون له[1] .

وكذلك فتنة العشق من أعظم الفتن ، قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ [التوبة : ٤٩] .

نزلت في الجد بن قيس[2] لما غزا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم تبوك قال له « هل لك ياجد في بلاد بني الأصفر تتخذ منهم السراري

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٤٨٤) .

(٢) كان ذلك في غزوة « تبوك » في رجب سنة تسع .
انظر سيرة ابن هشام (٤ / ١٥٥) .
وتفسير الطبري (١٠ / ١٤٨) .
ودلائل النبوة للبيهقي (٥ / ٢١٢) .
وتفسير ابن كثير (٢ / ٣٨٧) .
وانظر مجمل أحاديثها في الدر المنثور (٤ / ٢١٣) .

والوصفاء ؟ فقال جد : ائذن لي في القعود عنك – فقد عرف قومي أني مغرم بالنساء وأني أخشى إن رأيت بنات بني الأصفر أن لا أصبر عنهن؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

قال ابن زيد : يريد لا تفتني بصباحة وجوههن .

وقال أبو العالية : لا تعرضني للفتنة .

وقوله تعالى : ﴿ **ألا في الفتنة سقطوا** ﴾ . قال قتادة : « ما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، والرغبة بنفسه عنه أعظم » فالفتنة التي فر منها – بزعمه – هي فتنة محبة النساء ، وعدم صبره عنهن ، والفتنة التي وقع فيها هي فتنة الشرك والكفر في الدنيا ، والعذاب في الآخرة[1] .

---

(١) إغاثة اللهفان (٢ / ١٥٨ و١٥٩) .

حكم توبة الزنديق

« ومما يدل على أن توبة الزنديق بعد القدرة لا تعصم دمه قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ [التوبة : ٥٢] .

قال السلف في هذه الآية[١] : أو بأيدينا ، بالقتل إن أظهرتم ما في قلوبكم ، وهو كما قالوا : لأن العذاب على ما يبطنونه من الكفر بأيدي المؤمنين إلا بالقتل فلو قبلت توبتهم بعد ما ظهرت زندقتهم ؛ لم يمكن المؤمنون أن يتربصوا بالزنادقة أن يصيبهم الله بأيديهم ؛ لأنهم كلما أرادوا أن يعذبوهم على ذلك ؛ أظهروا الإسلام فلم يصابوا بأيديهم قط . والأدلة على ذلك كثيرة جدا .

وعند هذا فأصحاب هذا القول يقولون : نحن أسعد بالتنزيل والسنة من مخالفينا في هذه المسألة المشنعين علينا بخلافها . وبالله التوفيق[٢] .

قال تعالى : ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة : ٥٥] .

ولم يصب من قال : إن الآية على التقديم والتأخير كالجرجاني حيث قال : ينتظم قوله ﴿ **في الحياة الدنيا** ﴾ بعد فصل آخر ليس بموضعه على تأويل « فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة » وهذا القول يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما[٣] ، وهو منقطع ، واختاره قتادة وجماعة وكأنهم لما أشكل عليهم وجه تعذيبهم بالأموال والأولاد في الدنيا وأن سرورهم ولذتهم ونعيمهم بذلك فروا إلى التقديم والتأخير ، وأما الذين

(١) انظر تفسير الطبري (١٠ / ١٥٠) .
(٢) إعلام الموقعين (٣ / ١٧٥ - ١٧٦) .
(٣) راجع تفسير الطبري (١٠ / ١٥٣) .

رأوا أن الآية على وجهها ونظمها فاختلفوا في هذا التعذيب فقال الحسن البصري : يعذبهم بأخذ الزكاة منها ، والإنفاق في الجهاد . واختاره ابن جرير[1] وأوضحه فقال : العذاب بها إلزامهم بما أوجب الله عليهم فيها من حقوقه وفرائضه إذ كان يؤخذ منه ذلك وهو غير طيب النفس ولا راج من الله جزاء ولا من الآخذ منه حمداً ولا شكراً بل على صغار منه وكره .

وهذا أيضاً عدول عن المراد بتعذيبهم في الدنيا بها ، وذهاب عن مقصود الآية .

وقالت طائفة : تعذيبهم بها أنهم يتعرضون بكفرهم لغنيمة أموالهم ، وسبي أولادهم فإن هذا حكم الكافر ، وهم في الباطن كذلك .

وهذا أيضاً من جنس ما قبله فإن الله سبحانه أقر المنافقين ، وعصم أموالهم وأولادهم بالإسلام الظاهر ، وتولى سرائرهم فلو كان المراد ما ذكره هؤلاء لوقع مراده سبحانه : من غنيمة أموالهم ، وسبي أولادهم فإن الإرادة ههنا كونية بمعنى المشيئة ، وما شاء الله كان ولابد ، وما لم يشأ لم يكن .

والصواب والله أعلم أن يقال : تعذيبهم بها هو الأمر المشاهد من تعذيب طلاب الدنيا ومحبيها ومؤثريها على الآخرة : بالحرص على تحصيلها والتعب العظيم في جمعها ، ومقاساة أنواع المشاق في ذلك ، فلا تجد أتعب ممن الدنيا أكبر همه وهو حريص بجهده على تحصيلها . والعذاب هنا هو الألم والمشقة والنصب ، كقوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « **السفر قطعة من العذاب** »[2] .

وقوله « إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه »[3] أي يتألم ويتوجع لا أنه يعاقب بأعمالهم .

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) رواه البخاري (٣ / ٧٢٨) في العمرة : باب : السفر قطعة من العذاب .
ومسلم (٤ / ٥٨٦ - ٥٨٧) في الإمارة ، باب : السفر قطعة من العذاب .

(٣) رواه البخاري (٣ / ١٨٠) في الجنائز ، باب : قول النبي صلى الله عليه وسلم « يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه .. » . =

وهكذا من الدنيا كل همه أو أكبر همه ، كما قال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي[1] وغيره من حديث أنس رضي الله عنه : « من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه ، وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة . ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه ، وفرق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له »[2] .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [التوبة : ٦٠] .

ما عدل عن اللام في الأصناف الأخيرة إلا لبيان أن تلك الأصناف أحق بالصدقات ينبغي أن توضع فيهم وضع الشيء في الوعاء ، وكرر « في » لبيان أن سبيل الله أولى بذلك فتأمله فهو كثير في القرآن[3] .

= ومسلم (٢ / ٥٨٩) في الجنائز ، باب : الميت يعذب ببكاء أهله .. » .
وفي معنى الحديث بحث نفيس جيد للحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى (فتح الباري ٣ / ١٨٠) .

(١) الترمذي (٤ / ٥٥٤) .
في صفة القيامة ، باب (٣٠) .
وسكت عنه ، وفيه يزيد بن أبان الرقاشي « ضعيف » .
وقال المنذري « رواه الترمذي عن يزيد الرقاشي وقد وثق ولا بأس به في المتابعات » الترغيب والترهيب (٤ / ٨٢) .
وصححه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (٩٤٩ - ٩٥٠) .
ورواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٥ / ١٨٣) .
بلفظ : « نضر الله امرأ سمع منا حديثا .. » .
وابن ماجه (٢ / ٣٩٣) صحيح ابن ماجه في الزهد ، باب : الهم بالدنيا .
والدارمي (١ / ٦٥-٦٦) .
وابن حبان (١ / ٤٧) في كتاب العلم في الموارد .
وقال الهيثمي « رواه الطبراني في الأوسط ورجاله وثقوا » (١٠ / ٢٤٧) .

(٢) إغاثة اللهفان (١ / ٣٥ - ٣٦) .

(٣) الفوائد المشوق (١٨٨ - ١٨٩) .

قوله سبحانه : ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ الآيات إلى قوله : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ٦١-٦٣] .

ذكر سبحانه هذه الآية عقب قوله : ﴿ **ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن** ﴾ **فجعلهم مؤذين له بقولهم** ﴿ **هو أذن** ﴾ ثم قال : ﴿ **ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله** ﴾ ، **فجعلهم بهذا محادين ومعلوم قطعاً أن من أظهر** مسبة الله ورسوله ، والطعن في دينه أعظم محادة له ولرسوله[١] وإذا ثبت أنه محاد فقد قال تعالى : (إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين) [المجادلة: ٢٠] والأذل أبلغ من الذليل، ولا يكون أذل حتى يخاف على نفسه وماله ، لأن من كان دمه وماله معصوماً لا يستباح فليس بأذل يدل عليه قوله تعالى : (ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس)، فبين سبحانه أنهم أينما ثقفوا فعليهم الذلة إلا مع العهد فعلم أن من له عهد وحبل يأمن به على نفسه وماله لا ذلة عليه ، وإن كانت عليه المسكنة ، فإن المسكنة قد تكون مع عدم الذلة ، وقد جعل سبحانه الحادين في الأذلين فلا يكون لهم عهد إذ العهد ينافي الذلة ، كما دلت عليه الآية ، وهذا ظاهر ، فإن الأذل ليس له قوة يمتنع بها ممن أراده بسوء ، فإذا كان[٢] من المسلمين عهد يجب عليهم به نصره ومنعه فليس بأذل .

فثبت أن المحاد لله ورسوله لا يكون له عهد يعصمه[٣] .

---

(١) انظر تفسير الطبري (١٠ / ١٦٧ - ١٦٨) .

(٢) قارن بما في الصارم المسلول (صـ ٢٢) .

(٣) أحكام أهل الذمة (٢ / ٨٢٥ - ٨٢٦) .

وقوله تعالى : ﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [التوبة : ٦٩] .

وقد اختلف[1] في محل هذا الكاف ، وما يتعلق به فقيل : هو رفع خبر مبتدأ محذوف، أي : أنتم كالذين من قبلكم .

وقيل نصب بفعل محذوف، تقديره : فعلتم كفعل الذين من قبلكم ، والتشبيه على هذين القولين في أعمال الذين من قبل ، وقيل : إن التشبيه في العذاب ، ثم قيل : العامل المحذوف أي : لعنهم وعذبهم ، كما لعن الذين من قبل ، وقيل : بل العامل ما تقدم أي وعد الله المنافقين كوعد الذين من قبلكم ولعنهم كلعنهم ولهم عذاب مقيم كالعذاب الذي لهم .

والمقصود : أنه سبحانه ألحقهم بهم في الوعيد ، وسوى بينهم فيه كما تساووا في الأعمال ، وكونهم كانوا أشد منهم قوة ، وأكثر أموالاً وأولاداً فرق غير مؤثر ، فعلق الحكم بالوصف الجامع المؤثر ، وألغى الوصف الفارق ، ثم نبه على أن مشاركتهم في الأعمال اقتضت مشاركتهم في الجزاء فقال : ﴿ **فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا** ﴾ فهذه هي العلة المؤثرة ، والوصف الجامع . وقوله : ﴿ **أولئك حبطت أعمالهم** ﴾ هو الحكم ، والذين من قبل هم : الأصل ، والمخاطبون : الفرع .

قال عبد الرزاق في تفسيره : أنا معمر عن الحسن في قوله ﴿ **فاستمتعوا بخلاقهم** ﴾ قال : بدينهم ويروى عن أبي هريرة ، وقال ابن عباس : استمتعوا بنصيبهم من الآخرة في الدنيا . وقال آخرون : بنصيبهم من الدنيا .

---

(١) راجع تفسير الطبري (١٠ / ١٧٥) .

وحقيقة الأمر أن الخلاق هو النصيب والحظ ، كأنه الذي خُلق للإنسان وقدر له ، كما يقال : قسمه الذي قسم له ، ونصيبه الذي نصب له . أي : أثبت وقطه الذي قط له أي : قطع .

ومنه قوله تعالى : (وماله في الآخرة من خلاق) .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم[1] : « إنما يلبس الحرير في الدنيا من لا خلاق له في الآخرة » والآية تتناول ما ذكره السلف كله : فإنه سبحانه قال : ﴿ **كانوا أشد منكم قوة** ﴾ فبتلك القوة التي كانت فيهم ، كانوا يستطيعون أن يعملوا للدنيا والآخرة ، وكذلك الأموال والأولاد ، وتلكَ القوة والأموال والأولاد : هي الخلاق فاستمتعوا بقوتهم وأموالهم وأولادهم في الدنيا ونفس الأعمال التي عملوها بهذه القوة من الخلاق الذي استمتعوا به ، ولو أرادوا بذلك الله والدار الآخرة لكان لهم خلاق في الآخرة فتمتعهم بها أخذ حظوظهم العاجلة ، وهذا حال من لم يعمل إلا لدنياه سواء كان عمله من جنس العبادات أو غيرها .

ثم ذكر سبحانه حال الفروع فقال : ﴿ **فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم** ﴾ فدل هذا على أن حكمكم حكمهم ، وأنه ينالكم ما نالهم ؛ لأن حكم النظير حكم نظيره ، ثم قال : ﴿ **وخضتم كالذي خاضوا** ﴾ فقيل : « الذي » صفة لمصدر محذوف ، أي : كالخوض الذي خاضوا ، وقيل لموصوف محذوف أي تخوض الذي خاضوا ، وهو فاعل الخوض ، وقيل : الذي مصدرية كما ، أي : كخوضهم، وقيل : هي موضع الذين .

---

(١) رواه البخاري (١٠ / ٢٩٦) في اللباس ، باب : « لبس الحرير للرجال ... » ، مسلم (٤ / ٧٧٢ - ٧٧٣) في اللباس ، باب : « تحريم الذهب والحرير .. » .

أصل فساد الدين

والمقصود أنه سبحانه جمع بين الاستمتاع بالخلاق ، وبين الخوض بالباطل لأن فساد الدين إما أن يقع بالاعتقاد الباطل ، والتكلم به ، وهو الخوض ، أو يقع في العمل بخلاف الحق والصواب ، وهو الاستمتاع بالخلاق،

فالأول : البدع .

والثاني : اتباع الهوى .

وهذان هما أصل كل شر وفتنة وبلاء ، وبهما كذبت الرسل وعصي الرب ودخلت النار وحلت العقوبات .

فالأول : من جهة الشبهات .

والثاني : من جهة الشهوات . ولهذا كان السلف يقولون : احذروا من الناس صنفين : صاحب هوى فتنه هواه ، وصاحب دنيا أعجبته دنياه . وكانوا يقولون : احذروا فتنة العالم الفاجر ، والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون، فهذا يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ، ويعملون بخلافه ، وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم .

وفي صفة الإمام أحمد رحمه الله[1] عن الدنيا: ما كان أصبره ، وبالماضين ما كان أشبهه ، أتته البدع فنفاها ، والدنيا فأباها ، وهذه حال أئمة المتقين الذين وصفهم الله في كتابه بقوله : (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) [السجدة : ٢٤] .

---

(١) قائل ذلك : « أبو عمير بن النحاس الرملي » كما في سير أعلام النبلاء (١١ / ١٩٨) .
وإنني – والله – لأتقرب إلى الله بحب الإمام أحمد رضي الله عنه .

فبالصبر تترك الشهوات ، وباليقين تدفع الشبهات ، كما قال تعالى : (وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) [آخر العصر] .

وقوله تعالى : (واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار) [ص : ٤٥] .

وفي بعض المراسيل : « إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات ، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات » فقوله تعالى : ﴿ **فاستمتعتم بخلاقكم** ﴾ إشارة إلى اتباع الشهوات ، وهو داء العصاة وقوله : ﴿ **وخضتم كالذي خاضوا** ﴾ إشارة إلى الشبهات ، وهو داء المبتدعة وأهل الأهواء والخصومات ، وكثيراً ما يجتمعان فقل من تجده فاسد الاعتقاد إلا وفساد اعتقاده يظهر في عمله .

والمقصود : أن الله أخبر أن في هذه الأمة من يستمتع بخلاقه كما استمتع الذين من قبله بخلاقهم ، ويخوض كخوضهم ، وأنهم لهم من الذم والوعيد كما للذين من قبلهم ، ثم حضهم على القياس ، والاعتبار بمن قبلهم ، فقال : ﴿ **ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ [التوبة : ٧٠].

فتأمل صحة هذا القياس وإفادته لمن عُلق عليه من الحكم ، وأن الأصل والفرع قد تساويا في المعنى الذي عُلق به العقاب وأكده كما تقدم بضرب من الأولى وهو شدة القوة وكثرة الأموال والأولاد فإذا لم يتعذر على الله عقاب الأقوى منهم بذنبه فكيف يتعذر عليه عقاب من هو دونه[١] .

وقال رضي الله عنه :

فالاستمتاع بالخلاق وهو النصيب هو : الشهوة . والخوض هو : الكلام

---

(١) إعلام الموقعين (١ / ١٨٢ - ١٨٥) .

بمقتضى الشبهة ، فهذان الداءان هما داء الأولين والآخرين إلا من عصم الله وقليل ما هم وهذا السماع قد تركب أمره من هذين الأصلين[١] .

وقال رحمه الله :

فذكر الاستمتاع بالخلاق وهو التمتع بالشهوات وهو نصيبهم الذي آثروه في الدنيا على حظهم من الآخرة .

فالخوض : الذي اتبعوا فيه الشبهات فاستمتعوا بالشهوات ، وخاضوا بالشبهات فنشأ عنهما التفرق المذموم الذي ذم الله أهله في كتابه ونهى عباده المؤمنين عن التشبه بهم[٢] .

(١) الكلام على مسألة السماع (١٧٣) .
(٢) الصواعق المرسلة (٢ / ٥١١) .

فتنــة الشهــوات

وقال رحمه الله تعالى :

أما النوع الثاني[1] من الفتنة : ففتنة الشهوات . وقد جمع سبحانه بين ذكر الفتنتين في قوله : ﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَـٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ ﴾ [التوبة : ٦٩] .

أي تمتعوا بنصيبهم من الدنيا ، وشهواتها . والخلاق هو : النصيب المقدر . ثم قال : ﴿ **وخضتم كالذي خاضوا** ﴾ فهذا الخوض بالباطل وهو الشبهات .

فأشار سبحانه في هذه الآية إلى ما يحصل به فساد القلوب والأديان ، من الاستمتاع بالخلاق والخوض بالباطل ؛ لأن فساد الدين إما أن يكون باعتقاد الباطل والتكلم به ، أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح .

فالأول : هو البدع وما والاها .

والثاني : فسق الأعمال .

فالأول فساد من جهة الشبهات ، والثاني من جهة الشهوات . ولهذا كان السلف يقولون : « احذروا من الناس صنفين : صاحب هوى قد فتنه هواه وصاحب دنيا أعمته دنياه » . وكانوا يقولون : « احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون » .

وأصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأي على الشرع ، والهوى على العقل فالأول : أصل فتنة الشبهة . والثاني : أصل فتنة الشهوة . ففتنة الشبهات تدفع باليقين ، وفتنة الشهوات تدفع بالصبر ، ولذلك جعل سبحانه إمامة الدين منوطة بهذين الأمرين فقال : (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) [السجدة : ٢٤] .

فدل على أنه بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين[2] .

(١) راجع الأول .

(٢) **إغاثة اللهفان** (٢ / ١٦٦ و١٦٧)

قول الله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة : ٧٢] .

تأمل كيف جاء بالرضوان مبتدأ منكراً مخبراً عنه بأنه أكبر من كل ما وعدوا به فأيسر شيء من رضوانه أكبر من الجنات ، وما فيها من المساكن الطيبة وما حوته ولهذا لما يتجلى لأوليائه في جنات عدن ويمنيهم[١] أي شيء يريدون « فيقولون : ربنا أي شيء نريد أفضل مما أعطيتنا فيقول تبارك وتعالى إن لكم عندي أفضل من ذلك أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً »[٢] .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [التوبة : ٧٣] .

فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار وهو جهاد خواص الأمة وورثة الرسل . والقائمون به أفراد في العالم ، والمشاركون فيه ، والمعاونون عليه وإن كانوا هم الأقلين عدداً فهم الأعظمون عند الله قدراً[٣] .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١٠٠] .

فوجه الدلالة[٤] أن الله تعالى أثنى على من اتبعهم فإذا قالوا قولا فاتبعهم متبع عليه قبل أن يعرف صحته فهو متبع لهم ، فيجب أن يكون محموداً على ذلك وأن يستحق الرضوان ولو كان اتباعهم تقليداً محضاً كتقليد بعض المفتين

---

(١) يشير للحديث الصحيح الذي رواه البخاري (١١ / ٤٢٣) في الرقاق ، باب : صفة الجنة والنار . ومسلم (٥ / ٦٩٠) في صفة الجنة .

(٢) بدائع الفوائد (٢ / ١٦٦ - ١٦٧) .

(٣) زاد المعاد (٣ / ٥) .

(٤) أي على وجوب اتباع الصحابة رضي الله عنهم .

لم يستحق من اتبعهم الرضوان إلا أن يكون عامياً ، فأما العلماء المجتهدون فلا يجوز لهم اتباعهم حينئذ[١] .

أتباع السعداء نوعان[٢] :

أتباع لهم حكم الاستقلال وهم الذين قال الله عز وجل فيهم : ﴿ **والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه** ﴾ [التوبة : ١٠٠] .

فهؤلاء هم السعداء الذين ثبت لهم رضا الله عنهم ، وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل من تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة . ولا يختص ذلك بالقرن الذين رأوهم فقط ، وإنما خص التابعين بمن رأوا الصحابة تخصيصاً عرفياً ليتميزوا به عمن بعدهم فقيل : التابعون مطلقاً لذلك القرن فقط ، وإلا فكل من سلك سبيلهم فهو من التابعين بإحسان ، وهو ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه .

وقيد سبحانه هذه التبعية بأنها تبعية بإحسان ليست مطلقة فتحصل بمجرد النية والاتباع في شيء والمخالفة في غيره ، ولكن تبعية مصاحبة الإحسان .

وأن الباء ها هنا للمصاحبة ، والإحسان والمتابعة شرط في حصول رضاء الله عنهم وجناته[٣] .

قول الله تعالى ذكره: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

أصل هذه اللفظة في اللغة يرجع إلى معنيين[٤] :

أحدهما : الدعاء والتبريك .

---

(١) إعلام الموقعين (٤ / ١٥٥) .

(٢) ذكر النوع الثاني عند تفسيره لسورة الطور .

(٣) الرسالة التبوكية (٦٢) .

(٤) راجع ما كتبه الإمام النووي رحمه الله تعالى في معنى الصلاة ، واشتقاقها في كتابه المجموع (جـ ٣ ص ٢) .

والثاني : العبادة .

فمن القول الأول : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم** ﴾ [التوبة : ١٠٣] . وقوله تعالى في حق المنافقين : (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره) [التوبة : ٨٤] . وقول النبي صلى الله عليه وسلم[(١)]: «إذا دعي أحدكم إلى الطعام فليجب، فإن كان صائماً فليصل» فسر بهما .

قيل : فليدع لهم بالبركة ، وقيل : يصلي عندهم بدل أكله .

وقيل : إن الصلاة في اللغة معناها الدعاء . والدعاء نوعان : دعاء عبادة ، ودعاءمسألة . والعابد داع ، كما أن السائل داع . وبهما فسر قوله تعالى : (وقال ربكم : ادعوني أستجب لكم) [غافر : ٦٠] . قيل : أطيعوني أثبكم .

وقيل : سلوني أعطكم . وفسر بهما قوله تعالى : (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) [البقرة : ١٨٦] .

والصواب: أن الدعاء يعم النوعين ، وهذا لفظ متواطىء لا اشتراك فيه .

فمن استعماله في دعاء العبادة قوله تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض) [سبأ : ٢٢] . وقوله تعالى : (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون) [النحل : ٢٠] . وقوله تعالى : (قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم) [الفرقان : ٧٧] . والصحيح من القولين : لولا أنكم تدعونه وتعبدونه ، أيُّ شيء يعبؤه بكم لولا عبادتكم إياه . فيكون المصدر مضافا إلى الفاعل . وقال تعالى : (ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه

---

(١) رواه مسلم (٣ / ٢٠٥) في الصوم ، باب : « ما يقوله الصائم إذا دعي .. » بلفظ : « .. فليقل إني صائم » .

وأبو داود (٧ / ١٣١ و ١٣٢) في الصوم ، باب : « **في الصائم يدعى** .. » .

والترمذي (٣ / ١٥٠) في الصوم ، باب : « **ما جاء في إجابة الصائم** .. » .

خوفا وطمعاً) [الأعراف : ٥٥-٥٦] . وقال تعالى إخباراً عن أنبيائه ورسله : (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً) [الأنبياء : ٩٠] .

وهذه الطريقة أحسن من الطريقة الأولى ، ودعوى الخلاف في مسمى الدعاء ، وبهذا تزول الإشكالات الواردة على اسم الصلاة الشرعية ، هل هو منقول عن موضعه في اللغة ، فيكون حقيقة شرعية ، أو مجازا شرعيا ؟ فعلى هذا تكون الصلاة باقية على مسماها في اللغة ، وهو الدعاء .

والدعاء دعاء عبادة ودعاء مسألة . والمصلي من حين تكبيره إلى سلامه بين دعاء العبادة ، ودعاء المسألة فهو في صلاة حقيقة لا مجازا ، ولا منقولة ، ولكن خص اسم الصلاة بهذه العبادة المخصوصة كسائر الألفاظ التي يخصها أهل اللغة والعرف ببعض مسماها كالدابة والرأس ونحوها . فهذا غاية تخصيص اللفظ وقصره على بعض موضوعه ، ولهذا لا يوجب نقلا ، ولا خروجاً عن موضوعه الأصلي . والله أعلم .

فصـــل

هذه الصلاة من الآدمي .

وأما صلاة الله سبحانه على عباده فنوعان : عامة ، وخاصة .

أما العامة : فهي صلاته على عباده المؤمنين ، قال تعالى : (هو الذي يصلي عليكم وملائكته) [الأحزاب : ٤٣] . ومنه دعاء النبي صلى الله عليه وسلم بالصلاة على آحاد المؤمنين كقوله[١] « اللهم صل على آل أبي أوفى » وفي حديث آخر[٢] : « أن امرأة قالت له : صلّ علي وعلى زوجي . قال : صلى الله عليك وعلى زوجك » .

---

(١) رواه البخاري (٣ / ٤٢٣) في الزكاة ، باب : « صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة .. » . ومسلم (٣ / ١٣٠) في الزكاة ، باب : الدعاء لمن أتى بصدقة » .

(٢) حديث صحيح :
رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٣ / ٣٩٨) و (٣ / ٣٠٣) . =

النوع الثاني صلاته الخاصة : على أنبيائه ورسله ، خصوصاً على خاتمهم وخيرهم محمد صلى الله عليه وسلم . فاختلف الناس في معنى الصلاة منه سبحانه على أقوال :

أحدها : أنها رحمة .

قال إسماعيل[1] : حدثنا نصر بن علي قال حدثنا محمد بن سواء عن جويبر عن الضحاك قال : « صلاة الله رحمته وصلاة الملائكة الدعاء » .

وقال المبرد : أصل الصلاة الرحمة ، فهي من الله رحمة ، ومن الملائكة رحمة[2] واستدعاء الرحمة من الله .

وهذا القول هو المعروف عند كثير من المتأخرين .

والقول الثاني : أن صلاة الله مغفرته .

قال إسماعيل[3] : حدثنا محمد بن أبي بكر : حدثنا محمد بن سواء عن جويبر عن الضحاك « (**هو الذي يصلي عليكم**) ، قال صلاة الله مغفرته . وصلاة الملائكة الدعاء » .

= وأبو داود (٤ / ٣٩٣) في الصلاة ، الصلاة على غير النبي صلى الله عليه وسلم .
والدارمي (١ / ٢٨) في المقدمة باب ما أكرم به النبي صلى الله عليه وسلم في بركة طعامه .
وابن حبان (برقم ١٩٥٠) الموارد .
وأبو يعلى (٤ / ٥٩) . وابن حبان (٥ / ٤٨٤) كلهم من طريق : « نبيح العنزي » وهو ثقة .
وثقه الترمذي (٤ / ١٨٧) حديث رقم (١٧١٧) .
والعجلي (برقم ١٦٨٢ صـ ٤٤٨) .
وابن حبان في الثقات (٥ / ٤٨٤) .
ونقل ابن حجر تصحيح حديثه عن الترمذي وابن خزيمة وابن حبان والحاكم . تهذيب التهذيب (١٠ / ٤١٧) .

(١) رواه القاضي إسماعيل « في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم » (صـ ٨٠) برقم (٩٦) .
وقال محققه الشيخ الألباني « إسناده موقوف ضعيف جداً ، جويبر هو ابن سعيد **الأزدي** » .
قال الحافظ في التقريب « ضعيف جداً » (١ / ١٣٦) .

(٢) هكذا في الطبعة المنيرية ، والمحمدية ، وفي طبعة « دار **التراث** : رِقّة » (صـ ١٢٢) .

(٣) إسناده ضعيف مثل رقم (٣) السابق .

وهذا القول هو من جنس الذي قبله . وهما ضعيفان لوجوه :

أحدها : أن الله سبحانه فرق بين صلاته على عباده ورحمته . فقال : (وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) [البقرة : ١٥٥-١٥٧] . فعطف الرحمة على الصلاة فاقتضى ذلك تغايرهما . هذا أصل العطف .

وأما قولهم :

* وأَلْفَى قَوْلَها كَذِباً ومَيْناً *

فهو شاذ نادر ، لا يحمل عليه أفصح الكلام ، مع أن المين أخص من الكذب .

الوجه الثاني : أن صلاة الله سبحانه خاصة بأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين ، وأما رحمته فوسعت كل شيء . فليست الصلاة مرادفة للرحمة ، لكن الرحمة من لوازم الصلاة وموجباتها وثمرتها .

فمن فسرها بالرحمة فقد فسرها ببعض ثمراتها ومقصودها . وهذا كثيرا ما يأتي في تفسير ألفاظ القرآن .

والرسول صلى الله عليه وسلم يفسر اللفظة بلوازمها وجزء معناها كتفسير الريب بالشك، والشك جزء مُسمَّى الريب، وتفسير المغفرة بالستر ، وهو جزء مُسمَّى المغفرة . وتفسير الرحمة بإرادة الإحسان، وهو لازم الرحمة . ونظائر ذلك كثيرة قد ذكرناها في أصول التفسير .

الوجه الثالث : أنه لا خلاف في جواز الرحمة على المؤمنين، واختلف السلف والخلف في جواز الصلاة على غير الأنبياء على ثلاثة أقوال ، سنذكرها فيما بعد إن شاء الله تعالى .

فعلم أنهما ليسا بمترادفين .

الوجه الرابع : أنه لو كانت الصلاة بمعنى الرحمة لقامت مقامها في امتثال

الأمر ، وأسقطت الوجوب عند من أوجبها ، إذا قال : اللهم ارحم محمداً ، وآل محمد . وليس الأمر كذلك .

الوجه الخامس : أنه لا يقال لمن رحم غيره ، ورق عليه فأطعمه أو سقاه أو كساه صلى عليه . ويقال : إنه قد رحمه .

الوجه السادس : أن الإنسان قد يرحم من يبغضه ويعاديه ، فيجد في قلبه له رحمة ، ولا يصلي عليه .

الوجه السابع : أن الصلاة لابد فيها من كلام . فهي ثناء من المصلي على من يصلي عليه ، وتنويه به وإشادة لمحاسنه وما فيه ، وذكره . ذكر البخاري في صحيحه عن أبي العالية قال[1]: « صلاة الله على رسوله ثناؤه عليه عند الملائكة » .

وقال إسماعيل في كتابه[2]: حدثنا نصر بن علي ، قال : حدثنا خالد بن يزيد ، **عن أبي جعفر عن الربيع بن أنس عن أبي العالية « (إن الله وملائكته يصلون على النبي) قال : صلاة الله عز وجل ثناؤه عليه ، وصلاة الملائكة عليه : الدعاء »** .

الوجه الثامن : أن الله سبحانه فرق بين صلاته وصلاة ملائكته وجمعها في فعل واحد. فقال : **(إن الله وملائكته يصلون على النبي)** [الأحزاب : ٥٦] . وهذه الصلاة لا يجوز أن تكون هي الرحمة . وإنما هي ثناؤه سبحانه ، وثناء ملائكته عليه .

---

(١) ذكره البخاري معلقاً عنه (٨ / ٣٩٢) .
وقال الحافظ ابن حجر : أخرجه ابن أبي حاتم .. » .
وانظر الدر المنثور (٦ / ٦٤٦) وقال : أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم .

(٢) فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم .
وقال المحقق فضيلة الشيخ الألباني : « إسناده موقوف حسن ، رجاله ثقات غير أبي جعفر وهو الرازي اختلف في اسمه ، وفيه ضعف لسوء حفظه ، فمثله إنما يتقى من حديثه ما كان مرفوعاً ، وأما ما كان منه موقوفاً كهذا فلا بأس به إن شاء الله تعالى .. » (صـ ٨٠) رقم (٩٥) وراجع رقم (١) السابق .

ولا يقال : الصلاة لفظ مشترك ، ويجوز أن يستعمل في معنييه معا ، لأن في ذلك محاذير متعددة .

أحدها : أن الاشتراك خلاف الاصل ، بل لا يعلم أنه وقع في اللغة من واضع واحد ، كما نص على ذلك أئمة اللغة : منهم المبرد وغيره . وإنما يقع وقوعاً عارضاً اتفاقيا ، بسبب تعدد الواضعين . ثم تختلط اللغة فيعرض الاشتراك .

الثاني : أن الأكثرين لا يجوزون استعمال اللفظ المشترك في معنييه ، لا بطريق الحقيقة، ولا بطريق المجاز، وما حكي عن الشافعي رضي الله عنه من تجويزه ذلك فليس بصحيح عنه . وإنما أخذ من قوله : إذا أوصى لمواليه ، وله موال من فوق ومن أسفل تناول جميعهم . فظن من ظن أن لفظ المولى مشترك بينهما ، وأنه عند التجرد يحمل عليهما . وهذا ليس بصحيح . فإن لفظ المولى من الألفاظ المتواطئة فالشافعي وأحمد في ظاهر مذهبه يقولان بدخول نوعي الموالي في هذا اللفظ . وهو عنده عام متواطىء لا مشترك .

وأما ما حكي عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال في مفاوضة جرت له في قوله : (أو لامستم النساء) [المائدة : ٦] . قد قيل له : وقد يراد بالملامسة المجامعة . قال : هي محمولة على الجس باليد حقيقة ، وعلى الوقاع مجازا فهذا لا يصح عن الشافعي ، ولا هو من جنس المألوف من كلامه . وإنما هذا من كلام بعض الفقهاء المتأخرين . وقد ذكرنا على إبطال استعمال اللفظ المشترك في معنييه معاً في بضعة عشر دليلا في مسألة القرء من كتاب « التعليق على الأحكام »[1] .

فإذا كان معنى الصلاة هو الثناء على الرسول والعناية به ، وإظهار شرفه وفضله وحرمته ، كما هو المعروف من هذه اللفظة ، لم يكن الصلاة في الآية مشتركا محمولاً على معنييه ، بل يكون مستعملا في معنى واحد . وهذا هو الأصل

---

(١) قال فضيلة الشيخ « بكر أبو زيد » حفظه الله تعالى : « لم أر من ذكره من مترجمين سوى ما جاء في مقدمة شرح النونية لابن عيسى .. » .
التقريب لفقه ابن قيم الجوزية (١ / ١٩٣) .

في الألفاظ، وسنعود إلى هذه المسألة إن شاء الله تعالى في الكلام على تفسير قوله تعالى : (إن الله وملائكته يصلون على النبي) [الأحزاب : ٥٦][1] .

قال الله تعالى ذكره: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

[التوبة : ١١١] .

فجعل سبحانه ها هنا الجنة ثمناً لنفوس المؤمنين وأموالهم بحيث إذا بذلوها فيه استحقوا الثمن وعقد معهم هذا العقد وأكده بأنواع من التأكيد :

أحدها : إخبارهم سبحانه وتعالى بصيغة الخبر المؤكد بأداة إن .

الثاني : الإخبار بذلك بصيغة الماضي، الذي قد وقع وثبت واستقر .

الثالث : إضافة هذا العقد إلى نفسه سبحانه ، وأنه هو الذي اشترى هذا المبيع .

الرابع : أنه أخبر بأنه وعد بتسليم هذا الثمن وعداً لا يخلفه ولا يتركه .

الخامس : أنه أتى بصيغة على التي للوجوب إعلاماً لعباده، بأن ذلك حق عليه، أحقه هو على نفسه .

السادس : أنه أكد ذلك بكونه حقاً عليه .

السابع : أنه أخبر عن محل هذا الوعد، وأنه أفضل كتبه المنزلة من السماء، وهي التوراة والإنجيل والقرآن .

الثامن : إعلامه لعباده بصيغة استفهام الإنكار ، وأنه لا أحد أوفى بعهده منه سبحانه .

---

(١) جلاء الأفهام (٨١ – ٨٥) .

التاسع : أنه سبحانه وتعالى أمرهم أن يستبشروا بهذا العقد ، ويبشر به بعضهم بعضاً بشارة من قد تم له العقد ولزم، بحيث لا يثبت فيه خيار ولا يعرض له ما يفسخه .

العاشر : أنه أخبرهم إخباراً مؤكداً بأن ذلك البيع الذي بايعوه به هو الفوز العظيم، والبيع ههنا بمعنى المبيع الذي أخذوه بهذا الثمن وهو الجنة ، وقوله : **﴿بايعتم به﴾ أي عاوضتم وثامنتم به. ثم ذكر سبحانه أهل هذا العقد الذي وقع العقد،** وتم لهم دون غيرهم وهم التائبون مما يكره ، العابدون له بما يحب ، الحامدون له على ما يحبون وما يكرهون ، السائحون وفسرت السياحة بالصيام ، وفسرت بالسفر في طلب العلم، وفسرت بالجهاد، وفسرت بدوام الطاعة. والتحقيق[1] فيها أنها سياحة القلب في ذكر الله ومحبته والإنابة إليه والشوق إلى لقائه ويترتب عليها كل ما ذكر من الأفعال ولذلك وصف الله سبحانه[2] نساء النبي ﷺ اللاتي لو طلق أزواجه بدله بهن بأنهن سائحات ، وليست سياحتهن جهاداً ولا سفراً في طلب علم ، ولا إدامة صيام وإنما هي سياحة قلوبهن في محبة الله تعالى وخشيته والإنابة إليه وذكره .

وتأمل كيف جعل الله سبحانه التوبة والعبادة قرينتين : هذه ترك ما يكره وهذه فعل ما يحب ، والحمد والسياحة قرينتين هذا الثناء عليه بأوصاف كماله، وسياحة اللسان في أفضل ذكره ، وهذه سياحة القلب في حبه وذكره وإجلاله كما جعل سبحانه العبادة والسياحة قرينتين في صفة الأزواج فهذه عبادة البدن ، وهذه عبادة القلب[3] .

قال الله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة : ١١٥] .

فهذا الإضلال عقوبة منه لهم، حين بين لهم، فلم يقبلوا ما بينه لهم ، ولم

---

(١) راجع تفسير الطبري (١١ / ٣٦) .
(٢) يقصد قوله تعالى من سورة التحريم ﴿عسى ربُّهُ إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن...﴾ الآية ٥.
(٣) حادي الأرواح (٧٥ – ٧٦) .

يعملوا به. فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى ، وما أضل الله سبحانه أحداً قط إلا بعد هذا البيان[(١)] .

قوله تعالى : ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٧] .

هذا من أعظم ما يُعرف العبد قدر التوبة وفضلها عند الله ، وأنها غاية كمال المؤمن فإنه سبحانه أعطاهم هذا الكمال بعد آخر الغزوات[(٢)] بعد أن قضوا نحبهم ، وبذلوا نفوسهم وأموالهم وديارهم لله ، وكان غاية أمرهم أن تاب عليهم ، ولهذا جعل النبي صلى الله عليه وسلم[(٣)] يوم توبة كعب « خير يوم مر عليه منذ ولدته أمه إلى ذلك اليوم » ولا يعرف هذا حق معرفته إلا من عرف الله ، وعرف حقوقه عليه، وعرف ما ينبغي له من عبوديته ، وعرف نفسه وصفاتها وأفعالها ، وأن الذي قام به من العبودية بالنسبة إلى حق ربه عليه كقطرة في بحر، هذا إذا سلم من الآفات الظاهرة والباطنة، فسبحان من لا يسع عباده غير عفوه ومغفرته، وتغمده لهم بمغفرته ورحمته وليس إلا ذلك أو الهلاك، فإن وضع عليهم عدله، فعذب أهل سماواته وأرضه عذبهم، وهو غير ظالم لهم ، وإن رحمهم فرحمته خير لهم من أعمالهم، ولا ينجي أحداً منهم عمله .

فصـــل

وتأمل تكريره سبحانه توبته عليهم مرتين في أول الآية وآخرها، فإنه تاب عليهم أولاً بتوفيقهم للتوبة فلما تابوا، تاب عليهم ثانيا بقبولها منهم، وهو الذي وفقهم

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٤٢) .

(٢) أي غزوة تبوك كما سبق .

(٣) قال صلى الله عليه وسلم لكعب عند نزول توبته « أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك » .
رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٣ / ٤٥٦) .
والبخاري (٦ / ٧١٧) في المغازي ، باب : حديث كعب بن مالك .
ومسلم (٥ / ٦١٤) في التوبة ، باب : توبة كعب بن مالك رضي الله عنه .

لفعلها ، وتفضل عليهم بقبولها، فالخير كله منه وبه، وله وفي يديه، يعطيه من يشاء إحساناً وفضلاً ، ويحرمه من يشاء حكمةً وعدلاً .

فصـــل

وقوله تعالى : ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [التوبة : ١١٨] .

قد فسرها كعب بالصواب، وهو أنهم خلفوا من بين من حلف لرسول الله صلى الله عليه وسلم، واعتذر من المتخلفين، فخلف هؤلاء الثلاثة عنهم ، وأرجأ أمرهم دونهم، وليس ذلك تخلفهم عن الغزو ؛ لأنه لو أراد ذلك، لقال : تخلفوا كما قال تعالى : (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله) [التوبة : ١٢٠] .

وذلك لأنهم تخلفوا بأنفسهم بخلاف تخليفهم عن أمر المتخلفين سواهم فإن الله سبحانه هو الذي خلفهم عنهم ، ولم يتخلفوا عنه بأنفسهم . والله أعلم[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم ، وأنها هي التي جعلتهم تائبين فكانت سبباً مقتضياً لتوبتهم . فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم والحكم ينتفي لانتفاء علته[٢] .

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

قال غير واحد من السلف[٣] : **هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ولا ريب أنهم أئمة الصادقين ، وكل صادق بعدهم فبهم يأتم في صدقه، بل حقيقة**

---

(١) زاد المعاد (٣ / ٥٩١ - ٥٩٢) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٣١٣) .
(٣) تفسير الطبري (١١ / ٦٢) .

صدقه اتباعه لهم وكونه معهم، ومعلوم أن من خالفهم في شيء – وإن وافقهم في غيره – لم يكن معهم فيما خالفهم فيه، وحينئذ فيصدق عليه – أنه ليس معهم فتنتفي عنه المعية المطلقة ، وإن ثبت له قسط من المعية فيما وافقهم فيه ، فلا يصدق عليه أنه معهم بهذا القسط ، وهذا كما نفى الله ورسوله الإيمان المطلق عن الزاني والشارب والسارق والمنتهب بحيث لا يستحق اسم المؤمن وإن لم ينتف عنه مطلق الاسم الذي يستحق لأجله أن يقال : معه شيء من الإيمان ، وهذا كما أن اسم الفقيه والعالم عند الإطلاق لا يقال لمن معه مسألة أو مسألتان من فقه وعلم ، وإن قيل : معه شيء من العلم[1] .

قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۞ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٠-١٢١] .

فأخبر سبحانه في الآية الأولى : أن المتولد عن طاعتهم وأفعالهم يكتب لهم به عمل صالح .

وأخبر في الثانية : أن أعمالهم الصالحة التي باشروها تكتب لهم أنفسها . والفرق بينهما : أن الأول ليس من فعلهم ، وإنما تولد عنه فكتب لهم به عمل صالح والثاني نفس أعمالهم فكتب لهم[2] .

وقال رحمه الله تعالى :

« العلم النافع جرى عليه ثوابه وأجره لتسببه فيه ، فالعبد إنما يثاب على ما باشره أو على ما تولد منه ، وقد ذكر تعالى هذين الأصلين في كتابه في سورة براءة فقال : ﴿ **ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله**

(١) إعلام الموقعين (٤ / ١٦٥ – ١٦٦) .

(٢) الداء والدواء (٣٠٨) .

ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ [التوبة : ١٢٠] .

فهذه الأمور كلها متولدات عن أفعالهم غير مقدورة لهم ، وإنما المقدور لهم أسبابها التي باشروها ثم قال : ﴿ **ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون** ﴾ فالنفقة وقطع الوادي أفعال مقدورة لهم ، وقال في القسم الأول ﴿ **كتب لهم به عمل صالح** ﴾ إلا أن المتولد حاصل عن شيئين أفعالهم وغيرها ، فليست أفعالهم سبباً مستقلاً في حصول المتولد بل هي جزء من أجزاء السبب فيكتب لهم من ذلك ما كان مقابلاً لأفعالهم . وأيضاً فإن الظمأ والنصب وغيظ العدو ليس من أفعالهم فلا يكتب لهم نفسه ولكن لما تولد عن أفعالهم كتب لهم به عمل صالح وأما القسم الآخر وهو الأفعال المقدورة نفسها كالإنفاق وقطع الوادي فهو عمل صالح فيكتب لهم نفسه إذ هو مقدور لهم ، حاصل بإرادتهم وقدرتهم ، فعاد الثواب إلى الأفعال المقدورة والمتولد عنها . وبالله التوفيق[1] .

قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة : ١٢٢] .

ندب تعالى المؤمنين إلى التفقه في الدين وهو تعلمه وإنذار قومهم إذا رجعوا إليهم وهو التعليم .

وقد اختلف[2] في الآية فقيل المعنى : أن المؤمنين لم يكونوا لينفروا كلهم للتفقه والتعلم بل ينبغي أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة تتفقه تلك الطائفة ، ثم ترجع تعلم القاعدين فيكون النفير على هذا نفير تعلم ، والطائفة تقال على الواحد فما زاد . قالوا : فهو دليل على قبول خبر الواحد . وعلى هذا حملها الشافعي وجماعة .

---

(١) مفتاح دار السعادة (١٩١) .

(٢) راجع تفسير الطبري (١١ / ٦٦) .

وقالت طائفة أخرى المعنى : وما كان المؤمنون لينفروا إلى الجهاد كلهم بل ينبغي أن تنفر طائفة للجهاد ، وفرقة تقعد تتفقه في الدين ، فإذا جاءت الطائفة التي نفرت فقهتها القاعدة وعلمتها ما أنزل من الدين والحلال والحرام . وعلى هذا فيكون قوله ليتفقهوا ولينذروا للفرقة التي نفرت منها طائفة . وهذا قول الأكثرين وعلى هذا فالنفير نفير جهاد على أصله فإنه حيث استعمل إنما يفهم منه الجهاد.

قال الله تعالى : (انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم) [التوبة : ٤١] وقال النبي صلى الله عليه وسلم[١] : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا » . وهذا هو المعروف من هذه اللفظة . وعلى القولين فهو ترغب في التفقه في الدين ، وتعلمه وتعليمه فإن ذلك يعدل الجهاد بل ربما يكون أفضل منه[٢] .

وقال رحمه الله :

قال تعالى : ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة : ١٢٢] .

فأوجب قبول نذارتهم ، وذلك تقليد لهم جوابه من وجوه :

أحدهما : أن الله سبحانه إنما أوجب عليهم قبول ما أنذروهم به من الوحي الذي ينزل في غيبتهم عن النبي صلى الله عليه وسلم في الجهاد، فأين في هذا حجة لفرقة التقليد على تقديم آراء الرجال على الوحي .

الثاني : أن الآية حجة عليهم ظاهرة فإنه سبحانه نوع عبوديتهم وقيامهم بأمره إلى نوعين :

أحدهما : نفير الجهاد .

---

(١) رواه البخاري في مواضع منها :
(٦ / ٢١٩) في الجهاد والسير ، باب : لا هجرة بعد الفتح .
ومسلم (٤ / ٥٢٨) في الإمارة ، باب : المبايعة بعد فتح مكة .. » .
(٢) مفتاح دار السعادة (٦٠ - ٦١) .

والثاني : التفقه في الدين، وجعل قيام الدين بهذين الفريقين، وهم الأمراء والعلماء أهل الجهاد وأهل العلم، فالنافرون يجاهدون عن القاعدين ، والقاعدون يحفظون العلم للنافرين، فإذا رجعوا من نفيرهم استدركوا ما فاتهم من العلم بإخبار من سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهنا للناس في الآية قولان :

أحدهما : أن المعنى : **فهلا نفر من كل فرقة طائفة تتفقه** ، وتنذر القاعدة ، فيكون المعنى في طلب العلم ، وهذا **قول الشافعي**[١] وجماعة من المفسرين . واحتجوا به على قبول خبر الواحد ؛ لأن الطائفة لا يجب أن تكون عدد التواتر .

والثاني : أن المعنى : فلولا نفر من كل فرقة طائفة تجاهد، لتتفقه القاعدة، وتنذر النافرة للجهاد إذا رجعوا إليهم، ويخبرونهم بما نزل بعدهم من الوحي ، وهذا قول الأكثرين وهو الصحيح ؛ لأن النفير إنما هو الخروج للجهاد ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم[٢] : « وإذا استنفرتم فانفروا » .

وأيضاً فإن المؤمنين عام في المقيمين مع النبي صلى الله عليه وسلم والغائبين عنه ، والمقيمون مرادون ولابد ، فإنهم سادات المؤمنين ، فكيف لا يتناولهم اللفظ، وعلى قول أولئك يكون المؤمنون خاصا بالغائبين عنه فقط ، والمعنى : ما كان المؤمنون لينفروا إليه كلهم، فلولا نفر إليه من كل فرقة منهم طائفة ، وهذا خلاف ظاهر لفظ المؤمنين ، وإخراج للفظ النفير عن مفهومه في القرآن والسنة ، وعلى كلا القولين فليس في الآية مايقتضي صحة القول بالتقليد المذموم، بل هي حجة على فساده ، وبطلانه، فإن الإنذار إنما يقوم بالحجة فمن لم تقم عليه الحجة ؛ لم يكن قد أنذر ، كما أن النذير من أقام الحجة فمن لم يأت بحجة فليس بنذير .

فإن سميتم ذلك تقليداً فليس الشأن في الأسماء ، ونحن لا ننكر التقليد بهذا

---

(١) راجع الرسالة للإمام الشافعي رحمه الله تعالى : صـ (٣٦٥ - ٣٦٩) .
وتفسير الطبري (١١ / ٦٦) .
(٢) مضى برقم (١) صـ ٣٨٥ .

المعنى، فسموه ما شئتم وإنما ننكر نصب رجل معين يجعل قوله عياراً على القرآن والسنن، فما وافق قوله منها قبل، وما خالفه لم يقبل ، ويقبل قوله بغير حجة ، ويرد قول نظيره أو أعلم منه،والحجة معه ، فهذا الذي أنكرناه، وكل عالم على وجه الأرض يعلن بإنكاره وذمه وذم أهله(١) .

وقال رحمه الله :

إذا وقع الماضي بعد حرف التخصيص ؛ صلح أيضاً للماضي ، والمستقبل كقوله تعالى : ﴿ **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم** ﴾ [التوبة : ١٢٢] .

والصواب أن الماضي ههنا باق على وضعه لم يتغير عنه ، كقوله تعالى : (فلولا كان من القرون أولوا بقية) ويقول هلا اتقيت الله فيما أتيت والآية إنما أنزلت في غزوة تبوك في سياق ذم المتخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر تعالى أن المؤمنين لم يكونوا لينفروا كافة ثم وبخهم توبيخاً متضمناً للحض على أن ينفر بعضهم ، ويقعد بعضهم .

وأصح القولين أنه ينفر منهم طائفة في السرايا والبعوث ، وتقعد طائفة تتفقه في الدين ، فتنذر القاعدة الطائفة النافرة إذا رجعت إليهم ، وتخبرهم بما نزل بعدهم من الحلال والحرام ، والأحكام لوجوه :

أحدها : أن الآية إنما هي في سياق النفير في الجهاد ، وتوبيخ القاعدين عنه .

الثاني : أن النفير إنما يكون في الغزو ، ولا يقال لمن سافر في طلب العلم إنه نفر ولا استنفر ، ولا يقال للسفر فيه نفير .

الثالث : أن الآية تكون قد اشتملت على بيان حكم النافرين والقاعدين وعلى بيان اشتراكهم في الجهاد والعلم . فالنافرون أهل الجهاد ، والقاعدون أهل التفقه . والدين إنما يتم بالجهاد والعلم فإذا اشتغلت طائفة بالجهاد ، وطائفة بالتفقه

(١) إعلام الموقعين (٢ / ٢٥٢ - ٢٥٣) .

في الدين ثم يعلم أهل الفقه المجاهدين إذا رجعوا إليهم ؛ حصلت المصلحة بالعلم والجهاد وهذا الأليق بالآية والأكمل لمعناها ، وأما إذا جعل النفير فيها نفيراً لطلب العلم لم يكن فيها تعرض للجهاد مع إخراج النفير عن موضعه ، والذي أوجب لهم دعوى أن النفير في طلب العلم أنهم رأوا الضمير إنما يعود على المذكور القريب فالمنذرون هم النافرون وهم المتفقهون . وجواب هذا أن الضمير إنما يرجع إلى الأقرب عند سلامته من معارض يقتضي الأبعد وقد بينا أن السياق يقتضي أن القاعد هو المتفقه المنذر للنافر الراجع ، والمقصود أن « نفر » في الآية ماض ، وإنما يفهم منه الاستقبال لأن التحضيض يؤذن به .

والتحقيق في هذا الموضع أن لفظة « لولا » « وهلا » إن تجردا للتوبيخ لم يتغير الماضي عن وضعه ، وإن تجردا للتحضيض تغير إلى الاستقبال ، وإن كان توبيخاً مشرباً معنى التحضيض صلح للأمرين وإن وقع بعد « كلما » جاز أن يراد به الماضي كقوله تعالى : (كلما جاء أمة رسولها كذبوه) [المؤمنون : ٤٤] . وإن يراد به الاستقبال كقوله : (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها) [النساء : ٥٦][(١)] .

وأما الصرف فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٧] .

فأخبر سبحانه عن فعلهم ، وهو الانصراف ، وعن فعله فيهم ، وهو صرف قلوبهم عن القرآن وتدبره ؛ لأنهم ليسوا أهلاً لها ، فالمحل غير صالح ولا قابل . فإن صلاحية المحل بشيئين : حسن فهم ، وحسن قصد . وهؤلاء قلوبهم لا تفقه ، وقصودهم سيئة ، وقد صرح سبحانه بهذا في قوله : (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) [الأنفال : ٢٣] . فأخبر سبحانه عن عدم قابلية الإيمان فيهم ، وأنهم لا خير فيهم يدخل الإيمان بسببه إلى قلوبهم فلم يسمعهم سماع إفهام ينتفعون به ، وإن سمعوه سماعاً تقوم به عليهم

(١) بدائع الفوائد (٤ / ١٨٩ - ١٩٠) .

حجته ، فسماع الفهم الذي سمعه به المؤمنون لم يحصل لهم . ثم أخبر سبحانه عن مانع آخر قام بقلوبهم يمنعهم من الإيمان لو أسمعهم هذا السماع الخاص ، وهو الكبر والتولي والإعراض .

فالأول : مانع من الفهم .

والثاني : مانع من الانقياد والإذعان .

فأفهامهم سيئة ، وقصودهم رديئة ، وهذه سمة الضلال وعلم الشقاء . كما أن سمة الهدى وعلم السعادة فهم صحيح ، وقصد صالح . والله المستعان .

وتأمل قوله سبحانه : ﴿ **ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم** ﴾ كيف جعل هذه الجملة الثانية – سواء كانت خبراً أو إعادة – عقوبة لانصرافهم فعاقبهم عليه بصرف آخر غير الصرف الأول .

فإن انصرافهم كان لعدم إرادته سبحانه ومشيئته لإقبالهم ؛ لأنه لا صلاحية فيهم ولا قبول ، فلم ينلهم الإقبال والإذعان ؛ فانصرفت قلوبهم بما فيها من الجهل والظلم عن القرآن . فجازاهم على ذلك صرفاً آخر غير الصرف الأول ، كما جازاهم على زيغ قلوبهم عن الهدى إزاغة غير الزيغ الأول ، كما قال : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) [الصف : ٥] . وهكذا إذا أعرض العبد عن ربه سبحانه جازاه بأن يعرض عنه ، فلا يمكنه من الإقبال عليه ، ولتكن قصة إبليس منك على ذكر تنتفع بها أتم انتفاع. فإنه لما عصى ربه تعالى ، ولم ينقد لأمره ، وأصر على ذلك ؛ عاقبه بأن جعله داعياً إلى كل معصية . فعاقبه على معصيته الأولى بأن جعله داعياً إلى كل معصية وفروعها، صغيرها وكبيرها . وصار هذا الإعراض والكفر منه عقوبة لذلك الإعراض والكفر السابق . فمن عقاب السيئة السيئة بعدها . كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها .

فإن قيل : فكيف يلتئم إنكاره سبحانه عليهم الانصراف ، والإعراض عنه ، وقد قال تعالى : (أنى يصرفون) [غافر : ٦٩] . و (أنى يؤفكون) [المائدة : ٧٥] . وقال : (فما لهم عن التذكرة معرضين) [المدثر : ٤٩] . فإذا كان هو الذي

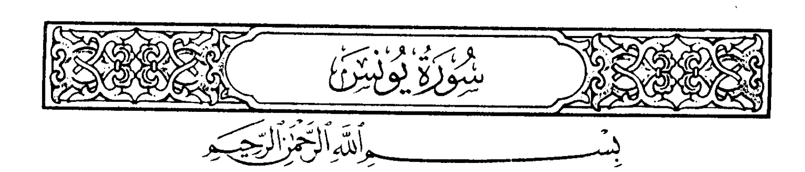
صرفهم وجعلهم معرضين ومأفوكين ، فكيف ينفى ذلك عليهم ؟

قيل : هم دائرون بين عدله وحجته عليهم ، فمكنهم وفتح لهم الباب ، ونهج لهم الطريق ، وهيأ لهم الأسباب .فأرسل إليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه ، ودعاهم على ألسنة رسله ، وجعل لهم عقولا تميز بين الخير والشر ، والنافع والضار ، وأسباب الردى وأسباب الفلاح . وجعل لهم أسماعاً وأبصاراً ، فآثروا الهوى ، على التقوى ، واستحبوا العمى على الهدى ، وقالوا : معصيتك آثر عندنا من طاعتك ، والشرك أحب إلينا من توحيدك ، وعبادة سواك أنفع لنا في دنيانا من عبادتك . فأعرضت قلوبهم عن ربهم وخالقهم ومليكهم ، وانصرفت عن طاعته ومحبته . فهذا عدله فيهم ، وتلك حجته عليهم ، فهم سدوا على أنفسهم باب الهدى إرادة منهم واختياراً ، فسده عليهم اضطراراً . فخلاهم وما اختاروا لأنفسهم ، وولاهم ما تولوه ، ومكنهم فيما ارتضوه ، وأدخلهم من الباب الذي استبقوا إليه ، وأغلق عنهم الباب الذي تولوا عنه ، وهم معرضون . فلا أقبح من فعلهم ، ولا أحسن من فعله . ولو شاء لخلقهم على غير هذه الصفة ، ولأنشأهم على غير هذه النشأة ، ولكنه سبحانه خالق العلو والسفل ، والنور والظلمة ، والنافع والضار ، والطيب والخبيث والملائكة والشياطين ، والشاء والذياب ، ومعطيها آلاتها وصفاتها وقواها وأفعالها ومستعملها فيما خلقت له . فبعضها بطباعها ، وبعضها بإرادتها ومشيئتها ، وكل ذلك جار على وفق حكمته ، وهو موجب حمده ، ومقتضى كماله المقدس ، وملكه التام ، ولا نسبة لما علمه الخلق من ذلك إلى ما خفي عليهم بوجه ما ، إن هو إلا كنقرة عصفور من البحر[1] .

* * *

(١) شفاء العليل (٩٧ - ٩٨) .

سُورَةُ يُونُسَ



قال ابن عباس في رواية الوالبي[1] عنه في قوله : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس : ٢] . قال : سبقت لهم السعادة في الذكر الأول وهذا لا يخالف قول من قال إنه الأعمال الصالحة التي قدموها ، ولا قول من قال إنه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فإنه سبق لهم من الله في الذكر الأول السعادة بأعمالهم على يد محمد صلى الله عليه وسلم فهو خير تقدم لهم من الله ثم قدمه لهم على يد رسوله ، ثم يقدمهم عليه يوم لقائه[2] .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ [يونس : ١١] .

قال السلف[3] : هو دعاء الإنسان على نفسه وولده وأهله في حال الغضب ولو استجابه الله تعالى لأهلكه وأهلك من يدعو عليه ولكنه لا يستجيبه لعلمه بأن الداعي لم يقصده[4] .

وقال رحمه الله تعالى :

قال السلف هو دعاء الإنسان على نفسه وولده وأهله حال الغضب لو أجابه الله تعالى لأهلك الداعي ومن دعي عليه فقضى إليهم أجلهم ، وقد قال جماعة

---

(١) راجع تفسير الطبري (١١ / ٨٠) .

(٢) شفاء العليل (٢٨) .

(٣) تفسير الطبري (١١ / ٩٢) .

(٤) إعلام الموقعين (٣ / ٧٠) .

من الأئمة : الإغلاق الذي منع[١] النبي صلى الله عليه وسلم من وقوع الطلاق والعتاق فيه هو الغضب هذا كما قالوه ، فإن للغضب سكراً كسكر الخمر أو أشد[٢] .

وقال رحمه الله تعالى :-

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ [يونس : ١١] .

قال السلف في تفسيرها : هو الرجل يدعو على نفسه وأهله في وقت الغضب من غير إرادة منه لذلك ، فلو استجاب الله دعاءه لأهلكه وأهلك من دعا عليه ، ولكن لرحمته لما علم أن الحامل له على ذلك سكر الغضب لا يجيب دعاءه ، ومن هذا قول الواجد لراحلته بعد يأسه منها ، وإيقانه بالهلاك اللهم أنت عبدى وأنا ربك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[٣] « أخطأ من شدة الفرح » ولم يكن بذلك كافراً لعدم قصده وذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك تحقيقاً لشدة الفرح الذي أفضى به إلى ذلك[٤] .

---

(١) يشير إلى الحديث الذي ورد بلفظ « لا طلاق ، ولا عتاق في إغلاق » .
رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٦ / ٢٧٦) .
وابن ماجه (١ / ٣٤٨) صحيح ابن ماجه .
وأبو داود (٦ / ٢٦١) في الطلاق ، باب في الطلاق على غلط (على غضب) .
ورواه الحاكم (٢ / ١٩٨) وقال : صحيح على شرط مسلم وتعقبه الذهبي بقوله : (محمد بن عبيد لم يحتج به مسلم ، وقال أبو حاتم ضعيف) .
ورواه الدارقطني في سننه (٤ / ٣٦) .
والبيهقي (٧ / ٣٥٧) .
وحسنه الشيخ الألباني كما في الإرواء (٧ / ١١٣) . والله أعلم .

(٢) إعلام الموقعين (٣ / ١٤٢) .

(٣) رواه البخاري (١١ / ١٠٥) في الدعوات ، باب : التوبه .
ومسلم (٥ / ٥٩١) في التوبة .

(٤) روضة المحبين (١٥٤) .

قال الله تعالى : ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس : ١٦] .

فتأمل هاتين الحجتين القاطعتين تحت هذا اللفظ الوجيز :

إحداهما : أن هذا من الله لا من قبلي ولا هو مقدور لي ، ولا من جنس مقدور البشر ، وأن الله سبحانه وتعالى لو شاء لأمسك عنه قلبي ولساني وأسماعكم وأفهامكم فلم أتمكن من تلاوته عليكم ، ولم تتمكنوا من درايته وفهمه .

الحجة الثانية : أني قد لبثت فيكم عمري إلى حين أتيتكم به ، وأنتم تشاهدوني وتعرفون حالي وتصحبوني حضراً وسفراً ، وتعرفون دقيق أمري وجليله وتتحققون سيرتي هل كانت سيرة من هو من أكذب الخلق، وأفجرهم وأظلمهم فإنه لا أكذب ولا أظلم ولا أقبح سيرة ممن جاهر ربه وخالفه بالكذب ، والفرية عليه وطلب إفساد العالم ، وظلم النفوس والبغي في الأرض بغير الحق. هذا وأنتم تعلمون أني لم أكن أقرأ كتاباً ولا أخطه بيميني ، ولا صاحبت من أتعلم منه بل صحبتكم أنتم في أسفاركم لمن تتعلمون منه ، وتسألونه عن أخبار الأمم والملوك وغيرها مالم أشارككم فيه بوجه. ثم جئتكم بهذا النبأ العظيم الذي فيه علم الأولين والآخرين، وعلم ما كان و [ما] سيكون على التفصيل فأي برهان أوضح من هذا وأي عبارة أفصح وأوجز من هذه العبارة المتضمنة له[1] .

قال تعالى : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس : ١٨] .

فبين سبحانه أن المتخذين شفعاء مشركون، وأن الشفاعة لا تحصل باتخاذهم هم ، وإنما تحصل بإذنه للشافع ، ورضاه عن المشفوع له . وسر الفرق بين الشفاعتين : أن شفاعة المخلوق للمخلوق ، وسؤاله للمشفوع عنده ، لا يفتقر فيها إلى المشفوع عنده ، لا خلقاً ولا أمراً ولا إذناً بل هو سبب محرك له من

(١) الصواعق المرسلة (٢ / ٤٧٠ - ٤٧٢) .

خارج كسائر الأسباب التي تحرك الأسباب ، وهذا السبب المحرك قد يكون عند المتحرك لأجله ما يوافقه ، كمن يشفع عنده في أمر يحبه ويرضاه وقد يكون عنده ما يخالفه ، كمن يشفع إليه في أمر يكرهه ، ثم قد يكون سؤاله وشفاعته أقوى من المعارض فيقبل شفاعة الشافع ، وقد يكون المعارض الذي عنده أقوى من شفاعة الشافع فيردها ولا يقبلها ، وقد يتعارض عنده الأمران فيبقى متردداً بين ذلك المعارض الذي يوجب الرد وبين الشفاعة التي تقتضي القبول فيتوقف إلى أن يترجح عنده أحد الأمرين بمرجح ، فشفاعة الإنسان عند المخلوق مثله هي سعي في سبب منفصل عن المشفوع إليه يحركه به، ولو على كره منه، فمنزلة الشفاعة عنده منزلة من يأمر غيره أو يكرهه على الفعل، إما بقوة وسلطان ، وإما بما يرغبه فلابد أن يحصل للمشفوع إليه من الشافع ، إما رغبة ينتفع بها ، وإما رهبة منه تندفع عنه بشفاعته ، وهذا بخلاف الشفاعة عند الرب سبحانه فإنه ما لم يخلق شفاعة الشافع ، ويأذن له فيها، ويحبها منه، ويرضى عن الشافع، لم يكن أن توجد ، والشافع لا يشفع عنده لحاجة الرب إليه، ولا لرهبته منه ولا لرغبته فيما لديه، وإنما يشفع عنده مجرد امتثال لأمره وطاعة له. فهو مأمور بالشفاعة ، مطيع بامتثال الأمر فإن أحداً من الأنبياء والملائكة وجميع المخلوقات لا يتحرك بشفاعة ولا غيرها إلا بمشيئة الله تعالى، وخلقه. فالرب سبحانه وتعالى هو الذي يحرك الشفيع حتى يشفع ، والشفيع عند المخلوق هو الذي يحرك المشفوع إليه حتى يقبل ، والشافع عند المخلوق مستغن عنه في أكثر أموره وهو في الحقيقة شريكه ولو كان مملوكه وعبده فالمشفوع عنده محتاج إليه فيما يناله منه من النفع بالنصر ، والمعاونة. وغير ذلك كما أن الشافع محتاج إليه فيما يناله منه : من رزق أو نصر أو غيره فكل منهما محتاج إلى الآخر ومن وفقه الله تعالى لفهم هذا الموضع ومعرفته ؛ تبين له حقيقة التوحيد والشرك والفرق بين ما أثبته الله تعالى من الشفاعة ، وبين ما نفاه وأبطله ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور[1] .

---

(١) إغاثة اللهفان (١ / ٢٢٢ - ٢٢٣) .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس : ١٨] . الآية فهذا نفي لما ادعوه من الشفعاء بنفي علم الرب تعالى بهم المستلزم لنفي المعلوم ، ولا يمكن أعداء الله المكابرة ، وأن يقولوا قد علم الله وجود ذلك ، لأنه تعالى إنما يعلم وجود ما أوجده وكونه ، ويعلم أنه سيوجد ما يريد إيجاده فهو يعلم نفسه وصفاته ويعلم مخلوقاته التى دخلت في الوجود ، وانقطعت ، والتي دخلت في الوجود وبقيت ، والتي لم توجد بعد .

وأما شيء آخر غير مخلوق له ولا مربوب فالرب تعالى لا يعلمه ؛ لأنه مستحيل في نفسه فهو يعلمه مستحيلا لا يعلمه واقعا إذ لو علمه واقعا ؛ لكان العلم به عين الجهل ، وذلك من أعظم المحال فهذه حجج الرب تبارك وتعالى على بطلان ما نسبه إليه أعداؤه المفترون عليه ، فوازن بينها وبين حجج المتكلمين الطويلة العريضة التي هي كالضريع الذي لا يسمن ولا يغني من جوع فإذا وازنت بينهما ظهرت لك المفاضلة إن كنت بصيرا ، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، فالحمد لله الذي أغنى عباده المؤمنين بكتابه ، وما أودعه من حججه وبيناته عن شقاشق المتكلمين وهذيانات المتهوكين ، فلقد عظمت نعمة الله على عبد أغناه بفهم كتابه عن الفقر إلى غيره : (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون)[1] [العنكبوت : ٥١].

قول الله تعالى :﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس : ٢٤] .

شبه الله سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر فتروقه بزينتها

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٥٥) .

وتعجبه ، فيميل إليها ، ويهواها ، اغتراراً منه بها ، حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها سُلبها بغتة أحوج ما كان إليها ، وحيل بينه وبينها ، فشبهها بالأرض التي ينزل الغيث عليها ، فتعشب ويحسن نباتها ، ويروق منظرها للناظر ، فيغتر بها ، ويظن أنه قادر عليها مالك لها ، فيأتيها أمر الله فتدرك نباتها الآفة بغتة ؛ فتصبح كأن لم تكن قبل ، فيخيب ظنه ، وتصبح يداه منها صفراً .

فهكذا حال الدنيا والواثق بها سواء ، وهذا من أبلغ التشبيه والقياس .

ولما كانت الدنيا عرضة لهذه الآفات والجنة سليمة منها ، قال : (وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ) [يونس : ٢٥] . فسماها هنا دار السلام ، لسلامتها من هذه الآفات التي ذكرها في الدنيا، فعم بالدعوة إليها وخص بالهداية لها من يشاء. فذاك عدله، وهذا فضله[1] .

قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [يونس : ٢٥-٢٦] .

فالحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجهه الكريم ، كذلك فسرها رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أنزل عليه القرآن ، فالصحابة من بعده ، كما روى مسلم في صحيحه من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب قال[2] : « **قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى منادٍ يا أهل** الجنة إن لكم عند الله موعداً ويريد أن ينجزكموه، فيقولون : ما هو : ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار؟ فيكشف الحجاب فينظرون إلى الله فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه وهي الزيادة » .

---

(١) إعلام الموقعين (١ / ٢٠٣) .

(٢) رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٦ / ١٥) .

رواه مسلم (١ / ٤٢٦) في الإيمان ، باب : إثبات رُؤية المؤمنين في الآخرة لربهم .

والترمذي (٤ / ٥٩٣) في صفة الجنة ، باب : ما جاء في رُؤية الرب تبارك وتعالى .

وقال الحسن بن عرفة حدثنا مسلم بن سالم البلخي عن نوح بن أبي مريم عن ثابت بن أنس قال[1] : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال : للذين أحسنوا العمل في الدنيا الحسنى وهي الجنة ، والزيادة وهي النظر إلى وجه الله » .

وقال محمد بن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا إبراهيم بن المختار عن ابن جريج عن عطاء عن كعب بن عجرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال[2]: « الزيادة النظر إلى وجه الرحمن جل جلاله » .

قلت : عطاء هذا هو الخراساني ، وليس عطاء بن أبي رباح .

قال ابن جرير[3]: حدثنا ابن عبد الرحيم ، حدثنا عمرو بن أبي سلمة، قال : سمعت زهيراً قال : يعقوب بن سفيان : حدثنا صفوان بن صالح حدثنا

---

(١) في سنده « نوح بن أبي مريم » :
كذبوه في الحديث ، وقال ابن المبارك : كان يضع .
وقال البخاري : منكر الحديث .
راجع تهذيب التهذيب (١٠ / ٤٨٧) .
وميزان الاعتدال (٤ / ٢٧٩) .
وراجع الدر المنثور (٤ / ٣٥٧) .

(٢) تفسير الطبري (١١ / ١٠٧) .
« إبراهيم بن المختار ، التميمي ، أبو إسماعيل الرازي .. صدوق ضعيف الحفظ » .
قال ابن معين : ليس بذاك ، وقال البخاري : فيه نظر .
تهذيب التهذيب (١ / ١٦٢) .
وعطاء الخراساني يروي مرسلاً عن الصحابة فالخبر ضعيف الإسناد .

(٣) تفسير الطبرى (١١ / ١٠٧) .
وفيه « حدثنا ابن البرقي » .
وهو أحمد بن عبد الرحيم ، أو ابن عبد الله بن عبد الرحيم الإمام الحافظ الصادق أبو بكر .
سير أعلام النبلاء (١٣ / ٤٧) .
وهذا سند ضعيف لجهالة الراوي عن أبي العالية .
وقال ابن كثير : « ورواه ابن أبي حاتم .. » (٢ / ٤٤٤) .

الوليد بن مسلم حدثنا زهير بن محمد قال : حدثني من سمع أبا العالية الرياحي يحدث عن أبي بن كعب قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزيادة في كتاب الله عز وجل في قوله تعالى : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال الحسنى : « الجنة والزيادة : النظر إلى وجه الله عز وجل » .

وقال أسد السنة[١]: حدثنا قيس بن الربيع عن أبان عن أبي تميمة الهجيمي أنه سمع أبا موسى الأشعري يحدث أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يبعث الله عز وجل يوم القيامة منادياً ينادي يا أهل الجنة بصوت يسمع أولهم وآخرهم إن الله وعدكم الحسنى، والحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل » .

وقال ابن وهب أخبرني شبيب عن أبان عن أبي تميمة الهجيمي أنه سمع أبا موسى الأشعري يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] « إن الله عز وجل يأمر يوم القيامة منادياً ينادي : يا أهل الجنة بصوت يسمع أولهم وآخرهم : إن الله وعدكم الحسنى ، وزيادة، الحسنى : الجنة والزيادة : النظر إلى وجه الرحمن » .

وأما الصحابة :

فقال ابن جرير[٣]: حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الرحمن — هو ابن

---

(١) خبر هالك الإسناد .
« أبان » هو « ابن أبي عياش » متروك .
ورواه الطبري (١٥ / ٦٥) طبعة أحمد شاكر .
(٢) كسابقه .
(٣) تفسير الطبري (١٥ / ٦٣) بتحقيق أحمد شاكر « أبو إسحاق » هو « السبيعي ، عمرو بن عبد الله ، ثقة عابد ، روى له الجماعة . ولكنه مدلس ، وقد عنعنه » .
و « عامر بن سعد » تابعي ثقة .
وروايته عن الصديق مرسلة .
التهذيب (٥ / ٦٤) .
ورواه الآجري في الشريعة (٢٥٧) .

مهدي - حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عامر بن سعد ، عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه : (للذين أحسنوا الحسنى) قال : «النظر إلى وجه الله الكريم».

وبهذا الإسناد عن أبي إسحاق عن مسلم بن نُذير عن حذيفة (للذين أحسنوا الحسنى) قال : « النظر إلى وجه ربهم تعالى »[1] .

وحدثنا[2] علي بن عيسى حدثني شبابة حدثنا أبو بكر الهذلي قال : سمعت أبا تميمة الهجيمي يحدث عن أبي موسى الأشعري قال : « إذا كان يوم القيامة يبعث الله تعالى إلى أهل الجنة مناديًا ينادي : هل أنجزكم الله ما وعدكم ؟ فينظرون إلى ما أعد لهم من الكرامة فيقولون نعم فيقول : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) النظر إلى وجه الرحمن عز وجل » .

وقال عبد الله[3] بن المبارك عن أبي بكر الهذلي : أنبأنا أبو تميمة قال : سمعت أبا موسى الأشعري يخطب الناس في جامع البصرة ويقول : إن الله تعالى يبعث يوم القيامة ملكاً إلى أهل الجنة فيقول : يا أهل الجنة هل أنجزكم الله ما وعدكم ؛ فينظرون فيرون الحلي والحلل والأنهار والأزواج المطهرة فيقولون : نعم قد أنجزنا الله ما وعدنا ، ثم يقول الملك : هل أنجزكم الله ما وعدكم ثلاث مرات ؟ فلا يفقدون شيئاً مما وعدوا فيقولون : نعم ، فيقول : قد بقي لكم شيء إن الله عز وجل يقول : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) ألا إن الحسنى الجنة ، والزيادة

= وانظر الدر المنثور (٤ / ٣٥٩) .

وصححه الألباني في السنة (١ / ٢٠٦) .

(١) رواه الطبري (١٥ / ٦٤) . أحمد شاكر . ومسلم بن نُذَير ويقال « ابن يزيد » « لا بأس به » . التهذيب (١٠ / ١٣٩) .

ورواه ابن أبي عاصم كما في السنة (١ / ٢٠٦) ووقع فيها « مسلم بن ندير » بالدال والذي في التهذيب « نذير » .

وكذا الثقات لابن حبان (٥ / ٣٩٨) .

والتاريخ الكبير (٤ / ١ / ٢٧٣) .

(٢) تفسير الطبري (١٥ / ٦٤) .

وقال المحقق « أبو بكر الهذلي » ضعيف بمرة . وهذا خبر ضعيف الإسناد .. » .

(٣) تفسير الطبري (١٥ / ٦٤،٦٥) وقال المحقق « ضعيف ... » .

النظر إلى وجه الله تعالى .

وفي تفسير أسباط بن نصر عن إسماعيل السدي عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني وعن ابن مسعود : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة) قال : أما الحسنى فالجنة ، وأما الزيادة فالنظر إلى وجه الله ، وأما القتر فالسواد .

وقال عبد الرحمن[١] بن أبي ليلى وعامر بن سعد وإسماعيل بن عبد الرحمن السدي والضحاك بن مزاحم، وعبد الرحمن بن سابط، وأبو إسحاق السبيعي، وقتادة وسعيد بن المسيب والحسن البصري، وعكرمة مولى ابن عباس، ومجاهد بن جبير : الحسنى الجنة والزيادة : النظر إلى وجه الله تعالى .

وقال غير واحد[٢] من السلف في الآية (ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة) بعد النظر إليه .

والأحاديث عنهم بذلك صحيحة ، ولما عطف سبحانه الزيادة على الحسنى التي هي الجنة دل على أنها أمر آخر وراء الجنة ، وقدر زائد عليها ومن فسر الزيادة بالمغفرة والرضوان فهو من لوازم رؤية الرب تبارك وتعالى[٣] .

فإن قيل : فهل يظهر فرق بين قوله تعالى في سورة يونس : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ [يونس ٣١] . وبين قوله في : (قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله) [سبأ : ٢٤] .

قيل : هذا من أدق هذه المواضع وأغمضها ، وألطفها فرقاً . فتدبر السياق

(١) راجع تفسير الطبري (١٥ / ٦٢) المحقق .
والدر المنثور (٤ / ٣٥٦) .
وانظر باب قول الله عز وجل: (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) في كتاب (البعث والنشور) للبيهقي (٢٦١).
(٢) تفسير الطبري (١٥ / ٧٢) المُحقق .
والدر المنثور (٤ / ٣٦٠) .
(٣) حادي الأرواح (٢٣١ - ٢٣٤) .

تجده نقيضاً لما وقع ، فإن الآيات التي في يونس سيقت مساق الاحتجاج عليهم بما أقروا به ، و لم يمكنهم إنكاره من كون الرب تعالى هو رازقهم ، ومالك أسماعهم وأبصارهم ، ومدبر أمورهم وغيرها . ومخرج الحي من الميت ، والميت من الحي .

فلما كانوا مقرين بهذا كله حسن الاحتجاج به عليهم : أن فاعل هذا هو الله الذي لا إله غيره . فكيف يعبدون معه غيره ويجعلون له شركاء لا يملكون شيئاً من هذا ، ولا يستطيعون فعل شيء منه ولهذا قال بعد أن ذكر ذلك من شأنه تعالى : ﴿ **فسيقولون الله** ﴾ أي لابد أنهم يقرون بذلك ، ولا يجحدونه . فلابد أن يكون المذكور مما يقرون به .

والمخاطبون المحتج عليهم بهذه الآية إنما كانوا مقرين بنزول الرزق من قبل هذه السماء التي يشاهدونها بالحس، و لم يكونوا مقرين ولا عالمين بنزول الرزق من سماء إلى سماء ، حتى تنتهي إليهم ، و لم يصل علمهم إلى هذا. فأفردت لفظ السماء هنا ، فإنهم لا يمكنهم إنكار مجيء الرزق منها ، لا سيما والرزق ههنا إن كان هو المطر فمجيئه من السماء التي هي السحاب ، فإنه يسمى سماء لعلوه . وقد أخبر سبحانه أنه بسط السحاب في السماء بقوله : (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء) [الروم : ٤٨] . والسحاب إنما هو مبسوط في جهة العلو ، لا في نفس الفلك . وهذا معلوم بالحس ، فلا يلتفت إلى غيره . فلما انتظم هذا بذكر الاحتجاج عليهم ؛ لم يصلح فيه إلا إفراد السماء ، لأنهم لا يقرون بما ينزل من فوق ذلك من الأرزاق العظيمة للقلوب والأرواح . ولابد من الوحي الذي به الحياة الحقيقية الأبدية . وهو أولى باسم الرزق من المطر الذي به الحياة الفانية المنقضية . فما ينزل من فوق ذلك من الوحي والرحمة والألطاف والمواد الربانية ، والتنزلات الإلهية ، وما به قوام العالم العلوي والسفلي من أعظم أنواع الرزق . ولكن القوم لم يكونوا مقرين به ، فخوطبوا بما هو أقرب الأشياء إليهم ، بحيث لا يمكنهم إنكاره .

أما الآية التي في سبأ: فلم ينتظم بها ذكر إقرارهم بما ينزل من السموات ولهذا أمر رسوله بأن يتولى الجواب فيها ، و لم يذكر عنهم أنهم المجيبون المقرون

فقال : ﴿ **قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله** ﴾ ولم يقل : سيقولون الله . فأمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجيب بأن ذلك هو الله وحده الذي ينزل رزقه على اختلاف أنواعه ومنافعه من السموات السبع . وأما الأرض فلم يدع السياق إلى جمعها في واحدة من الاثنين إذ يقر به كل أحد مؤمن وكافر وبر وفاجر[1].

قوله تعالى : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ [يونس : ٣٢] . فالآية إنما سيقت في الكلام على من يعبد غير الله ، ويشرك به قال تعالى : ﴿ **قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون** ﴾ [يونس : ٣١-٣٢] . [فمن]عبد غير الله فما عبد إلا الضلال المحض، والباطل البحت، وأما من عبد الله بأمره وكان -في مقام التمييز بين محابه ومساخطه مفرقاً بينهما يحب هذا ويبغض هذا ناظراً بقلبه إلى ربه ، عاكفاً بهمته عليه، منفذاً لأوامره فهو مع الحق المحض ، والله أعلم[2] .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس : ٣٩] .

فأخبر أن من قبل المكذبين أصل يعتبر به،والفرع نفوسهم ، فإذا ساووهم في المعنى ، ساووهم في العاقبة[3] .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٥٧] .

فهو شفاء لما في الصدور من مرض الجهل والغي ، فإن الجهل مرض شفاؤه

(١) بدائع الفوائد (١ / ١١٧ - ١١٨) .
(٢) طريق الهجرتين (٣٢٤) .
(٣) إعلام الموقعين (١ / ١٨٠ - ١٨٦) .

العلم والهدى ، والغي مرض شفاؤه الرشد وقد نزه الله سبحانه نبيه عن هذين الداءين فقال : (والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى) [النجم : ١-٢] . ووصف رسوله صلى الله عليه وسلم خلفاءه بضدهما فقال[1] « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي » وجعل كلامه سبحانه موعظة للناس عامة وهدى ورحمة لمن آمن به خاصة ، وشفاء تاماً لما في الصدور فمن استشفى به ؛ صح وبرىء من مرضه ، ومن لم يستشف به فهو كما قيل :

إذا بلَّ من داء به ظن أنه نجا وبه الداء الذي هو قاتله[2]

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿ **يأأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون** ﴾ [يونس : ٥٧-٥٨] .

قال أبو سعيد الخدري: «فضل الله: القرآن، ورحمته: أن جعلكم من أهله».

وقال هلال بن يساف « بالإسلام الذي هداكم إليه ، وبالقرآن الذي علمكم إياه ، هو خير مما تجمعون : من الذهب والفضة » .

وكذلك قال ابن عباس والحسن وقتادة :«فضله الإسلام ، ورحمته القرآن» وقالت طائفة من السلف « فضله القرآن ورحمته الإسلام »[3] .

---

(١) حديث صحيح – نفعنا الله به .
رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٤ / ١٢٦ – ١٢٧) .
وأبو داود (١٣ / ٣٥٨) في السنة ، باب في لزوم السنة .
والترمذي (٢ / ٣٤١) صحيح سنن الترمذي في العلم ، باب : الأخذ بالسنة .
وابن ماجه (١ / ١٣) صحيح ابن ماجه في المقدمة ، باب اتباع سنة الخلفاء
والحاكم (١ / ٩٦) وقال الذهبي : على شرطهما ولا أعرف له علة .
وانظر الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم (٦ / ٧٦) .
وسلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (٩٣٧) .

(٢) إغاثة اللهفان (١ / ١٥ – ١٦) .

(٣) راجع تفسير الطبري (١١ / ١٢٤) .

والتحقيق : أن كلًا منهما فيه الوصفان ، الفضل والرحمة ، وهما الأمران اللذان امتن الله بهما على رسوله عليه الصلاة والسلام فقال : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان) [الشورى : ٥٢] . والله سبحانه إنما رفع من رفع بالكتاب والإيمان ، ووضع من وضع بعدهما فإن قيل : فقد وقع تسمية ذلك تكليفاً في القرآن كقوله : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) [البقرة : ٢٨٦] . وقوله : (لا نكلف نفساً إلا وسعها) [الأنعام : ١٥٢] .

قيل : نعم إنما جاء ذلك في جانب النفي ، ولم يسم سبحانه أوامره ووصاياه وشرائعه تكليفاً قط بل سماها روحاً ونوراً ، وشفاء وهدى ورحمة وحياة وعهداً ووصية ونحو ذلك[1] .

وقال أيضاً رحمه الله :

وأغنانا بالفرح بفضله ورحمته – وهما القرآن والإيمان – عن الفرح بما يجمعه أهل الدنيا من المتاع والعقار والأثمان ، فقال تعالى : ﴿ **قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون** ﴾[2] .

وقال رحمه الله تعالى :

ففضله : الإسلام والإيمان ، ورحمته : العلم والقرآن ، وهو يحب من عبده : أن يفرح بذلك ويسر به . بل يحب من عبده : أن يفرح بالحسنة إذا عملها ، وأن يسر بها ، وهو في الحقيقة فرح بفضل الله ، حيث وفقه الله لها ، وأعانه عليها ، ويسرها له ، ففي الحقيقة : إنما يفرح العبد بفضل الله وبرحمته[3] .

= والدر المنثور (٤ / ٣٦٦) .

وانظر رقم (١٧٧) من تخريج الحافظ ابن حجر على الكشاف (٤ / ٨٤) .

(١) إغاثة اللهفان (١ / ٣١ – ٣٢) .

(٢) إغاثة اللهفان (٢ / ٧٠) .

(٣) مدارج السالكين (١٠٦/٣). واجتماع الجيوش (٣) والفوائد (١٣١) راجع مفتاح دار السعادة (٥٦).

وقال رحمه الله تعالى أيضاً :

قال الله تعالى ذكره : ﴿ **قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون** ﴾ [يونس : ٥٨] .

تصدير الباب[1] بهذه الآية في غاية الحسن ، فإن الله تعالى أمر عباده بالفرح بفضله ورحمته ، وذلك تبع للفرح والسرور بصاحب الفضل والرحمة ، فإن من فرح بما يصل إليه من جواد كريم محسن بر ، يكون فرحه بمن أوصل ذلك إليه أولى وأحرى ، ونذكر ما في هذه الآية من المعنى. ثم نشرح كلام المصنف .

قال ابن عباس وقتادة ومجاهد والحسن وغيرهم : (فضل الله الإسلام) و « رحمته » القران ، فجعلوا « رحمته » أخص من « فضله » . فإن فضله الخاص على أهل الإسلام ، ورحمته بتعليم كتابه لبعضهم دون بعض ، فجعلهم مسلمين بفضله ، وأنزل إليهم كتابه برحمته . قال تعالى : (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) [القصص : ٨٦]. وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: «فضل الله القرآن ورحمته أن جعلنا من أهله » .

قلت : يريد بذلك أن ههنا أمرين :

أحدهما : الفضل في نفسه .

والثاني : استعداد المحل لقبوله ، كالغيث يقع على الأرض القابلة للنبات ، فيتم المقصود بالفضل ، وقبول المحل له . والله أعلم .

و « الفرح » لذة تقع في القلب بإدراك المحبوب، ونيل المشتهى . فيتولد من إدراكه حالة تسمى الفرح والسرور . كما أن الحزن والغم من فقد المحبوب فإذا فقده: تولد من فقده حالة تسمى الحزن والغم وذكر سبحانه الأمر بالفرح بفضله وبرحمته عقيب قوله (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) [يونس : ٥٧] . ولا شيء أحق أن يفرح العبد به من فضل الله

(١) يقصد ما صدر به صاحب المنازل باب « السرور » .

ورحمته التي تتضمن الموعظة ، وشفاء الصدور من أدوائها بالهدى والرحمة فأخبر سبحانه : أنّ ما آتى عباده من الموعظة – التي هي الأمر والنهي ، المقرون بالترغيب والترهيب ، وشفاء الصدور ، المتضمن لعافيتها من داء الجهل ، والظلمة ، والغي ، والسفه – وهو أشد ألما لها من أدواء البدن ، ولكنها لما ألفت هذه الأدواء لم تحس بألمها وإنما يقوى إحساسها بها عند المفارقة للدنيا . فهنالك يحضرها كل مؤلم محزن . وما آتاها من ربها الهدى الذي يتضمن ثلج الصدور باليقين وطمأنينة القلب به ، وسكون النفس إليه ، وحياة الروح به . و « الرحمة » التي تجلب لها كل خير ولذة . وتدفع عنها كل شر ومؤلم .

فذلك خير من كل ما يجمع الناسُ من أعراض الدنيا وزينتها . أي هذا هو الذي ينبغي أن يُفْرح به . ومن فرح به فقد فرح بأجل مفروح به . لا ما يجمع أهل الدنيا منها . فإنه ليس بموضع للفرح . لأنه عرضة للآفات ، ووشيك الزوال ، ووخيم العاقبة . وهو طيف خيال زار الصب في المنام . ثم انقضى المنام . وولى الطيف . وأعقب مزاره الهجران .

وقد جاء الفرح في القرآن على نوعين : مطلق ، ومقيد . فالمطلق : جاء في الذم كقوله : (**لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين**) [القصص : ٧٦] . **وقوله** : (إنه لفرح فخور) [هود : ١٠] . والمقيد نوعان أيضاً : مقيد بالدنيا ، ينسي صاحبه فضل الله، ومنته ؛ فهو مذموم . كقوله : (حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) [الأنعام : ٤٤] . والثاني : مقيد بفضل الله وبرحمته ، وهو نوعان أيضاً ؛ فضل ورحمة بالسبب ، وفضل ورحمة بالمسبب .

فالأول : كقوله : ﴿ **قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون** ﴾ .

والثاني : كقوله : (فرحين بما آتاهم الله من فضله)[آل عمران : ١٧٠] . فالفرح بالله، ورسوله، وبالإيمان، والسنة، وبالعلم، والقرآن: من أعلى مقامات العارفين. قال الله تعالى : (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون) [التوبة : ١٢٤] . وقال : (والذين

آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك) [الرعد : ٣٦] . فالفرح بالعلم والإيمان والسنة: دليل على تعظيمه عند صاحبه ومحبته له ، وإيثاره له على غيره ، فإن فرح العبد بالشيء عند حصوله على قدر محبته له، ورغبته فيه ، فمن ليس له رغبة في الشيء لا يفرحه حصوله ، ولا يحزنه فواته . فالفرح تابع للمحبة والرغبة . فالفرق بينه وبين الاستبشار : أن الفرح بالمحبوب بعد حصوله ، والاستبشار يكون به قبل حصوله إذا كان على ثقة من حصوله. ولهذا قال تعالى: (فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم) [آل عمران : ١٧٠] .

والفرح صفة كمال ، ولهذا يوصف الرب تعالى بأعلى أنواعه وأكملها ، كفرحه بتوبة التائب أعظم من فرحة الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة بعد فقده لها واليأس من حصولها .

والمقصود : أن الفرح أعلى أنواع نعيم القلب ولذته ، وبهجته ، والفرح والسرور نعيمه . والهم والحزن عذابه .

والفرح بالشيء فوق الرضى به ، فإن الرضى طمأنينة وسكونه انشراح ، والفرح لذته بهجة وسرور ، فكل فَرِح راضٍ ، وليس كل راض فرحاً. ولهذا كان الفرح ضد الحزن ، والرضى ضد السخط ، والحزن يؤلم صاحبه ، والسخط لا يؤلمه ، إلا إن كان مع العجز عن الانتقام . والله أعلم[(1)] .

قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس : ٨٧]

هو من أحسن النظم وأبدعه ، فإنه ثنى أولاً ، إذ كان موسى وهارون هما الرسولان المطاعان ، ويجب على بني إسرائيل طاعة كل واحد منهما سواء . وإذا تبوءا البيوت لقومهما فهم تبع لهما . ثم جمع الضمير فقال ﴿ **وأقيموا الصلاة** ﴾ لأن إقامتها فرض على الجميع ، ثم وحده في قوله : ﴿ **وبشر**

---

(١) مدارج السالكين (٣ / ١٥٦ - ١٥٩) .

المؤمنين ﴾ أن موسى هو الأصل في الرسالة وأخوه ردؤه ، ووزيره ، وكما كان الأصل في الرسالة فهو الأصل في البشارة ، وأيضاً فإن موسى وأخاه لما أرسلا برسالة واحدة كانا رسولا واحدا كقوله تعالى : (إني رسول من[1] رب العالمين) [الأعراف : ١٠٤] . فهذا الرسول هو الذي قيل له : **﴿ وبشر المؤمنين ﴾**[2] .

قول الله تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [يونس: ٩٤]

وقد أشكلت هذه الآية على كثير من الناس وأورد اليهود والنصارى على المسلمين فيها إيراداً وقالوا : كان في شك فأمر أن يسألنا .

وليس فيها بحمد الله إشكال ، وإنما أتي أشباه الأنعام من سوء قصدهم وقلة فهمهم .

وإلا فالآية من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم وليس في الآية ما يدل على وقوع الشك ولا السؤال أصلاً ، فإن الشرط لا يدل على وقوع المشروط بل ولا على إمكانه ، كما قال تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) [الأنبياء : ٢٢]. وقوله : (قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا) [الإسراء : ٤٢] وقوله : (قل إن كان للرحمن ولدٌ فأنا أول العابدين) [الزخرف : ٨١] . وقوله : (ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك) [الزمر : ٦٥] . ونظائره .

فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشك ولم يسأل[1] وفي تفسير سعيد

---

(١) « من » ساقطة من بدائع الفوائد المطبوع .

(٢) بدائع الفوائد (٤ / ١٠) .

(٣) قال السيوطي في الدر المنثور :

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء في المختارة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لم يشك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يسأل (٤ / ٣٨٩) .

عن قتادة قال : ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال[١] : « لا أشك ولا أسأل » .

وقد ذكر ابن جرير[٢] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : فإن كنت في شك أنك مكتوب عندهم فاسألهم .

وهذا اختيار ابن جرير قال : يقول تعالى لنبيه : فإن كنت ، يامحمد ، في شك من حقيقة ما أخبرناك وأنزلنا إليك، من أن بني إسرائيل لم يختلفوا في نبوتك قبل أن أبعثك رسولاً إلى خلقي لأنهم يجدونك مكتوباً عندهم، ويعرفونك بالصفة التي أنت بها موصوف في كتبهم، فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك، كعبد الله بن سلام ونحوه ، من أهل الصدق والإيمان بك منهم، دون أهل الكذب والكفر بك ، وكذلك قال ابن زيد : قال هو عبد الله بن سلام ، وقال الضحاك : سل أهل التقوى والإيمان من مؤمني أهل الكتاب[٣] .

ولم يقع هؤلاء ولا هؤلاء على معنى الآية ومقصودها ، وأين كان عبد الله ابن سلام وقت نزول هذه الآية فإن السورة مكية[٤]، وابن سلام إذ ذاك على دين قومه .

---

(١) رواه عبد الرزاق في مصنفه (٦ / ١٢٥- ١٢٦) .
عن قتادة مرسلاً .
وكذا ابن جرير (١١ / ١٦٨) . وهذا ضعيف للإرسال .
وانظر (صـ ١٥) من رسالة « دفاع عن الحديث .. » للألباني .
و « الكاف الشاف » لابن حجر رقم (١٨٥) .

(٢) تفسير الطبري (١١ / ١٦٨) .

(٣) تفسير ابن جرير الطبري (١١ / ١٦٧) .

(٤) هذا مما اختلف فيه .
فقال القرطبي : « مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر » .
وقال ابن عباس : إلا ثلاث آيات في قوله تعالى : ﴿ فإن كنت في شك ﴾ نزلت بالمدينة، وقال الكلبي مكية إلا قوله : ﴿ ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به ﴾ [آية : ٤٠] . نزلت بالمدينة في اليهود وقالت فرقة : نزل من أولها نحو من أربعين آية بمكة وباقيها بالمدينة » (٤ / ٣١٤٣) تفسيره .
ونقل ذلك عنه الشوكاني (٢ / ٤٢١) فتح القدير .

وكيف يؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستشهد على منكري نبوته بأتباعه[١].

وقال كثير من المفسرين[٢] هذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد غيره، لأن القرآن نزل عليه بلغة العرب، وهم قد يخاطبون الرجل بالشيء ويريدون غيره، كما يقول متمثلهم: إياك أعني واسمعي يا جارة، وكقوله تعالى: ﴿ يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين ﴾ [الأحزاب: ١]. والمراد أتباعه بهذا الخطاب.

قال أبو إسحاق[٣]: إن الله تعالى يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم

= وانظر الكشاف للزمخشري (٢ / ١٨٠).
وكذا تفسير الخازن (٣ / ١٧٢).
وتفسير الآلوسي (١١ / ٥٨).
وتفسير الجلالين للسيوطي (١ / ٢٥٢) والدر المنثور (٤ / ٣٣٩)
وقال السيوطي في الإتقان « فصل في تحرير السور المختلف فيها .. » سورة يونس « المشهور أنها مكية وعن ابن عباس روايتان فتقدم في الآثار السابقة عنها أنها مكية، وأخرجه ابن مردويه من طريق العوفي عنه ومن طريق ابن جريج عن عطاء عنه، ومن طريق خصيف عن مجاهد عن ابن الزبير ... » (١ / ١٢) مختصراً.
وذهب إلى أنها مكية ابن كثير (٢ / ٤٣٤)، وابن قتيبة في « غريب القرآن » (١٩٤).
أما إسلام « عبد الله بن سلام » رضي الله عنه فكان إسلامه بالمدينة في أول دخول النبي صلى الله عليه وسلم وكانت وفاته سنة ثلاث وأربعين ».
كما في فتح الباري (٧ / ١٦١) في مناقبه من كتاب مناقب الأنصار.

(١) إذا صح الدليل لا يورد عليه بكيف؟ وإنما يبحث في معناه ومفهومه. والله أعلم.

(٢) راجع تفسير القرطبي (٤ / ٣٢٢١).
والزمخشري (٢ / ٢٠٣).
وتفسير الخازن (٣ / ٢١٠).
والبغوي (٣ / ٢١٠) بهامش الخازن.
و تفسير الآلوسي (١١ / ١٨٩).

(٣) أبو إسحاق، الإمام، نحوي زمانه، إبراهيم بن محمد بن السري الزجاج البغدادي، انظر ترجمته ومصادرها في سير أعلام النبلاء (١٤ / ٣٦٠).
وانظر مبحثه النفيس حول الآية في كتابه « معاني القرآن وإعرابه » (٣ / ٣٢) طبعة عالم الكتب.

والخطاب شامل للخلق ؛ والمعنى : وإن كنتم في شك؛ والدليل على ذلك قوله تعالى في آخر السورة : (**قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين** تعبدون من دون الله) [يونس : ١٠٤] وقال ابن قتيبة[1]: كان الناس في عصر النبي صلى الله عليه وسلم أصنافاً، منهم كافر به مكذب ، ومؤمن به مصدق ، وآخر شاك في الأمر لا يدري كيف هو، فهو يقدم رجلاً ويؤخر رجلاً ؛ فخاطب الله تعالى هذا الصنف من الناس وقال : فإن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان محمد ؛ فسل ، قال : ووحد وهو يريد الجمع كما قال : (يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم) [الانفطار : ٦] . و (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا **فملاقيه**) [الانشقاق : ٦] و (**وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه** منيباً إليه) [الزمر : ٨] . وهذا – وإن كان له وجه – فسياق الكلام يأباه فتأمله .

وتأمل قوله تعالى : (يقرؤون الكتاب من قبلك) وقوله : (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون) [يونس : ٩٦] . وقوله : (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) [يونس : ٩٩] . وهذا كله خطاب واحد متصل بعضه ببعض ، ولما عرف أرباب هذا القول أن الخطاب لا يتوجه إلا على النبي صلى الله عليه وسلم قالوا : الخطاب له والمراد به هذا الصنف الشاك ، وكل هذا فرار من توهم ما ليس بموهوم : وهو وقوع الشك منه والسؤال ؛ وقد بينا أنه لا يلزم إمكان ذلك فضلاً عن وقوعه .

فإن قيل : فإذا لم يكن واقعاً ولا ممكناً فما مقصود الخطاب ، والمراد به؟ قيل : المقصود به إقامة الحجة على منكري النبوات والتوحيد ، وأنهم مقرون بذلك لا يجحدونه ولا ينكرونه ، وأن الله سبحانه أرسل إليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه بذلك ، وأرسل ملائكته إلى أنبيائه بوحيه وكلامه ؛ فمن شك في ذلك فليسأل أهل الكتاب ، فأخرج هذا المعنى في أوجز عبارة وأدلها على المقصود بأن جعل

---

(١) انظر قول ابن قتيبة في « تأويل مشكل القرآن » (٨١ ، ٢٦٩) .
و « تفسير غريب القرآن » (١٩٩) .
فلعل ابن القيم نقله بالمعنى .

الخطاب لرسوله الذي لم يشك قط ، ولم يسأل قط ولا عرض له ما يقتضي ذلك وأنت إذا تأملت هذا الخطاب بدا لك على صفحاته[١]: من شك فليسأل ، فرسولي لم يشك ولم يسأل[٢] .

قوله تعالى : ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس : ٩٩]

معناه لست مكره الناس حتى يكونوا مؤمنين[٣] .

قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس : ١٠٠] .

و « إذنه » ها هنا قضاؤه وقدره لا مجرد أمره وشرعه كذلك قال السلف في تفسير هذه الآية .

قال ابن المبارك[٤] عن الثوري : بقضاء الله .

وقال محمد بن جرير[٥] : يقول جل ذكره لنبيه : وما لنفس خلقها من سبيل إلا أن تصدقك إلا أن يأذن لها في ذلك فلا تجهدن نفسك في طلب هداها . وبلغها وعيد الله ثم خلها فإن هُداها بيد خالقها ، وما قبل الآية وما بعدها لا يدل إلا على ذلك ، فإنه سبحانه قال : (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله) [يونس: ٩٩-١٠٠] أي: لا تكفي دعوتك في حصول الإيمان حتى يأذن الله لمن دعوته أن يؤمن ، ثم قال (قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) [يونس: ١٠١] قال ابن جرير[٥]: يقول تعالى:يا محمد قل لهؤلاء السائليك الآيات على صحة ما تدعو إليه من توحيد الله وخلع الأنداد والأوثان (انظروا)

(١) وهذا قريب من قول من قال : « إن الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد لغيره فتأمله » والله أعلم .

(٢) أحكام أهل الذمة (١ / ١٢ - ١٥) .

(٣) الفوائد المشوق (٣٦) .

(٤) رواه الطبري (١٧٤/١١) .

(٥) تفسير ابن جرير (١١ / ١٧٤- ١٧٥) ، مع بعض اختلاف يسير في العبارة .

أيها القوم (ماذا في السموات) من الآيات الدالة على حقية ما أدعوكم إليه من توحيد الله من شمسها وقمرها ، واختلاف ليلها ونهارها ، ونزول الغيث بأرزاق العباد من سحابها ، وفي الأرض من جبالها ، وتصدعها بنباتها وأقوات أهلها ، وسائر صنوف عجائبها ، فإن في ذلك لكم إن عقلتم وتدبرتم عظة ومعتبراً ودلالة على أن ذلك من فعل من لا يجوز أن يكون له في ملكه شريك ، ولا له على حفظه وتدبيره ظهير يغنيكم عما سواها من الآيات ، وما يغني عن قوم قد سبق لهم من الله الشقاء ، وقضى عليهم في أم الكتاب أنهم من أهل النار فهم لا يؤمنون بشيء من ذلك ولا يصدقون به ، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم[١] .

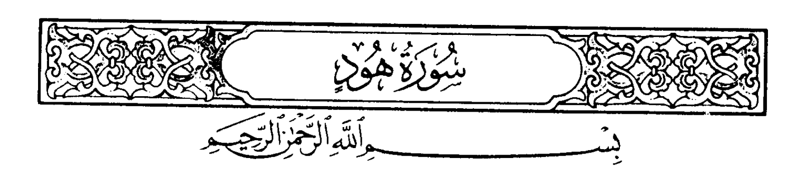
* * *

(١) شفاء العليل (٦٠ - ٦١) .



سُورَةُ هُودٍ





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود : ٧]

فأخبر سبحانه أنه خلق العالم العلوي والسفلي وقدر أجل الخلق وخلق ما على الأرض للابتلاء والاختبار ، وهذا الابتلاء إنما هو : ابتلاء صبر العباد وشكرهم في الخير والشر والسراء والضراء ، فالابتلاء من النعم من الغنى والعافية والجاه والمقدرة ، وتأتي الأسباب أعظم الابتلائين ، والصبر على طاعة الله أشق الصبرين ، كما قال الصحابة رضي الله عنهم : ابتلينا بالضراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر ، والنعمة بالفقر والمرض وقبض الدنيا وأسبابها، وأذى الخلق قد يكون أعظم النعمتين ، وفرض الشكر عليها أوجب من الشكر على أضدادها[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

قال تعالى : ﴿ **وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء** ﴾ [هود : ٧] .

فأخبر في هذه الآية أنه خلق السموات والأرض ليبتلي عباده بأمره ونهيه ، وهذا من الحق الذي خلق به خلقه[2] .

أنه سبحانه رتب المغفرة والأجر الكبير على الصبر والعمل الصالح فقال : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [هود:١١].

---

(١) عدة الصابرين (١٥١ - ١٥٢) .

(٢) شفاء العليل (٣٥) .

وهؤلاء ثنية[١] الله من نوع الإنسان المذموم الموصوف باليأس والكفر عند المصيبة ، والفرح والفخر عند النعمة ، ولا خلاص من هذا الذم إلا بالصبر والعمل الصالح ، كما لا تنال المغفرة والأجر الكبير إلا بهما[٢] .

قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود : ١٥-١٦] .

وقد أشكل فهم هذه الآية على كثير من الناس حيث فهموا منها أن من كانت له إرادة في الدنيا وزينتها فله هذا الوعيد .

ثم اختلفوا في معناها ، فقالت طائفة منهم ابن عباس[٣]: من كان يريد تعجيل الدنيا فلا يؤمن بالبعث ولا بالثواب ولا بالعقاب ، قالوا : والآية في الكفار خاصة على قول ابن عباس . وقال قتادة : من كانت الدنيا همه وسدمه ونيته وطلبه جازاه الله في الدنيا بحسناته ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يجازى بها ، وأما المؤمن فيجزى في الدنيا بحسناته ويثاب عليها في الآخرة .

قال هؤلاء : فالآية في الكفار بدليل قوله : **﴿ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾** قالوا : المؤمن من يريد الدنيا والآخرة فأما من كانت إرادته مقصورة على الدنيا فليس بمؤمن .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية أبي صالح عنه : نزلت في أهل القبلة .

قال مجاهد : هم أهل الرياء .

---

(١) أي : من استثناهم الله تعالى .

(٢) عدة الصابرين (٧٣ - ٧٤) .

(٣) راجع تفسير الطبري (١٢ / ١١) .
والدر المنثور (٤ / ٤٠٦) .

وقال الضحاك : من عمل صالحاً من أهل الإيمان من غير تقوى ؛ عجل له ثواب عمله في الدنيا .

واختار الفراء هذا القول ، وقال : من أراد بعمله من أهل القبلة ثواب الدنيا عجل له ثواب ، ولم يبخس .

وهذا القول أرجح .

ومعنى الآية على هذا : من كان يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها ، وهذا لا يكون مؤمناً فإن العاصي والفاسق ولو بالغا في المعصية والفسق فإيمانهما يحملهما على أن يعملا أعمال البر لله فيريدان بأعمال البر وجه الله وإن عملا بمعصيته .

فأما من لم يرد بعمله وجه الله وإنما أراد به الدنيا وزينتها، فهذا لا يدخل في دائرة أهل الإيمان ، وهذا هو الذي فهمه معاوية من الآية[1] واستشهد بها على حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم في صحيحه[1] « في الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة : القارىء الذي قرأ القرآن ليقال فلان

---

(١) رواه مسلم (٤ / ٥٦٨) في الإمارة ، باب : من قاتل للرياء والسمعة ..
وأما قصة استشهاد « معاوية » رضي الله عنه بالآية في فهم الحديث فرواها الترمذي (٢ / ٢٨٢) صحيح الترمذي ، في الزهد ، باب : ما جاء في الرياء .
والطبري في تفسيره (١٢ / ١٣) .
وابن خزيمة (٤ / ١١٥) وصححه الألباني .
وهي « أن شُفي بن ماتع الأصبحي ، حدثه أنه دخل المدينة ، فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس ، فقال : من هذا ؟ فقالوا : أبو هريرة ، فدنوت منه حتى قعدت بين يديه ، وهو يحدث الناس .. ثم ذكر الحديث بطوله ... ثم قال الوليد بن أبي الوليد ، أبو عثمان المدائني فأخبرني عقبة : أن شُفَياً هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا .
قال أبو عثمان : وحدثني العلاء بن أبي حكيم : أنه كان سيافا لمعاوية ، قال : فدخل عليه رجل ، فأخبره بهذا عن أبي هريرة ، فقال معاوية –وعند الطبري فقال أبو هريرة –: قل فُعِلَ بهؤلاء هذا ، فكيف بمن بقي من الناس ، ثم بكى معاوية بكاء شديداً حتى ظننا أنه هالك . وقلنا قد جاءنا هذا الرجل بشر ، ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه وقال : صدق الله ورسوله : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ﴾ الآية .
ورواه الحاكم دون القصة (١ / ٤١٨) . وصححه ووافقه الذهبي .

قارىء ، والمتصدق الذي أنفق أمواله ليقال فلان جواد ، والغازي الذي قتل في الجهاد ليقال هو جريء » .

وكما أن خيار خلق الله هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون فشرار الخلق من تشبه بهم وليس منهم فمن تشبه بأهل الصدق والإخلاص ، وهو مراء كمن تشبه بالأنبياء وهو كاذب .

وقال ابن أبي الدنيا حدثني محمد بن إدريس ، قال : أخبرني عبد الحميد ابن صالح حدثنا قطري الخشاب عن عبد الوارث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا كان يوم القيامة صارت أمتي ثلاث فرق : فرقة يعبدون الله عز وجل للدنيا ، وفرقة يعبدونه رياء وسمعة وفرقة يعبدونه لوجهه ولداره ، فيقول للذين كانوا يعبدونه للدنيا : بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي ؟ فيقولون : بعزتك وجلالك ومكانك : الدنيا فيقول : إني لم أقبل من ذلك شيئاً ، اذهبوا بهم إلى النار ، ويقول للذين كانوا يعبدون رياء وسمعة : بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي ؟ فيقولون : بعزتك وجلالك ومكانك : رياء وسمعة فيقول : إني لم أقبل من ذلك شيئاً اذهبوا بهم إلى النار ويقول للذين كانوا يعبدونه لوجهه وداره : بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي ؟ فيقولون : بعزتك وجلالك : وجهك ودارك ، فيقول : صدقتم . اذهبوا بهم إلى الجنة »[1] .

هذا حديث غني عن الإسناد فالقرآن والسنة شاهدان بصدقه[1]، ويدل على صحة هذا القول في الآية قوله تعالى : ﴿ **نوف إليهم أعمالهم فيها** ﴾ ، وذلك على أنها في قوم لهم أعمال لم يريدوا بها وجه الله ، وإنما أرادوا بها الدنيا ولها عملوا فوفاهم الله ثواب أعمالهم فيها من غير بخس ، وأفضوا إلى الآخرة بغير عمل يستحقون عليه الثواب ، وهذا لا يقع ممن يؤمن بالآخرة إلا كما يقع منه كبائر الأعمال وقوعاً عارضاً يتوب منه ويراجع التوحيد .

وقال ابن الأنباري : « فعلى هذا القول : المعنى في قوم من أهل الإسلام

(١) انظر المقدمة ص (٢٦) .

يعملون العمل الحسن لتستقيم به دنياهم غير متفكرين في الآخرة كان جزاؤهم عليها النار إذا لم يريدوا بها وجه الله ، ولم يقصدوا التماس ثوابه وأجره » .

ثم أورد صاحب هذا القول على أنفسهم سؤالاً ! قالوا : فإن قيل : الآية الثانية على هذا القول توجب تخليد المؤمن المريد بعمله الدنيا في النار ؟ وأجابوا عنه بأن ظاهر الآية يدل على أن من راءى بعمله ، ولم يلتمس به ثواب الآخرة بل كانت نيته الدنيا ؛ فإن الله يبطل إيمانه عند الموافاة فلا يوافي ربه بالإيمان .

قالوا : ويدل عليه قوله : ﴿ **وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون** ﴾ [هود : ١٦] . وهذا يتناول أصل الإيمان وفروعه .

وأجابت فرقة أخرى بأن الآية لا تقتضي الخلود الأبدي في النار ، وإنما تقتضي أن الذي يستحقونه في الآخرة النار، وأنهم ليس لهم عمل صالح يرجون به النجاة، فإذا كان مع أحدهم عمود التوحيد فإنه يخرج به من النار مع من يخرج من أصحاب الكبائر الموحدين، وهذا هو جواب ابن الأنباري ، وغيره .

والآية بحمد الله لا إشكال فيها ، والله سبحانه ذكر جزاء من يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها وهو النار ، وأخبر بحبوط عمله وبطلانه، فإذا أحبط ما ينجو به وبطل لم يبق معه ما ينجيه ، فإن كان معه إيمان لم يرد به الدنيا وزينتها بل أراد الله به والدار الآخرة لم يدخل هذا الإيمان في العمل الذي حبط وبطل وأنجاه إيمانه من الخلود في النار ، وإن دخلها بحبوط عمله الذي به النجاة المطلقة ، والإيمان إيمانان : إيمان يمنع من دخول النار، وهو الإيمان الباعث على أن تكون الأعمال لله يبتغى بها وجهه وثوابه ، وإيمان يمنع الخلود في النار وإن كان مع المرائي شيء منه وإلا كان من أهل الخلود فالآية لها حكم نظائرها من آيات الوعيد . والله الموفق .

وذلك قوله : (من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب) [الشورى : ٢٠] . ومنها قوله : (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك

كان سعيهم مشكوراً ﴾ [الإسراء : ١٨-١٩] . فهذه ثلاثة مواضع من القرآن يشبه بعضها بعضاً ، ويصدق بعضها بعضاً ، وتجتمع على معنى واحد ، وهو أن من كانت الدنيا مراده ولها يعمل في غاية سعيه لم يكن له في الآخرة نصيب ، ومن كانت الآخرة مراده ولها عمل ، وهي غاية سعيه فهي له .

بقي أن يقال : فما حكم من يريد الدنيا والآخرة ، فإنه داخل تحت حكم الإرادتين فبأيهما يلحق ، قيل : من هاهنا نشأ الإشكال ، وظن من ظن من المفسرين أن الآية في حق الكافر، فإنه هو الذي يريد الدنيا دون الآخرة ، وهذا غير لازم طرداً ولا عكساً ، فإن بعض الكفار قد يريد الآخرة ، وبعض المسلمين قد لا يكون مراده إلا الدنيا، والله تعالى قد علق السعادة بإرادة الآخرة، والشقاوة بإرادة الدنيا فإذا تجردت الإرادتان تجرد موجبهما ومقتضاهما . وإن اجتمعتا فحكم اجتماعهما حكم اجتماع البر والفجور ، والطاعة والمعصية ، والإيمان والشرك في العبد ، وقد قال تعالى لخير الخلق بعد الرسل : ﴿ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾ [آل عمران : ١٥٢] . وهذا خطاب للذين شهدوا معه الوقعة ، و لم يكن فيهم منافق ، ولهذا قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « ما شعرت أن أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا حتى كان يوم أحد ونزلت هذه الآية »[1].

والذين أريدوا في هذه الآية هم الذين أخلوا مركزهم الذي أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظه ، وهم من خيار المسلمين ، ولكن هذه إرادة عارضة حملتهم على ترك المركز ، والإقبال على كسب الغنائم ، بخلاف من كان مراده بعمله الدنيا وعاجلها ، فهذه الإرادة لون ، وإرادة هؤلاء لون .

وها هنا أمر يجب التنبيه له وهو أنه لا يمكن إرادة الدنيا وعاجلها بأعمال البر دون الآخرة مع الإيمان بالله ورسوله ولقائه أبدا ، فإن الإيمان بالله والدار الآخرة يستلزم إرادة العبد لرحمة الله ، والدار الآخرة بأعماله فحيث كان مراده بها الدنيا فهذا لا يجامع الإيمان أبدا ، وإن جامع الإقرار والعلم فالإيمان وراء ذلك ، والإقرار والمعرفة حاصلان [illegible] شهد الله سبحانه له بالكفر مع هذه المعرفة ؛

(١) راجع تفسيرها في سورة آل عمر[illegible]

كفرعون وثمود واليهود الذين شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعرفوه كما عرفوا أبناءهم وهم من أكفر الخلق ، فإرادة الدنيا وعاجلها بالأعمال قد تجامع هذه المعرفة والعلم ، ولكن الإيمان الذي هو وراء ذلك لابد أن يريد صاحبه بأعماله الله ، والدار الآخرة . والله المستعان(١) .

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ * ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ [هود:١٨-١٩].

وهؤلاء المعارضون للوحي بعقولهم جمعوا بين الأمور الثلاثة، الكذب على الله ، والصد عن سبيل الله ، وبغيها عوجاً .

أما الكذب على الله فإنهم نفوا عنه ما أثبته لنفسه من صفات الكمال ووصفوه بما لم يصف به نفسه .

وأما صدهم عن سبيله وبغيها عوجاً فإنهم أفهموا الناس ، بل صرحوا لهم بأن كلام الله ورسوله ظواهر لفظية لا تفيد علماً ولا يقيناً ، وأن العقول عارضتها فيجب تقديم العقول عليها ، وأي عوج أعظم من عوج مخالفة العقل الصريح وقد وصف الله كتابه بأنه غير ذي عوج(٢)، ولا ريب أن الله هو الصادق في ذلك وأنهم هم الكاذبون .

فإن قلت : يبغونها متعدٍّ إلى مفعول واحد فما وجه انتصاب عوجاً ؟

قيل : فيه وجوه :

أحدهما : أنه نصب على الحال . أي : يطلبونها ذات عوج ، لا يطلبونها مستقيمة ، والمعنى يطلبون لها العوج .

---

(١) عدة الصابرين (١٦٣ - ١٦٧) .

(٢) في قوله تعالى : ﴿ قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون ﴾ [الزمر : ٢٨] .

وقوله تعالى : ﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ﴾ [أول الكهف] .

الثاني : أن عوجاً مفعول به يبغونها على تقدير حذف اللام أي يطلبون لها عوجاً يرمونها به ، ويصفونها به وأحسن منهما أن تضمن يبغونها : إما معنى يعوجونها ، فيكون عوجاً منصوباً على المصدر ، ودل فعل البغي على طلب ذلك وابتغائه . وإما معنى يسومونها ويؤولونها وعلى كل تقدير فسبيل الله هداه وكتابه الهادي للطريق الأقوم ، والسبيل الأقصد فمن زعم أن في العقل ما يعارضه ؛ فقد بغاه عوجاً ، ودعا إلى الصد عنه ومن له خبرة بالمعقول الصحيح ، يعلم أن العوج في كلام هؤلاء المعوجين ، الذين هم عن الصراط ناكبون ، وعن سبيل الرشد حائدون وعن آيات الله بعيدون ، وبالباطل والقضايا الكاذبة يصدقون ، وفي ضلالهم يعمهون، وفي ريبهم يترددون، وهم للعقل الصريح والسمع الصحيح مخالفون[1].

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [هود : ٢٣] .

والخَبْت في أصل اللغة[1] : المكان المنخفض من الأرض ، وبه فسر ابن عباس رضي الله عنهما ، وقتادة لفظ « المخبتين » وقالا : هم المتواضعون .

وقال مجاهد : المخبت المطمئن إلى الله عز وجل .

قال : والخبت : المكان المطمئن من الأرض .

وقال الأخفش : الخاشعون .

وقال إبراهيم النخعي : المصلون المخلصون .

وقال الكلبي : هم الرقيقة قلوبهم .

وقال عمرو بن أوس : هم الذين لا يظلمون ، وإذا ظُلموا لم ينتصروا

---

(١) الصواعق المرسلة (٣ / ١١٤٢ - ١١٤٤) .

(٢) راجع تفسير الطبري (١٢ / ٢٤) .

وأساس البلاغة للزمخشري (١٠٢) .

وهذه الأقوال تدور على معنيين : التواضع ، والسكون إلى الله عز وجل ، ولذلك عُدِّي بإلى ، تضميناً لمعنى الطمأنينة ، والإنابة والسكون إلى الله[(١)] .

قول الله تعالى : ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود : ٢٤] .فإنه سبحانه ذكر الكفار ووصفهم بأنهم ما كانوا يستطيعون السمع، وما كانوا يبصرون ، ثم ذكر المؤمنين ووصفهم بالإيمان والعمل الصالح والإخبات إلى ربهم ، فوصفهم بعبودية الظاهر والباطن وجعل أحد الفريقين كالأعمى والأصم من حيث كان قلبه أعمى عن رؤية الحق أصم عن سماعه فَشَبَّهَهُ بمن بصره أعمى عن رؤية الأشياء ، وسمعه أصم عن سماع الأصوات ، والفريق الآخر : بصير القلب كبصير العين وسميع الأذن ، فتضمنت الآية قياسين وتمثيلين للفريقين ، ثم نفى التسوية عن الفريقين بقوله : ﴿ **هل يستويان مثلاً** ﴾[(٢)] .

قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ إلى قوله : ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾[هود : ٢٧] . فقوله :﴿ **ما نراك إلا بشراً مثلنا** ﴾ تعريض أنهم أحق بالنبوة منه وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم فقالوا: هب أنك واحد من الملائكة وموازن لهم في المنزلة فما جعلك أحق منهم بها ، ألا ترى إلى قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ **وما نرى لكم علينا من فضل** ﴾[(٣)] .

وقال رحمه الله :

ومنه قوله تعالى إخباراً عن الكفار أنهم قالوا : ﴿ **ما نراك إلا بشراً مثلنا** ﴾ [هود : ٢٧] .

فاعتبروا صورة مجرد الآدمية، وشبه المجانسة فيها ، واستدلوا بذلك على أن

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٣) .
(٢) إعلام الموقعين (١ / ٢٠٣ - ٢٠٤) .
(٣) الفوائد المشوق (١٣٤) .

حكم أحد الشبهين حكم الآخر، فكما لا نكون نحن رسلا، فكذلك أنتم ، فإذا تساوينا في هذا الشبه ؛ فأنتم مثلنا لا مزية لكم علينا وهذا من أبطل القياس، فإن الواقع من التخصيص والتفضيل، وجعل بعض هذا النوع شريفاً ، وبعضه دنيا ، وبعضه مرءوساً ، وبعضه رئيساً ، وبعضه ملكا ، وبعضه سوقة ؛ يبطل هذا القياس[١] .

قال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ ﴾ [هود : ٣١] .

أما استشهاده[٢] بالآية، فوجهه : أن أتباع الرسل، الذين صدقوهم، وآثروا الله والدار الآخرة على قومهم وأصحابهم: قد أودع الله قلوبهم سراً من أسرار معرفته ومحبته، والإيمان به، خفي على أعداء الرسل.فنظروا إلى ظواهرهم.وعموا عن بواطنهم ؛ فازدروهم واحتقروهم . وقالوا للرسول : (اطرد هؤلاء عنك حتى نأتيك ونسمع منك) وقالوا : (أهؤلاء من الله عليهم من بيننا) [الأنعام : ٥٣] . فقال نوح عليه السلام لقومه : ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود : ٣١] . قال الزجاج : المعنى إن كنتم تزعمون أنهم إنما اتبعوني في بادي الرأي وظاهره فليس علي أن أطلع على ما في أنفسهم .

فإذا رأيت من يوحد الله عملت على ظاهره ، ورددت علم ما في نفوسهم إلى الله . وهذا معنى حسن ، والذي يظهر من الآية : أن الله يعلم ما في أنفسهم، إذ أهلهم لقبول دينه ، وتوحيده ، وتصديق رسله .

والله سبحانه وتعالى عليم حكيم ، يضع العطاء في مواضعه ، وتكون هذه الآية مثل قوله تعالى : (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين) [الأنعام : ٥٣] . فإنهم أنكروا أن يكون الله سبحانه أهَّلهم للهدى والحق، وحَرَمَه رؤساء الكفار، وأهل العزة والثروة منهم .

---

(١) إعلام الموقعين (١ / ١٩٨) .

(٢) أي صاحب المنازل ، الإمام الهروي ، وذلك في منزلة « السر » .

كأنهم استدلوا بعطاء الدنيا على عطاء الآخرة .

فأخبر الله سبحانه : أنه أعلم بمن يؤهله لذلك لسر عنده : من معرفة قدر النعمة ورؤيتها من مجرد فضل المنعم ، ومحبته وشكره عليها ، وليس كل أحد عنده هذا السر فلا يؤهل كل أحد لهذا العطاء[١] .

قوله تعالى : ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ [هود : ٤٣] .

على أصح الوجوه[٢] في الآية فإنه تعالى لما ذكر العاصم استدعى معصوماً مفهوماً من السياق فكأنه قيل لا معصوم اليوم من أمره إلا من رحمه ، فإنه لما قال ﴿ **لا عاصم اليوم من أمر الله** ﴾ بقي الذهن طالباً للمعصوم ! فكأنه قيل فمن الذي يعصم ؟

فأجيب بأنه لا يعصم إلا من رحمه الله ، ودل هذا اللفظ باختصاره وجلالته وفصاحته على نفي كل عاصم سواه ، وعلى نفي كل معصوم سوى من رحمه الله .

فدل الاستثناء على أمرين : على المعصوم من هو ، وعلى العاصم ، وهو ذو الرحمة . وهذا من أبلغ الكلام وأفصحه وأوجزه ولا يلتفت إلى ما قيل في الآية بعد ذلك .

وقد قالوا فيها ثلاثة أقوال أخر[٣] .

أحدها : أن عاصماً بمعنى معصوم كماء دافق ، وعيشة راضية ، والمعنى لا معصوم إلا من رحمه الله . وهذا فاسد ، لأن كل واحد من اسم الفاعل واسم المفعول موضوع لمعناه الخاص به فلا يشاركه فيه الآخر ، وليس الماء الدافق بمعنى

(١) مدارج السالكين (٣ / ١٧٠ - ١٧١) .

(٢) على الاستشهاد على « الاستثناء المنقطع » .

(٣) انظر هذه الأقوال في « الكشاف » للزمخشري (٢ / ٢١٧) .
وراجع تفسير القرطبي (٤ / ٣٢٦٧) .
وتفسير البغوي (٣ / ٢٣٣ ، ٢٣٤) .

المدفوق بل هو فاعل على بابه كما يقال ماء جار فدافق كجار ، فما الموجب للتكلف البارد ، وأما عيشة راضية فهي عند سيبويه على النسب « كتامر » و « لابن » أي ذات رضى ، وعند غيره « كنهار صائم » و « ليل قائم » على المبالغة .

والقول الثاني : أن من رحم فاعل لا مفعول والمعنى لا يعصم اليوم من أمر الله إلا الراحم ، فهو استثناء فاعل من فاعل وهذا وإن كان أقل تكلفاً فهو أيضاً ضعيف جداً وجزالة الكلام وبلاغته تأباه بأول نظر .

والقول الثالث : أن في الكلام مضافاً محذوفاً قام المضاف إليه مقامه والتقدير لا معصوم عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحمه الله . وهذا من أنكر الأقوال وأشدها منافاة للفصاحة والبلاغة ، ولو صرح به لكان مستغثاً[1] .

قال خطيب الأنبياء شعيب صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٦] .

فأخبر عن عموم قدرته تعالى ، وأن الخلق كلهم تحت تسخيره وقدرته ، وأنه أخذ بنواصيهم ، فلا محيص لهم عن نفوذ مشيئته وقدرته فيهم ، ثم عقب ذلك بالإخبار عن تصرفه فيهم ، وأنه بالعدل لا بالظلم ، وبالإحسان لا بالإساءة ، بالصلاح لا بالفساد ، فهو يأمرهم وينهاهم إحساناً إليهم وحماية وصيانة لهم ، لا حاجة إليهم ، ولا بخلا عليهم ، بل جوداً وكرماً ولطفاً وبراً ويثيبهم إحساناً وتفضلاً ورحمة . لا لمعاوضة واستحقاق منهم ودَيْن واجب لهم يستحقونه عليه ويعاقبهم عدلاً وحكمة لا تشفياً ولا مخافة ولا ظلماً ، كما يعاقب الملوك وغيرهم ، بل هو الصراط المستقيم ، وهو صراط العدل والإحسان ، في أمره ونهيه ، وثوابه وعقابه .

فتأمل ألفاظ هذه الآية وما جمعته من عموم القدرة ، وكمال الملك ، ومن

(١) بدائع الفوائد (٣ / ٦٧ - ٦٨) .

تمام الحكمة والعدل والإحسان ، وما تضمنته من الرد على الطائفتين[1] فإنها من كنوز القرآن وقد كفت وشفت لمن فتح عليه بفهمها .

فكونه تعالى على صراط مستقيم ينفي ظلمه للعباد ، وتكليفه إياهم ما لا يطيقون ، وينفي العيب من أفعاله وشرعه ، ويثبت لها غاية الحكمة والسداد ، رداً على منكري ذلك ، وكون كل دابة تحت قبضته وقدرته وهو آخذ بناصيتها ، ينبغي أن لا يقع في ملكه من أحد من المخلوقات شيءٌ بغير مشيئته وقدرته وأن من ناصيته بيد الله ، وفي قبضته لا يمكنه أن يتحرك إلا بتحريكه ، ولا يفعل إلا بإقداره ، ولا يشاء إلا بمشيئته تعالى رداً على منكري ذلك من القدرية . فالطائفتان ما وفوا الآية معناها ، ولا قدروها حق قدرها فهو سبحانه على صراط مستقيم في عطائه ومنعه وهدايته وإضلاله وفي نفعه وفي ضره وعاقبته وبلائه وإغنائه وإفقاره وإعزازه وإذلاله وإنعامه ، وانتقامه وثوابه ، وعقابه وإحيائه وإماتته ، وأمره ونهيه وتحليله وتحريمه وفي كل ما يخلق وكل ما يأمر به ، وهذه المعرفة بالله لا تكون إلا للأنبياء ولورثتهم[2] .

وقال رحمه الله تعالى :

ولما علم نبي الله هود عليه السلام أن ربه على صراط مستقيم في خلقه وأمره ونهيه ، وثوابه وعقابه ، وقضائه وقدره ، ومنعه وعطائه ، وعافيته وبلائه ، وتوفيقه وخذلانه ، لا يخرج في ذلك عن موجب كماله المقدس ، الذي يقتضيه أسماؤه وصفاته ، من العدل والحكمة والرحمة والإحسان والفضل ، ووضع الثواب موضعه ، والعقوبة في موضعها اللائق بها ، ووضع التوفيق والخذلان والعطاء والمنع والهداية والإضلال ، كل ذلك في أماكنه ومحاله اللائقة بها ، بحيث يستحق على ذلك كمال الحمد والثناء – أوجب له ذلك العلم والعرفان ، إذ نادى على رءوس الملأ من قومه بجنان ثابت وقلب خائف بل متجرد لله ﴿ **إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون إني توكلت على الله**

(١) من نفاة الحكمة والقدرية .

(٢) مفتاح دار السعادة (٤١٢ – ٤١٣) .

ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ﴾ .

ثم أخبر عن عموم قدرته وقهره لكل ما سواه ، وذل كل شيء لعظمته ، فقال : ﴿ **ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم** ﴾ فكيف أخاف من ناصيته بيد غيره ، وهو في قهره وقبضته ، وتحت قهره وسلطانه دونه ، وهل هذا إلا من أجهل الجهل ، وأقبح الظلم ؟

ثم أخبر أنه سبحانه على صراط مستقيم ، في كل ما يقضيه ويقدره فلا يخاف العبد جوره ولا ظلمه ، فلا أخاف ما دونه ، فإن ناصيته بيده ، ولا أخاف جوره وظلمه ، فإنه على صراط مستقيم فهو سبحانه ماضٍ في عبده حكمه ، عدل فيه قضاؤه ، له الملك وله الحمد، لا يخرج في تصرفه في عباده عن العدل والفضل ، إن أعطى وأكرم وهدى ووفق فبفضله ورحمته ، وإن منع وأهان وأضل وخذل وأشقى فبعدله وحكمته - وهو على صراط مستقيم في هذا وهذا[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

قال هود عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿**إني توكلت على الله ربي وربكم**﴾ الآية . فأخبر عن عموم قدرته ونفوذ مشيئته وتصرفه في خلقه كيف شاء ، ثم أخبر أنه في هذا التصرف والحكم على صراط مستقيم . وقال أبوإسحاق أي : هو سبحانه وإن كانت قدرته تنالهم بما شاء فإنه لا يشاء إلا العدل .

وقال ابن الأنباري لما قال : ﴿ **هو آخذ بناصيتها** ﴾ ، كان في معنى لا يخرج من قبضته وأنه قاهر بعظيم سلطانه لكل دابة ، فأتبع قوله : ﴿ **إن ربي على صراط مستقيم** ﴾ قال : وهذا نحو كلام العرب . إذا وصفوا بحسن السيرة والعدل والإنصاف قالوا : فلان على طريقة حسنة ، وليس ثم طريق ، ثم ذكر وجهاً آخر فقال : لما ذكر أن سلطانه قد قهر كل دابة أتبع هذا قوله : ﴿ **إن ربي على صراط مستقيم** ﴾ أي لا تخفى عليه مشيئته ولا يعدل عنه هارب فذكر

(١) الجواب الكافي (٣١١ - ٣١٢) .

الصراط المستقيم وهو يعني به الطريق الذي لا يكون لأحد مسلك إلا عليه كما قال : (إن ربك لبالمرصاد) .

قلت : فعلى هذا القول الأول يكون المراد أنه في تصرفه في ملكه يتصرف بالعدل ومجازات المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ولا يظلم مثقال ذرة ، ولا يعاقب أحداً بما لم يجنه ، ولا يهضمه ثواب ما عمله ، ولا يحمل عليه ذنب غيره ، ولا يأخذ أحداً بجريرة أحد ، ولا يكلف نفساً ما لا تطيقه ، فيكون من باب « له الملك وله الحمد » ومن باب « ماض فيّ حكمك ، عدل فيّ قضاؤك»، ومن باب « الحمد لله رب العالمين » أي كما أنه رب العالمين المتصرف فيهم بقدرته ومشيئته فهو المحمود على هذا التصرف ، وله الحمد على جميعه .

وعلى القول الثاني المراد به التهديد والوعيد ، وأن مصير العباد إليه وطريقهم عليه لا يفوته منهم أحد . كما قال تعالى : (قال هذا صراط عليّ مستقيم) قال الفراء يقول مرجعهم إليّ فأجازيهم كقوله : (إن ربك لبالمرصاد) قال : وهذا كما تقول في الكلام « طريقك عليّ وأنا على طريقك » لمن أوعدته ، وكذلك قال الكلبي والكسائي. ومثل قوله: (وعلى الله قصد السبيل) على إحدى القولين في الآية وقال مجاهد الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه ومنها أي ومن السبيل ما هو جائر عن الحق ولو شاء لهداكم أجمعين ، فأخبر عن عموم مشيئته وأن طريق الحق عليه موصلة إليه فمن سلكها فإليه يصل ، ومن عدل عنها فإنه يضل عنه .

والمقصود أن هذه الآيات تتضمن عدل الرب تعالى وتوحيده ، والله يتصرف في خلقه بملكه وحمده وعدله وإحسانه ، فهو على صراط مستقيم في قوله وفعله وشرعه وقدره وثوابه وعقابه ، يقول الحق ، ويفعل العدل : (والله يقول الحق وهو يهدي السبيل) [الأحزاب : ٤] . فهذا العدل والتوحيد اللذين دل عليهما القرآن لا يتناقضان ، وأما توحيد أهل القدر والجبر وعدلهم فكل منهما يبطل الآخر ويناقضه[1] .

---

(١) شفاء العليل (٨٧) و (١ - ٢) وروضة المحبين (٧٠) .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله : ﴿ **ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها** ﴾ نظير قوله : « ناصيتي بيدك »[١] وقوله : ﴿ **إن ربي على صراط مستقيم** ﴾ نظير قوله « عدل فيّ قضاؤك » فالأول ملكه ، والثاني حمده - وهو سبحانه له الملك - وله الحمد ، وكونه سبحانه على صراط مستقيم يقتضي أنه لا يقول إلا الحق - ولا يأمر إلا بالعدل ، ولا يفعل إلا ما هو مصلحة وحكمة وعدل ، فهو على الحق في أقواله وأفعاله ، فلا يقضي على العبد بما يكون ظالماً له به ، ولا يأخذه بغير ذنبه ، ولا ينقص من حسناته شيئاً ، ولا يحمل عليه من سيئات غيره التي لم يعلمها ، ولم يتسبب إليها شيئاً ، ولا يؤاخذ أحداً بذنب غيره ، ولا يفعل قط ما لا يحمد عليه ويثنى به عليه ، ويكون له فيه العواقب الحميدة ، والغايات المطلوبة ، فإن كونه على صراط مستقيم يأبى ذلك كله .

قال محمد بن جرير الطبري[٢]: وقوله : ﴿ **إن ربي على صراط مستقيم** ﴾ يقول إن ربي على طريق الحق ، يجازي المحسن من خلقه بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، لا يظلم أحداً منهم شيئاً ، ولا يقبل منهم إلا الإسلام له والإيمان به .

ثم حكى عن مجاهد من طريق شبل (عن) ابن أبي نجيح عنه ﴿ **إن ربي على صراط مستقيم** ﴾ قال : الحق .

وكذلك رواه ابن جريج عنه ، وقالت فرقة هي مثل قوله : (إن ربك لبالمرصاد) [الفجر : ١٤] .

وهذا اختلاف عبارة ، فإن كونه بالمرصاد ، هو مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

وقالت فرقة : في الكلام حذف ، تقديره : إن ربي يحتكم على صراط مستقيم ، ويحضكم عليه .

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) تفسير الطبري (١٢ / ٦٠) .

وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية التي أريد بها ، فليس كما زعموا ، ولا دليل على هذا المقدر ، وقد فرق سبحانه بين كونه آمراً بالعدل ، وبين كونه على صراط مستقيم ، وإن أرادوا أن حثه على الصراط المستقيم من جملة كونه على صراط مستقيم فقد أصابوا .

وقالت فرقة أخرى : معنى كونه على صراط مستقيم أن مرد العباد والأمور كلها إلى الله ، لا يفوته شيء منها ، وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية ، فليس كذلك ، وإن أرادوا أن هذا من لوازم كونه على صراط مستقيم ، ومن مقتضاه وموجبه فهو حق .

وقالت فرقة أخرى : معناه كل شيء تحت قدرته وقهره ، وفي ملكه وقبضته – وهذا وإن كان حقاً فليس هو معنى الآية ، وقد فرق شعيب بين قوله : ﴿ **ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها** ﴾ وبين قوله : ﴿ **إن ربي على صراط مستقيم** ﴾ فهما معنيان مستقلان ، فالقول : قول مجاهد وهو قول أئمة التفسير ، ولا تحتمل العربية غيره إلا على استكراه :

وقال جرير[1] يمدح عمر بن عبد العزيز :

أميرُ المؤمنين على صراط ... إذا اعوج الموارد مستقيم[2]

وقال رحمه الله تعالى :

فقوله ﴿ **ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها** ﴾ مثل قوله « ناصيتي بيدك ماض في حكمك » وقوله : ﴿ **إن ربي على صراط مستقيم** ﴾ مثل قوله « عدل في قضاؤك » أي لا يتصرف في تلك النواصي إلا بالعدل والحكمة والمصلحة والرحمة لا يظلم أصحابها ولا يعاقبهم بما لم يعملوه ، ولا يهضمهم حسنات ما عملوه فهو سبحانه على صراط مستقيم في قوله وفعله يقول الحق ويفعل الخير

---

(١) راجع هامش (١) (صـ ٢٣١) من الفاتحة .

(٢) إعلام الموقعين (١ / ٢١٣ – ٢١٥) .

والرشد ، وقد أخبر سبحانه أنه على الصراط المستقيم في سورة هود ، وفي سورة النحل ، فأخبر في هود أنه على صراط مستقيم في تصرفه في النواصي التي هي في قبضته ، وتحت يده ، وأخبر في النحل[1] أنه يأمر بالعدل ويفعله[2] .

قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود : ٦٩] .

والسر في نصب سلام ضيف إبراهيم الملائكة ، ورفع سلامه .

[فالجواب] أنك قد عرفت قول النحاة فيه أن سلام الملائكة تضمن جملة فعلية ، لأن نصب السلام يدل على : سلّمنا عليك سلاماً ، وسلام إبراهيم تضمن جملة اسمية ، لأن رفعه يدل على أن المعنى : سلامٌ عليكم ، والجملة الاسمية تدل على الثبوت والتقرر ، والفعلية تدل على الحدوث والتجدد ، فكان سلامه عليهم أكمل من سلامهم عليه ، وكان له من مقامات الرد ما يليق بمنصبه صلى الله عليه وسلم وهو مقام الفضل إذ حيّاهم بأحسن من تحيتهم ، هذا تقرير ما قالوه ، وعندي فيه جواب أحسن من هذا وهو أنه لم يقصد حكاية سلام الملائكة فنصب قوله سلاماً انتصاب مفعول القول المفرد ، كأنه قيل قالوا سلاماً ، وقالوا سداداً وصواباً ونحو ذلك ، فإن القول إنما تحكى به الجمل ، وأما المفرد فلا يكون محكيا به ، بل منصوب به انتصاب المفعول به ، ومن هذا قوله تعالى : (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) [الفرقان : ٦٣] .

ليس المراد أنهم قالوا هذا اللفظ المفرد المنصوب ، وإنما معناه : قالوا قولاً سلاماً ، مثل سداداً وصواباً ، وسمى القول سلاماً : لأنه يؤدي معنى السلام ويتضمنه من رفع الوحشة ، وحصول الاستيناس ، وحكى عن إبراهيم لفظ سلامه ، فأتى به على لفظه ، مرفوعاً بالابتداء محكيا بالقول ، ولولا قصد الحكاية لقال سلاما بالنصب ؛ لأن ما بعد القول إذا كان مرفوعاً فعلى الحكاية ليس إلا

(١) في قوله تعالى : ﴿ وضرب الله مثلاً .. ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ﴾ [النحل : ٧٦] .

(٢) شفاء العليل (٢٧٥) .

فحصل من الفرق بين الكلامين في حكاية سلام إبراهيم ورفعه ونصب ذلك إشارة إلى معنى لطيف جداً وهو أن قوله سلام عليكم من دين الإسلام المتلقى عن إمام الحنفاء وأبي الأنبياء ، وأنه من ملة إبراهيم التي أمر الله بها ، وباتباعها فحكى لنا قوله ليحصل الاقتداء به والاتباع له ، ولم يحك قول أضيافه ، وإنما أخبر به على الجملة دون التفصيل . والله أعلم فزن هذا الجواب والذي قبله بميزان غير جائر يظهر لك أقواهما . وبالله التوفيق[١] .

قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ [هود : ٦٩-٧٣]

فتأمل سياق هذه البشارة وتلك تجدهما بشارتين متفاوتتين ، مخرج إحداهما غير مخرج الأخرى ، والبشارة الأولى كانت له ، والثانية كانت لها ، والبشارة الأولى هي التي أمر بذبح من بشر به فيها دون الثانية[٢] .

قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ [هود : ٧٨] .

وتأمل خبث اللوطية وفرط تمردهم على الله حيث جاءوا نبيهم لوطاً لما سمعوا بأنه قد طرقه أضياف ، هم من أحسن البشر صوراً ، فأقبل اللوطية إليه يهرولون ، فلما رآهم قال لهم : ﴿ **يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم** ﴾ ففدى

(١) بدائع الفوائد (٢ / ١٥٧ - ١٥٨) .
(٢) إغاثة اللهفان (٢ / ٣٥٦) .

أضيافه بناته يزوجهم بهن خوفاً على نفسه وأضيافه من العار الشديد ، فقال: ﴿ **قال ياقوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد** ﴾ فردوا عليه ، ولكن رد جبار عنيد : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ [هود: ٧٩]. فنفث نبي الله منه نفثة مصدور خرجت من قلب مكروب فقال: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[هود: ٨٠].فنفس له رسل الله، وكشفوا له عن حقيقة الحال، وأعلموه أنهم ممن ليسوا يوصل إليهم ، ولا إليه بسببهم ، فلا تخف منهم ، ولا تعبأ بهم وهون عليك . فقالوا : ﴿ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ [هود : ٨١] . وبشروه بما جاءوا به من الوعد له، ولقومه من الوعيد المصيب فقالوا : ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود : ٨١] .

فاستبطأ نبي الله موعد هلاكهم وقال : أريد أعجل من هذا فقالت الملائكة : ﴿ **أليس الصبح بقريب** ﴾ فوالله ما كان بين إهلاك أعداء الله ، ونجاة نبيه وأوليائه إلا مابين السحر وطلوع الفجر ، وإذا بديارهم قد اقتلعت من أصلها ورفعت نحو السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب ونهيق الحمير ، فبرز المرسوم الذي لا يرد عن الرب الجليل إلى عبده ورسوله جبرائيل ، بأن قلبها عليهم كما أخبر به محكم التنزيل فقال عز من قائل : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [هود : ٨٢] . فجعلهم آية للعالمين وموعظة للمتقين ونكالاً وسلفاً لمن شاركهم في أعمالهم من المجرمين، وجعل ديارهم بطريق السالكين (إن في ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لبسبيل مقيم إن في ذلك لآية للمؤمنين) [الحجر : ٧٥-٧٧] . أخذهم على غرة وهم نائمون وجاءهم بأسه وهم في سكرتهم يعمهون ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فقلبت تلك اللذات آلاما فأصبحوا بها يعذبون .

مآرب كانت في الحياة لأهلها عِذَاباً فصارت في الممات عَذَابا

ذهبت اللذات ، وأعقبت الحسرات ، وانقضت الشهوات ، وأورثت

الشقوات ، وتمتعوا قليلاً ، وعذبوا طويلاً ، رتعوا مرتعاً وخيماً فأعقبهم عذاباً أليماً ، وأسكرتهم خمرة تلك الشهوات ، فما استفاقوا منها إلا في ديار المعذبين ، وأرقدتهم تلك الغفلة فما استيقظوا منها إلا وهم في منازل الهالكين ؛ فندموا والله أشد الندامة حين لا ينفع الندم ، وبكوا على ما أسلفوه بدل الدموع بالدم ، فلو رأيت الأعلى والأسفل من هذه الطائفة ، والنار تخرج من منافذ وجوههم وأبدانهم وهم بين أطباق الجحيم ، وهم يشربون بدل لذيذ الشراب كئوس الحميم ، ويقال لهم وهم على وجوههم يسحبون : ذوقوا ما كنتم تكسبون : (اصلوها فاصبروا أو لاتصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون) [الطور : ١٦] . وقد قرب الله سبحانه مسافة العذاب بين هذه الأمة وبين إخوانهم في العمل ، فقال مخوفاً لهم أن يقع الوعيد : ﴿ **وما هي من الظالمين ببعيد** ﴾ [هود : ٨٣][١].

بيان نوع الاستثناء في :

قوله تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتُكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ [هود : ٨١] .

في قراءة الرفع[٢] ، ويكون امرأتك مبتدأ ، وخبره ما بعده ، وهذا التوجيه أولى من أن يجعل الاستثناء في قراءة من نصب من قوله : ﴿ **فأسر بأهلك** ﴾ وفي قراءة من رفع من قوله : ﴿ **ولا يلتفت منكم أحد** ﴾ ويكون الاستثناء على هذا من ﴿ **فأسر بأهلك** ﴾ رفعا ونصبا ، وإنما قلنا إنه أولى لأن المعنى عليه فإن الله تعالى أمره أن يسري بأهله إلا امرأته ، ولو كان الاستثناء من الالتفات لكان قد نهى المسري بهم عن الالتفات وأذن فيه لامرأته ، وهذا ممتنع لوجهين :

أحدهما : أنه لم يأمره أن يسري بامرأته ، ولا دخلت في أهله الذين وعد بنجاتهم .

(١) الجواب الكافي (٢٦٠ - ٢٦٢) .

(٢) انظر « كتاب السبعة في القراءات » (صـ ٣٣٨) لابن مجاهد وتفسير القرطبي (٤ / ٣٣٠٨) .

والثاني : أنه لم يكلفهم بعدم الالتفات ، ويأذن فيه للمرأة إذا عرف هذا فاختلف النحاة ، هل من شرط الاستثناء المنقطع تقدير دخوله في المستثنى منه بوجه أو ليس ذلك بشرط ؟

فكثير من النحاة لم يشترطوا فيه ذلك ، وشرطه آخرون قال ابن السراج : إذا كان الاستثناء منقطعا فلابد من أن يكون الكلام الذي قبل « إلا » قد دل على ما يستثنى فعلى الأول : لايحتاج إلى تقدير ، وعلى الثاني : فلابد من تقدير الرد[(١)].

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود : ٨٧] . إذا جعل من باب التهكم به ، والازدراء عليه كان ذماً . ولهذا قال بعض المفسرين[(٢)]: أرادوا – إنك لأنت الأحمق السفيه .

وإن أريد به المدح فالتقدير – إنك أنت الكامل الحليم الرشيد ، فكيف يبدو منك مثل هذا ؟! لأنه ذكر الحليم والرشيد بالألف واللام التي هي لاستغراق الجنس أو للعهد[(٣)] .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود : ١٠٣] .

فإنه إنما آثر اسم المفعول ها هنا على الفعل المضارع ؛ لما فيه من الدلالة على ثبات معنى الجمع ، وأنه لابد من أن يكون ميعاداً مضروباً لجمع الناس ، وأنه الموصوف بهذه الصفة وإن شئت فوازن بينه وبين قوله تعالى : (يوم يجمعكم ليوم ألجمع ذلك يوم التغابن) [التغابن : ٩] فإنك تعثر على صحة ما قلت[(٤)] .

---

(١) بدائع الفوائد (٣ / ٦٥ – ٦٦) .
(٢) انظر الكشاف للزمخشري (٢ / ٢٣٠) .
(٣) الفوائد المشوق (١٦٦) .
(٤) الفوائد المشوق (١٠٤) .

قال الله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ [هود: ١١٦].

استشهاده[١] بهذه الآية في هذا الباب: يدل على رسوخه في العلم والمعرفة وفهم القرآن. فإن الغرباء في العالم: هم أهل هذه الصفة المذكورة في الآية، وهم الذين أشار إليهم النبي صلى الله عليه وسلم في قوله[٢] « بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ. فطوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء يارسول الله؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس »[٣].

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧].

في الآية قولان[٤]:

أحدهما: ما كان ليهلكها بظلم منهم.

الثاني: ما كان ليهلكها بظلم منه.

والمعنى على القول الأول: ما كان ليهلكها بظلمهم المتقدم وهم مصلحون الآن. أي إنهم بعد أن أصلحوا، وتابوا: لم يكن ليهلكهم بما سلف منهم من الظلم.

---

(١) شيخ الإسلام الهروي رحمه الله، وذلك في منزلة « الغرباء ».
(٢) حديث صحيح رواه الإمام أحمد (٥/٢٩٦) وقال الشيخ أحمد شاكر « إسناده صحيح ».
وأبو يعلى (٨/٣٨٨).
ورواه الترمذي (٥/١٩) في الإيمان، باب: ما جاء أن الإسلام بدأ غريباً..
وابن ماجه: الصحيح (٢ / ٣٦٣) في الفتن، باب: بدأ الإسلام غريباً..
دون قوله « قيل ومن الغرباء »..
وكلهم رووه من حديث: «عبد الله بن مسعود رضي الله عنه».
(٣) مدارج السالكين (٣ / ١٩٤).
(٤) انظر تفسير الطبري (١٢ / ١٤٠). والزمخشري (٢ / ٢٣٩). والقرطبي (٤ / ٣٣٤١). والآلوسي (١٢ / ١٦١).

وعلى القول الثاني : إنه لم يكن ظالماً لهم في إهلاكهم، فإنه لم يهلكهم وهم مصلحون ؛ وإنما أهلكهم وهم ظالمون. فهم الظالمون لمخالفتهم ، وهو العادل في إهلاكهم[١] .

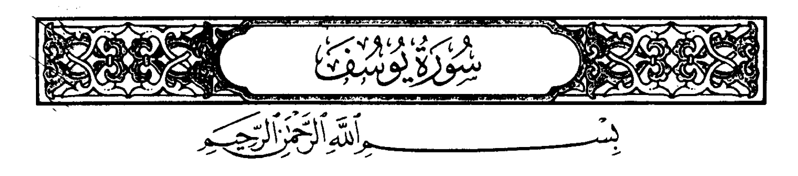
وقال رحمه الله تعالى :

فدل على أنه لو أهلكهم مع إصلاحهم لكان ظالماً . وعندهم يجوز ذلك وليس بظلم لو فعل. ويؤولون الآية على أنه سبحانه أخبر أنه لا يهلكهم مع إصلاحهم وعلم أنه لا يفعل ذلك . وخلاف خبره ومعلومه مستحيل وذلك حقيقة الظلم ، ومعلوم أن الآية لم يقصد بها هذا قطعاً ولا أريد بها ، ولا تحتمله بوجه ، إذ يؤول معناها إلى أنه ما كان ليهلك القرى بظلم يسبب اجتماع النقيضين وهم مصلحون . وكلامه تعالى يتنزه عن هذا ، ويتعالى عنه[٢] .

* * *

(١) مدارج السالكين (١ / ٢١٧ - ٢١٨) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٢٣٧) .

سُورَةُ يُوسُفَ



بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف : ١٨] .

شاهد للوجهين يجوز أن يكون من باب حذف الخبر ومن باب حذف المبتدأ فإن جعلته من حذف المبتدأ كان التقدير: فالأمر أو فأمري صبر جميل ، وإن جعلته من باب حذف الخبر يكون التقدير : فصبر جميل أجمل[1] .

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا ﴾ الآية [يوسف : ٢٤] إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ﴾ الآية [يوسف : ٥٣] .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى عن يوسف الصديق صلى الله عليه وسلم من العفاف أعظم ما يكون ، فإن الداعي الذي اجتمع في حقه لم يجتمع في حق غيره فإنه صلى الله عليه وسلم كان شاباً والشباب مركب الشهوة .

وكان عزباً ليس عنده ما يعوضه ، وكان غريباً عن أهله ووطنه، والمقيم بين أهله وأصحابه يستحي منهم أن يعلموا به فيسقط من عيونهم ، فإذا تغرب زال هذا المانع ، وكان في صورة المملوك ، والعبد لا يأنف مما يأنف منه الحر ، وكانت المرأة ذات منصب وجمال والداعي مع ذلك أقوى من داعي من ليس كذلك ، وكانت هي المطالبة فيزول بذلك كلفة تعرض الرجل وطلبه وخوفه من عدم الإجابة ، وزادت مع الطلب الرغبة التامة والمراودة التي يزول معها ظن الامتحان والاختبار لتعلم عفافه من فجوره ، وكانت في محل سلطانها ، وبيتها بحيث تعرف

---

(١) الفوائد المشوق (٧٨ - ٧٩) .

وقت الإمكان ومكانه الذي لا تناله العيون ، وزادت مع ذلك تغليق الأبواب لتأمن هجوم الداخل على بغتة ، وأتته بالرغبة والرهبة ، ومع هذا كله عفَّ لله ، ولم يطعها ، وقدم حق الله وحق سيدها على ذلك كله ، وهذا أمر لو ابتلي به سواه لم يعلم كيف كانت تكون حاله ، فإن قيل : فقد همَّ بها !؟

قيل : عنه جوابان :

أحدهما : أنه لم يهم بها بل لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ ، هذا قول بعضهم في تقدير الآية .

والثاني : وهو الصواب - أن هَمَّه كان همَّ خطرات فتركه لله فأثابه الله عليه - وهمُّها كان همَّ إصرار بذلت معه جهدها فلم تصل إليه فلم يستو الهمَّان .

قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه : الهمُّ همَّان : همُّ خطرات وهمُّ إصرار فهم الخطرات لا يؤاخذ به ، وهمُّ الإصرار يؤاخذ به .

فإن قيل : فكيف قال وقت ظهور براءته : ﴿ **وما أبرىء نفسي** ﴾ .

قيل : هذا قد قاله جماعة من المفسرين ، وخالفهم في ذلك آخرون أجلُّ منهم وقالوا : إن هذا من قول امرأة العزيز لا من قول يوسف عليه السلام .

والصواب معهم لوجوه :

أحدها : أنه متصل بكلام المرأة وهو قولها : ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ * ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ * وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ﴾ [يوسف : ٥١-٥٢] .

ومن جعله من قوله فإنه يحتاج إلى إضمار قول لا دليل عليه في اللفظ بوجه ، والقول في مثل « لا » يحذف لئلا يوقع في اللبس فإن غايته أن يحتمل الأمرين ، فالكلام الأول أولى به قطعاً .

الثاني : أن يوسف عليه السلام لم يكن حاضراً وقت مقالتها هذه ، بل كان في السجن لما تكلمت بقولها : ﴿ **الآن حصحص الحقُّ** ﴾ والسياق صريح

في ذلك فإنه لما أرسل الملك إليه يدعوه قال للرسول :

﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف : ٥٠] . فأرسل إليهن الملك وأحضرهن وسألهن وفيهن امرأته ، فشهدن ببراءته ونزاهته في غيبته – ولم يمكنهن إلا قول الحق ، فقال النسوة : ﴿ **حاشا لله ما علمنا عليه من سوء** ﴾ [يوسف : ٥١] .

وقالت امرأة العزيز : ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [يوسف : ٥١] .

فإن قيل : لكن قوله : ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ [يوسف : ٥٢] . الأحسن أن يكون من كلام يوسف عليه السلام ، أي إنما كان تأخيري عن الحضور مع رسوله ؛ ليعلم الملك أني لم أخنه في امرأته في حال غيبته ، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين . ثم إنه صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٣] . وهذا من تمام معرفته صلى الله عليه وسلم بربه ونفسه ، فإنه لما ظهرت براءته ونزاهته مما قذف به ؛ أخبر عن حال نفسه وأنه لا يزكيها ولا يبرئها . فإنها أمارة بالسوء لكن رحمة ربه وفضله هو الذي عصمه ، فرد الأمر إلى الله بعد أن أظهر براءته ، قيل : هذا وإن كان قد قاله طائفة فالصواب أنه من تمام كلامها ، فإن الضمائر كلها في نسق واحد يدل عليه وهو قول النسوة : ﴿ **ما علمنا عليه من سوء** ﴾ وقول امرأة العزيز : ﴿ **أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين** ﴾ فهذه خمسة ضمائر بين بارز ومستتر ثم اتصل بها قوله : ﴿ **ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب** ﴾ فهذا هو المذكور أولاً بعينه فلا شيء يفصل الكلام عن نظمه، ويضمر فيه قول لا دليل عليه فإن قيل : فما معنى قولها : ﴿ **ليعلم أني لم أخنه بالغيب** ﴾ قيل : هذا من تمام الاعتذار ، قرنت الاعتذار بالاعتراف فقالت : ذلك أي قولي هذا وإقراري ببراءته ؛ ليعلم أني لم أخنه بالكذب عليه في غيبته وإن خُنته في وجهه في أول الأمر ، فالآن يعلم أني لم أخنه في غيبته ، ثم اعتذرت عن نفسها بقولها : ﴿ **وما أبرىء**

نفسي ﴾ .. ثم ذكرت السبب الذي لأجله لم تبرىء نفسها ، وهي أن النفس أمارة بالسوء ، فتأمل ما أعجب هذه المرأة ! أقرت بالحق واعتذرت عن محبوبها ، ثم اعتذرت عن نفسها ، ثم ذكرت السبب الحامل لها على ما فعلت ، ثم ختمت ذلك بالطمع في مغفرة الله ورحمته ، وأنه إن لم يرحم عبده وإلا فهو عرضة للشر .

فوازن بين هذا وبين تقدير كون هذا الكلام كلام يوسف عليه السلام لفظاً ومعنى ، وتأمل ما بين التقديرين من التفاوت ، ولا يستبعد أن تقول المرأة هذا وهي على دين الشرك ، فإن القوم كانوا يقرون بالرب سبحانه وتعالى وبحقه وإن أشركوا معه غيره ، ولا تنس قول سيدها لها في أول الحال :

﴿ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ [يوسف : ٢٩] [(١)].

وقال رحمه الله تعالى :

فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف وما راودته وكادته به ، وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف بصبره وعفته وتقواه . مع أن الذي ابتلي به أمر لا يصبر عليه إلا من صبره الله ، فإن مواقعة الفعل بحسب قوة الداعي ، وزوال المانع وكان الداعي هٰهنا في غاية القوة ، وذلك من وجوه :

أحدها : ما ركبه الله سبحانه في الرجل من ميله إلى المرأة كما يميل العطشان إلى الماء ، والجائع إلى الطعام حتى إن كثيراً من الناس ، يصبر عن الطعام والشراب ، ولا يصبر على النساء ، وهذا لا يذم إذا صادف حلالاً بل يحمد كما في كتاب الزهد[(٢)] للإمام أحمد من حديث يوسف بن عطية الصفار عن ثابت البناني عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم : « حبب إلي من دنياكم النساء والطيب ، أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن » .

---

(١) روضة المحبين (٢٩٧ - ٣٠١) .

(٢) « يوسف بن عطية الصفار .. » مجمع على ضعفه .
وقال النسائي : متروك .
وقال البخاري : منكر الحديث .
ميزان الاعتدال (٤ / ٤٦٨) .

الثاني : أن يوسف عليه السلام كان شاباً وشهوة الشاب وحدته أقوى .

الثالث : أنه كان عزباً ليس له زوجة ولا سرية تكسر قوة الشهوة .

الرابع : أنه كان في بلاد غربة يتأتى الغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأتى له في وطنه وبين أهله ومعارفه .

الخامس : أن المرأة كانت ذات منصب وجمال بحيث إن كل واحدمن هذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها .

السادس : أنها غير ممتنعة ولا آبية؛ فإن كثيراً من الناس يزيل رغبته إباؤها وامتناعها لما يجد في نفسه ذل الخضوع والسؤال لها، وكثير من الناس يزيده الإباء والامتناع إرادة وحباً كما قال الشاعر :

وزادني كلفاً في الحب إن منعت		أحب شيء إلى الإنسان ما منعنا

فطباع النفس مختلفة؛ فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها . ويضمحل عند إبائها وامتناعها .

وأخبرني بعض القضاة ، أن إرادته وشهوته تضمحل عند امتناع امرأته أو سريته وإبائها بحيث لا يعاودها ، ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع فيشتد شوقه كلما منع ، ويحصل له من اللذة بالظفر بالضد بعد امتناعه ونفاره ، واللذة بإدراك المسألة بعد استصعابها وشدة الحرص على إدراكها .

السابع : أنها طلبت وأرادت وراودت ، وبذلت الجهد؛ فكفته مؤنة الطلب وذل الرغبة إليها بل كانت هي الراغبة الذليلة، وهو العزيز المرغوب إليه .

الثامن : أنه في دارها وتحت سلطانها وقهرها بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له؛ فاجتمع داعي الرغبة والرهبة .

التاسع : أنه لا يخشى أن تنم عليه هي ، ولا أحد من جهتها فإنها هي الطالبة الراغبة وقد غلقت الأبواب ، وغيبت الرقباء .

العاشر : أنه كان في الظاهر مملوكاً لها في الدار ، بحيث يدخل ويخرج ،

ويحضر معها ولا ينكر عليه ، وكان الأنس سابقاً على الطلب وهو من أقوى الدواعي كما قيل لامرأة شريفة ، من أشراف العرب : ما حملك على الزنى ؟ قالت : قرب الوساد وطوال السواد ، تعني قرب وساد الرجل من وسادتي ، وطوال السواد بيننا .

الحادي عشر : أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال فأرته إياهن وشكت حالها إليهن لتستعين بهن عليه واستعان هو بالله عليهن ، فقال : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣٣] .

الثاني عشر : أنها توعدته بالسجن والصغار وهذا نوع إكراه ، إذ هو تهديد من يغلب على الظن وقوع ما هدد به ، فيجتمع داعي الشهوة ، وداعي السلامة من ضيق السجن والصغار .

الثالث عشر : أن الزوج لم يظهر من الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما ؛ ويبعد كلا منهما عن صاحبه بل كان غاية ما قابلها به : أن قال ليوسف : ﴿ **أعرض عن هذا** ﴾ وللمرأة: ﴿**استغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين**﴾.

وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع ، وهذا لم يظهر منه غيرة ، ومع هذه الدواعي كلها فآثر مرضاة الله وخوفه ، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ [يوسف ٣٣] . وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ، ويصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه ، وكان من الجاهلين ، وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه وفي هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على الألف فائدة ، لعلنا إن وفق الله أن نفردها في مصنف مستقل[(١)] .

ولهذا أصاب امرأة العزيز ما أصابها من العشق لشركها ، ونجا منه يوسف الصديق عليه السلام بإخلاصه، قال تعالى: ﴿**كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين**﴾[يوسف : ٢٤] . فالسوء : العشق والفحشاء : الزنا فالمخلص

(١) الجواب الكافي (٣١٣ - ٣١٦) .

قد خلص حبه لله ، فخلصه الله من فتنة عشق الصور والمشرك قلبه متعلق بغير الله ، لم يخلص توحيده وحبه لله عز وجل[(١)] .

وقال رحمه الله تعالى :

فامرأة العزيز لما كانت مشركة ، وقعت فيما وقعت فيه مع كونها ذات زوج ويوسف عليه السلام لما كان مخلصاً لله تعالى نجا من ذلك مع كونه شاباً عزباً غريباً مملوكاً[(٢)] .

وقال رحمه الله تعالى :

وصرف السوء والفحشاء هو صرف دواعي القلب وميله إليهما فينصرفان عنه بصرف دواعيهما[(٣)] .

الحكم بالقرائن

وقال رحمه الله تعالى :

وقد حكى الله سبحانه في كتابه عن الشاهد الذي شهد من أهل امرأة العزيز ، وحكم بالقرائن الظاهرة على براءة يوسف عليه السلام ، وكذب المرأة ، بقوله : ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف : ٢٦-٢٨] . وسمى الله سبحانه ذلك آية وهي أبلغ من البينة فقال : ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف : ٣٥] . وحكى سبحانه ذلك مقرراً له غير منكر ، وذلك يدل على رضاه به[(٤)] .

(١) إغاثة الهفان (٢ / ١٤١) .
(٢) إغاثة اللهفان (١ / ٤٧) .
(٣) شفاء العليل (١١٠ - ١١١) .
(٤) إغاثة اللهفان (٢ / ٦٦) .

الصبر على عاجل العقوبة عن لذة الوصال الحرام

وقد جمع الله سبحانه وتعالى ليوسف الصديق صلوات الله وسلامه عليه بين الأمرين ، فاختار عقوبة الدنيا بالسجن على ارتكاب الحرام ، فقالت المرأة : ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۞ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣٢-٣٣] . فاختار السجن على الفاحشة ثم تبرأ إلى الله من حوله وقوته ، وأخبر أن ذلك ليس إلا بمعونة الله له وتوفيقه وتأييده لا من نفسه ، فقال : ﴿ **وإلا تصرف عني كيدهن أصبُ إليهن وأكن من الجاهلين** ﴾ فلا يركن العبد إلى نفسه وصبره وحاله وعفته ومتى ركن إلى ذلك تخلت عنه عصمة الله ، وأحاط به الخذلان[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

وهكذا كان يوسف الصديق صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قالت امرأة العزيز للنسوة لما أرتهن إياه ليعذرنها في محبته : ﴿ **فذلكن الذي لمتنني فيه** ﴾ [يوسف : ٣٢] . أي هذا هو الذي فتنت به ، وشغفت بحبه ، فمن يلومني على محبته ، وهذا حسن منظره ، ثم قالت : ﴿ **ولقد راودته عن نفسه فاستعصم** ﴾ أي فمنع هذا الجمال فباطنه أحسن من ظاهره فإنه في غاية العفة والنزاهة والبعد عن الخنا ، والمحب وإن عيب محبوبه فلا يجري لسانه إلا بمحاسنه ومدحه[2] .

---

(١) روضة المحبين (٤١٣) .

(٢) روضة المحبين (٢٢٤، ٢٢٥) .

قول يوسف الصديق : ﴿ **رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم** ﴾ [يوسف : ٣٣-٣٤] . وصرف كيدهن هو صرف دواعي قلوبهن ومكرهن بألسنتهن وأعمالهن وتلك أفعال اختيارية ، وهو سبحانه الصارف لها فالصرف فعله ، والانصراف أثر فعله وهو فعل النسوة[1] .

حجة من قال الاسم غير المسمى أو عينه

قول الله تعالى: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ ﴾ [يوسف: ٤٠]

وإنما عبدوا مسمياتها . والجواب : إنه كما قلتم[2] .

إنما عبدوا المسميات ، ولكن من أجل أنهم نحلوها أسماء باطلة ، كاللات والعزى ، وهي مجرد أسماء كاذبة باطلة لا مسمى لها في الحقيقة ، فإنهم سموها آلهة وعبدوها لاعتقادهم حقيقة الإلهية لها وليس لها من الإلهية إلا مجرد الأسماء لا حقيقة المسمى فما عبدوا إلا أسماء لا حقائق لمسمياتها ، وهذا كمن سمى قشور البصل لحماً وأكلها ، فيقال ما أكلت من اللحم إلا اسمه لا مسماه ، وكمن سمى التراب خبزا وأكله يقال ما أكلت إلا اسم الخبز بل هذا النفي أبلغ في آلهتهم فإنه لا حقيقة لإلهيتها بوجه ، وما الحكمة ثمَّ إلا مجرد الاسم فتأمل هذه الفائدة الشريفة في كلامه تعالى[3] .

---

(١) شفاء العليل (٥٩) .
(٢) انظر « نتائج الفكر » للسهيلي (٤٥ – ٤٦) .
(٣) بدائع الفوائد (١ / ١٩ – ٢٠) .

حيلة يوسف عليه السلام لأخذ أخيه

فصـــل

وأما إخباره سبحانه وتعالى عن يوسف عليه السلام أنه جعل صواعه في رَحل أخيه ليتوصل بذلك إلى أخذه وكيد إخوته ، فنقول لأرباب الحيل :

أولاً : هل تجوزون أنتم مثل هذا حتى يكون حجة لكم ؟ وإلا فكيف تحتجون بما لا تجوزون فعله ؟! فإن قلتم كان جائزاً في شريعته ؟

قلنا : وما ينفعكم إذا لم يكن جائزاً في شرعنا .

قال شيخنا[1] رضي الله عنه :

ومما قد يظن أنه من جنس الحيل التي بينا تحريمها وليس من جنسها قصَّةُ يوسف حين كاد الله له في أخذ أخيه ، كما قصَّ ذلك تعالى في كتابه ، فإن فيه ضروباً من الحيل الحسنة :

قوله لفتيانه : ﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف : ٦٢] .

فإنه تسبب بذلك في رجوعهم ، وقد ذكروا في ذلك معاني : منها :

أنه تخوف أن لا يكون عندهم ورق يرجعون بها .

ومنها : أنه خشي أن يضر أخذ الثمن بهم .

(١) يعني : شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه وهذا الفصل منقول من كتابه « الفتاوى الكبرى » (٣ / ٢٠٩) وما بعدها ، يكاد يكون حرفيا .

ومنها : أنه رأى لؤما إذا أخذ الثمن منهم .

ومنها : أنه أراهم كرمه في رد البضاعة ؛ ليكون أدعى لهم إلى العود .

ومنها : أنه علم أن أمانتهم تحوجهم إلى العود ليردوها إليه .

فهذا المحتال به عمل صالح ، والمقصود رجوعهم ، ومجيء أخيه ، وذلك أمر فيه منفعة لهم ولأبيهم وله ، وهو مقصود صالح .

وإنما لم يعرفهم نفسه لأسباب أخر فيها أيضاً منفعة لهم ، وله ولأبيهم وتمام لما أراده الله بهم من الخير في البلاد .

الضرب الثاني : أنه في المرة الثانية لما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ، وهذا القدر تضمن إيهام أن أخاه سارق ، وقد ذكروا أن هذا كان بمواطأة من أخيه ، ورضا منه بذلك والحق له في ذلك ، وقد دل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [يوسف : ٦٩] . وفيه قولان :

أحدهما : إنه عرف أنه يوسف ووطنه على عدم الابتئاس بالحيلة التي فعلها في أخذه منهم .

والثاني : أنه لم يصرح له أنه يوسف ، وإنما أراد : إني مكان أخيك المفقود ، فلا تبتئس بما يعاملك به إخوتك من الجفاء ومن قال هذا قال : إنه وضع السقاية في رحل أخيه والأخ لا يشعر[(١)]، ولكن هذا خلاف المفهوم من القرآن ، وخلاف ما عليه الأكثرون ، وفيه ترويع لمن لم يستوجب الترويع وأما على القول الأول فقد قال كعب وغيره : لما قال له إني أنا أخوك قال[(٢)]: فأنا لا أفارقك .

قال يوسف : فقد علمت اغتمام والدي بي ، فإذا حبستك ازداد غمه ،

---

(١) في تفسير الطبري (١٣ / ١٧) .

(٢) في الطبري (١٣ / ١٧) والفتاوى الكبرى (٣ / ٢١٠) تسمية أخيه « بنيامين » .

ولا يمكنني هذا إلا بعد أن أشهرك بأمر فظيع ، وأنسبك إلى ما لا يحتمل .

قال : لا أبالي فافعل ما بدا لك فإني لا أفارقك .

قال : فإني أدس صاعي هذا في رحلك ، ثم أنادي عليك بالسرقة ليتهيأ لي ردك بعد تسريحك .

قال : فافعل وعلى هذا فهذا التصرف إنما كان بإذن الأخ ورضاه .

الضرب الثالث : أنه أذن مؤذن : ﴿ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ * قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ * قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ * فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ ﴾ [يوسف : ٧٠-٧٦] .

وقد ذكروا في تسميتهم سارقين وجهين :

أحدهما : أنه من باب المعاريض ، وأن يوسف نوى بذلك أنهم سرقوه من أبيه حيث غيَّبوه عنه بالحيلة التي احتالوا عليها ، وخانوه فيه ، والخائن يسمى سارقاً ، وهو من الكلام المرموز ، ولهذا يسمى خونة الدواوين : لصوصاً .

الثاني : أن المنادي هو الذي قال ذلك من غير أمر يوسف ، قال القاضي أبو يعلى وغيره[1] : أمر يوسف بعض أصحابه أن يجعل الصواع في رَحْل أخيه ، ثم قال بعض الموكلين وقد فقدوه ، ولم يدر من أخذه : ﴿ **أيتها العير إنكم لسارقون** ﴾ على ظن منهم أنهم كذلك ، من غير أمر يوسف لهم بذلك ، أو لعل يوسف قد قال للمنادي : هؤلاء سرقوا ، وعنى أنهم سرقوه من أبيه ، والمنادي فهم سرقة الصّواع فصدق يوسف في قوله ، وصدق المنادي .

(١) انظر تفسير الطبري (١٣ / ١٦) .

وتأمل حذف المفعول في قوله : ﴿ **إنكم لسارقون** ﴾ ليصح أن يضمن سرقتهم فيتم التعريض[1]، ويكون الكلام صدقاً ، وذكر المفعول في قوله : ﴿ **نفقد صواع الملك** ﴾ وهو صادق في ذلك ، فصدق في الجملتين معاً تعريضاً وتصريحاً ، وتأمل قول يوسف : ﴿ **معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده** ﴾ ولم يقل إلا من سرق ، وهو أخصر لفظاً ، تحرياً للصدق ، فإن الأخ لم يكن سارقاً بوجه ، وكان المتاع عنده حقاً ، فالكلام من أحسن المعاريض وأصدقها .

ومثل هذا قول الملكين[2] لداود عليه السلام : (خصمان بغى بعضنا على بعض) إلى قوله : (وعزني في الخطاب) [ص : ٢٢-٢٣] . **أي غلبني في الخطاب** ، ولكن تخريج هذا الكلام على المعاريض لا يكاد يتأتى ، وإنما وجهه أنه كلام خرج على ضرب المثال ، أي إذا كان كذلك فكيف الحكم بيننا .

ونظير هذا قول الملك للثلاثة[3] الذين أراد الله أن يبتليهم « مسكين وغريب وعابر سبيل ، وقد تقطعت بي الحبال ، ولا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك ، فأسألك بالذي أعطاك هذا المال بعيراً أتبلغ به في سفري » وهذا ليس بتعريض ، وإنما هو تصريح على وجه ضرب المثال وإيهام أني أنا صاحب هذه القضية ، كما أوهم الملكان داود أنهما صاحبا القصة ليتم الامتحان .

ولهذا قال نصر بن حاجب : سئل ابن عيينة عن الرجل يعتذر إلى أخيه من الشيء الذي قد فعله ، ويحرف القول فيه ليرضيه ، لم يأثم في ذلك ؟

---

(١) راجع معنى التعريض وحكمه في (٥ / ٤٩) زاد المعاد و (٢ / ٥٠٤ - ٥٠٥) الصواعق المرسلة . و (٣٦٦) مفتاح دار السعادة .

(٢) أشار إلى أنهما ملكين ابن جرير في تفسيره (٢٣ / ١٤١) .

(٣) رواه البخاري (٦ / ٥٧٨) في أحاديث الأنبياء ، باب: حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل .

ومسلم (٥ / ٨١٨) في الزهد . بلفظ : « إن ثلاثة في بني إسرائيل .. » .

فقال : ألم تسمع قوله : « ليس بكاذب من أصلح بين الناس يكذب فيه »[١] .

فإذا أصلح بينه وبين أخيه المسلم خير من أن يصلح بين الناس بعضهم من بعض ، وذلك إذا أراد به مرضاة الله ، وكره أذى المؤمن ، ويندم على ما كان منه ، ويدفع شره عن نفسه ، ولا يريد بالكذب اتخاذ المنزلة عندهم ، ولا طمعاً في شيء يصيب منهم ، لم يرخص في ذلك ، ورخص له إذا كره وجدتهم وخاف عداوتهم .

قال حذيفة : إني أشترى ديني بعضه ببعض مخافة أن أقدم على ما هو أعظم منه .

قال سفيان : وقال الملكان : (خصمان بغى بعضنا على بعض) أرادا معنى شيء ، ولم يكونا خصمين ، فلم يصيرا بذلك كاذبين .

وقال إبراهيم : (إني سقيم) [الصافات : ٨٩] .

وقال : (بل فعله كبيرهم هذا) [الأنبياء : ٦٣] .

وقال يوسف : (إنكم لسارقون) [يوسف : ٧٠] .

فبين سفيان أن هذا من المعاريض المباحة .

فصـــل

وقد احتج بعض الفقهاء بقصة يوسف على أنه جائز للإنسان التوصل إلى أخذ حقه من الغير بما يمكنه الوصول إليه بغير رضا مَنْ عليه الحق .

---

(١) لعله يقصد ما جاء في الحديث الصحيح عن أم كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها ، أنها سمعت رسول صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً ».
رواه البخاري (٥ / ٣٥٣) في الصلح ، باب : ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس .
ومسلم (٥ / ٤٦٤) في البر والصلة ، باب : تحريم الكذب وبيان ما يباح منه .

قال شيخنا[1] رضي الله عنه : وهذه الحجة ضعيفة ، فإن يوسف لم يكن يملك حبس أخيه عنده بغير رضاه ، ولم يكن هذا الأخ ممن ظلم يوسف حتى يقال إنه قد اقتصَّ منه ، وإنما سائر الأخوة هم الذين كانوا قد فعلوا ذلك ، نعم تخلفه عنده كان يؤذيهم من أجل تأذي أبيهم ، والميثاق الذي أخذه عليهم ، وقد استثنى في الميثاق بقوله : ﴿ **إلا أن يحاط بكم** ﴾ [يوسف : ٦٦] .

وقد أحيط بهم ، ولم يكن قصد يوسف باحتباس أخيه الانتقام من إخوته ، فإنه كان أكرم من هذا ، وكان في ذلك من الإيذاء لأبيه أعظم مما فيه من إيذاء إخوته ، وإنما هو أمر أمره الله به ، ليبلغ الكتاب أجله ، ويتم البلاء الذي استحق به يعقوب ويوسف كمال الجزاء ، وتبلغ حكمة الله التي قضاها لهم نهايتها .

ولو كان يوسف قصد القصاص منهم بذلك فليس هذا موضع الخلاف بين العلماء ، فإن الرجل له أن يعاقب بمثل ما عوقب به .

وإنما موضع الخلاف : هل يجوز له أن يسرق أو يخون مَنْ سرقه أو خانه مثل ما سرق منه أو خانه إياه ؟ وقصة يوسف لم تكن من هذا الضرب .

نعم ، لو كان يوسف أخذ أخاه بغير أمره ؛ لكان لهذا المحتج شبهة، مع أنه لا دلالة في ذلك على هذا التقدير أيضاً ، فإن مثل هذا لا يجوز في شرعنا بالاتفاق ، وهو أن يحبس رجل برىء ويعتقل للانتقام من غيره من غير أن يكون له جُرْم .

ولو قدر أن ذلك وقع من يوسف فلابد أن يكون بوحى من الله ابتلاء منه لذلك المعتقل ، كما ابتلي إبراهيم بذبح ابنه ، فيكون المبيح له على هذا التقدير وحيا خاصا ، كالوحي الذي جاء إبراهيم بذبح ابنه ، وتكون حكمته في حق المبتلى امتحانه وابتلاؤه ؛ لينال درجة الصبر على حكم الله ، والرضا بقضائه ، وتكون حاله في هذا كحال أبيه يعقوب في احتباس يوسف عنه .

(١) الفتاوى الكبرى (٣ / ٢١٢) .

وهذا معلوم من فقه القصة وسياقها ، ومن حال يوسف ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم** ﴾ [يوسف : ٧٦] .

فنسب الله تعالى هذا الكيد إلى نفسه ، كما نسبه إلى نفسه في قوله : (إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً) [الطارق : ١٥-١٦] .

وفي قوله : (ومكروا مكراً ومكرنا مكراً) [النمل : ٥٠] .

وفي قوله : (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) [الأنفال : ٣٠] .

وقد قيل : إن تسمية ذلك مكراً وكيداً واستهزاءً وخداعاً من باب الاستعارة ومجاز المقابلة نحو : (وجزاء سيئة سيئة مثلها) [الشورى : ٤٠] . ونحو قوله : (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) [البقرة : ١٩٤] .

وقيل وهو أصوب : بل تسميته بذلك حقيقة على بابه ، فإن المكر إيصال الشيء إلى الغير بطريق خفي ، وكذلك الكيد والمخادعة ، ولكنه نوعان :

قبيح : وهو إيصال ذلك لمن لا يستحقه .

وحسن : وهو إيصاله إلى مستحقه عقوبة له ، فالأول مذموم ، والثاني ممدوح .

والرب تعالى إنما يفعل من ذلك ما يحمد عليه عدلاً منه وحكمة ، وهو تعالى يأخذ الظالم والفاجر من حيث لا يحتسب ، لا كما يفعل الظلمة بعباده ، وإنما السيئة فهي فيعلة مما يسوء ، ولا ريب أن العقوبة تسوء صاحبها ، فهي سيئة له حسنة من الحكم العدل .

وإذا عرفت ذلك فيوسف الصديق كان قد كيد غير مرة :

أولها : أن إخوته كادوا به كيداً حيث احتالوا به في التفريق بينه وبين أبيه ، ثم إن امرأة العزيز كَادْتهُ بما أظهرت أنه راوَدَها عن نفسها ، ثم أودع السجن ، ثم إن النسوة كادوه حتى استعاذ بالله من كيدهن فصرفه عنه ، وقال

له يعقوب : (لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً) [يوسف : ٥] . وقال الشاهد لامرأة العزيز : (إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم) [يوسف : ٢٨] . وقال تعالى في حق النسوة : (فاستجاب له ربهُ فصرف عنه كيدهن) [يوسف : ٣٤] . وقال للرسول : (ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم) [يوسف : ٥٠] .

فكاد الله له أحسن كيد وألطفه وأعدله ، بأن جمع بينه وبين أخيه ، وأخرجه من أيدي إخوته بغير اختيارهم ، كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره ، وكاد له عوض كيد المرأة بأن أخرجه من ضيق السجن إلى فضاء الملك ، ومكنه في الأرض يتبوأ منها حيث شاء ، وكاد له في تصديق النسوة اللاتي كذبنه وراودنه حتى شهدن ببراءته وعفته .

وكاد له في تكذيب امرأة العزيز لنفسها واعترافها بأنها هي التي راودته وأنه من الصادقين ، فهذه عاقبة من صبر على كيد الكائد له بغياً وعدواناً[1] .

---

(١) إعلام الموقعين (٣ / ٢٧٤ - ٢٨٢) .

ما تضمنته قصة يوسف عليه السلام من الحيل الشرعية وتفسير السورة إجمالاً

والله سبحانه إنما سوغ ذلك لنبيه يوسف عليه السلام جزاء لإخوته،وعقوبة لهم على ما فعلوا به ، ونصراً له عليهم ، وتصديقاً لرؤياه ورفعة لدرجته ، ودرجة أبيه .

وبعدُ ، ففي قصته مع إخوته ضروب من الحيل المستحسنة :

أحدها : قوله لفتيانه : ﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف : ٦٢] .فإنه تسبب بذلك إلى رجوعهم ، وقد ذكروا في ذلك معاني :

منها : أنه تخوف أن لا يكون عندهم ورق يرجعون بها .

ومنها : أنه خشي أن يضر أخذ الثمن بهم .

ومنها : أنه رأى لؤما أخذ الثمن منهم .

ومنها : أنه أراهم كرمه في رد البضاعة ؛ ليكون أدعى لهم إلى العود .

وقد قيل : إنه علم أن أمانتهم تحوجهم إلى الرجعة ليردوها إليه فهذا المحتال به عمل صالح ، والمقصود رجوعهم ومجيء أخيه ، وذلك أمر فيه منفعة لهم ، ولأبيهم وله وهو مقصود صالح . وإنما لم يعرفهم نفسه لأسباب أخر، فيها منفعة لهم ولأبيهم وله . ولما أراده الله تعالى بهم من الخير في هذا البلاء ، وأيضاً فلو عرفهم نفسه في أول مرة لم يقع الاجتماع بهم وبأبيه ذلك الموقع العظيم ، ولم يحل ذلك المحل ، وهذه عادة الله سبحانه وتعالى في الغايات العظيمة الحميدة إذا أراد أن يوصل عبده إليها هيأ لها أسباباً من المحن والبلايا والمشاق، فيكون وصوله إلى تلك الغايات بعدها كوصول أهل الجنة إليها بعد الموت ، وأهوال البرزخ

والبعث والنشور والموقف، والحساب، والصراط ، ومقاساة تلك الأهوال والشدائد، وكما أدخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى مكة ذلك المدخل العظيم[1] بعد أن أخرجه الكفار ذلك المخرج ونصره ذلك النصر العزيز بعد أن قاسى مع أعداء الله ما قساه .

وكذلك ما فعل برسله، كنوح، وإبراهيم، وموسى، وهود، وصالح، وشعيب، عليهم السلام ، فهو سبحانه يوصل إلى الغايات الحميدة بالأسباب التي تكرهها النفوس وتشق عليها كما قال تعالى : (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) [البقرة : ٢١٦] .

ورُبَّما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سبباً ما مثله سبب . وبالجملة فالغايات الحميدة في خبايا الأسباب المكروهة الشاقة ، كما أن الغايات المكروهة المؤلمة في خبايا الأسباب المشتهاة المستلذة ، وهذا من حين خلق الله سبحانه الجنة وحفها بالمكاره وخلق النار وحفها بالشهوات .

ومنها : أنه لما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ، وهذا القدر يتضمن اتهام أخيه بأنه سارق .

وقد قيل : إنه كان بمواطأة من أخيه ، ورضا منه بذلك ، والحق كان له وقد أذن فيه ، وطابت نفسه به ، ودل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُوا۟ يَعۡمَلُونَ ﴾ [يوسف : ٦٩] . فهذا يدل على أنه عرف أخاه نفسه .

وقد قيل : إنه لم يصرح له بأنه يوسف ، وأنه إنما أراد بقوله : ﴿ **إني أنا أخوك** ﴾ أي أنا مكان أخيك المفقود .

ومن قال هذا قال : إنه وضع السقاية في رحل أخيه ، والأخ لا يشعر

---

(١) يعني فتح مكة المكرمة .

بذلك ، والقرآن يدل على خلاف هذا ، والعدل يرده ، وأكثر المفسرين على خلافه .

ومن لطيف الكيد في ذلك : أنه لما أراد أخذ أخيه توصل إلى أخذه بما يُقِرُّ إخوته أنه حق وعدل ، ولو أخذه بحكم قدرته وسلطانه لنسب إلى الظلم والجور ، ولم يكن له طريق في دين الملك يأخذه بها .

فتوصل إلى أخذه بطريق يعترف إخوته أنها ليست ظلماً ، فوضع الصواع في رحل أخيه بمواطأة منه له على ذلك ، ولهذا قال : لا تبتئس بما كانوا يعملون .

ومن لطيف الكيد : أنه لم يفتش رحالهم وهم عنده ، بل أمهلهم حتى جهزهم بجهازهم وخرجوا من البلد ، ثم أرسل في آثارهم لذلك .

قال ابن أبي حاتم في تفسيره : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا محمد بن عيسى حدثنا سلمة عن ابن إسحاق : قال : « أمهلهم حتى إذا انطلقوا فأمعنوا من القرية ، أمر، فأدركوا ثم جلسوا ، ثم ناداهم مناد أيتها العير إنكم لسارقون ، فوقفوا ، وانتهى إليهم رسوله ، فقال لهم فيما يذكرون : ألم نُكرم ضيافتكم ، ونوفكم كيلكم ونحسن منزلتكم ، ونفعل بكم ما لم نفعله بغيركم ، وأدخلناكم علينا في بيوتنا ومنازلنا ؟ قالوا : بلى . وما ذاك ؟ « قال إنكم لسارقون » .

وذكر عن السدي : « فلما ارتحلوا أذن مؤذن أيتها العير »[1] .

والسياق يقتضي ذلك ، إذ لو كان هذا وهم بحضرته لم يحتج إلى الأذان وإنما يكون الأذان نداء لبعيد ، يطلب وقوفه وحبسه .

فكان في هذا من لطيف الكيد : أنه أبعد من التهمة للطالب بالمواطأة والموافقة ، وأنه لا يشعر بما فُقد له ، فكأنه لما خرج القوم وارتحلوا، وفصلوا عن المدينة ؛ احتاج الملك إلى صُواعه لبعض حاجته إليه ، فالتمسه ، فلم يجده ، فسأل عنه الحاضرين ، فلم يجدوه فأرسلوا في أثر القوم. فهذا أحسن وأبعد من التفطُّن

---

(١) في ابن جرير « فلما ارتحلوا أذن مؤذن قبل أن ترتحل » (١٣ / ١٧) .

للحيلة من التفتيش في الحال قبل انفصالهم عنه ، بل كلما ازدادوا بعداً عنه كان أبلغ في هذا المعنى .

ومن لطيف الكيد : أنه أذن فيهم بصوت عال رفيع ، يسمعه جميعهم ، ولم يقل لواحد منهم ، إعلاما بأن ذهاب الصُواع أمر قد اشتهر ، ولم يبق فيه خفاء ، وأنتم قد اشتهرتم بأخذه ، ولم يتهم به سواكم ومن لطيف الكيد : أن المؤذن قال : ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ ولم يعين المسروق ، حتى سألهم عنه القوم ، فقالوا لهم : ﴿ **ماذا تفقدون قالوا نفقد صواع الملك** ﴾ فاستقر عند القوم أن الصواع هو المتهم به ، وأنهم لم يفقدوا غيره ، فإذا ظهر لم يكونوا ظالمين باتهامهم بغيره ، وظهر صدقهم وعدلهم في اتهامهم به وحده ، وهذا من لطيف الكيد .

ومن لطيف الكيد : قول المؤذن وأصحابه لإخوة يوسف عليه السلام : ﴿ **فما جزاؤه إن كنتم كاذبين** ﴾ أي ما عقوبة من ظهر عليه أنه سرقه منكم، ووجد معه ؟ أي ما عقوبته عندكم وفي دينكم ؟

﴿ **قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه** ﴾ فأخذوهم بما حكموا به على نفوسهم لا بحكم الملك وقومه .

ومن لطيف الكيد : أن الطالب لما هَمَّ بتفتيش رواحلهم بدأ بأوعيتهم يفتشها قبل وعاء من هو معه ، تطميناً لهم ، وبعداً عن تهمة المواطأة فإنه لو بدأ بوعاء من هو فيه لقالوا : وما يُدريه أنه في هذا الوعاء ، دون غيره من أوعيتنا ؟

. وما هذا إلا بمواطأة وموافقة. فأزال هذه التهمة بأن بدأ بأوعيتهم أولاً ، فلما لم يجده فيها هَمَّ بالرجوع قبل تفتيش وعاء من فيه الصواع ، وقال : ما أراكم سارقين ، وما أظن هذا أيضاً أخذ شيئاً فقالوا : لا والله ، لا ندعكم حتى تفتشوا متاعه ، فإنه أطيب لقلوبكم وأظهر لبراءتنا ، فلما ألحوا عليهم بذلك فتشوا متاعه ، فاستخرجوا منه الصواع ، وهذا من أحسن الكيد .

فلهذا قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٧٦] .

فالعلم بالكيد الواجب أو المستحب الذي يتوصل به إلى طاعة الله تعالى ورسوله ، ونصر المحق وكسر المبطل مما يرفع الله به درجة العبد .

وقد ذكروا في تسميتهم سارقين وجهين :

أحدهما : أنه من باب المعاريض ، وأن يوسف عليه السلام نوى بذلك أنهم سرقوه من أبيه ، حيث غَيَّبوه عنه بالحيلة التي احتالوا بها عليه ، وخانوه فيه ، والخائن يسمى سارقاً وهو من الاستعمال المشهور .

الثاني : أن المنادي هو الذي قال ذلك ، من غير أمر يوسف عليه السلام قال القاضي أبو يعلى ، وغيره : أمر يوسفُ بعض أصحابه أن يجعل الصاع في رحل أخيه ، ثم قال بعض الموكلين به لما فقده ، ولم يدر مَنْ أخذه : ﴿ **أيتها العير إنكم لسارقون** ﴾ على ظن منهم أنهم كذلك ، ولم يأمرهم يوسف عليه السلام بذلك .

ولعل يوسف عليه السلام قال للمنادي : هؤلاء قد سرقوا ، وعنى سرقته عن أبيه ، والمنادي فهم سرقة الصواع ، وصدق في قوله : ﴿ **إنكم لسارقون** ﴾ ولم يقل : صواع الملك ثم لما جاء إلى ذكر المفقود قال : ﴿ **نفقد صُواع الملك** ﴾ وهو صادق في ذلك ، فحذف المفعول في قوله : ﴿ **لسارقون** ﴾ وذكره في قوله : ﴿ **نفقد صواع الملك** ﴾ وكذلك قال يوسف عليه السلام : لما عرضوا عليه أن يأخذ أحدهم مكان أخيهم : ﴿ **معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده** ﴾ ولم يقل : أن نأخذ إلا من سرق ، فإن المتاع كان موجوداً عنده ، ولم يكن سارقاً وهذا من أحسن المعاريض .

وقد قال نصر بن حاجب : سئل سفيان بن عُيينة عن الرجل يعتذر إلى أخيه من الشيء الذي قد فعله ، ويحرف القول فيه ليرضيه ، أيأثم في ذلك ؟

فقال : ألم تسمع قوله عليه السلام[1] : « ليس بكاذب من أصلح بين الناس ، فكذب فيه » فإذا أصلح بينه وبين أخيه المسلم كان خيراً من أن يصلح بين الناس بعضهم في بعض .

وذلك أنه أراد به مرضاة الله ، وكراهية أذى المؤمن ، ويندم على ما كان منه – ويدفع شره عن نفسه ، ولا يريد بالكذب اتخاذ المنزلة عندهم ، ولا طمعاً في شيء يصيبه منهم ، فإنه لم يرخص في ذلك ، ورخص له إذا كره موجدتهم ، وخاف عداوتهم .

قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : « إني أشترى ديني بعضه ببعض ، مخافة أن أُقدم على ما هوأعظم منه » .

وقال سفيان قال : الملكان : (خصمان بغى بعضنا على بعض) [ص : ٢٢] . أرادا معنى شيء ، و لم يكونا خصمين ، فلم يصيرا بذلك كاذبين ، وقال إبراهيم عليه السلام : (إني سقيم) [الصافات : ٨٩] .

وقال : (بل فعله كبيرهم هذا) [الأنبياء : ٦٣] .

وقال يوسف عليه السلام : ﴿ **إنكم لسارقون** ﴾ أراد يعني أخاهم .

فبين سفيان رحمه الله تعالى أن هذا كله من المعاريض المباحة ، مع تسميته كذبا ، وإن لم يكن في الحقيقة كذباً .

فصـــل

وقد احتج بعض الفقهاء بقصة يوسف على أنه يجوز للإنسان التوصل إلى أخذ حقه من الغير بما يمكنه الوصول إليه بغير رضا من عليه الحق .

قال شيخنا : وهذه الحجة ضعيفة ، فإن يوسف عليه السلام لم يكن يملك

(١) مر برقم (١) (صـ٤٥٨) .

حبس أخيه عنده بغير رضاه ، ولم يكن هذا الأخ ممن ظلم يوسف ، حتى يقال : قد اقتصَّ منه ، وإنما سائر الأخوة هم الذين كانوا قد فعلوا ذلك ، نعم كان تخلفه عنهم مما يؤذيهم لتأذي أبيهم ، وللميثاق الذي أخذه عليهم ، وقد استثنى في الميثاق بقوله : ﴿ **إلا أن يحاط بكم** ﴾ وقد أحيط بهم ، ويوسف عليه السلام لم يكن قصده باحتباس أخيه الانتقام من إخوته ، فإنه كان أكرم من هذا ، وإن كان في ضمن ما فعل من تأذي أبيه أعظم من أذى إخوته، فإنما ذلك أمرٌ أمره الله تعالى به . ليبلغ الكتاب أجله ويتمَّ البلاءُ الذي استحق به يوسف ويعقوب عليهما السلام كمال الجزاء وعلو المنزلة ، وتبلغ حكمة الله تعالى – التي قدرها وقضاها – نهايتها ، ولو فُرض أن يوسف عليه السلام قصد الاقتصاص منهم بما فعل ، فليس هذا بموضع خلاف بين العلماء .

فإن الرجل له أن يُعاقِبَ بمثل ما عُوقب به ، وإنما موضعُ الخلاف : هل له أن يخونه كما خانه ، أو يسرقه ، كما سرقه ؟ ولم تكن قصة يوسف عليه السلام من هذا النوع .

نعم لو كان يوسف عليه السلام أخذ أخاه بغير أمره لكان لهذا المحتج شبهةٌ مع أنه لا شبهة له أيضاً على هذا التقدير ، فإن مثل هذا لا يجوز في شرعنا بالاتفاق ، ولو كان يوسف قد أخذ أخاه ، واعتقله بغير رضاه ، كان في هذا ابتلاء من الله تعالى لذلك المعتقِل ، كأمر إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه ، فيكون المبيح له على هذا التقدير وحياً خاصاً ، كالوحي إلى إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه ، وتكون حكمته في حق الأخ امتحانه وابتلاءه ، لينال درجة الصبر على حكم الله ، والرضا بقضائه ، ويكون حاله في هذا كحال أبيه يعقوب عليه السلام في احتباس يوسف عليه السلام عنه .

وقد دل على هذا نسبة الله سبحانه ذلك الكيد إلى نفسه بقوله : ﴿ **كذلك كدنا ليوسف ماكان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله** ﴾ [يوسف : ٧٦] . وهو سبحانه ينسب إلى نفسه أحسن هذه المعاني ، وما هو منها حكمة وحق وصواب ، وجزاء للمسيء ، وذلك غاية العدل والحق ، كقوله : (إنهم

يكيدون كيداً وأكيد كيداً) [الانفطار : ١٥] .

وقوله : (ومكروا ومكر الله) [آل عمران : ٥٤] .

وقوله : (الله يستهزىء بهم) [البقرة : ١٥] .

وقوله : (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) [النساء : ١٤٢] .

وقوله : (وأملي لهم إن كيدي متين) [الأعراف : ١٨٣] .

فهذا منه سبحانه في أعلى مراتب الحسن ، وإن كان من العبد قبيحاً سيئاً ، لأنه ظالم فيه ، ومُوقعه بمن لا يستحقه ، والرب تعالى عادل فيه ، موقعه بأهله ومن يستحقه ، سواء قيل : إنه مجاز للمشاكلة الصورية ، أو للمقابلة ، أو سماه كذلك مشاكلة لاسم ما فعلوه ، أو قيل : إنه حقيقة ، وإنَّ مسمَّى هذه الأفعال ينقسم إلى مذموم ومحمود ، واللفظ حقيقة في هذا وهذا ، كما قد بسطنا هذا المعنى واستوفينا الكلام عليه في كتاب (الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة)[1] .

فصـــل

وإذا عرف ذلك ، فيوسف صلوات الله عليه وسلامه عليه أُكِيدُ ، من وجوه عديدة :

أحدها : أن إخوته كادوه ، حيثُ احتالوا في التفريق بينه وبين أبيه ، كما قال له يعقوب عليه السلام : ﴿ **لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً** ﴾ [يوسف : ٥] .

وثانيها : أنهم كادوه حيث باعوه بيع العبيد ، وقالوا : إنه غلام لنا أبق .

وثالثها : كيد امرأة العزيز له ، بتغليق الأبواب ، ودعائه إلى نفسها .

(١) طبع في « دار العاصمة » بالرياض طبعة جيدة في أربعة مجلدات وانظر مؤلفاته في المقدمة .

ورابعها : كيدها له بقولها : ﴿ **ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم** ﴾ [يوسف : ٢٥] .

فكادته بالمراودة أولاً ، وكادته بالكذب عليه ثانياً ، ولهذا قال لها الشاهد لما تبين له براءة يوسف عليه السلام : ﴿ **إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم** ﴾ [يوسف : ٢٨] .

وخامسها : كيدها له حيث جمعت له النسوة ، وأخرجته عليهن ، تستعين بهن عليه ، وتستعذر إليهن من شغفها به .

وسادسها : كيد النسوة له ، حتى استجار بالله تعالى من كيدهن فقال : ﴿ **وإلا تصرف عني كيدهن أصبُ إليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم** ﴾ [يوسف : ٣٣] .

ولهذا لما جاء الرسول بالخروج من السجن قال له : ﴿ **ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم**﴾ [يوسف: ٥٠].

فإن قيل : فما كان مكر النسوة اللاتي مكرن به ، وسمعت به امرأة العزيز ، فإن الله سبحانه لم يقصه في كتابه ؟ . قيل : بلى ، قد أشار إليه بقوله : (وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لنراها في ضلال مبين) [يوسف : ٣٠] .

وهذا الكلام متضمن لوجوه من المكر :

أحدها : قولهن : ﴿ **امرأة العزيز تراود فتاها** ﴾ ولم يسموها ، باسمها ، بل ذكروا بالوصف الذي ينادى عليها بقبيح فعلها بكونها ذات بعل ، فصدور الفاحشة من ذات الزوج أقبح من صدورها ممن لا زوج لها .

الثاني : أن زوجها عزيز مصر ، ورئيسها ، وكبيرها وذلك أقبح لوقوع الفاحشة منها .

الثالث : ان الذي تراوده مملوك لا حر ، وذلك أبلغ في القبح .

الرابع : أنه فتاها الذي هو في بيتها وتحت كنفها ، فحكمه حكم أهل البيت ، بخلاف من طلب ذلك من الأجنبي البعيد .

الخامس : أنها هي المراودة الطالبة .

السادس : أنها قد بلغ بها عشقها له كل مبلغ ، حتى وصل حبها له إلى شغاف قلبها .

السابع : أن في ضمن هذا أنه أعف منها وأبر ، وأوفى ، حيث كانت هي المُراودة الطالبة وهو الممتنع،عفافاً وكرماً وحياء ، وهذا غاية الذم لها .

الثامن : أنهن أتين بفعل المراودة بصيغة المستقبل الدالة على الاستمرار والوقوع ، حالاً واستقبالاً ، وأن هذا شأنها ، ولم يقلن : راودت فتاها . وفرق بين قولك : فلان أضاف ضيفاً ، وفلان يقري الضيف ، ويطعم الطعام ، ويحمل الكَلّ فإن هذا يدل على أن هذا شأنه وعادته .

التاسع : قولهن : ﴿ **إنا لنراها في ضلال مبين** ﴾ أي إنا لنستقبح منها ذلك غاية الاستقباح فنسبن الاستقباح إليهن ، ومن شأنهن مساعدة بعضهن بعضاً ، على الهوى ، ولا يكدن يرين ذلك قبيحاً ، كما يساعد الرجال بعضهم بعضاً ، على ذلك ، فحيث استقبحن منها ذلك كان هذا دليلاً على أنه من أقبح الأمور ، وأنه مما لا ينبغي أن تُساعد عليه ولا يحسن معاونتها عليه .

العاشر : أنهن جمعن لها في هذا الكلام واللوم بين العشق المفرط ، والطلب المفرط . فلم تقتصد في حبها ، ولا في طلبها أما العشق فقولهن : ﴿ **قد شغفها حبا** ﴾ أي وصل حبه إلى شغاف قلبها . وأما الطلب المفرط فقولهن ﴿ **تراود فتاها** ﴾ والمراودة : الطلب مرة بعد مرة ، فنسبوها إلى شدة العشق ، وشدة الحرص على الفاحشة . فلما سمعت بهذا المكر منهن هيأت لهن مكراً أبلغ منه ، فهيأت لهن متكأ ، ثم أرسلت إليهن ، فجمعتهن وخبأت يوسف عليه السلام عنهن .

وقيل : إنها جملته وألبسته أحسن ما تقدر عليه ، وأخرجته عليهن فجأة ،

فلم يَرعهن إلا وأحسن خلق الله وأجملهم قد طلع عليهن بغتة ، فراعهن ذلك المنظر البهي ، وفي أيديهن مدى يقطعن بها ما يأكلنه ، فدهشن حتى قطعن أيديهن وهن لا يشعرن .

وقد قيل : إنهن أبنَّ أيديهن ، والظاهر خلاف ذلك وإنما تقطيعهن أيديهن : جرحها وشقها بالمدى لدهشهن بما رأين ، فقابلت مكرهن القولي بهذا المكر الفعلي ، وكانت هذه من النساء غاية في المكر .

والمقصود : أن الله سبحانه كاد ليوسف عليه السلام ، بأن جمع بينه وبين أخيه ، وأخرجه من أيدي إخوته بغير اختيارهم ، كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره .

وكاد له بأن أوقفهم بين يديه موقف الذليل الخاضع المستجدي فقالوا : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ [يوسف : ٨٨] .

فهذا الذل والخضوع في مقابلة ذله وخضوعه لهم يوم إلقائه في الجب وبيعه بيع العبيد .

وكاد له بأن هيأ له الأسباب التي سجدوا له ، هم وأبوه وخالته ، في مقابلة كيدهم له ، حذراً من وقوع ذلك، فإن الذي حملهم على إلقائه في الجب خشيتهم أن يرتفع عليهم حتى يسجدوا له كلهم ،فكادوه خشية ذلك . فكاد الله تعالى له حتى وقع ذلك ، كما رآه في منامه .

وهذا كما كاد فرعون بني إسرائيل : (يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم) [القصص : ٤] . خشية أن يخرج فيهم من يكون زوال ملكه على يديه ، فكاده الله سبحانه ، بأن أخرج له هذا المولود ، ورباه في بيته ، وفي حجره ، حتى وقع به منه ما كان يحذره، كما قيل :

وإذا خشيت من الأمور مُقَدَّراً وفررت منه، فنحوه تتوجَّهُ

فصـــل

وكيد الله سبحانه لا يخرج عن نوعين :

أحدهما : أن يفعل سبحانه فعلاً خارجاً عن قدرة العبد الذي كاد له ، فيكون الكيد قدراً محضاً ، ليس من باب الشرع ، كما كاد الذين كفروا ، بأن انتقم منهم بأنواع العقوبات .

وكذلك كانت قصة يوسف عليه السلام ، فإن يوسف أكثر ما قدر عليه أن ألقى الصُّواع في رحل أخيه ، وأرسل مؤذنا يؤذن : ﴿ **أيتها العير إنكم لسارقون** ﴾ فلما أنكروا قال : ﴿ **فما جزاؤه إن كنتم كاذبين قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه** ﴾ أي جزاؤه استعباد المسروق ماله للسارق ، إما مطلقاً ، وإما إلى مدة وهذه كانت شريعة آل يعقوب عليه السلام ، حتى قيل : إن مثل هذا كان مشروعاً في أول الإسلام : أن المدين إذا أعسر بالدّين ؛ استرقه صاحب الحق ، وعليه حمل حديث بيع النبي صلى الله عليه وسلم سُرَّقَ[1] .

---

(١) « سُرَّق » بضم أوله ، وتشديد الراء ، بعدها قاف ، صحابي نزل مصر ، ويقال كان اسمه الحباب فغيره النبي صلى الله عليه وسلم .
وقصته أنه قدم المدينة، يقول: «فأخبرتهم أن موالي باعوني واستهلكت أموالهم فأتوا بي النبي صلى الله عليه وسلم.
فقال : « أنت سُرَّق » ، وباعني بأربعة أبعرة .
فقال للغرماء الذين اشتروني ما تصنعون به ، فقالوا : نعتقه .
قالوا : فلسنا بأزهد في الآخرة منك ، فأعتقوني بينهم وبقي اسمي .
رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي على شرط البخاري (٢ / ٥٤) .
ورواه الطبراني في قصة مطولة (٧ / ١٦٥ - ١٦٦) قال الهيثمي « فيه بمسلم بن خالد الزنجي ، وثقه ابن معين وابن حبان وضعفه جماعة » (٤ / ١٤٢) .
وراجع الإصابة (٤ / ١٣٠) و (١١ / ٢٣٩ ، ٢٤٥) .
و « سُرَّق » هذا ، ليس له في الكتب الستة إلا حديث واحد رواه ابن ماجه برقم (٢٣٧١) وهو « أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى بشاهد ويمين » قال البوصيري « إسناده ضعيف لجهالة تابعيه » . مصباح الزجاجة (٢ / ٢٣١) . =

وقيل : بل كان بيعه إياه : إيجاره لمن يستعمله ، وقضى دينه بأجرته ، وعلى هذا فليس بمنسوخ ، وهو إحدى الروايتين عن أحمد رحمه الله تعالى : أن المفلس إذا بقيت عليه ديون وله صنعة أجبر على إجارته نفسه ، أو أجَّره الحاكم ، ووفى دينه من أجرته .

وكان إلهام الله تعالى لإخوة يوسف عليه السلام قولهم : ﴿ **من وجد في رحله فهو جزاؤه** ﴾ كيداً من الله تعالى ليوسف عليه السلام ، أجراه على ألسن إخوته ، وذلك خارج عن قدرته ، وكان يمكنهم أن يتخلصوا من ذلك ، بأن يقولوا : لا جزاء عليه ، حتى يثبت أنه هو الذي سرق ، فإن مجرد وجوده في رحله لا يوجب أن يكون سارقاً .

وقد كان يوسف عليه السلام عادلاً لا يأخذهم بغير حجة ، وكان يمكنهم التخلص أيضاً بأن يقولوا : جزاؤه أن يُفعل به ما تفعلونه بالسراق في دينكم ، وقد كان من دين ملك مصر – فيما ذكر – أن السارق يضرب ويغرم قيمة المسروق مرتين ، فلو قالوا له ذلك ، لم يمكنه أن يُلزمهم بما لا يلزم به غيرهم ، فلذلك قال سبحانه: ﴿**كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك**﴾ ملك مصر، لأنه لم يكن في دينه طريق إلى أخذه، وقوله : ﴿ **إلا أن يشاء الله** ﴾ استثناء منقطع ، أي لكن إن شاء الله ، أخذه بطريق آخر ، ويجوز أن يكون متصلاً ، والمعنى : إلا أن يُهيىء الله سبباً آخر يؤخذ به في دين الملك غير السرقة .

وفي هذه القصة : تنبيه على الأخذ باللوث الظاهر في الحدود ، وإن لم تقم بينة ، و لم يحصل إقرار ، فإن وجود المسروق مع السارق أصدقُ من البينة ، فهو بَيِّنة لا تلحقها التهمة ، وقد اعتبرت شريعتنا ذلك في مواضع .

= ورواه الطبراني في الكبير (٧ / ١٦٦) .
وصححه الألباني بشاهد حديث ابن عباس عند مسلم وغيره ، كما في الإرواء (٨ / ٢٩٦ – ٣٠٥) .
وانظر المغني لابن قدامة (١٤ / ١٣١) . والله أعلم .

منها : اللوث في القسامة – والصحيح : أنها يقاد بها ، كما دل عليه النص الصحيح الصريح[١] .

ومنها : حد الصحابة رضي الله عنهم في الخمر بالرائحة والقيء .

ومنها : حد عمر رضي الله عنه في الزنا بالحبل ، وجعله قسيم الاعتراف بالشهادة – فوجود المسروق مع السارق إن لم يكن أظهر من هذا كله فليس دونه .

فلما فتشوا متاعه فوجدوا فيه الصواع ؛ كان ذلك قائماً مقام البينة والاعتراف فلهذا لم يمكنهم أن يتظلموا من أخذه ، ولو كان هذا ظلماً لقالوا : كيف يأخذه بغير بينة ولا إقرار ؟ والمقصود : أنه ليس في قصة يوسف عليه السلام شبهة ، فضلا عن الحجة لأرباب الحيل[٢] .

قوله تعالى : إخباراً عن إخوة يوسف أنهم قالوا لما وجدوا الصواع في رحل أخيهم : ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف : ٧٧] . فلم يجمعوا بين الأصل والفرع بعلة ولا دليلها ، وإنما ألحقوا أحدهما بالآخر من غير دليل جامع سوى مجرد الشبه الجامع بينه وبين يوسف ، فقالوا : هذا مقيس على أخيه بينهما شبه من وجوه عديدة ، وذاك قد سرق فكذلك هذا ، وهذا هو الجمع بالشبه الفارغ،والقياس بالصورة المجردة عن العلة المقتضية للتساوي ، وهو قياس فاسد والتساوي في قرابة الأخوة ليس بعلة للتساوي في السرقة لو كانت حقاً ، ولا دليل على التساوي فيها ، فيكون الجمع لنوع شبه خال عن العلة ودليلها[٣] .

قوله تعالى : ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف : ٩٢] معناه اللهم اغفر لهم[٤] .

---

(١) راجع « باب القسامة » في « المغني » لابن قدامة ، (١٢ / ١٨٨) ط هجر .

(٢) إغاثة اللهفان (٢ / ١٠٨ – ١١٩) .

(٣) إعلام الموقعين (١ / ١٩٨) .

(٤) الفوائد المشوق (٣٤) .

وأما استدلالكم[(١)] بقول يوسف لأبيه وإخوته : ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف : ٩٩] .فلا حجة فيه فإن الاستثناء إن عاد إلى الأمر المطلوب دوامه واستمراره فظاهر ، وإن عاد إلى الدخول المقيد به ، فمن أين لكم إنه قال لهم هذه المقالة حال الدخول أو بعده ، ولعله إنما قالها عند تلقيه لهم ويكون دخولهم عليه في منزل اللقاء فقال لهم حينئذ ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين فهذا محتمل ، وإن كان إنما قال لهم ذلك بعد دخولهم عليه في دار مملكته، فالمعنى : ادخلوها دخول استيطان واستقرار آمنين إن شاء الله[(٢)] .

قول الله تعالى عن يوسف نبيه أنه قال :

﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف : ١٠١]

جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد والاستسلام للرب ، وإظهار الافتقار إليه والبراءة من موالاة غيره سبحانه ، وكون الوفاة على الإسلام أجل غايات العبد وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد ، والاعتراف بالمعاد وطلب مرافقة السعداء[(٣)] .

قول الله تعالى : ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

قال الفراء وجماعة : ومن اتبعني معطوف على الضمير في أدعو يعني : ومن اتبعني يدعو إلى الله كما أدعو ، وهذا قول الكلبي : قال : حق على كل من اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه ، ويذكر بالقرآن والموعظة .

ويقوى هذا القول من وجوه كثيرة :

قال ابن الأنباري : ويجوز أن يتم الكلام عند قوله ﴿ إلى الله ﴾ ثم يبتدىء

---

(١) يعني « المانعين من الأخذ بالاستثناء » .

(٢) إعلام الموقعين (٤ / ٩٣) .

(٣) الفوائد (١٩٦) .

بقوله : ﴿ **على بصيرة أنا ومن اتبعني** ﴾ فيكون الكلام على قوله جملتين ، أخبر في أولاهما أنه يدعو إلى الله .

وفي الثانية : بأنه من أتباعه على بصيرة[1] .

والقولان متلازمان فلا يكون الرجل من أتباعه حقاً حتى يدعو إلى ما دعا إليه .

وقول الفراء أحسن وأقرب إلى الفصاحة والبلاغة .

وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقالات[2] العبد وأجلها وأفضلها فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه بل لابد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه السعي ويكفي هذا في شرف العلم أن صاحبه يحوز به هذا المقام ، والله يؤتي فضله من يشاء[2] .

وقال رحمه الله تعالى :

وسواء كان المعنى أنا ومن اتبعني على بصيرة وأنا أدعو إلى الله ، أو المعنى أدعو إلى الله على بصيرة كما كان متبوعه يفعل صلى الله عليه وسلم فهؤلاء خلفاء الرسل حقاً وورثتهم دون الناس ، وهم أولو العلم الذين قاموا بما جاء به علما وعملاً وهداية وإرشاداً وصبراً وجهاداً وهؤلاء هم الصديقون وهم أفضل أتباع الأنبياء ورأسهم وإمامهم الصديق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه[3] .

وقال رحمه الله تعالى :

وقيل « ومن اتبعني » عطف على المرفوع « بأدعو » أي أنا أدعو إلى الله على بصيرة ومن اتبعني كذلك يدعو إلى الله على بصيرة .

وعلى القولين . فالآية تدل أن أتباعه هم أهل البصائر الداعين إلى الله على

---

(١) هكذا في الأصل المطبوع ، وأظنها « بأنه من اتبعه على بصيرة » . والله أعلم .

(٢) مفتاح دار السعادة (١٦٧ - ١٦٨) .

(٣) مفتاح دار السعادة (٨٥) .

بصيرة . فمن ليس منهم فليس من أتباعه على الحقيقة والموافقة وإن كان من أتباعه على الانتساب والدعوى[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

والقولان متلازمان ، فإنه أمر سبحانه أن يخبر أن سبيله الدعوة إلى الله ، فمن دعا إلى الله تعالى فهو على سبيل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو على بصيرة ، وهو من أتباعه ، ومن دعا إلى غير ذلك فليس على سبيله ولا هو على بصيرة ولا هو من أتباعه[٢] .

وقال رحمه الله تعالى :

« فمن اتبعني إن كان عطفاً على الضمير في « أدعو إلى الله » فهو دليل أنَّ أتباعه هم الدعاة إلى الله .

وإن كان عطفاً على الضمير المنفصل ، فهو صريح أن أتباعه هم أهل البصيرة فيما جاء به دون من عداهم .

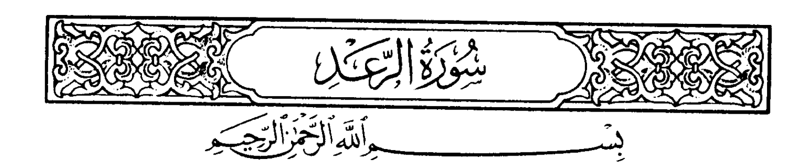
والتحقيق أن العطف يتضمن المعنيين فأتباعه هم أهل البصيرة الذين يدعون إلى الله »[٣] .

* * *

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٤٨٢) .
(٢) جلاء الأفهام (٢٤٩) .
(٣) الصواعق المرسلة (١ / ١٥٥) .

سُورَةُ الرَّعْدِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الرعد : ٥] .

وفي الآية قولان :

أحدهما : إن تعجب من قولهم ﴿ **أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد** ﴾ فعجب قولهم ! كيف ينكرون هذا . وقد خلقوا من تراب ، ولم يكونوا شيئاً .

والثاني : إن تعجب من شركهم مع الله غيره ، وعدم انقيادهم لتوحيده وعبادته وحده لا شريك له . فإنكارهم للبعث وقولهم ﴿ **أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد** ﴾ أعجب ، وعلى التقديرين : فإنكار المعاد عجب من الإنسان وهو محض إنكار الرب ، والكفر به، والجحد لإلهيته وقدرته ، وحكمته وعدله وسلطانه [1] .

قال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ [الرعد : ٨] .

قال ابن عباس : ما تغيض الأرحام : ما تنقص عن التسعة أشهر وما تزيد عليها ، ووافقه على هذا أصحابه كمجاهد وسعيد بن جبير،

وقال مجاهد أيضاً : إذا حاضت المرأة على ولدها ؛ كان ذلك نقصاناً من

---

(١) مدارج السالكين (١ / ١٢٦) .

الولد ، ﴿ **وما تزداد** ﴾ قال إذا زادت على تسعة أشهر كان ذلك تماماً لما نقص من ولدها ، وقال أيضاً الغيض : ما رأت الحامل من الدم في حملها ، وهو نقصان من الولد والزيادة ما زاد ، وعلى التسعة أشهر وهو تمام النقصان .

وقال الحسن : ما تغيض الأرحام ما كان من سقط ، وما تزداد المرأة تلد لعشرة أشهر .

وقال عكرمة تغيض الأرحام : الحيض بعد الحمل ، فكل يوم رأت فيه الدم حاملاً ازداد به في الأيام ظاهراً فما حاضت يوماً إلا ازدادت في الحمل يوماً .

وقال قتادة : الغيض : السقط وما تزداد فوق التسعة أشهر ، وقال : سعيد ابن جبير ، إذا رأت المرأة الدم على الحمل فهو الغيض للولد فهو نقصان في غذاء الولد وزيادة في الحمل . تغيض وتزداد فعلان متعديان مفعولهما محذوف وهو عائد على « ما » الموصولة ، والغيض : النقصان ، ومنه غيض الماء ، وضده :

والتحقيق : في معنى الآية أنه يعلم مدة الحمل ، وما يعرض فيها من الزيادة والنقصان : فهو العالم بذلك دونكم ، كما هو العالم بما تحمل كل أنثى هل هو ذكر أو أنثى ، وهذا أحد أنواع الغيب التي لا يعلمها إلا الله (تعالى) كما في الصحيح[1] عنه صلى الله عليه وسلم : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: لا يعلم متى يجيء الساعة إلا الله . ولا يعلم ما في غد إلا الله . ولا يعلم متى يجيء الغيث إلا الله. ولا يعلم ما في الأرحام إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله». فهو سبحانه المنفرد بعلم ما في الرحم ، وعلم وقت إقامته فيه ، وما يزيد من بدنه وما ينقص ، وما عدا هذا القول فهو من توابعه ولوازمه كالسقط والتام ورؤية الدم وانقطاعه[2] .

---

(١) رواه البخاري (٨ / ٣٧٣) في التفسير ، باب ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ .
(٢) تحفة الودود (٢٢٩ - ٢٣٠) .

قال تعالى : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾ [الرعد : ١١] .

يعقب بعضهم بعضاً كلما ذهب بدل ؛ جاء بدل آخر يثبتونه ويأمرونه بالخير ويحضونه عليه ، ويعدونه بكرامة الله ويصبرونه ويقولون : إنما هو صبر ساعة وقد استرحت راحة الأبد[1] .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴾ [الرعد : ١١] .

فدلالة لفظها أنه لا يغير نعمه التي أنعم بها على عباده حتى يغيروا طاعته بمعصيته[2] .

قول الله تعالى : ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ ﴾ [الرعد : ١٤] .

أنه تعالى صاحب دعوة الحق لذاته وصفاته ، وإن لم يوجب لداعيه بها ثواباً فإنه يستحقها لذاته ، فهو أهل أن يعبد وحده ، ويدعى وحده ، ويقصد ويشكر ويحمد ، ويحب ويرجى ويخاف ، ويتوكل عليه ، ويستعان به ، ويستجار به ، ويلجأ إليه ، فتكون الدعوة الإلهية الحق له وحده .

ومن قام بقلبه هذا – معرفة وذوقاً وحالاً – صح له مقام التبتل والتجريد المحض .

وقد فسر السلف[3] « دعوة الحق » ، بالتوحيد والإخلاص فيه ، والصدق ومرادهم : هذا المعنى .

فقال علي رضي الله عنه ، دعوة الحق : التوحيد .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما « شهادة أن لا إله إلا الله » وقيل : الدعاء

---

(١) الجواب الكافي (١٣٩) .

(٢) الكلام على مسألة السماع (٣٩٧) .

(٣) راجع تفسير الطبري (١٣ / ١٢٨) .

بالإخلاص ، والدعاء الخالص لا يكون إلا لله ، ودعوة الحق دعوة الإلهية وحقوقها وتجريدها وإخلاصها(١) .

قال تعالى : ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد : ١٦] .

فاحتج على تفرده بالإلهية بتفرده بالخلق ، وعلى بطلان إلهية ما سواه بعجزهم عن الخلق وعلى أنه واحد بأنه قهار ، والقهر التام يستلزم الوحدة فإن الشركة تنافي تمام القهر(٢) .

قد ذكر الله المثلين المائي والناري في سورة الرعد ، ولكن في حق المؤمنين فقال تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد : ١٧] .

شبه الوحي لحياة القلوب والأسماع والأبصار بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات ، وشبه القلوب بالأودية ، فقلب كبير يسع علماً عظيماً كواد كبير – يسع ماء كثيراً ، وقلب صغير إنما يسع بحسبه كالوادي الصغير ، فسالت أودية بقدرها ، واحتملت قلوب من الهدى والعلم بقدرها ، وكما أن السيل إذا خالط الأرض ومر عليها احتمل غثاء وزبداً فكذلك الهدى والعلم إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات والشبهات ، ليقلعها ويذهبها كما يثير الدواء وقت شربه

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٢٩ – ٣٠) .
(٢) الصواعق المرسلة (٢ / ٤٦٥ – ٤٦٦) .

من البدن أخلاطا فيتكدر بها شاربه ، وهي من تمام نفع الدواء فإنه أثارها ليذهب بها فإنه لا يجامعها ولا يشاركها ، وهكذا يضرب الله الحق والباطل .

ثم ذكر المثل الناري فقال : ﴿ **ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله** ﴾ وهو الخبث الذي يخرج عند سبك الذهب والفضة والنحاس والحديد ، فتخرجه النار وتميزه وتفصله عن الجوهر الذي ينتفع به ، فيرمى ويطرح ويذهب جفاء فكذلك الشهوات والشبهات يرميها قلب المؤمن ويطرحها ويجفوها كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد والغثاء والخبث ، ويستقر في قرار الوادي الماء الصافي الذي يستقي منه الناس ، ويزرعون ، ويسقون أنعامهم ، كذلك يستقر في قرار القلب وجذره الإيمان الخالص الصافي الذي ينفع صاحبه ، وينتفع به غيره ، ومن لم يفقه هذين المثلين ولم يدرهما ويعرف ما يراد منهما فليس من أهلها . والله الموفق[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

شبه سبحانه العلم الذي أنزله على رسوله بالماء الذي أنزله من السماء لما يحصل لكل واحدٍ منهما من الحياة ومصالح العباد في معاشهم ومعادهم ، ثم شبه القلوب بالأودية فقلب كبير يسع علما كثيراً كواد عظيم يسع ماءً كثيراً وقلب صغير إنما يسع علما قليلاً كواد صغير إنما يسع ماء قليلاً فقال : ﴿ **فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابيا** ﴾ هذا مثل ضربه الله تعالى للعلم حين تخالط القلوب بشاشته فإنه يستخرج منها زبد الشبهات الباطلة فيطفو على وجه القلب كما يستخرج السيل من الوادي زبداً يعلو فوق الماء وأخبر سبحانه أنه راب يطفو ويعلو على الماء لا يستقر في أرض الوادي كذلك الشبهات الباطلة إذا أخرجها العلم وربت فوق القلوب وطغت فلا يستقر فيه بل تجفى وترمى فيستقر في القلب ما ينفع صاحبه والناس من الهدى ودين الحق كما يستقر في الوادي الماء الصافي ويذهب الزبد جفاء ، وما يعقل عن الله أمثاله إلا العالمون . ثم ضرب سبحانه لذلك مثلاً آخر فقال : ﴿ **ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد**

(١) إعلام الموقعين (١ / ٢٠٢ – ٢٠٣) .

مثله ﴾ يعني أن مما يوقد عليه بنو آدم من الذهب والفضة والنحاس والحديد يخرج منه خبثه ؛ وهو الزبد الذي تلقيه النار ، وتخرجه من ذلك الجوهر بسبب مخالطتها فإنه يقذف ويلقى به، ويستقر الجوهر الخالص وحده، وضرب سبحانه مثلاً بالماء لما فيه الحياة والتبريد والمنفعة، ومثلاً بالنار لما فيها من الإضاءة والإشراق والإحراق، فآيات القرآن تحيي القلوب كما تحيا الأرض بالماء وتحرق خبثها وشبهاتها وشهواتها وسخائمها كما تحرق النار ما تلقي فيها ، وتميز جيدها من زبدها ، كما تميز النار الخبث من الذهب والفضة والنحاس ونحوه منه فهذا بعض ما في هذا المثل العظيم من العبر والعلم قال الله تعالى : (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) [العنكبوت : ٤٣][١] .

وقال رحمه الله تعالى :

فأخبر سبحانه أن الماء بمخالطته سبب الأرض إذا سال فلابد من أن يحمل السيل من الغثاء والوسخ وغيره زبداً عالياً على وجه السيل ، فالذي لا يعرف ما تحت الزبد يقصر نظره عليه ولا يرى إلا غثاء ووسخاً ونحو ذلك ولا يرى ما تحته من مادة الحياة ، وكذلك ما يستخرج من المعادن من الذهب والفضة والحديد والنحاس وغيرها إذا أوقد عليها في النار ليتهيأ الانتفاع بها خرج منها خبث ليس من جوهرها ولا ينتفع به، وهذا لابد منه في هذا، وهذا يجاوزه بصره[٢].

وقال رحمه الله :

المثلين المذكورين في سورة الرعد في قوله تعالى : ﴿ **أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً** ﴾ [الرعد : ١٧] .

فهذا هو المثل المائي شبه الوحي الذي أنزله بحياة القلوب بالماء الذي أنزله من السماء ، وشبه القلوب الحاملة له بالأودية الحاملة للسيل ، فقلب كبير يسع علماً عظيماً كواد كبير يسع ماء – كثيراً ، وقلب صغير يسع علماً قليلاً ، فحملت القلوب من هذا العلم بقدرها كما سالت الأودية بقدرها ، ولما كانت

---

(١) مفتاح دار السعادة (٦٦ – ٦٧) .

(٢) طريق الهجرتين (٩٨) .

الأودية ومجاري السيول فيها الغثاء ونحوه مما يمر عليه السيل فيحتمله السيل فيطفو على وجه الماء زبداً عالياً يمر عليه متراكباً ولكن تحته الماء الفرات الذي به حياة الأرض فيقذف الوادي ذلك الغثاء إلى جنبتيه حتى لا يبقى الماء الذي تحت الغثاء يسقي الله تعالى به الأرض ، فيحيي به البلاد والعباد والشجر والدواب ، والغثاء يذهب جفاء ويطرح على شفير الوادي فكذلك العلم والإيمان الذي أنزله في القلوب ، فاحتملته فأثار منها بسبب مخالطته لها ما فيها من غثاء الشهوات وزبد الشبهات الباطلة يطفو في أعلاها ، واستقر العلم والإيمان والهدى في جذر القلب فلا يزال ذلك الغثاء والزبد يذهب جفاء ، ويزول شيئاً فشيئاً حتى يزول كله ، ويبقى العلم النافع والإيمان الخالص في جذر القلب يرده الناس فيشربون ويسقون ويمرعون .

وفي الصحيح من حديث أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال[1] : « مثل ما بعثني الله تعالى به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها طائفة أجادب أمسكت الماء ، فسقى الناس وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه دين الله تعالى ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » فجعل النبي صلى الله عليه وسلم الناس بالنسبة إلى الهدى والعلم ثلاث طبقات :

الطبقة الأولى : ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهم الذين قاموا بالدين علماً وعملاً ودعوة إلى الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم فهؤلاء أتباع الرسل – صلوات الله عليهم وسلامه – حقاً، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التي زكت فقبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير فزكت في نفسها وزكا الناس بها ، وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة في الدين والقوة

(١) رواه البخاري (١ / ٢١١) في العلم ، باب : فضل من علمَ وعَلَّم .
ومسلم (٥ / ١٤٤) في الفضائل ، باب : مثل ما بعث به النبي صلى الله عليه وسلم .

على الدعوة ، ولذلك كانوا ورثة الأنبياء صلى الله عليهم وسلم الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ **واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار** ﴾ [ص : ٤٥] .

أي البصائر في دين الله عز وجل ، فبالبصائر يدرك الحق ، ويعرف ، وبالقوى يتمكن من تبليغه وتنفيذه والدعوة إليه .

فهذه الطبقة كان لها قوة الحفظ والفهم في الدين والبصر بالتأويل ؛ ففجرت من النصوص أنهار العلوم واستنبطت منها كنوزها ، ورزقت فيها فهماً خاصاً كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وقد سئل[1]: هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء دون الناس ، فقال : « لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه » فهذا الفهم هو بمنزلة الكلأ والعشب الكثير الذي أنبتته الأرض وهو الذي تميزت به هذه الطبقة عن :

الطبقة الثانية : فإنها حفظت النصوص وكان همها حفظها وضبطها ، فوردها الناس وتلقوها منهم ؛ فاستنبطوا منها واستخرجوا كنوزها ، واتجروا فيها ، وبذروها في أرض قابلة للزرع والنبات ووردها كل بحسبه : (قد علم كل أناس مشربهم) [البقرة : ٦٠] . وهؤلاء هم الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم[2] « نضر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها ثم أداها كما سمعها فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » . وهذا عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن مقدار ما سمع[3] من النبي صلى الله عليه وسلم لم يبلغ نحو

(١) رواه البخاري (١٢ / ٢٥٦) في الديات باب : العاقلة .

(٢) حديث صحيح .
رواه الإمام أحمد رضي الله عنه في مواضع منها (٤ / ٨٠) عن جبير بن مطعم ، رضي الله عنه .
وابن ماجه عنه (رقم ٣٠٥٦) (٢ / ١٠١٥) في المناسك باب : الخطبة يوم النحر .
والحاكم (١ / ٨٦) وصححه على شرطهما ، ووافقه الذهبي .
وأبو داود (١٠ / ٩٤) في العلم ، باب : فضل نشر العلم .
والترمذي (٥ / ٣٣) في العلم ، باب : ما جاء في الحث على تبليغ الحديث .
عن زيد بن ثابت رضي الله عنه ، ورواه غيرهم .

(٣) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي (٣ / ٣٣١) .

العشرين حديثاً الذي يقول فيه (سمعت ورأيت) وسمع الكثير من الصحابة وبورك في فهمه والاستنباط منه حتى ملأ الدنيا علماً وفقهاً . قال أبو محمد بن حزم : وجمعت فتاويه في سبعة أسفار كبار . وهي بحسب ما بلغ جامعها ، وإلا فعلم ابن عباس كالبحر وفقهه واستنباطه وفهمه في القرآن بالموضع الذي فاق به الناس وقد سمع كما سمعوا ، وحفظ القرآن كما حفظوا ، ولكن أرضه كانت من أطيب الأراضي وأقبلها للزرع ، فبذر فيها النصوص فأنبتت من كل زوج كريم ، (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) [الحديد : ٢١] . وأين تقع فتاوي ابن عباس وتفسيره واستنباطه من فتاوي أبي هريرة ، وتفسيره ، وأبو هريرة[١] أحفظ منه بل هو حافظ الأمة على الإطلاق يؤدي الحديث كما سمعه ويدرسه بالليل درساً فكانت همته مصروفه إلى الحفظ ، وبلغ ما حفظه كما سمعه ، وهمة ابن عباس مصروفة إلى التفقه والاستنباط ، وتفجير النصوص ، وشق الأنهار منها ، واستخراج كنوزها ، وهكذا الناس بعده قسمان :

قسم حفاظ : معتنون بالضبط والحفظ والأداء كما سمعوا ولا يستنبطون ولا يستخرجون كنوز ما حفظوه .

وقسم معتنون بالاستنباط واستخراج الأحكام من النصوص والتفقه فيها فالأول « كأبي زرعة » و « أبي حاتم » و « ابن دارة » وقبلهم « كبندار محمد ابن بشار » و « عمرو » الناقد و « عبد الرزاق » وقبلهم « كمحمد بن جعفر غندر » و « سعيد بن أبي عروبة »[٢] وغيرهم من أهل الحفظ والإتقان والضبط

---

(١) انظر سيرته الطاهرة ومناقبه العالية ، رضي الله عنه ، في سير أعلام النبلاء (٢ / ٥٧٨) .

(٢) لأخفي على عزيزي القارىء حيرتي هل أترجم لهؤلاء الأعلام شموس الهدى ، أو لا ؟ حقيقة ، تحيرت كثيراً وحزنت أكثر ! كيف أننا معشر المسلمين ، نبحث عن قدوة الآن في الشرق والغرب، لنجعلهم نبراسًا وهدى لشبابنا، فحل بالأمة ما يغني عن ذكره، وهو ما نشاهده مما يذاع وينشر حتى ما نلمسه في الطريق والعمل إلخ . وكافيك ما ينشر من حوادث وجرائم وهو غيض من فيض . **لأن هؤلاء الشموس الأعلام غابوا عن حياتنا العملية حتى الأخلاقية ... إلخ .** فلم نعد نهتدي ، وأصبح الضلال واقعاً . إذ كيف – بالله عليك – يهتدي **قوم**، ويرشد شباب ، وتستقيم امرأة، **وتستقر أسرة، وتصلح أمة، لا يعرفون مَنْ ابن عباس ؟، من أبو هريرة إلى آخر هؤلاء** =

لما سمعوه من غير استنباط وتصرف واستخراج الأحكام من ألفاظ النصوص .

والقسم الثاني : « كمالك » و « الشافعي » و « الأوزاعي » و « إسحق » و « الإمام أحمد بن حنبل » و « البخاري » و « أبي داود » و « محمد بن نصر المروزي » وأمثالهم ممن جمع الاستنباط والفقه إلى الرواية – فهاتان الطائفتان هما أسعد الخلق بما بعث الله تعالى به رسوله صلى الله عليه وسلم وهم الذين قبلوه ورفعوا به رأساً .

وأما الطائفة الثالثة : وهم أشقى الخلق الذين لم يقبلوا هدى الله ، ولم يرفعوا به رأساً – فلا حفظ ولا فهم ولا رواية ولا دراية ولا رعاية .

فالطبقة الأولى : أهل رواية ودراية .

والطبقة الثانية : أهل رواية ورعاية ولهم نصيب من الدراية ، بل حظهم من الرواية أوفر .

والطبقة الثالثة : الأشقياء لا رواية ولا دراية ولا رعاية : (إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً) [الفرقان : ٤٤] . فهم الذين يضيقون الديار ويغلون

= **النجوم رضي الله عنهم** . ونأسف إذا قلنا إنهم لا يعرفون من الخلفاء الراشدين إلا الأسماء ونحزن **إذا قلنا إنهم لا يكادون يعرفون من سيرة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم المبعوث رحمة للعالمين** إلا النزر اليسير الذي يحكى ويعاد فيما يحتفلون به في ذكرى مولده المبارك ! أو يوم هجرته المنير ، إلخ هذه الذكريات . فضلًا عن معرفة شيء عن أهل بيته رجالًا كانوا أو نساءً رضي الله عنهم أجمعين . قارن هذا بما يعرفه الشباب فضلا عن الرجال – والمثقفين خاصة – عن أهل الغفلة واللهو واللعب ، ثم قل: حسبنا الله ونعم الوكيل .

ولكن نقول أيضاً كما قال الفرزدق لجرير: ونرد بهذا القول على دعاة الضلال، وأهل الفجور نقول:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا ياجرير المجامع[١]

نعم أولئك الصحابة والتابعون والأئمة المهتدون آباؤنا ، فليأت بمثلهم من اتبع غيرهم ولكن ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ [البقرة : ٢٤] .

....

(١) من ديوان الفرزدق (٢ / ٧٢) طبعة دار الكتاب اللبناني .

الأسعار ، إن همة أحدهم إلا بطنه وفرجه فإن ترقت همته كان همه مع ذلك لباسه وزينته ، فإن ترقت همته فوق ذلك كان همه في الرياسة والانتصار للنفس الغضبية، فإن ارتفعت همته عن نصرة النفس : [الغضبية كان همه في نصرة النفس] الكلبية فلم يعطها، إلى نصرة النفس السبعية فلم يعطها أحد من هؤلاء(١)

فإن النفوس كلبية وسبعية وملكية .

فالكلبية تقنع بالعظم والكسرة والجيفة والقذرة .

والسبعية لا تقنع بذلك بل بقهر النفوس تريد الاستيلاء عليها بالحق والباطل ، وأما الملكية فقد ارتفعت عن ذلك ، وشمرت إلى الرفيق الأعلى فهمتها العلم والإيمان ومحبة الله تعالى والإنابة إليه وإيثار محبته ومرضاته ، وإنما تأخذ من الدنيا ما تأخذ لتستعين به على الوصول إلى فاطرها وربها ووليها لا لتنقطع به عنه .

ثم ضرب سبحانه وتعالى مثلاً ثانياً وهو المثل الناري فقال : ﴿ **ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله** ﴾ [الرعد : ١٧] .

وهذا كالحديد والنحاس والفضة والذهب وغيرها ، فإنها تدخل الكير تمحص وتخلص من الخبث فيخرج خبثها فيرمى به ، ويطرح، ويبقى خالصها فهو الذي ينفع الناس .

ولما ضرب الله سبحانه وتعالى هذين المثلين ذكر حكم من استجاب له ورفع بهداه رأساً ، وحكم من لم يستجب له ، ولم يرفع بهداه رأساً فقال : ﴿ لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾ [الرعد: ١٨]. والمقصود أن الله تعالى جعل الحياة حيث النور، والموت حيث الظلمة، فحياة الوجودين الروحي والجسمي بالنور وهو مادة الحياة، كما

(١) أشار محققا النسختين اللتين بين يديّ إلى أن النص هنا به تحريف في النسخة المطبوع عليها الكتاب . وأنت كما ترى هذا الالتباس وصعوبة تقويم العبارة .

أنه مادة الإضاءة ، فلا حياة بدونه كما لا إضاءة بدونه، وكما به حياة القلب فبه انفساحه وانشراحه وسعته، كما في الترمذي[1] عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح » قالوا : وما علامة ذلك قال : « الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله » .

ونور العبد هو الذي يصعد عمله وكلمه إلى الله تعالى ، فإن الله تعالى لا يصعد إليه من الكلم إلا الطيب ، وهو نور ومصدر عن النور ، ولا من العمل إلا الصالح ، ولا من الأرواح إلا الطيبة ، وهي أرواح المؤمنين التي استنارت بالنور الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم والملائكة الذين خلقوا من نور ، كما في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبي صلى الله عليه وسلم[2] ، قال: « خلقت الملائكة من نور، وخلقت الشياطين من نار، وخلق آدم مما وصف

---

(١) هو « الحكيم الترمذي » صاحب « نوادر الأصول » وهو عنده عن ابن عمر ، دون سند (١٢٥ - ١٢٦) والحديث ضعيف .
رواه ابن جرير (١٢ / ٩٨) وأشار الشيخ محمود شاكر لضعفه بأرقام (١٣٨٥٢ - ١٣٨٥٤) ورقم (١٣٨٥٦) ، وبين أن مدار الخبر على « أبي جعفر » وهو « عبد الله بن المسور » ضعيف كذاب .
انظر ميزان الاعتدال (٢ / ٥٠٤) .
ورواه ابن المبارك في الزهد (١٠٦ - ١٠٧) .
وأبو نعيم في أخبار أصبهان (١ / ٣٠٥) .
والبغوى في تفسيره دون سند (٢ / ١٨٠) .
وأشار السيوطي في الدر إلى أنه رواه « .. عبد الرزاق والفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي جعفر ... » (٤ / ٣٥٤) وفيه بيان من رواه غيرهم .
وقال الحافظ ابن كثير بعد ذكر لبعض روايات الحديث « .. وهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضاً . والله أعلم » تفسير ابن كثير (٢ / ١٨٩) عند تفسيره الآية رقم (١٢٥) من سورة الأنعام ، خطأ ذلك الشيخ محمود شاكر حفظه الله ، لحال « أبي جعفر الهاشمي الكذاب » (١٢ / ٩٩) وانظر لزاماً (صـ ٣٤) من رسالة « القسطاس » في تصحيح حديث الأكياس . لأخي الشيخ « محمد عمرو » حفظه الله تعالى .

(٢) رواه مسلم (٥ / ٨٤٢) في الزهد ، باب : في أحاديث متفرقة .

لكم » . فلما كانت مادة الملائكة من نور كانوا هم الذين يعرجون إلى ربهم تبارك وتعالى ، وكذلك أرواح المؤمنين هي التي تعرج إلى ربها وقت قبض الملائكة لها، فيفتح لها باب السماء الدنيا ، ثم الثانية ، ثم الثالثة ، ثم الرابعة ، إلى أن ينتهى بها إلى السماء السابعة ، فتوقف بين يدي الله عز وجل ، ثم يأمر أن يكتب كتابه في أهل عليين ، فلما كانت هذه الروح روحاً زاكية طيبة نيرة مشرقة صعدت إلى الله عز وجل مع الملائكة وأما الروح المظلمة الخبيثة الكدرة فإنها لا تفتح لها أبواب السماء ولا تصعد إلى الله تعالى بل ترد من السماء الدنيا إلى عالمها ومحتدبة لأنها أرضية سفلية ، والأولى علوية سمائية ، فرجعت كل روح إلى عنصرها وما هي منه ، وهذا منه مبين في حديث[1] البراء بن عازب الطويل الذي رواه الإمام أحمد وأبو عوانة الإسفرائيني في صحيحه ، والحاكم وغيرهم وهو حديث صحيح[2] .

قال تعالى : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾ [الرعد : ١٩] .

وهذه شهادة من الله على عمى هؤلاء وهي موافقة لشهادتهم على أنفسهم بالحيرة والشك ، وشهادة المؤمنين عليهم[3] .

وذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة[4] في قوله : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ * وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ * وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ

---

(١) حديث صحيح .
رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٤ / ٢٨٧) .
رواه أبو داود (١٣ / ٨٨) في السنة ، باب : المسألة في القبر وعذاب القبر .
والحاكم (١ / ٣٧) وصححه على شرط الشيخين .
(٢) الوابل الصيب (٨٢ - ٨٧) .
(٣) الصواعق المرسلة (٣ / ٨٥١) .
(٤) وهي « المأمور والمحظور والمقدور بالخلق والأمر » .

رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد : ١٩-٢٢] .

فجمع لهم مقامات الإسلام والإيمان في هذه الأوصاف فوصفهم بالوفاء بعهده الذي عاهدهم عليه ، وذلك يعم أمره ونهيه الذي عهده إليهم بينهم وبينه ، وبينهم وبين خلقه .

ثم أخبر عن استمرارهم بالوفاء به بأنهم لا يقع منهم نقضه، ثم وصفهم بأنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل .

ويدخل في هذا ظاهر الدين وباطنه وحق الله وحق خلقه ، فيصلون ما بينهم وبين ربهم بعبوديته وحده لا شريك له ، والقيام بطاعته ، والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، وحبه ، وخوفه ، ورجائه والتوبة إليه ، والاستكانة له ، والخضوع والذلة له ، والاعتراف له بنعمته وشكره عليها ، والإقرار بالخطيئة والاستغفار منها فهذه هي الوصلة بين الرب والعبد ، وقد أمر الله بهذه الأسباب التي بينه وبين عبده أن توصل ، وأمر أن نوصل ما بيننا وبين رسوله - صلى الله عليه وسلم - بالإيمان به وتصديقه وتحكيمه في كل شيء ، والرضا لحكمه والتسليم له ، وتقديم محبته على محبة النفس والولد والوالد والناس أجمعين ، صلوات الله وسلامه عليه ، فدخل في ذلك القيام بحقه وحق رسوله .

وأمر أن نصل ما بيننا وبين الوالدين ، والأقربين ، بالبر والصلة ، فإنه أمر ببر الوالدين وصلة الأرحام ، ذلك مما أمر به أن يوصل ، وأمر أن نصل ما بيننا وبين الزوجات بالقيام بحقوقهن ومعاشرتهن بالمعروف ، وأمر أن نصل ما بيننا وبين الأرقاء بأن نطعمهم مما نأكل ونكسوهم مما نكتسي ولا نكلفهم فوق طاقاتهم .

وأن نصل ما بيننا وبين الجار القريب والبعيد بمراعاة حقه ، وحفظه في نفسه وماله وأهله ، بما نحفظ به نفوسنا وأهلينا وأموالنا .

وأن نصل ما بيننا وبين الرفيق في السفر والحضر .

وأن نصل ما بيننا وبين عموم الناس بأن نأتي إليهم بما نحب أن يأتوه إلينا، وأن نصل ما بيننا وبين الحفظة الكرام الكاتبين بأن نكرمهم ، ونستحي منهم ، كما يستحي الرجل من جليسه ومن هو معه ممن يجله ويكرمه .

فهذا كله مما أمر الله به أن يوصل .

ثم وصفهم بالحامل لهم على هذه الصلة ، وهو خشيته وخوف سوء الحساب يوم المآب ، ولا يمكن لأحد قط أن يصل ما أمر الله بوصله إلا بخشيته ومتى ترحلت الخشية من القلب ؛ انقطعت هذه الوصلة .

ثم جمع لهم سبحانه ذلك كله في أصل واحد هو أخيّة ذلك وقاعدته ومداره الذي يدور عليه وهو الصبر فقال : ﴿ **والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم** ﴾ فلم يكتف منهم بمجرد الصبر حتى يكون خالصاً لوجهه .

ثم ذكر لهم ما يعينهم على الصبر ، وهي الصلاة ، فقال : ﴿ **وأقاموا الصلاة** ﴾ ، وهذان هما العونان على مصالح الدنيا والآخرة وهما الصبر والصلاة، فقال تعالى : (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) [البقرة : ٤٥] . وقال : (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين) [البقرة : ١٥٣] .

ثم ذكر سبحانه إحسانهم إلى غيرهم بالإنفاق عليهم سراً وعلانية فأحسنوا إلى أنفسهم بالصبر والصلاة ، وإلى غيرهم بالإنفاق عليهم .

ثم ذكر حالهم إذا جهل عليهم ، وأوذوا أنهم لا يقابلون ذلك بمثله بل يدرؤون بالحسنة السيئة ؛ فيحسنون إلى من يسيء إليهم فقال : ﴿ **ويدرؤون بالحسنة السيئة** ﴾ وقد فُسر هذا الدرء بأنهم يدفعون بالذنب الحسنة بعده . كما قال تعالى : (إن الحسنات يذهبن السيئات) [هود : ١١٤] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم[1] : « أتبع السيئة الحسنة تمحها »

---

(١) حديث حسن .
رواه الإمام أحمد رضي الله عنه في مواضع منها (٥ / ١٥٣ و ٢٢٨) .

والتحقيق أن الآية تعم النوعين .

والمقصود أن هذه الآيات تناولت مقامات الإسلام والإيمان كلها اشتملت على فعل المأمور ، وترك المحظور ، والصبر على المقدور. وقد ذكر تعالى هذه الأصول الثلاثة في قوله : (بلى إن تصبروا وتتقوا) [آل عمران : ١٢٥] . وقوله : (إنه من يتق ويصبر) [يوسف : ٩٠] .

وقوله : (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) [آل عمران : ٢٠٠] . فكل موضع قرن فيه التقوى بالصبر ، اشتمل على الأمور الثلاثة . فإن حقيقة التقوى فعل المأمور ، وترك المحظور[(١)] .

قال الله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد : ٢٨] .

« الطمأنينة » سكون القلب إلى الشيء ، وعدم اضطرابه وقلقه ، ومنه

= ورواه الترمذي عن أبي ذر رضي الله عنه (٤ / ٣١٢- ٣١٣) في البر والصلة باب : ما جاء في معاشرة الناس . وقال : « حسن صحيح » .
ورواه عن « معاذ بن جبل رضي الله عنه » وقال : و « الصحيح حديث أبي ذر » .
وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (صـ ١٤٧) « وقد حسن الترمذي هذا الحديث وما وقع في بعض النسخ من تصحيحه فبعيد » اهـ .
ورواه الدارمي عن أبي ذر رضي الله عنه (٢ / ٢٣١) في الرقاق ، باب : في حسن الخلق .
والحاكم (١ / ٥٤) عن أبي ذر رضي الله عنه ، وقال « صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه » ووافقه الذهبي .
قلت : وهذا وهم ، كما قال الحافظ ابن رجب ، لأن ميمون بن أبي شبيب ، لم يخرج له البخاري في صحيحه شيئاً ، وإنما أخرج له في الأدب المفرد . ولا أخرج له مسلم إلا في مقدمة كتابه عن المغيرة ابن شعبة ، هذه واحدة، والثانية : أن ميمون بن شبيب لم يصح سماعه من أحد من الصحابة .. » .
راجع جامع العلوم والحكم (صـ ١٤٧) الحديث الثامن عشر .
وتهذيب التهذيب (١٠ / ٣٨٩) .

(١) عدة الصابرين (٢٩ - ٣١) .

الأثر المعروف « الصدق طمأنينة والكذب ريبة»[1] أي الصدق يطمئن إليه قلب السامع ، ويجد عنده سكوناً إليه ، والكذب يوجب له اضطراباً وارتياباً ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « البر ما اطمأن إليه القلب »[2] . أي سكن إليه وزال عنه اضطرابه وقلقه .

وفي « ذكر الله » ها هنا قولان :

أحدهما : أنه ذكر العبد ربه ، فإنه يطمئن إليه قلبه ويسكن ، فإذا اضطرب القلب وقلق ، فليس له ما يطمئن به سوى ذكر الله ، ثم اختلف أصحاب هذا القول فيه :

فمنهم من قال : هذا في الحلف واليمين ، وإذا حلف المؤمن على شيء سكنت قلوب المؤمنين إليه ، واطمأنت ، ويروى هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما .

---

(١) جزء من حديث صحيح عن الحسن بن علي رضي الله عنهما وأوله « دَعْ ما يَرِيبُك إلى ما لا يريبُك فإن الصدق طمأنينة ... » إلخ .
رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٣ / ١٦٩) بتحقيق أحمد شاكر .
وأبو داود الطيالسي رقم (١١٧٨) .
والترمذي (٤ / ٥٧٦) وقال « حسن صحيح » .
والحاكم (٢ / ١٣) وصححه ووافقه الذهبي و (٤ / ٩٩) وقال الذهبي « سنده قوى » ورواه غيرهم .
وانظر جامع العلوم والحكم حديث رقم (١١) (صـ ١٠١) .
ومفصل تخريجه في الإرواء (١ / ٤٤) رقم (١٢) و (٧ / ١٥٥) رقم (٢٠٧٤) .

(٢) صحيح ، من حديث « أبي ثعلبة الخشني » رضي الله عنه ، قال : قلت : يارسول الله أخبرني بما يحل وما يحرم عليَّ ، فصعد في البصر وصوبه وقال : « البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ... » الحديث .
رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٤ / ١٩٤) .
والطبراني في الكبير (٢٢ / ٢١٩) .
وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١ / ١٧٥) : « وفي الصحيح طرف من أوله ورجاله ثقات » .
وصححه الألباني (رقم ٢٨٧٨) صحيح الجامع .

ومنهم من قال : بل هو ذكر العبد ربه بينه وبينه ، يسكن إليه قلبه ويطمئن .

والقول الثاني : أن ذكر الله ههنا القرآن ، وهو ذكره الذي أنزله على رسوله ، به طمأنينة قلوب المؤمنين .

فإن القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين ،ولاسبيل إلى حصول الإيمان واليقين إلا من القرآن ، فإن سكون القلب وطمأنينته من يقينه ، واضطرابه به وقلقه من شكه ، والقرآن هو المحصل لليقين ، الدافع للشكوك والظنون والأوهام ، فلا تطمئن قلوب المؤمنين إلا به ، وهذا القول هو المختار .

وكذلك القولان أيضاً في قوله تعالى : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ [الزخرف : ٣٦] .

والصحيح أن ذكره الذي أنزله على رسوله – وهو كتابه – من أعرض عنه قيض له شيطاناً يُضله ويصده عن السبيل ، وهو يحسب أنه على هدى . وكذلك القولان أيضاً في قوله تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ [طه : ١٢٤] . والصحيح أن ذكره الذي أنزله على رسوله – وهو كتابه – ولهذا يقول المعرض عنه : ﴿ رب لما حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ [طه : ١٢٥-١٢٦] . وأما تأويل من تأوله على الحلف : ففي غاية البعد عن المقصود ، فإن ذكر الله بالحلف يجري على لسان الصادق والكاذب ، والبر والفاجر . والمؤمنون تطمئن قلوبهم إلى الصادق ولو لم يحلف ، ولا تطمئن قلوبهم إلى من يرتابون فيه ولو حلف .

وجعل الله سبحانه الطمأنينة في قلوب المؤمنين ونفوسهم ، وجعل الغبطة والمدحة والبشارة بدخول الجنة لأهل الطمأنينة ، فطوبى لهم وحسن مآب[١] .

* * *

(١) مدارج السالكين (٢ / ٥١٢ – ٥١٣) .

الفهـــرس

□ الفهرس الموضوعي للمجلد الثاني □

سورة المائدة

سورة الأنعام

سورة الأعراف

سورة الأنفال

سورة التوبة

سورة هود

سورة يوسف

سورة الرعد

* * *